الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de L'enseignement supérieur et de La Recherche Scientifique



جامعة سيدي بلعباس
Université de-Sidi- bel -Abbes

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
Faculté des Sciences Humaines et Sociales

الاتجاهات المذهبية ودورها في التطور الثقافي في المغرب الأوسط من القرن 3هـ إلى القرن 6هـ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي

إعداد الطالب:
سايح دين

تحت إشراف:
أد. بلعربي خالد

أعضاء لجنة المناقشة:

أد. محمد مجاود	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
أد. بلعربي خالد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا و مقررا
د. تيزي ميلود	أستاذ محاضر -أ-	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أد. مقنونيف شعيب	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مناقشا
أد. محمد بوركبة	أستاذ التعليم العلي	جامعة وهران 1	مناقشا
د. بلبشير عمر	أستاذ محاضر -أ-	جامعة معسكر	مناقشا

السنة الجامعية:1437-1438 هـ /2015-2016م


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر و عرفان

أتقدم بشكري الجزيل وعرفاني الجميل لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور بلعربي خالد، على سديد توجيهاته ورحابة صدره، وسعة أفقه التي دوما أجدها تحفزني لبذل المزيد من الجهد، والصبر لمواجهة مصاعب البحث، فجزاه الله كل خير وحفظه الله ورعاه .

كما أقدم شكري وامتناني إلى كل أصدقائي الذين ساندوني وقدموا لي يد العون والمساعدة لتسهيل إنجاز هذا العمل المتواضع .

ويبقى عظيم الشكر والثناء لله سبحانه وتعالى الذي وفقني لإنجاز هذا العمل المتواضع، وأسأله عزّ وجلّ سداد الرأي وحسن الخاتمة .

إهداء

أهدي ثمرة جهدي الفكري المتواضع إلى روح والدي رحمه الله.

وأهديه إلى أمي وجدتي حفظهما الله وكل أفراد أسرتي الذين

تحملوا انشغالي عنهم.

وأهدي ثمرة جهدي إلى زوجتي العزيزة التي تحملت عني

الكثير من المتاعب من أجل إنجاز هذه الرسالة.

كما أهدي هذه الثمرة إلى كل شغوف بحب العلم المعرفة.

مقدمة

مقدمة

مثّل ظهور الإسلام ثورة فكرية عميقة استهدفت تغيير المفاهيم العقدية والسلوكية للإنسان الذي يدخل في دائرة الإسلام، وربط الإسلام منذ البداية بشكل وثيق بين المعتقد الفكري والسلوك الإنساني حتى غدا الإسلام ظاهرة ثقافية، توجه الفكر كما توجه السلوك.

وموضوع دراستنا التي نعتزم القيام بها والموسومة بعنوان:"الاتجاهات المذهبية ودورها في التطور الثقافي في المغرب الأوسط من القرن الثالث الهجري إلى السادس هجري" يندرج ضمن هذا الإطار، حيث يتناول بالدراسة والتحليل جانبا مهما من الحياة الثقافية في الإسلام، في إطار جغرافي محدد ألا وهو المغرب الأوسط الذي لا يمكن فصل التطورات التي جرت فيه عن إطار محيطها الإسلامي سواء في المشرق أو المغرب.

قد تبدو الفترة الزمنية المخصصة لهذا البحث طويلة، لكن طبيعة الموضوع التي تستهدف البحث عن مساهمة الاتجاهات المذهبية المختلفة من إباضية، شيعة وسنة في تطور الحياة الثقافية في المغرب الأوسط، اقتضت توسيع الإطار الزمني لهذه الدراسة حتى نتمكن من الاطلاع على مختلف التجارب المذهبية ومساهماتها الفكرية، ذلك أن هذه الفترة الممتدة من بداية القرن الثالث الهجري حتى نهاية السادس، هي الفترة الأساسية التي هيمنت فيها النزعة المذهبية على الحياة الثقافية بشكل واضح خاصة في بلاد المغرب الإسلامي.

وقد شدّ موضوع الحركة المذهبية انتباهي منذ مرحلة إعداد مذكرة الماجستير، التي تناولت فيها دراسة حركة التعليم في المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري(9م)، وفي مرحلة اعداد رسالة الماجستير، أدركت أهمية الدور الذي لعبته المذاهب والفرق الإسلامية في تطور الحياة الفكرية في الغرب الإسلامي بصفة عامة، وفي المغرب الأوسط بصفة خاصة.

ومن الأسباب التي حفزتني على اختيار الموضوع وخوض غمار البحث فيه، عدم وجود دراسات أو أبحاث جامعية ـ حسب ما توفر لدي ـ تناولت موضوع الحركة المذهبية بأبعاده الثلاثية في المغرب الأوسط، والتي تشمل الإباضية،التشيع والسنة.

لكن هذا لا ينفي وجود بعض الدراسات في الموضوع، منها دراسة المستشرق آلفرد بل بعنوان "الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي"، ودراسة التليسي بشير رمضان الموسومة بعنوان "الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي" خلال القرن الرابع الهجري(10م)، ودراسة نجم الدين الهنتاتي الموسومة بعنوان، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، وكتاب " الصراع المذهبي

بإفريقية "لعبد العزيز المجدوب، إلى جانب عدد معتبر من الرسائل الجامعية، سواء في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه، لكن أبرز ما يميز هذه الدراسات أنها تناول موضوع الحركة المذهبية، في إطار المغرب الإسلامي وأحيانا الغرب الإسلامي، وكثيرا ما تناولت الموضوع من خلال دراسة اتجاه مذهبي واحد وكأنه منفصل عن الآخر، إننا لا نقلل من أهمية هذه الدراسات التي أفادت البحث كثيرا، ولكننا نأمل من خلال هذه الدراسة المتواضعة، في بلورة رؤية شاملة للموضوع، تسمح لنا بمعالجة وفهم الظاهرة المذهبية في إطار ثقافي أوسع، يتجاوز الحدود المذهبية الضيقة.

وموضوع دراستنا لا يتعرض لنشأة المذاهب وانتشارها إلاّ بالقدر الذي يسمح بالتعريف بها، كما أنه لا يتناول الجانب السياسي، إلاّ كمدخل لفهم الإطار العام لتطور المجتمع والأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة في فترة الدراسة، وإنما تهدف الدراسة إلى إبراز الأسس الفكرية لهذه الاتجاهات والتحولات التي طرأت عليها، والإضافات الفكرية التي قدمتها للمغرب الأوسط في فترة الدراسة، هذه الإضافات التي أسهمت بشكل فعّال في تطور الحياة الثقافية.

كما تهدف الدراسة إلى إبراز نتائج التنافس والصراع الفكري بين الاتجاهات المذهبية وانعكاس ذلك على التطور الثقافي وحتى الاجتماعي لبلاد المغرب الأوسط مابين القرنين الثالث والسادس الهجريين.

أما الإشكالية التي يعالجها الموضوع فتتمحور حول المنطلقات الفكرية والظروف السياسية والاجتماعية التي ولدت في إطارها الحركة المذهبية بمختلف اتجاهاتها، الخارجية، الشيعية والسنية، كما تتناول ظروف انتقال هذه الاتجاهات المذهبية من المشرق الإسلامي إلى بلاد المغرب، وانتشارها ببلاد المغرب الأوسط، وأخيرا تتناول الإشكالية الميراث الفكري الذي خلفته الحركة المذهبية، ومساهمتها في تطوير الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في هذه المرحلة الهامة والمؤثرة في تاريخنا.

وقمنا بطرح هذه الإشكالية وفق التساؤلات التالية:

_ كيف نشأت الظاهرة المذهبية في تاريخ المجتمع والثقافة الإسلامية في المشرق الإسلامي ؟

_ ما هي المبادئ السياسية والعقدية التي بُني على أساسها النظام الفكري للحركة المذهبية بمختلف اتجاهاتها ؟

_ كيف وصلت وانتشرت تأثيرات النزعة المذهبية إلى بلاد المغرب الأوسط، وما تأثير ذلك على تطوره السياسي والاجتماعي في فترة الدراسة؟

_ ما مدى مساهمة الاتجاهات المذهبية المختلفة في إثراء، وتطوير الحياة الفكرية، والثقافية في المغرب الأوسط؟ وهل عبّر الموروث الفكري للحركة المذهبية بصدق عن جوهر الثقافة الإسلامية، القائم على أساس التسامح الفكري، والانسجام الاجتماعي ؟

تلك هي أهم التساؤلات التي تطرحها إشكالية البحث، وتحاول الدراسة الإجابة عنها مسترشدة بما توفر لدينا من كتب التراث الإسلامي الثري، منها كتب التاريخ والجغرافيا، وكتب الطبقات والتراجم والسير، وكذا كتب الفقه وعلم الكلام، وغيرها من المعارف المتنوعة التي تعكس جانبا من الثقافة الإسلامية وتخدم الموضوع.

ولقد اعتمدنا في إنجاز هذه الدراسة على المنهج التاريخي واملت علينا طبيعة الموضوع التاريخية الثقافية الأخذ بعدة آليات منهجية اضافية كالوصف والتحليل، والاستنتاج لمعالجة القضايا المتنوعة والمتشعبة المطروحة للنقاش، ولتحقيق ذلك عمدنا إلى جمع ما أمكن من المصادر والوثائق التاريخية والفكرية، ثم استخلاص ما فيها من معطيات تاريخية وفكرية تخدم الموضوع، ثم بدأنا مرحلة إعادة ترتيبها، تنظيمها وتركيبها، وفق ما يخدم موضوع الدراسة، لنخلص في النهاية إلى جملة من الاستنتاجات نعتقد أنها لا زالت في مراحلها الأولى، وتحتاج إلى المزيد من البحث المنهجي المعمق.

وتحاول الدراسة مناقشة وتحليل وتفسير القضايا المطروحة، بروح علمية تنشد الموضوعية في الطرح والمعالجة، بقدر ما تسمح به المادة العلمية المتوفرة، التى يبدوا أن النزعة المذهبية الضيقة قد جردتها في غالب الأحيان من الروح العلمية الموضوعية، ولا شك أن موروثا ثقافيا مثل هذا يجعل مهمة الباحث عن الموضوعية عسيرة لكنها نسبيا ممكنة.

ولمعالجة هذا الموضوع، رسمت خطة تشتمل على فصل تمهيدي، وأربعة فصول أساسية، فأما الفصل التمهيدي، فيتناول الواقع السياسي للمغرب الأوسط، في الفترة الممتدة من القرن الثالث حتى السادس الهجري(9-12م)، وهو عبارة عن عرض موجز لأهم التطورات والأحداث السياسية التي عرفها المغرب الأوسط في هذه المرحلة، ويسمح هذا العرض بوضع الأحداث والتطورات الفكرية، والاجتماعية في سياقها التاريخي، وربطها بإطارها الحقيقي كلما اقتضت الضرورة.

أما الفصول الثلاثة التي خصصتها لدراسة الاتجاهات المذهبية، من إباضية وشيعة وسنة، سرت فيها على منهج موحد، بهدف وضع تجاربها تحت نفس المعايير المنهجية، وتتبع تطوراتها وإضافاتها الفكرية بنفس الخطوات، ثم تقييم دورها ومساهمتها في الحياة الثقافية في المغرب الأوسط بآلية موحدة.

وقد سمح لنا هذا المنهج بتكوين رؤية ذات طابع شمولي، قابلة لنسج العديد من صور المقارنة بين المبادئ والتجارب، وحتى الموروث الفكري لهذه التجارب، ولكننا رغم ذلك، لم نعمد الى عقد الكثير من هذه المقارنات، لأنها تجرنا الى إشكاليات متعددة، تبعدنا عن صلب الموضوع، وتزيد من تشعبه، وصعوبة معالجته، وهذا ما لا تسمح به ظروف هذه الدراسة.

أما الخطوات المنهجية التي سرت عليها في معالجة هذه الفصول الثلاث، فتتمثل في عنصر أول في كل فصل، يتناول الجذور التاريخية والأصول الفكرية لكل اتجاه مذهبي وهذا العنصر يبحث في نشأة كل اتجاه مذهبي من البدايات الأولى، ويرصد كل مظاهر التحول والتطور الفكري في هذه الاتجاهات حتى وصولها الى بلاد المغرب الاسلامي، خاصة الأوسط منه، حيث تبدأ تجربتها التاريخية مستندة في ذلك إلى ميراث تجربتها في المشرق الاسلامي.

أما الأصول الفكرية، فهي المبادئ النظرية الأساسية التي قام عليها كل اتجاه، وفي نفس الوقت يسعى إلى تحقيقها في إطار تجربته التاريخية، وهذه الأصول أو المبادئ، يمكن تصنيفها في مجالين أساسيين هما المجال السياسي، والمجال العقدي، وهذه سمة مشتركة، خاصة بين الخوارج وتمثلهم الإباضية في المغرب الأوسط، والشيعة وتمثلهم فرقتي الزيدية والإسماعيلية، أما السنة، فبالرغم من اشتراكهم مع التيارات السابقة في البعد السياسي والعقدي، إلا أن أهم أصل يقوم عليه هذا التيار، هو الأصل الفقهي التشريعي.

أما العنصر الثاني من كل اتجاه، فيتناول عرض التجربة التاريخية السياسية لكل اتجاه، حاول فيها كل طرف من هذه الأطراف المذهبية، بناء الدولة وفق تجربته التاريخية السابقة ، ومفاهيمه النظرية، وفي هذه المرحلة واجه كل طرف من هذه الأطراف المذهبية المتنافسة، الواقع السياسي والاجتماعي، مما أملى عليه الكثير من المراجعات الفكرية تحت تأثير ضغط الواقع، هذه المراجعات التي قد تصطدم أحيانا مع أصوله النظرية.

في حين يتناول العنصر الثالث من كل اتجاه مذهبي، الميراث الفكري الذي خلفه لنا في بلاد المغرب بصفة عامة، والأوسط بصفة خاصة، هذا الموروث الذي يتمثل في المساهمة بفاعلية في انتشار التعليم، وتحسين المستوى الثقافي لأبناء المغرب الأوسط، إلى جانب ظهور فئة الفقهاء والعلماء والكتّاب، كما أدى هذا النشاط إلى تنوع العلوم والمعارف، فكان هذا الجانب أكثر حيوية وأهمية في تاريخ الحركة المذهبية، وعاملا أساسيا في تطوير الحياة الثقافية، كما يعكس جانبا من ثراء وتنوع الفكر الاسلامي، دون أن ننفي تأزّمه.

أما الفصل الرابع والأخير من هذه الدراسة، فهو عبارة عن محاولة فكرية لقراءة تركيبية للمشهد الثقافي في ظل هيمنة النزعات المذهبية، هذه القراءة نعتقد أنها لازالت في المهد، وقابلة

للإثراء، وفي حاجة ماسة الى المزيد من العمق، وقد لا تكون هذه القراءة من مهمة المؤرخ بالدرجة الأولى، لكن هذا لا يمنع من المحاولة، علما أن طبيعة الموضوع ومراحله، هي التي جرّت الباحث إلى هذه الخطوة.

وتتمثل هذه المرحلة الاخيرة من البحث، في عرض فكري تحليلي، يبرز مساهمة الاتجاهات المذهبية في تطور الحياة الفكرية، سواء في المجال السياسي أو العقدي، وحتى التشريعي.

أما الخاتمة فقد أوجزت فيها، النتائج المتوصل إليها من هذا البحث المتواضع، هذه النتائج التي أحسبها مفيدة، لكنها دائما تظل في حاجة للمزيد من البحث المنهجي العميق والمتأني.

نقد المصادر والمراجع

إن طبيعة الموضوع الذي تتناوله الدراسة يتطلب منا استخدام مصادر متنوعة من حيث المواضيع والاتجاهات المذهبية، وعلى هذا الأساس فقد حاولنا العودة الى المصادر الأساسية في الموضوع سواء بالنسبة للإباضية، أو الشيعة، أو السنة، أما عمليات توظيفها في البحث فكانت تتم على أساس استخدام المصادر الأساسية لكل اتجاه، وذلك لفهم خلفياته التاريخية والسياسية وحتى العقائدية، وكذا الإطلاع على الموروث الفكري الذي خلقه لنا، لكن هذه العملية يجب أن تتم بحذر، وبعد مقابلتها مع ما جاء في المصادر المخالفة لها في الاتجاه المذهبي، والهدف من هذه المقابلة محاولة تكوين أو بلورة فهم موضوعي للحائق والأحداث، ذلك أن كل اتجاه مذهبي، كان يسعى ولا زال إلى تلميع صورته التاريخية، كما أنه لا يملك القدرة على مواجهة التناقضات التي يعيشها أو الأخطاء التي وقعت في مسيرته التاريخية،أمّا في ما يتعلق بمصادر البحث الأساسية، فقد صنفناها إلى مصادر إباضية، شيعية، سنية، ثم ألحقناها بمصادر الرحالة والجغرافيين، مكتفينا بأهم المصادر التي خدمت الموضوع.

أولا : المصادر الإباضية:

تتميز الإباضية في المغرب الأوسط بأنها الفرقة التي خلقت لنا تراثا فكريا معتبرا، تناول السير والعقائد والتاريخ، كما يحوي في مضامينه معلومات هامة حول الجانب الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة المغرب الأوسط، خاصة في منطقة أريغ ، ورجلان، ووادي ميزاب، ومن أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في البحث:

_ كتاب " **سير الأئمة وأخبارهم** " **لأبي زكرياء يحى بن أبي بكر الورجلاني** (ت470 هـ) وهو من أهم كتب التراث الإباضي، جمع بين السير والتاريخ وقد أفاد البحث في مرحل مختلفة، خاصة عند وصول وانتشار الإباضية في بلاد المغرب الأدنى والأوسط، وهي المرحلة التاريخية

الأولى التي سبقت قيام الدولة الرستمية، كما تناول سير الأئمة الرستميين في تاهرت حتى فشل أول تجربة سياسية لإقامة دولة إباضية في المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري .

ومن الجوانب المهمة في هذا المؤلف، تناوله لجانب مهم من تاريخ الإباضية في ورجلان بعد هجرة الرستميين إليها في القرن الرابع الهجري، كما يعطينا هذا المصدر فكرة هامة من منظور إباضي وهبي عن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفريني النكاري ضد الفاطميين، وعلاقة الإباضية الوهبية بهذا الحدث المؤثر في تاريخ المغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري.

_ كتاب " **طبقات المشايخ بالمغرب** " **لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني** (ت 670هـ) رغم أن هذا المؤلف في السير، إلا أنه حوى جانبا مهما من تاريخ الإباضية مشرقا ومغربا، وهو غني بالمعلومات ذات الطابع الثقافي والإجتماعي، ونلمس ذلك جليا من تراجم المشايخ خاصة الذين عاشوا في المغرب الأوسط في فترة الدراسة أو الذين زاروا المنطقة.

_ كتاب " **السير** " **لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي** (ت 928 هـ) رغم تأخر الفترة التي ألف فيها هذا الكتاب، إلا أنه يعد من أمهات المصادر الإباصية التي تسمح للباحث بالإطلاع على جوانب مختلفة من الحياة الثقافية، الإجتماعية،والاقتصادية للمغرب الأوسط في هذه الفترة. كما رجعنا أثناء مراحل البحث المختلفة الى مصادر إباضية أخرى منها كتاب،"**قناطر الخيرات**" **لإسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي**(ت750هـ) و"**كتاب الوضع**" **لأبي زكرياء يحى بن أبي الخير الجناوني**، وهي من مؤلفات الفقه الإباضي،ذات الطابع التشريعي.

ثانيا : مصادر شيعية.

اعتمدنا بالدرجة الأولى في هذا الشأن على مؤلفات القاضي النعمان واسمه الحقيقي أبو حنيفة النعمان ويعرف بابن حيون المغربي (ت 363 هـ) عاصر الدولة الفاطمية في دورها المغربي وخدم الأئمة حتى رحيلهم الى مصر، وكان في مناصب حساسة في الدولة والدعوة،كما عرف بغزارة انتاجه الفكري، فاستطاع أن يخلف لنا مصادر أساسية تعتبر من الدرجة الأولى، تمكنا من الحصول على بعضها منها :

_ كتاب " **افتتاح الدعوة** " وهو عبارة عن رواية تارخية، لكنها تزودنا بمعلومات أساسية حول تاريخ الدعوة الاسماعلية في بلاد المغرب، وكذا أحداث قيام الدولة الفاطمية في المغرب الأوسط وأفريقية، الى جانب بعض الأبعاد ذات الطابع العقدي.

_ أما كتاب النعمان الثاني والمهم فهو كتاب " **دعائم الإسلام** " وهو في الأساس كتاب فقهي، لكنه يعكس جانبا مهما من المعتقدات الشيعية الإسماعيلية الباطنية، بدأ فيه النعمان بالحديث

عن الايمان وربطه بولاية أمير المؤمنين، حسب المعتقد الذي يحمله الشيعة الاسماعليين في الخلط بين الإعتقاد والفقه والسياسة .

_ كتاب" **أساس التأويل**" حققه عارف تامر، يتميز هذا المؤلف الذي تركه لنا القاضي النعمان، بأنه يتناول الوجه الأخر من المعرفة عند الشيعة الاسماعلية، ونقصد بذلك ما يسمونه " بعلم الباطن "، وهو محاولة لإعطاء بعد تأويلي رمزي لكثير من الحقائق والعبادات في الإسلام، تأويلا يبتعد بها كثير عن المعنى الظاهري أو اللفظي للنص، ويدعي الوصول الى جوهر الحقائق التي يكشفها الامام للعلماء المقربين منه مثل النعمان.

_ كتاب " **المجالس والمسيرات** " من أهم الكتب التي خلفها لنا القاضي النعمان، وهو عبارة عن موسوعة فكرية، تدلنا على كثير من المفاهيم في العقيدة الاسماعلية، كما يفيد في فهم وتفسير الكثير من الظواهر ذات الطابع الاجتماعي وحتى المواقف السياسية، يستطيع الباحث أن يستفيد منه في جوانب مختلفة في تاريخ المغرب الاسلامي في العهد الفاطمي.

_ كتاب " **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** " القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس عماد الدين (ت 872هـ/1488م) وهوشيعي زيدي، يتميز هذا الكتاب في هذا القسم من كتاب عيون الأخبار بأنه أفادنا بمعلومات ذات طابع تاريخي سياسي، متنوعة حول ظهور الدعوة الشيعية الاسماعيلية منذ مراحلها الأولى في الشام ثم اليمن فبلاد المغرب، كما يكشف لنا جانبا مهماً من المعتقد الشيعي الاسماعيلي، وبالتالي فهو مصدر وإن جاء متأخراً عن مرحلة قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، إلا أنه مفيد للبحث في هذا المجال .

ومن المصادر المفيدة للبحث في تاريخ الدولة الفاطمية كتاب، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن علي حماد الصنهاجي، والمؤلف من أبناء المغرب الأوسط عاش في أعقاب سقوط الدولة الحمادية (ق6هـ)، وكتابه هذا يعكس مشاعره الموالية لبني عبيد، لكن من غير تعصب، حاول أن يعطينا جانبا من التاريخ السياسي للفاطميين، استهله بالدفاع عن نسب بني عبيدالشرف، ثم عرض لنا سير أئمة الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وهو مفيد خاصة فيما يورده من معلومات حول ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

ثالثا : مصادر سنية.

يتميز الموروث الفكري للسنة بضخامة الإنتاج، خاصة في مجال الدراسة التي نحن بصدد إنجازها، لكن معظم المؤلفات في هذا الشأن قد انتجت خارج الاطار الجغرافي للمغرب الأوسط، خاصة في القيروان وتونس بافريقية، هذه المنطقة التي مارست تأثيراً قوياً على بلاد الغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، وذلك بسبب ارتباط شرق المغرب

الأوسط بافريقية جغرافياً وسياسياً وحتى اجتماعياً واقتصاديا في كثير من مراحل تاريخه الوسيط ومن أهم المصادر التي تمت الاستفادة منها في هذا الشأن.

ـ كتب الطبقات ومعظمها كانت لعلماء من المالكية ولعل أقدمها كتاب **طبقات علماء افريقية وتونس** لأبي العرب تميم (ت 333هـ)، وكتاب " **طبقات علماء افريقية** " للخشني (ت361هـ) الذي أكمل ما بدأه أبو العرب تميم، ثم أتى بعدهم أبوبكر المالكي (ت بعد سنة 453هـ) بكتاب **رياض النفوس** ثم الدباغ (ت696 هـ) وابن ناجي بكتاب **معالم الايمان**، ثم كتاب القاضي عياض السبتي (ت544 هـ) المعروف بكتاب **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، كلها مؤلفات تناولت الحياة الثقافية الاسلامية من خلال الترجمة لفقهاء وعلماء المالكية من منظور سني، لاغنى لأي باحث عنها في هذه المراحل الأولى من التاريخ الثقافي الاسلامي، كما تحفل باشارات ذات طابع سياسي واجتماعي وحتى اقتصادي بإمكان الباحث المتخصص توظيفها والاستفادة منها بطرق شتى .

_ كتاب **أخبار الأئمة الرستميين** لابن الصغير، عاش في تاهرت بالمغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري، رغم أن صاحبه لم يعلن عن توجهه المذهبي، إلا أنه صرح أنه ليس من الاباضية، كما لم يبدي نزوعاً نحو التشيع، مما دفع بعض الباحثين الى اعتباره مالكيا أو على الأقل سنيا . يعتبر هذا المؤلف من مصادر الدرجة الأولى، لأن صاحبه كان معاصراً لأحداث القرن الثالث الهجري، وأعطانا سيرة وافية عن أئمة الدولة الرستمية بكثير من الموضوعية، كما أشار في مؤلفه هذا الى الوجود السني المتقدم في المجتمع التاهرتي بالمغرب الأوسط، مما خدم موضوع الدراسة بشكل مهم جداً سواء لمعرفة دور الاتجاه الاباضي، أو معرفة الوجود السني المبكر ببلاد المغرب الأوسط .

ومن بين المصادر الأساسية التي خدمت الموضوع في جميع مراحله كتاب " **العبر** " المعروف بتاريخ ابن خلدون (ت 808هـ)، هذا المؤلف الى جانب مقدمته لاغنى للباحث في في تاريخ المغرب الوسيط عنه، سواء في المجال السياسي أو الاجتماعي والثقافي، يستطيع الباحث أن يفيد منه وبطرق شتى، وهذا ما لجأنا إليه في هذا البحث.

_ كتاب **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لإبن عذارى المراكشي(ق7م)، رغم تأخره زمنيا عن فترة الدراسة، إلاّ أنه من أمهات كتب تاريخ المغرب الإسلامي،ولا شك أنه استفاد من عدة مؤلفات تاريخية لم تصل إلينا، فأفاد منه البحث في عدة مراحل خاصة في جانب التاريخ السياسي،كما أنه غني بالإشارات ذات الطابع الفكري المذهبي،خاصة عند حديثه عن الدولة الفاطمية وقيام ثورة أبي يزيد الإباضي النكاري ضدها.

_ كتاب **إعلام الموقعين عن رب العالمين** لابن القيم الجوزية (ت751هـ) من الصادر الأساسية والضرورية لفهم نشأة وتطور الاتجاه السني خاصة في المشرق حيث وضعت الأسس الفكرية لهذا التوجه، يتميز بالدقة والعمق الفكريين، ويرصد المراحل الأولى للنشاط الفكري السني منذ عهد الصحابة حتى الأئمة الكبار وأصحاب المذاهب الفقهية.

كما استفدنا في هذا البحث من كتب الرحالة والجغرافيين ومن أهمها كتاب **البلدان** لليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ)، الذي زار المغرب الأوسط في منتصف القرن الثالث الهجري، أمدنا بمعلومات هامة خاصة حول الإمارات العلوية في المغرب الأوسط الى جانب بعض الاشارات الهامة في المجال الجغرافي والمذهبي، وحتى العمراني.

_ كتاب **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،** لأبي عبيدة الله البكري (ت 487 هـ) الذي تضمن عدة إشارات ذات طابع اجتماعي ومذهبي فضلا عن الجانب الجغرافي وحتى الاقتصادي.

وهناك العديد من المصادر التي تم الرجوع إليها لانجاز البحث لكن بدرجات متفاوتة، إن الباحث في إطار الحركة المذهبية، يجب أن يسعى لجمع شتات الأفكار ذات البعد العقدي والسياسي وحتى الفقهي، وهو في هذا المسعى يواجه مشكلتان أساسيتان تتطلبان منه الكثير من الجهد والكفاءة، أما المشكلة الأولى، فهي تناثر المعلومات في مصادرة كثيرة يصعب الإلمام بها، أما المشكلة الثانية فهي غزارة المادة المعرفية وتشعبها لدرجة يصعب التحكم فيها خاصة بالنسبة للباحث المبتدئ.

المراجع :

لقد أملت علينا طبيعة الموضوع توظيف مراجع حديثة، وبتخصصات متعددة منها التاريخية، الفقهية، الأدبية، والفلسفية، ولا يتسع المجال لذكر العديد من هذه المراجع وإنما سنكتفي بأهمها، منها التي تناولت الاتجاه الاباضي مثل مؤلفات عوض محمد خليفات خاصة كتاب **نشأة الحركة الاباضية وكتاب النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في افريقية في مرحلة الكتمان،** وكتاب **الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية** ،لإبراهيم بحاز بكير، ثم كتاب **الخوارج في بلاد المغرب الاسلامي** لمحمود اسماعيل وكلها مؤلفات علمية جادة ومفيدة للبحث في هذه الفترة.

أما الدراسات الأكاديمية في مجال التاريخ العقدي للدولة الفاطمية، فإننا نعثر عليها باستثناء بعض الرسائل الجامعية، لكنها لازالت في بداياتها، وتحتاج إلى المزيد من العمق في البحث.

ويتميز الاتجاه السني، خاصة المالكي، بتعدد الدراسات وتنوعها، من بين أهم الدراسات التي استفدنا منها في البحث كتاب **المذهب المالكي في الغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري**،من تأليف نجم الدين الهنتاتي،وكتاب **الحياة العلمية في إفريقية**(90-450هـ) لحوالة يوسف بن أحمد،وكتاب **تاريخ المذاهب الإسلامية** للإمام محمد أبو زهرة.

وفي الأخير فإن أملي أن يكون هذا العمل المتواضع، فاتحة رؤية جديدة لتناول دراسة الظاهرة المذهبية من منظور شمولي، يتجاوز الحدود المذهبية الضيقة، وبأبعاد تركيبية تتجاوز الوصف التاريخي إلى مرحلة التحليل والتعليل، والخروج مستقبلا بقراءة تاريخية، فكرية، قادرة على فهم المشهد التاريخي الثقافي دون تجزئته.

فصل تمهيدي:
الواقع السياسي للمغرب الأوسط من القرن الثالث إلى السادس الهجري

تمهيد

أولا: المغرب الأوسط الجغرافيا والسكان

أ_ المجال الجغرافي

ب _ الوسط البشري

ثانيا _التطورات السياسية في المغرب الأوسط من القرن الثالث إلى السادس الهجري

أ_ العهد الرستمي: (160-296هـ/777-909م)

ب _ العهد الفاطمي والزيري:(296_ 361هـ/ 361_405هـ)

ج _ العهد الحمادي في المغرب الأوسط(405هـ_547هـ)

د _ النفوذ المرابطي بلاد المغرب الأوسط(473هـ - 437هـ)

هـ _ العهد الموحدي في المغرب الأوسط (539هـ_636هـ)

تمهيد:

شهدت بلاد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (9_12م) تطورات سياسية واجتماعية هامة أثّرت بعمق في جميع جوانب الحياة خاصة الثقافية منها مما أدى إلى نشأة حياة ثقافية تميزت بالتجديد والإبداع.

ففي المجال السياسي عرفت بلاد المغرب الأوسط ظهور عدّة أنظمة حكم تميزت بنزعتها المذهبية كالدولة الرستمية الإباضية ما بين(160ـ296 هـ) ثم الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية (296-361هـ) والتي ورثتها الدولة الزيرية الصنهاجية سياسيا ومذهبيا حتى سنة 405 هـ،والتي انشقت عنها الدولة الحمّادية الصنهاجية (408 ـ 547هـ /1018- 1142م) هذه الأخيرة التي تقاسمت النفوذ السياسي والمذهبي في بلاد المغرب الأوسط مع المرابطين، كما اشتركتا في نزعتهما المذهبية السنية المالكية،أما في النصف الثاني من القرن السادس،فقد طغى النفوذ الموحدي على بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، والذي تميز بنزعته المذهبية التجديدية التي حاولت التوفق بين عدة اتجاهات مذهبية برؤية أشعرية تومرتية (515-595هـ/1120-1199م).

أما من الناحية الاجتماعية،فإلى جانب السكان الأصليين وهم الأمازيغ والمعروفين بالبربر وأهم قبائلهم زناتة وصنهاجة وجِد الأفارقة، كما وصل العرب إلى بلاد البربر مع الفتح الإسلامي، ونمت بشكل تدريجي أعداد القبائل العربية المهاجرة والمستقرة في هذا الإقليم الذي أطلق عليه المسلمون اسم بلاد المغرب، في حين توسع وجود العنصر العربي بشكل مؤثر بزحف القبائل العربية الهلالية منتصف القرن الخامس الهجري[1].

وقبل الخوض في إبراز تأثير العوامل السياسية والاجتماعية في التطور الثقافي لبلاد المغرب الأوسط جدير بنا ضبط جغرافية المغرب الأوسط، والتعرف على الإطار البشري في هذه المنطقة وأهم التطورات والأحداث السياسية التي مرّ بها المغرب الأوسط فترة الدراسة الممتدة ما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، كي يتسنى للقارئ فهم الإطار العام للدراسة.

---

[1]_ ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر،ج6، طبعة، دار الفكر، بيروت، تحقيق، خليل، شحادة، السنة2010، ص116 وما يليها.

أولا: المغرب الأوسط الجغرافيا والسكان:

أ_ المجال الجغرافي:

المغرب الأوسط جزء من مجال جغرافي أوسع عُرِّف لدى المسلمين ببلاد المغرب، هذا المجال الذي حدده الجغرافيون العرب من برقة شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، كما قسموه إلى مغرب أدنى أو افريقية، ومغرب أوسط(الجزائر حاليا) ثم مغرب أقصى.

ومصطلح المغرب الأوسط لم يظهر لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين إلّا حوالي القرن الخامس الهجري، حيث أشار البكري(ت487هـ) إلى ذلك في حديثه عن تلمسان بقوله:"... قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع[1]"، ويردد هذه التسمية الجغرافي المعروف "بالشريف الإدريسي(ت548هـ)[2]، ثم صاحب الاستبصار[3] في القرن(6هـ)، ثم بن خلدون في (808هـ).

ومنذ ذلك الحين صار مصطلح المغرب الأوسط ذو دلالة واضحة حتى وإن بقيت حدوده الجغرافية مطاطية غير ثابتة خاصة الشرقية منها.

أما قبل القرن الخامس الهجري وحتى القرن الثاني للهجرة، فقد عرفت المنطقة ببلاد المغرب بإطلاق حيث يذكر اليعقوبي(ت284هـ) قوله:"... والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر، تسمى عراق المغرب"[4]، كما ذكر تلمسان بقوله: "... ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب، التي يقال لها تلمسان..."[5].

أما عبد الواحد المراكشي (ت647هـ/ 1520م) وبالرغم من تأخر الفترة الزمنية التي عاش فيها، إلّا أنّه استخدم مصطلح بلاد المغرب للدلالة على المغرب الأوسط في وصفه للحدود الشرقية الفاصلة بين الغرب الأوسط والغرب الأدنى و الذي كثيرا ما ذكر بإسم إفريقية

---

[1] _ البكري،أبو عبد الله،المغرب في ذكر افريقية والمغرب،جزء مأخوذ من كتاب المسالك والممالك،مكتبة المثنى،العراق،طبعة جديدة،د،ت، ص 76.

[2] _ الإدريسي،أبو عبد الله محمد،المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في افتراق الآفاق،تحقيق،محمد صادق، طبعة الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر،1983،ص116.

[3] _ مجهول،الاستبصار في عجائب الأمصار،تحقيق،سعد زغلول،عبد الحميد،ط،دار الشؤون الثقافية، العراق، 1989،ص،186.

[4] _ اليعقوبي،أحمد بن واضح ، كتاب، البلدان، ط، دار إحياء التراث العربي، 1988،ص 109.

[5] _ نفسه،ص112.

بقوله:" فقسنطينة آخر بلاد افريقية، وما بعد قسنطينة فهو المغرب غير افريقية "[1].

أما الحدود الجغرافية للمغرب(الأوسط) حتى وإن كانت معلومة بالضرورة من الشمال والجنوب حيث يحده البحر الرومي(المتوسط) شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، فإن حدوده الشرقية والغربية ليست كذلك.

وبالعودة إلى بعض الإشارات الواردة في المصادر الجغرافية والتاريخية الإسلامية يمكننا وضع تصور تقريبي لامتداد المجال الجغرافي لبلاد المغرب الأوسط، وفي هذا السياق يذكر اليعقوبي في كتاب البلدان قوله:"... ومدينة أربة هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب "[2] وهي أقدم إشارة حسب ما توفر لدينا من مصادر.

لا شك أن هذا التحديد يرتبط بمرحلة زمنية وحالة سياسية معينة سادت في أواخر القرن الثاني وعلى امتداد القرن الثالث للهجرة بوجود الأغالبة في إفريقية وحتى شرق المغرب الأوسط والرستميين في جنوب المغرب الأدنى وفي قسم مهم من المغرب الأوسط.

أما عبد الواحد المراكشي فيحاول تحديد هذا المجال بمدينة "ميلة" التي يذكر أن المسافة بينها وبين بجاية ثلاث مراحل، كما ذكر أن قلعة بني حماد تبعد بأربعة مراحل جنوب بجاية[3].

لكن هذا التحديد خضع في الغالب لعوامل سياسية ونقصد بذالك نفوذ الدول الموجودة في المنطقة والتي كانت غير ثابتة تتقلص وتتوسع حسب قوة الدولة وولاء السكان المحليين.

وعلى هذا الأساس فإن حدود المغرب الأوسط كثيرا ما تمددت نحو الشرق حيث نفوذ زواوة وكتامة وحتى منطقة الزاب كما هو الحال في أواخر العهد الفاطمي وبداية العهد الزيري ويرجع الاختلاف بين المؤرخين والرحالة في ضبط هذه الحدود إلى عدم وجود حاجز طبيعي يفصل بين افريقية والمغرب الأوسط.

أما على الجهة الغربية فيبدو أن العامل الجغرافي كان حاسما في ضبط هذه الحدود، التي تنتهي ببلاد تازا، وهي نفس المنطقة تقريبا التي يمر بها نهر ملوية[4].

---

[1] _ المراكشي،عبد الواحد،بن علي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق،صلاح الدين،الهواري،المكتبة العصرية،بتروت،ط،الأولى،ص 256.

[2] _ اليعقوبي،المصدر السابق،ص،112.

[3] _ المراكشي،عبد الواحد،المصدر السابق،ص 256.

[4] _ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص133.

وخلاصة القول فإن هذه الدراسة تحاول تتبع التطورات الثقافية لهذا المجال الجغرافي في أقصى امتداد له من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في مقاربة تحاول أن تربط بين جزائر الحاضر وماضيها الحضاري الثقافي.

أما من حيث التسمية فإننا سنوظف مصطلح "المغرب الأوسط" لوضوح دلالته مقارنة بمصطلح "بلاد المغرب".

ب _ الوسط البشري.

تشير الدراسات الأثرية إلى أن بلاد الشمال الإفريقي والمعروفة لدى المسلمين ببلاد المغرب من أقدم المناطق المأهولة في تاريخ البشرية كما أنها شهدت عدة حضارات واختلاط عدة عناصر بشرية، لكن تبقى أهم العناصر البشرية التي سكنت بلاد المغرب هم "الأمازيغ"[1]، الذين أطلق عليهم الرومان وحتى العرب تسمية البربر.

ويميز مؤرخو العرب بين فرعين كبيرين من البربر كان لهم دور متميز وفعال في التطورات الحضارية في بلاد المغرب في معظم مراحله التاريخية وهم: _البرانس[2]، والبتر[3].

وإلى جانب البربر وجد الأفارقة[4] وهم خليط من الأجناس من السامين من الفينيقيين والآراميين ومن الرومان والروم، ربما هم من وصفهم العرب بالعجم. سكنوا المدن كأقليات.

في القرن السابع الميلادي، الأول الهجري، وصل العرب المسلمون إلى بلاد البربر وتوسع هذا الوجود بتوسع الفتوحات الإسلامية واستقرار بعض فروع القبائل العربية خاصة في القرن الثامن الميلادي، الثاني الهجري، حيث بدأت مرحلة التمصير ببناء المدن الإسلامية في بلاد المغرب[5].

---

1 _ الأمازيغ أو البربر هم مجموعة من الشعوب الأهلية تسكن المنطقة الممتدة من واحة سيوة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ويعتقد أنهم من السكان الأصليون لشمال إفريقيا.

2 _ البرانس هم فرع من البربر سكن الشمال السواحل والتل، وامتهن الزراعة وعرف الاستقرار.

3 _ البتر فرع من البربر لم يعرف الاستقرار في العصور القديمة قبل الإسلام، عرف حياة الترحال وتربية المواشي سكنوا الهضاب والصحاري.

4 _ الأفارقة بقايا شعوب أوربية غزت المنطقة من الروم والبيزنطيين.

5 _ بوخالفة نور الهدى، أنساب القبائل العربية المهاجرة بمواليها إلى بلاد المغرب في القرون الأربعة الأولى رسالة مرقونة، جامعة وهران،سنة 1995، ص292 ومايليها.

1 _ الأمازيغ "البربر".

_ **البرانس**[1] يغلب على البرانس طابع الاستقرار خاصة في القرى الساحلية والتلية والجبلية يمتهنون الزراعة وتربية المواشي ومن أهم قبائل البرانس، مصمودة، وازداجة، وأربة، عجيسة، وكتامة وصنهاجة، اوريغة، لمطة، هسكورة وجزولة[2].

أما مضارب البرانس في بلاد المغرب الأوسط فهي في الغالب في المنطقة الشمالية[3].

ومن أبرز قبائلهم، عجيسة التي أشار بن خلدون إلى وجودها بالمغرب الأوسط، نواحي دلس، جبال الحضنة الشرقية وناحية القلعة، وأربة استقرت بمنطقة الأوراس والزاب ثم بالقرب من تلمسان اشتهروا بأنهم مسيحيون، تزعموا البرانس وحتى البتر، من أشهر قادتهم كسيلة بن ملزم[4] الذي قتله المسلمون في معركة ممسن سنة69هـ/686م.

ومنهم كذالك هوارة ومضاربهم الأولى بضواحي طرابلس وبرقة، لكن بعض فروعهم نزحت نحو الصحراء، وأقبلت على الإسلام والجهاد في سبيل الله ومن أشهر قادتهم "زواوة بن نعيم[5].

كما فشت بينهم النزعة الخارجية ومنهم محكم الهواري وابنه هود الذي ينسب إليه كتاب التفسير الشهير،عاش في القرن الثالث الهجري[6].

أما صنهاجة فهي من أهم فروع البرانس جمعت بين طابع الاستقرار في الشمال والبداوة في الصحراء، صنهاجة التل وصنهاجة الصحراء، ومنهم المرابطون الذين حكموا بلاد المغرب في القرن الخامس وحتى مطلع القرن السادس، ومن أهم مدن صنهاجة بالمغرب الأوسط قلعة بني حماد، أشير، أزفون وغيرها[7].

---

[1] _ السلاوي، الإستقصاء، ج1، ص35.

[2] _ ابن خلدون،العبر،ج 6،ص117.

[3] _ موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ج1،طبعة ،دار الأمل، الجزائر، 2007،ص ص151.

[4] _ابن خلدون،العبر،ج6، ص 146.

[5] _ نفسه، ص ص286_287.

[6] – الهواري، هود بن محكم، الأوراسي، تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق، شريفي، بالحاج بن سعيد، طبعة، دار البصائر، الجزائر،2005، ص13.

[7] – لقبال ، موسى، دور كتامة، ج1، ص ص،177-183.

ومن أبرز فروع صنهاجة في المغرب الأوسط نجد كتامة وهي من القبائل المستقرة بالمناطق الشمالية الشرقية لبلاد المغرب الأوسط ما بين بجاية، سطيف وقسنطينة، ذكر مضاربهم "من حدود جبل أوراس، إلى سيف البحر،ما بين بجاية وبونة..."[1]،ويحددها موسى لقبال من ميناء القالة(الخزر)، عنابة، القل، سكيكدة، جيجل، إلى بجاية ودلس[2]، وهي بهذا تشمل قرى زواوة الجبلية ومدن كتامة وهي قالمة، سوق أهراس، سطيف، واكجان، ميلة وقسنطينة.

_ **البتر**: يغلب عليهم طابع البداوة، وامتهان رعي المواشي ومن أشهر قبائلهم، أداسة، نفوسة، ضريسة، زناتة وبنولو الأكبر أو لواته[3].

وينتسب البتر إلى "مادغيس الأبتر"، وهي قبائل رحل يصعب تحديد مواقعها بدقة[4] وأشهر هذه القبائل في المغرب الأوسط "زناتة" حتى قيل عن المغرب الأوسط وطن زناتة، أما أهم فروع زناته فهم:

مغراوة: من أوسع بطون زناتة وجدت بعض فروعهم في منطقة جبل راشد(عمور) في المغرب الأوسط، ومنطقة الزاب، وشلف وقسنطينة، نقاوس وحتى وركلان (ورقلة) ولقواط (الأغواط)، لكن رغم ذالك يبقى قلب بلاد مغراوة شلف وإن وجدوا في منطقة الهضاب العليا وحتى الصحراء.

_ **جراوة:** كانت لها الزعامة على البتر عند الفتح الإسلامي وكانت تدين باليهودية وإليها تنتسب الكاهنة[5] ومن أهم مضاربها جبال الأوراس.

بنو واركلا وبنو ريغة: سكنوا منطقة ورجلان وواد أريغ وهم من أهم فروع زناتة عند الفتح الإسلامي، وحتى في الفترة ما بين نصف القرن الثاني حتى الخامس الهجري[6].

---

[1] _ العبر ،ج6، ص303- 302.

[2] _ موسى لقبال، دور كتامة 220-221.

[3] _ ابن خلدون، العبر ،ج6، ص، 118ومايليها.

[4] _بن عميرة، محمد، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ص17.

[5] _ قائدة عسكرية وملكة أمازيغية خلفت الملك أكسيل في حكم الأمازيغ وحكمت شمال أفريقيا وعاصمة مملكها كانت في الأوراس.

[6] – العبر ، المصدر السابق، ج7، ص70.

كما برز دور "**بني يفرن**" من زناتة الذين كانوا عند الفتح بافريقية والأوراس ثم انتقلوا إلى الناحية الغربية.

2 _ **العجم(الأفارقة):** يقصد بهم الأقليات ذات الأصول غير البربرية وكذا غير العربية، من بقايا الروم، وربما يضاف إليهم الفتيان الصقالبة في العهد الإسلامي وحتى القادمين من المشرق خاصة في عهد الدولة الرستمية(160_296هـ)[1].

3 ـ **العرب:** ارتبط الوجود العربي ببلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة بانتشار الإسلام في القرن السابع والثامن الميلاديين، الأول والثاني الهجري ومن أولى المناطق التي وصل إليها الجنود العرب واستقروا واختلطوا فيها بالبربر منطقة الزاب خاصة طبنة وضواحيها[2]، كما تمكن أبو المهاجر دينار من دخول تلمسان سنة55هـ، وفرض الوجود الإسلامي في بلاد المغرب الأوسط.

مدينة طبنة التي جدد بناءها الوالي أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي حوالي 153هـ[3]، سكنها أخلاط من العرب والعجم والأفارقة والروم والبربر والمولدين[4].

ظلت طبنة عاصمة للزاب إلى منتصف القرن الرابع الهجري(9م)،وامتحن أهلها على يد الخليفة المنصور الفاطمي لأسباب مذهبية[5]. كما استقر الجند العرب في قلعة بلزمين من أعمال قسنطينة في العهد الأغلبي[6]، وفي تنس وسوق إبراهيم ووهران بعد بنائها سنة290هـ، إلى جانب مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأوسط واختلطوا بالسكان المحليين وساهموا في نشر الإسلام والتعريب تدريجيا.

---

1 – Golven,Lucien, Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,édition Paris,1957,PP 88-89.

2 _ بوخالفة، المرجع السابق، ص296 .البكري، المصدر السابق، ص50.

3 _ بن الأثير، ج 5، ص31. بوخالفة، المرجع السابق، ص316

4 _ الادريسي،المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق،تحقيق،صادق،محمد الحاج،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1983،ص 118.

5 _ بوخالفة،المرجع السابق،ص317.

6 _ ابن عذارى،المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق، ج1،ص12.

تولى موسى بن نصير ولاية افريقية سنة86هـ/706م، في عهده تمكنت القبائل العربية من الانتشار في بلاد المغرب[1]. كما أشار اليعقوبي إلى وجود بعض القبائل العربية التي استقرت في عهد الأغالبة في مجانة، ميلة، سطيف وبلزمة وطبنة ومقرة وما حولها وتذكر المصادر التاريخية أنه في سنة 280هـ/893م قام إبراهيم بن أحمد باغتيال شيوخ بلزمة العربية[2].

برزت العهد الفاطمي أسرة بن حمدون وأسندت لهم إدارة المسيلة والزاب كما استخدم الفاطميون القبائل العربية في توسعاتهم، ومع مطلع القرن الخامس الهجري وصلت إلى بلاد المغرب القبائل العربية الهلالية التي أحدثت تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية عميقة في واقع وتطور شعوب المغرب الإسلامي ومن بين هذه القبائل بنو سليم، أقوى العناصر الهلالية وأغناها، ثم الأثيج وزغبه ورياح وقد كانت بينهما عداوة تاريخية[3].

تسللت هذه القبائل إلى بلاد المغرب الأوسط عبر الصحراء وكذا منطقة الهضاب في عهد الدولة الحمّادية وأقامت علاقات متينة مع السكان المحليين بالمصاهرة والتحالف والمعاملات التجارية مما مكنها من التغلغل بعمق في المجتمع البربري المسلم.

ثانيا _ التطورات السياسية في المغرب الأوسط من القرن الثالث إلى السادس الهجري:

عرفت بلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة الممتدة على مدى أربعة قرون تطورات سياسية ومذهبية واجتماعية ذات اتجاهات مختلفة وأحيانا متناقضة، حسب طبيعة الخلفيات السياسية والمذهبية للدول التي ظهرت في هذه المنطقة.

ومن أبرز الدول التي شهد قيامها المغرب الأوسط الدولة الرستمية في أواسط القرن الثاني الهجري وعلى امتداد القرن الثالث، ثم الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري والتي استخلفت على حكم المغرب الزيريون[4] وهم من صنهاجة، عنهم انشق الحمّاديون أبناء عمومتهم واستفردوا

---

[1] _ أبو ضيف، مصطفى، المرجع السابق، ص38.

[2] _ نفسه، ص49.

[3] – . ابن خلدون، العبر ،ج6، ص ص43،40،30.

[4] – الزيريون نسبة إلى زيري بن مناد من أتباع الفاطميين، حكم ابنه بلكين جميع بلاد إفريقية باسم الفاطميين الفاطميين بعد رحيلهم إلى مصرسنة 361هـ.

واستفردوا بالمغرب الأوسط منذ مطلع القرن الخامس الهجري، كما امتد نفوذ المرابطين في القرن الخامس ومطلع القرن السادس الهجري في غرب ووسط المغرب الأوسط، أما في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فقد بسط الموحدون سلطتهم على بلاد المغرب الإسلامي بما فيها المغرب الأوسط.

أ_ العهد الرستمي: (160-296هـ/777-909م).

1 ـ الدولة الرستمية:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي مع مطلع القرن الثاني الهجري انتشارا واسعا للحركات الخارجية خاصة الصفرية والإباضية والتي لجأت إلى الثورة ضد ولاة الخلافة الأموية منذ 122هـ، استمر الصراع حتى عهد الخلافة العباسية فأدى إلى هزيمة الإباضية في بلاد المغرب الأدنى، ومقتل إمامهم "أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني[1]" سنة144هـ/ 741م، وهذا ما دفعهم إلى التراجع غربا نحو بلاد المغرب(الأوسط)، حيث اجتمع أمرهم على بناء دولة جديدة في المغرب الأوسط، وفي هذا الصدد ذكر بن الصغير قوله:"... لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم فقالوا قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلاّ إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا..."[2].

يعد هذا الحدث المزدوج، تنصيب الإمام والشروع في بناء مدينة تاهرت(الجديدة)[3] الخطوة الأولى لبناء الدولة الرستمية الاباضية في بلاد المغرب الأوسط والتي امتد نفوذها السياسي والمذهبي حتى طرابلس وبلاد الجريد بالمغرب الأدنى[4].

---

1 – الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضي،أصله من اليمن،من ضمن حملة العلم الخمسة إلى المغرب الذين تلقوا العلم في البصرة على يد أبي عبيده مسلم بن أبي كريمة.

2 _ ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر، إبراهيم بحاز،ط، دار العرب الإسلامي، لبنان،1986 ص28،29.

3 _ تاهرت القديمة، مدينة الرومانية وصفها ابن حوقل بأنها مدينة قديمة أزلية، وتعرف اليوم بتيارت بعمالة وهران، وتاهرت الحديثة (تاقدمت اليوم) التي بناهاعبد الرحمن بن رستم، مؤسس الدولة الرستمية، وهي على بعد عشرة كيلومترات غرب تاهرت القديمة.

4 – Mercier,Ernest, L'Afrique Sptentrionale (Berbérie), T1, editeur, Ernest Leroux, Paris,1888, P 248.

استطاعت هذه الدولة أن تفرض سيادتها على أقاليم واسعة من بلاد المغرب الأوسط، في حين بقيت أقاليم الغرب، تلمسان وضواحيها وحتى المدن الشمالية الساحلية وبعض المدن في شرق المغرب الأوسط تحت سيطرة الأسر العلوية ذات التوجه الشيعي الزيدي، كما سيطر الأغالبة على إقليم الزاب الذي يشمل طبنة وضواحيها وكذا سطيف وقسنطينة وبلزمة في الشرق والشمال الشرقي من بلاد المغرب الأوسط.

لكن رغم ذالك تبقى أهم تجربة سياسية وثقافية عرفها المغرب الأوسط هي تجربة الدولة الرستمية الإباضية التي تأسست سنة 160هـ/777م، واستمر وجودها حوالي136سنة أي حتى سنة 296هـ، حيث سقطت أمام الغزو الشيعي الفاطمي بقيادة أبي عبد الله الشيعي.

والمتتبع للتجربة السياسية الرستمية يستطيع أن يميز فيها ثلاث مراحل أساسية في تطور الدولة والمجتمع، وهي مرحلة التأسيس، مرحلة النضج والقوة، ومرحلة الضعف والانهيار[1].

1 _1 :مرحلة التأسيس:

تبدأ هذه المرحلة باجتماع رأي الإباضية في المغرب الأوسط على بناء مدينة تؤويهم بالقرب من تاهرت القديمة، وتنصب إمام للجماعة باعتباره مرشدا دينيا وقائدا سياسيا وعسكريا وقد وقع اختيارهم على عبد الرحمن بن رستم حيث يذكر بن الصغير قول الإباضية:"...هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وكان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلّدوه أموركم، فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه...."[2].

توالت الخطوات لتثبيت أسس الدولة في عهد الإمام الأول، حيث توسع العمران في العاصمة تاهرت، وقد أشار أبو زكريا إلى ذالك بقوله:"...فلما أرادوا أن يبنوها انتخبوا أربعة أمكنة واقترعوا عليها أيها يجعلونه للمسجد الجامع، فأخذوا في إنشائها وعمارتها، فجعلوها ديارا وقصور..."[3].

---

[1] _ بحاز، ابراهيم بكير، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية،طبعة ،جمعية التراث، القرارة،1993، ص ص،122،121،114.

[2] _ المصدر السابق، ص29،30.

[3] _ أبو زكريا، يحي بن أبي بكر الورجلاني، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1984 ص82.

ساهمت عدة قبائل بربرية في بناء هذه الدولة الفتية منها نفوسة وهوارة ولماية إلى جانب العرب والفرس وتولى عبد الرحمن بن رستم[1] إمامتها، ويذكر ابن الصغير أنّ عبد الرحمن بن رستم" شمّر مئزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة والضعيف... لا يخاف لومة لائم"[2].

تدل هذه العبارات على الخطوات الأولى لبناء الدولة ومؤسساتها وهياكلها الإدارية، فالمسجد إلى جانب وظيفته الدينية الرئيسية وهي الصلاة ونشر تعاليم الإسلام، أصبح يؤدي دورا إداريا يستقبل فيه الإمام عبد الرحمن بن رستم مواطني دولته الجديدة وفيه تحل مشاكلهم وتناقش قضاياهم الرئيسية[3].

كما يدل هذا النص على بداية التأسيس لجهاز القضاء في الدولة الرستمية وهو أهم جهاز لتحقيق العدالة والاستقرار في المجتمع الجديد هذا الجهاز الذي ستتطور مهامه وسيبرز منه قضاة ذوو همة عالية وسمعة تاريخية أبرزهم محكم الهواري[4] وعبد الله بن الشيخ[5].

تدريجيا بدأت تظهر عدة أجهزة إدارية وتنظيمية في الدولة مثل الشرطة والاحتساب وإدارة وبيت المال والجباية والصدقات[6].

كما استفاد الاباضية في بناء دولتهم الفتية من الدعم المالي والأخلاقي من إخوانهم في المذهب من المشرق فأرسلوا إليهم المساعدات المالية المعتبرة والتي ساهمت في تدعيم أسس الدولة وبناء قوة عسكرية وقاعدة اقتصادية إلى جانب تحسين الأوضاع الاجتماعية وفي هذا الصدد يذكر ابن الصغير هذه المساعدات بقوله:"... فلما علموا ذلك من أمره، جمعوا أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم..."[7].

---

[1] – عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الإباضية في بلاد المغرب ،ينتسب إلى بهرام بن سام بن كسرى، من الفرس وهو أحد تلامذة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة.

[2] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص 32.

[3] _ الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تحقيق،طلاي، ابراهيم محمد، دون تاريخ طبع، ص ص43-44.

[4] – بحاز، إبراهيم بكير، القضاء في المغرب الإسلامي،ج1، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر،2006، ص ص178،158.

[5] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص116.

[6] _ محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص153.

[7] _ ابن الصغير، المصدر السابق،ص32.

وصلت المعونة المالية لعبد الرحمن بن رستم بتاهرت فاستشار أعيان دولته في أمر قبولها واستغلالها(استثمارها)، وهذا يعني أنه كان له جهاز استشاري وفق ما تنص عليه تعاليم الإسلام، لكن حسب الظروف السائدة في المجتمع البربري في المغرب الأوسط.

أجمع أهل الرأي والشورى على توظيف هذا الأموال كالتالي: "ثلثا في الكراع، وثلثا في السلاح، وثلثا في فقراء الناس وضعفائهم..."[1].

هذا التوزيع يدل على أنّ أولويات الدولة الفتية كانت واضحة، تتمثل في تقوية الجانب العسكري والأمني للحفاظ على المكاسب المحققة ودعمها، دون إهمال الجانب الاجتماعي والاقتصادي.

أدت هذه المساعدات إلى تكوين الجيش وتجهيزه بالخيل(الكراع) والسلاح مما ساعد الدولة تحقق الأمن والاستقرار لمواطنيها ومكّنها من حماية المكتسبات المحققة، وتحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية[2].

ويصف ابن الصغير حالهم بقوله:"...ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات[3] وغرس البساتين وإجراء الأنهر... واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار..."[4].

إلى جانب التوسع العمراني والاقتصادي أقام الرستميون شبكة علاقات اقتصادية وسياسية، ثقافية واجتماعية واسعة مع المناطق المجاورة لهم وحتى البعيدة[5]، حيث اصهر عبد الرحمن بن بن رستم إلى ابن أبي القاسم صاحب الإمارة الصفرية في سجلماسة[6]، رغبة منه في مسالمته وضمان تجارته الخارجية مع سجلماسة وبلاد السودان وتوثيق روابطه المذهبية بالصفرية[7]، كما كما وطّد علاقاته بالأمويين في الأندلس، وحافظ على علاقاته الوثيقة بباضية المشرق

---

[1] _ نفسه، ص35.

[2] _ نفسه، نفس الصفحة.

[3] _ استصلاح الأراضي غير المستغلة.

[4] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص35.

[5] _ جودت، عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984، ص216.

[6] – سجلماسة هي ثاني مدينة إسلامية تشيد بالمغرب الإسلامي بعد مدينة القيروان وهي عاصمة أول دولة في المغرب مستقلة عن الخلافة بالمشرق وهي إمارة بني مدرار الصفرية تأسست سنة 140هـ .

[7] – الصفرية إحدى فرق الخوارج، تنسب إلى زياد بن الأصفر، انتشرت هذه النحلة في بلاد المغرب.

الإسلامي[1]. هكذا استكملت الدولة أسسها من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية، وغدت قادرة على مواصلة تطورها بإمكانياتها الذاتية وانتقلت إلى مرحلة جديدة.

1 _ 2 : مرحلة النضج والقوة:

لقد كانت المرحلة الأولى مرحلة مثالية حسب ما تقتضيه تعاليم الاباضية المستمدة من الإسلام، ووفق المبادئ النظرية الإباضية، اختير فيها الإمام على أساس من الشورى ودون الالتزام بالأصل القرشي _كما هو الحال عند أهل السنة_ كما مارس الإمام حكمه ملتزما تعاليم الشريعة الإسلامية ووفق مبادئ المذهب الإباضي ملتزما بالعدل والمساواة[2].

لم يحدث في عهده أي افتراق يذكر داخل المجتمع الإباضي[3].

لكن المرحلة الأولى لم تكن على الإطلاق مثالية في نهايتها حيث أوصى عبد الرحمن بن رستم بتعيين مجلس شوري، لاختيار إمام للدولة يخلفه كما فعل عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ كان من بينهم ابنه عبد الوهاب، بعد أن وفر له كل شروط التزكية من جاه ومال وشهرة وعلاقات اجتماعية وسياسية في الداخل والخارج، ورغم ذلك مال أغلب رجال مجلس الشورى إلى رجل يدعى مسعود الأندلسي[4].

وتحاول المصادر والدراسات الإباضية[5] عبثا إيجاد مبررات غير معقولة لتنازل مسعود الأندلسي عن الإمامة لصالح عبد الوهاب بن رستم، لكن حقيقة الرفض ستبدو واضحة من خلال موقف أحد أبرز رجال المجلس الشورى وهو ابن أفندين وحركته المعروفة بحركة "النّكار" الرافضة لمبدأ توريث الإمارة، والذي يتناقض بشكل صريح ومباشر مع المبادئ الأساسية لنظرية الإمامة عند الخوارج عامة والإباضية بصفة خاصة[6].

---

1 _ محمود اسماعيلن الخوارج في بلاد المغرب،ص151.

2 _ عوض خليفات، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في افريقية في مرحلة الكتمان، طبعة مجدلاوي، دت،ص ص113،109. بحاز اراهيم، الدولة الرستمية، ص ص78-79.

3 _ محمود اسماعيل، المرجع السابق، ص153.

4 – أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 86.

5 _ محمود اسماعيل، المرجع السابق، ص153.

6 _ محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص

رغم خطورة هذا الانشقاق المذهبي وتأثيره على تماسك الطائفة الإباضية والمجتمع الرستمي إلّا أن عهد الإمام عبد الوهاب(171هـ_208هـ) يعد من أهم مراحل نمو وتطور الدولة الرستمية في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية[1].

بلغت الإباضية في عهد الإمام عبد الوهاب ومن بعده ابنه أفلح (208هـ_258هـ) أوج قوتها وتوسعها وازدهارها، ويصف ابن الصغير ذلك بقوله: "وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله، ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لأحد من قبله..."[2].

في هذه المرحلة استطاع الإمام عبد الوهاب مواجهة خصومه من النكار الواصلية[3] وبني مسالة من هوارة والانتصار عليهم، ويضيف ابن الصغير قائلا:" ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوي عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك"[4]، لا شك أن هذ عبارة "الملك" تدل على التغير الهيكلي الهيكلي والتنظيمي في طبيعة الحكم في الدولة الرستمية وتحوله من نظام حكم شوري إلى نظام حكم وراثي شبه ملكي وتخلي الرستميين عن مفاهيم الإمارة الإسلامية بالمفهوم الخارجي الإباضي . تأكد هذا التحول بشكل واضح عند تولية أفلح بن عبد الوهاب حوالي سنة 208هـ خلفا لوالده، بحيث تمّ التحول دون مجلس للشورى ودون معارضة تذكر، حيث تمت مبايعة أفلح بالإمامة في اليوم الذي توفي فيه عبد الوهاب، ولتبرير تعطيل أمر الشورى يروي لنا الإباضية الوهبية قصة مفادها أن الإباضية في تاهرت أصبحت مهددة من طرف عدو خارجي مما دفعهم لتولية أفلح[5].

---

[1] _ جودت، عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط (ق3-4هـ) ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ص6.

[2] _ المصدر السابق،ص51.

[3] _ الواصلية فرقة كلامية إسلامية تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزال، رأس المعتزلة، ظهرت في مطلع القرن الهجري الأول.

[4] _ المصدر السابق،ص51.

[5] _ أبو زكرياء، المصدر السابق، ص ص 127-128.

استطاع عبد الوهاب تثبيت ملكه، ونقله إلى ابنه أفلح، الذي سار على نهجه بالعزم والحزم فثبت نفوذ دولته في المغرب الأوسط وفي إقليم جبل نفوسة، كما أرسى قواعد حكم قائم على العدل والإحسان، وما قصة قضاء محكم الهواري[1] مع أخيه أبي العباس إلاّ دليلا على ذلك[2].

دام حكم أفلح بن عبد الوهاب قرابة الخمسين سنة(208_258هـ) تميز بجميع مظاهر القوة والرّخاء الاقتصادي والاجتماعي والازدهار الثقافي كما وسعت الدولة في عهده علاقاتها الخارجية في جميع الاتجاهات[3].

رغم مظاهر الازدهار الحضاري والقوة في هذه المرحلة الطويلة من عمر الدولة الرستمية (171هـ_258هـ) حوالي87سنة، إلاّ أنّ الأزمات الكبرى التي هزت كيانها ظهرت في هذه المرحلة واستندت في الأساس إلى رفض الحكم الوراثي والنزاعات المذهبية والقبلية[4].

1 _ 3 :مرحلة الضعف والانهيار:

رغم المكاسب التي حققتها الإباضية في المرحلتين السابقتين من عمر الدولة والتي تمثلت في بناء أول دولة إباضية مستقلة عن سلطان الخلافة السنية،إلاّ أنها خلفت رواسب خطيرة لعل أبرزها التخلي عن نظام الشورى الإسلامي في اختيار الإمام، علما أن هذا المبدأ هو الأساس في ظهور حركة الخوارج في التاريخ الإسلامي[5].

---

[1] _ محكم الهواري أحد أشهر قضاة الدولة الرستمية، وأصله من منطقة الأوراس، ولي القضاء في عهد أفلح بن عبد الوهاب(208 -258هـ).

[2] _ ابن الصغير،المصدر السابق،ص ص 57 –60.

[3] _ نفسه،ص ص 62_63. بحاز، الدولة الرستمية، ص121.

[4] _ عرفت الدولة الرستمية العديد من الانشقاقات المذهبية والسياسية، للمزيد يراجع، حجازي، عبد الرحمن عثمان، تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، 2000، ص ص45–56.

[5] _ بحاز إبراهيم، المرجع السابق، ص117، نقلا عن محمد الثميني مفهوم الشورى والديمقراطية في التاريخ العربي لدى الرستميين والجماعات المحلية بوادي ميزاب بالجنوب الجزائري، أعمال المؤتمر البرلماني العربي الثاني، الجزائر من8 إلى 12آذار 1981م، ص8.

_علاوة، عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والمغرب الإسلامي، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008، ص ص 128– 129.

جاء الرد عنيفا بزعامة حركة النّكار وقائدهم "ابن أفندين"[1] ثم تمرد خلف بن السمح[2] الذي وجد مبرراته في تحويل نظام الإمامة إلى نظام حكم وراثي[3]، كما ورّثت المرحلة السابقة المجتمع الرستمي ظاهرة الانقسامات المذهبية السياسية والاجتماعية التي ولدت بدورها ظاهرة العنف داخل المجتمع ومهدت لإضعافه وتفككه، وبعد المرحلة الأولى التي تميزت بالانسجام والتآلف والتسامح، أصبح العنف داخل الطائفة الإباضية والمجتمع الرستمي بطولات، وهذا ما يفهم من قول ابن الصغير عن حرب عبد الوهاب ضدّ النّكار حيث قال:" فما كان إلاّ كلمح البصر إلاّ وجميعهم صرعوا..."[4]، كما يعبر ابن الصغير عن شجاعة أفلح بن عبد الوهاب بنفس الفكرة وكأن العدو الحقيقي أصبح داخل الطائفة لا خارجها وهذا دليل على التفكك[5].

كما تميزت المرحلة الأخيرة بشتى مظاهر الضعف والتفكك والانحراف حيث عرفت أزمات خطيرة هددت الوجود السياسي للدولة الرستمية، كانت أولاها وأخطرها أزمة مقتل ابن عرفة[6] وهو عربي الأصل هذه الأزمة التي فجرت صراعا عرقيا داخل الدولة الرستمية[7].

يذكر محمود إسماعيل أن أحوال الدولة الرستمية اضطربت بعد عبد الرحمن فامتلأت بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصري، مما حدا بالمؤرخ جوليان إلى القول بأن

---

[1] _ النكار أتباع يزيد بن أفندين أبو قدامه النكاري، عرفوا بهذا الاسم لإنكارهم إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن وثاروا ضده.

[2] _ خلف بن أبي عبد الأعلى ابن السمح المعافري، جدّه كان أول إمام ظهور لدى الإباضية ببلاد المغرب، ولهذا تطلّع خلف إلى وراثة حكم والده ومحاولة إقامة إمامة إباضية منفصلة عن تاهرت وهذا في منطقة جبل نفوسة.للمزيد يراجع، عوض خليفات، النظم الإجتماعية والتربوية، عند الإباضية،ص103.

[3] _ أبو زكريا، سير الأئمة، ص121.

[4] _ المصدر السابق، ص51.

[5] _ نفسه، ص ص54-55.

[6] _ ابن عرفة، محمد من المقدمين في بلاط الرستميين في عهد الإمامين أفلح وأبي بكر، اتهم بقتله الإمام أبي بكر، مما أثار فتنة داخل العاصمة تاهرت، كادت ان تقضي على الدولة الرستمية، للمزيد يراجع ابن الصغير، المصدر السابق، ص70 وما يليها، الباروني، سليمان، المصدر السابق، ص298 وما يليها.

[7] _ محمود إسماعيل، الخوارج ، ص154.

تاريخ تاهرت لم يكن سوى سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية[1]، هذه الفتن التي فتتت وحدتها وأوهنت نفوذها وربما كانت سببا في انهيار جيشها بعد سنة 258هـ_261هـ.

دلت أزمة مقتل ابن عرفة على ضعف شخصية الإمام أبي بكر بن أفلح، كما أدت إلى انهيار سلطة الرستميين في العاصمة تاهرت، كما فتحت المجال واسعا لظهور النزاعات الطائفية والعرقية إلى جانب التنافس على الإمارة[2].

دامت هذه الفتنة ما يقارب العشر سنوات مما أدى إلى انهيار الجيش الرستمي ولولا استنجاد الإمام أبو اليقظان (261هـ_281هـ) بنفوسة لكانت النهاية بالنسبة للدولة الإباضية[3].

استطاع الإمام أبو اليقظان أن يعيد الهدوء والاستقرار للدولة الرستمية ويبعث فيها روحا جديدة أدت إلى تحسن الأوضاع الأمنية الاقتصادية والحياة الفكرية[4]، لكن يبدو أن مظاهر الفساد والتفكك والانحراف، والنزاعات الطائفية كانت قد تمكنت من المجتمع، ويروي لنا بن الصغير قصة القاضي محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، والتي تعكس جانبا من مظاهر الفساد والاستبداد[5].

مات أبو اليقظان وعادت الفتن والحروب والتنافس على الحكم بين القبائل والطوائف وحتى أبناء الأسرة الرستمية[6]. كما تعرضت نفوسة لهزيمة عسكرية خطيرة أمام قوات الأغلبية في معركة مانو سنة283هـ على يد إبراهيم ابن الأغلب.

ويعتقد أبو زكريا أنّ هذا الحادث كان سببا رئيسيا في انهيار الدولة الرستمية أمام قوات أبو عبد الله الشيعي سنة 296هـ، لكن يبدو لنا أنّ هذه القوة كانت قد تفككت منذ أزمة مقتل ابن عرفة (258_261هـ)، ثم اثر التنافس الطائفي والصراع بين أبناء الأسرة الحاكمة على الإمارة بعد وفاة الإمام أبو اليقظان سنة281هـ.

---

[1] _محمود إسماعيل، ص، 154.

[2] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص79.

[3] _ الباروني، سليمان بن عبد الله، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم2، تحقيق، أحمد كرم وآخرون، طبعة، دار البعث، 2002، ص ص 313-312.

[4] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص88.

[5] _ نفسه، ص89 وما يليها.

[6] _ محمود إسماعيل، ص155 وما يليها.

وبالتالي فأنّ هذه المرحلة أو الدور الأخير من عمر الدولة والذي يشمل إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد بن اليقظان بن أبي اليقظان(281 - 294هـ) تميز بتداعي الإمامة واضمحلالها، وتدخل العامة في تعيين الأئمة وعزلهم وطمع الطوائف والفرق من غير الاباضية في إنهاء الحكم الرستمي الاباضي كما تميز هذا الدور بانفصام الصلة بين العاصمة وأقاليمها الشرقية وكذا تفاقم الخلافات داخل البيت الرستمي وتدبير المؤامرات، وفي هذا الصدد ذكر بن الصغير قوله: "وكانت مشايخ البلد من غير الإباضية قد استولوا عليه(الإمام أبي حاتم) منهم رجل يعرف بأبي مسعود وكان كوفيا فقيها بمذهب الكوفيين[1].."[2].

يوحي هذا النص للدارس بأن النفوذ السني كان قد تغلغل بشكل مؤثر في المجتمع الرستمي عكس ما كان عليه الحال في بداية تأسيس الدولة في منتصف القرن الثاني الهجري، ويتطابق هذا التحول المذهبي مع ما كان يجري في القيروان بإفريقية أو فاس الإدريسية وحتى الأندلس، وبالتالي فإن انهيار المجتمع الرستمي الإباضي كان على وشك الحدوث سواء أظهرت الدولة الفاطمية أم لم تظهر.

2_ الإمارات العلوية في بلاد المغرب الأوسط في القرن الثالث للهجرة:

داخل إطار المغرب الأوسط وعلى حدود الدولة الرستمية كان نفوذ القوى المناوئة لها يتعاظم باستمرار ونقصد بذلك الإمارات العلوية، وكذا الأطماع الخارجية للأغالبة السنّة على الحدود الشمالية الشرقية، والأطماع الشمالية الغربية من طرف الأدارسة، الذين جمعوا بين الاعتزال والتشيع.

بعد فشل ثورة العلويين ضد العباسيين في معركة فخ بضواحي مكة سنة 169هـ، فرّ إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلى بلاد المغرب الأوسط[3]، ومنها انتقل إلى وليلي سنة172هـ، بضواحي طنجة في ضيافة اسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي أمير أورية[4].

---

[1] – مذهب الكوفيين يقصد به المذهب الحنفي نسبة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت(80 - 150هـ).

[2] – المصدر، السابق، ص ص104-105.

[3] _ اسماعيل محمود، الأدارسة، حقائق جديدة، طبعة مكتبة مدبولي، د، ت، ص145.

[4] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ط سنة 1882، ص24.

في وليلي أجمع البربر على نصرة العلويين لإقامة دولتهم[1]ومنها بدأ إدريس الأول أو الأكبر في توسيع نفوذ دولته، حتى وصلت تلمسان بالمغرب الأوسط سنة173هـ التي بنا مسجدها واختط اسمه على منبره[2]، ويبدو أنّ هذا الوجود كان مؤقتا لأنّ إدريس الثاني ابن إدريس الأكبر وخلفه، يذكر ابن خلدون أنّه عاد إلى تلمسان غازيا وأقام فيها ثلاث سنين ثبت وجوده فيها وجدد بناء مسجدها سنة199هـ[3].

ومن الإشارات الدالة على توسع النفوذ السياسي والمذهبي للأدارسة العلويين الذين جمعوا بين التشيع والاعتزال في بلاد المغرب الأوسط ما ذكره ابن خلدون بقوله: "وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة على محو دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشموس الأقصى إلى شلف"[4].

وسّع الأدارسة نفوذهم في شمال وغرب المغرب الأوسط حتى نهر شلف، ولحق بهم العديد من أبناء عمومتهم العلويين، وأبرزهم أبناء سليمان بن عبد الله أخو إدريس الأول، الذين يذكر ابن خلدون أنّ نفوذهم سيبقى في تلمسان لولد سليمان بن عبد الله"[5].

ثمّ انتشر أبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط وأسسوا إمارات مدن علوية ذات طابع إقطاعي قد لا تتعدى حدودها وآفاقها السياسية المدينة وضواحيها[6].

لحق بأبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط علويون من فروع مختلفة وشاركوهم في تأسيس الإمارات ببلاد المغرب الأوسط وأبرزهم بنو محمد بن جعفر بن الحسن بن علي بن أبي طالب[7]. كما استفاد العلويون في المغرب الأوسط من ضعف نفوذ الخلافة وحب أهل المغرب

1_ Marçais,William, Articles et conférences, éd, Librairie d'Amérique d'orient 1961,Paris, P181.

2_ ابن خلدون، العبر، ج7، ص24، 25.

3_ المصدر، نفسه، ص27.

4_ نفسه، نفس الصفحة.

5_ المصدر السابق، ص28.

6_ بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى(ق2 ـ 6هـ)، رسالة دكتوراه دولة مرقونة، جامعة وهران ،2001 – 2002، ص73.

7_ نفسه، ص 67.

لآل البيت وتعاطفهم مع قضية العلويين لدرجة دفعت ابن أبي الضّياف إلى القول: "وأهل افريقية يدينون بحب علي وآله، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم..."[1]

هذا الوضع السياسي والنفسي والعاطفي السائد في بلاد المغرب الأوسط سمح للعلويين بتأسيس العديد من إمارات المدن في المغرب الأوسط، زارها اليعقوبي في الفترة الممتدة ما بين263 و276هـ وأعطانا فكرة واضحة عنها،[2] في رحلته من الشرق إلى بلاد المغرب، أي من افريقية افريقية الأغلبية باتجاه فاس الإدريسية مرورا ببلاد المغرب الأوسط التي يذكرها باسم بلاد المغرب كما كان سائدا في عصره، وفي هذا السياق يقول:" ومدينة أروية هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب عمل بني الأغلب"[3].

وجِد إلى الغرب من مدينة أروية قوم يقال لهم بني برزال ينتسبون إلى زناته والى مذهب الخوارج الشوراة ثمّ يقول: "ومن هذا الموضع البلد الّذي تغلّب عليه الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب"[4]. وأهم مدن هذه الإمارة تسمى "هاز"[5] "هاز"[5] سكانها البربر من زناته وصنهاجه وزواوه[6].

يذكر البكري(ت487هـ) مدينة علوية أخرى إلى الشمال من هاز، أسسها "حمزة بن الحسن بن سليمان" وعرفت باسمه "سوق حمزة" (البويرة حاليا) وهو الذي خلف والده في ملك هاز[7].

أما في سهل متيجة فنشأت إمارة بنو محمد بن جعفر بن الحسن بن أبي طالب، يذكرها اليعقوبي بقوله: "ثمّ يصير إلى بلد يقال له متيجة تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، يقال لهم بنو محمد بن جعفر..."[1].

---

[1] _ نفسه، ص66.

[2] _ اليعقوبي، البلدان، ص108.

Marçais.G :La berberie Au IX siècle d'après El – yaqoubi, Extrait de la revue Africaine(R–A) n° 386–387,1et2^{e} trimestre. T86 , Alger 1941– P42

[3] _ اليعقوبي، المصدر السابق، ص108.

[4] _ اليعقوبي، نفس المصدر، والصفحة.

[5] _هاز: تقع بحوالي 40كلم غرب المسيلة، بن حوقلص85.

[6] _ الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي(184–296هـ/800–909م)تعريب، المنجي الصيّادي، طبعة، دار الغرب الإسلامي، سنة 1995، ص645.

[7] _ البكري، المصدر السابق، ص64،56. بن معمر، المرجع السابق، ص69.

أمّا العلويون من الفرع السليماني وهم أبناء سليمان بن عبد الله اخو إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبقت الإشارة، فقد تمكنوا من تأسيس عدّة إمارات في شمال وغرب المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري خاصة في نصفه الثاني[2].

وإلى الغرب من متيجة وجدت "مدّكرة"(مليانة حاليا) التي يقول عنها اليعقوبي: "ثمّ مدينة مدكرة، فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية، وعددهم كثير حتى أنّ البلد يعرف بهم وينسب إليهم..."[3]،ويذكر كذالك مدينة "سوق إبراهيم" الواقعة على مصب وادي سلى وواد شلف ومدينة "الخضراء"(عين الدفلى حاليا).

أما غرب تاهرت فتوجد إمارة محمد بن مسالة الإباضي الهواري الخارج عن سلطة الرستميين في عهد الإمام أبي اليقظان(261_281هـ)، ثم تنتشر باقي الإمارات العلوية السليمانية في غرب المغرب الأوسط لها مدن هامة أبرزها تميطلاس التي كان أغلب سكانها من بربر مطماطة[4]، ثمّ إلى تلمسان التي كان يحكمها في عهد اليعقوبي(ت284هـ)محمد بن القاسم بن سليمان.

ج _ العهد الفاطمي والزيري:(296_ 361هـ/ 361_405هـ):

1 ـ الفاطميون في بلاد المغرب الأوسط:(296 ـ 361).

وجد العلويون في المغرب الأوسط والأقصى ملجأهم من اضطهاد سلطة الخلافة المركزية فتمكنوا من بناء دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، لكن طموحاتهم لم تتعدى إمارات المدن في المغرب الأوسط، مما جعل تاريخهم السياسي بالمغرب الأوسط يبدو باهتا[5]، لكن هذا لا ينفي أنّهم كانوا عنصرا فعالا دون شك في إذكاء روح محبة آل البيت من العلويين ونشر التشيع الزيدي القريب من المفاهيم السّنية حول الإمامة وبهذا مهدوا للتشيع الإسماعيلي الفاطمي.

وصل إلى بلاد المغرب الأوسط في حدود سنة280هـ أحد أشهر دعاة الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، أبو عبد الله الشيعي الصنعاني مع

---

[1] _ البلدان، ص109، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص44،45.

[2] _ الطالبي، المرجع السابق، ص645.

[3] _ اليعقوبي، البلدان، ص109.

[4] _ اليعقوبي، المصدر السابق، ص101.

[5] _ الطالبي، المرجع السابق، ص647.

وفد من حجاج كتامة فاستقر بمنطقة جبل "إيكجان" قرب سطيف، بالشمال الشرقي لبلاد المغرب الأوسط وعلى الحدود ظهرت الدعوة الفاطمية بين دولة الأغالبة والإمارات العلوية التي سبق ذكرها ببلاد المغرب الأوسط.

تعتبر هذه المنطقة "سطيف وضواحيها وكتامة" امتدادا لإقليم الزاب الخاضع آنذاك لسلطة الأغالبة وفيه بدأت المواجهة الأولى ضدّ ولاة الدولة الأغلبية منهم موسى بن العباس في ميلة وعلي بن عسلوجة في سطيف وحيّ بن تميم في بلزمة.

منذ سنة291هـ وبعد توليه زيادة الله _الذّي انصرف إلى حياة اللهو واللعب_ استولى الداعي أبو عبد الله الشيعي على ميلة والتي كان أغلب سكانها من عرب ربيعة، ثمّ سطيف ثمّ توجه نحو مدينة بلزمة وطبنة.

اندفعت قوات أبي عبد الله الشيعي من إقليم الزاب نحو وسط افريقية الأغلبية، مما أدّى إلى سقوط دولتهم سنة 296هـ/909م، وبداية ظهور الدولة الشيعية الفاطمية التي وسّعت نفوذها على حساب المغرب الأوسط والأقصى بعد خروج الداعي الشيعي من افريقية متجها إلى سجلماسة لتحرير الإمام المهدي الّذي كان يدعو إليه والذي سيعرف بعبيد الله المهدي من الأسر عند بني مدرار[1].

وفي هذا الصدد يذكر المقريزي قوله: "قام المغرب لخروجه، وخافته زناته وزالت القبائل عن طريقه"[2]، وفي طريقه إلى سجلماسة مرّ بتاهرت الرستمية فدانت له دون مقاومة تذكر مما يدل على تفكك الدولة الرستمية، وتذكر المصادر الإباضية أنّ "أبا عبد الله الشيعي وصل إلى تاهرت فدخلها بالأمان وقتل من بها من الرستمية..."[3].

يذكر الدرجيني، أنّ رؤساء الطوائف من غير الإباضية من الشيعة والواصلية وطوائف أخرى أشار إليها ولم يذكرها بالإسم، خرجوا إليه(الشيعي) ووعدوه بالعون على فتحه تاهرت وهونوا له من شأن بني رستم[4].

---

1 - Mercier,Ernest ,L'Afrique Septenterionale(Berbérie), op cit, pp305-313.

2 _ المقريزي، تقي الدين أحمد، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، الشيال، تحقيق، جمال الدين طبعة، القاهرة، 1996، ص65.

3 _ البكري، المصدر السابق، ص68.ابن عذارى، المصدر السابق ج1، ص ص209 -210.

4 _ المصدر السابق، ج1، ص94.

لمّا دخل الشيعي تاهرت قضى على الرستميين وعلى رأسهم الإمام اليقظان بن أبي اليقظان وبنيه[1]، لم يسلم من الرستميين إلّا من فرّ إلى الصحراء نحو ورجلان وعلى رأسهم يعقوب بن أفلح وكثير من أهله وأتباعه.

هذه الهجرة سيكون لها دور فعّال في نهضة ورجلان وبناء سدراتة في المستقبل في ضيافة شيخ ورجلان أبي صالح جنون بن يمريان.

رغم سقوط تاهرت الرستمية بسهولة أمام الزحف الفاطمي الشيعي الإسماعيلي إلّا أنّ روح المقاومة التّي قادتها زناته في بلاد المغرب الأوسط والأقصى لم تهدأ حتّى رحيل الفاطميين عن بلاد المغرب سنة361هـ.

قادت قبيلة مغراوة الزناتية بزعامة بني خزر[2] مقاومة الوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط، الذي يعتقد Gautier "أنّ قلب بلاد مغراوة يجب البحث عنه في سهل شلف، غير أنّهم كانوا ينتشرون في الهضاب العليا للصحراء"[3].

يعتبر المغرب الأوسط موطن زناته، وكانت السيادة لمغراوة وخاصة بني خرز، الذّين استقروا في تلمسان وحول تيهرت[4] وحتّى منطقة الزاب، وقد كان الصراع بينهم وبين الفاطميين عنيفا في المغرب الأوسط خاصة حول تاهرت التّي نجح الفاطميون في استردادها والسيطرة عليها عدّة مرّات.بدا العداء واضحا منذ ظهور الدعوة الفاطمية ومحاولة أبي عبد الله الشيعي العبور إلى سجلماسة لتخليص"عبيد الله المهدي"من الأسر، وعبوره أرض زناتة فأجفلت من طريقه، خاصة إثر مقتل رسل أبي عبد الله الشيعي الأربعة عشر من طرف عناصر زناتية كانت تخضع لأمير مغراوة محمد بن خزر[5].

1_ نفسه، نفس الصفحة.

2_ بنو خرز، أحد فروع مغراوة والّذين كانت لهم السيادة فيها.

3_ بالهواري، فاطمة، "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي في بلاد المغرب"، **مجلة عصور**، العدد 2003/3، ص113. Gautier,E F, Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures,edition,biblithèque Payot, Paris, 1964,P383.

4_ ابن خلدون، العبر،ج4، ص44.ج6، ص102.

5_ القاضي، النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق، فرحات الدشراوي، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1986، ص 222.

وقد كان لسقوط تيهرت بيد الفاطميين الوقع الشديد علي زناته وهي التي تقع داخل مضاربهم ومحور حركتهم الاقتصادية خاصة التجارية منها .

وتعتبر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري الزناتي(331-336هـ) أقوى وأقسى مواجهة بين الإباضية بفرعيها النكارى والوهبي في مواجهة التشيع الإسماعيلي الفاطمي، وسنعود _بإذن الله_ لمعالجة هذا الموضوع في الفصل الثاني.

2 ـ الصراع الزيري الزناتي بعد رحيل الفاطميين:(361. 405هـ/م).

في فترة انشغال الفاطميين بمواجهة ثورة أبي يزيد فرّ حميد بن يصل المكناسي[1] من سجنه بالمهدية وزحف على تيهرت فطرد منها الوالي الشرعي وأعلن استقلالية المدينة عن السلطة المركزية وذالك سنة 328هـ[2]، في فترة انشقت فيها مكناسة عن الخلافة الفاطمية وأعلنت الولاء لأموي الأندلس مما أضعف النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب[3]، لكن تدخل الفاطميين أدّى مرّة ثانية إلى طرد ابن يصل الّذي لجأ إلى الأندلس[4]، فانتهز محمد بن خزر الفرصة واحتلّ تيهرت وسيطر عليها وعلى ضواحيها لكن معارضة محلية قامت ضدّه من طرف عناصر من هوارة ولماية وفروع من بني يفرن سئموا سياسته[5]، ويبدو أنّ صراعا قبليا نشأ في تيهرت بين مغراوة وبني يفرن الزناتيين.

تولى المعز لدين الله الخلافة (341_365هـ) فوجه حملة كبيرة بقيادة جوهر الصقلي يرافقه زيري بن مناد الصنهاجي لإحكام سيطرة الفاطميين على تيهرت وسجلماسة[6]، فاستولى على تيهرت وقتل يعلى بن محمد اليفريني وأسرته، وأسر ابنه وهدم المدينة عن آخرها، أدى هذا الصراع إلى نكبة بني يفرن من زناته وزوال خطرهم عن تيهرت مؤقتا[7].

---

[1] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ص36.

[2] _ نفسه، نفس الصفحة، الناصري، الاستقصاء، ج1ص82.

[3] _ بن معمر، محمد، "زيري بن عطية المغراوي ومشروع الدولة الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى(368-391هـ)"، **مجلة عصور**، العدد 5/4 ديسمبر 2003/جوان149،2004.

[4] _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص198.

[5] _ نفسه، ج1، ص198.

[6] _ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص542.

[7] _ المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص94.

كما منح المعز الأمان لمحمد بن خزر الذي توفي بالقيروان347هـ، وحاول كسب الثوار في منطقة الزاب والأوراس خاصة الاباضية.

أصبحت منطقة تيهرت تابعة لزيري بن مناد الصنهاجي، الذي أوكل له الفاطميون مهمة مواجهة زناته وحماية الجبهة الغربية للدولة الفاطمية، التي يبدو أنها اكتفت بتاهرت كحدود غربية.

آلت الزعامة في بني خزر بعد ذالك إلى الخير بن محمد بن خزر[1] الّذي تكفل زعيم صنهاجة زيري بن مناد بملاحقته ولما ضيق عليه قتل نفسه وحلّت النكبة ببني خزر فرع مغراوة وتراجع دورهم في الأحداث[2].

بعد رحيل الفاطمين إلى المشرق(مصر) سنة361هـ استعادت القبائل الزناتية بقيادة مغراوة نشاطها السياسي والعسكري وهذه المرّة انطلاقا من المغرب الأقصى، بعد أن أدّت الحروب السابقة إلى تهجيرها من بلاد المغرب الأوسط.

انتقلت قيادة المقاومة الزناتية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى زيري بن عطية بن عبد الله (368_391هـ) بن تابدلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الخزري وجده محمد بن خزر الذي قاوم الوجود الفاطمي الشيعي في بلاد المغرب الأوسط لمدة ربع قرن[3]، وقد كان زيري بن عطية مواليا لصاحب قرطبة هشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر، بعد سقوط الأدارسة وبني أبي العافية المكناسيين، فملك فاس سنة377هـ، ثم بنى مدينة وجدة سنة 384هـ واتخذها عاصمة له بدلا من فاس البعيدة عن موطنه الأصلي بين شلف وتلمسان بالمغرب الأوسط، فأصبحت وجدة نقطة انطلاقه في حروبه لاستعادة موطنه من الزيريين من صنهاجة خلفاء الفاطميين بالمغرب[4].

لكن علاقات زيري بن عطية ساءت بالحاجب المنصور بن أبي عامر في الأندلس بسبب تسلط المنصور على الخليفة (الحجر) وهذا دون أن يخلع طاعة الخليفة بعد سنة 386هـ[5].

[1]_ ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص39- 40.

[2]_ بلهواري، المقال السابق، ص120.

[3] – بن معمر، محمد، زيري بن عطية، المقال السابق، ص149.

[4] – نفسه، ص149.

[5]_ ابن خلدون، العبر، ج7، ص38.

وربما يعود سوء العلاقة بينهما إلى رغبة زيري بن عطية المغراوي في الاستقلال عن المنصور بن أبي عامر في الأندلس مما أدّى إلى قيام الحرب بينهما سنة 387هـ، بدأت أولى المناوشات مطلع سنة388هـ بين الطرفين كان فيها الشعار الأندلسي "يا منصور" والشعار الزناتي "هشام يا منصور"، مما يدل على تشبث زيري بن عطية بالولاء والطاعة للخليفة المحجور عليه.

ومهما تكن نتائج هذه الحرب، فاللافت فيها استنجاد زيري بن عطية بالقبائل الزيانية التي أتته من تلمسان وملوية وسجلماسة والزاب وغيرها من بوادي زناتة مما يدل على الإحساس القوي بالانتماء القبلي[1].

دارت المعركة لمدة يوم كامل سنة388هـ، غدر فيها بالأمير المغراوي من طرف أحد أتباعه بثلاث طعنات في نحره فتفرق أتباعه وهرب جريحا إلى فاس ثمّ إلى الصحراء حيث عاد إلى جمع شمل أتباعه من جديد، لكنه عاد هذه المرّة نحو المغرب الأوسط لانتزاعه من بني زيري الصنهاجيين مستغلا ظروف الانشقاق داخل البيت الصنهاجي المغرب الأوسط لانتزاعه من بني زيري الصنهاجيين مستغلا ظروف الانشقاق داخل البيت الصنهاجي[2].

في أوائل سنة389هـ بدأ زيري بن عطية محاصرة تاهرت وجاءت النجدة للحامية الصنهاجية من باديس بقيادة كاتبه محمد بن أبي العرب سنة389هـ ومرت بأشير وعاملها يومئذ حماد بن بلكين بن زيري، لكن صنهاجة هزمت أمام القوات الزناتية.

استولى زيري بن عطية على تيهرت وأراد إسترضاء المنصور العامري ويسأله العودة إلى الولاية وأنّه أقام الخطة باسمه وباسم ابنه عبد الملك بعد دعائه للخليفة هشام المؤيد[3].

لم يمكث زيري بن عطية على تاهرت كثيرا ثم توجه إلى أشير قاعدة المغرب الأوسط الثانية لحصارها لكن باديس بن المنصور من بافريقية في جمادى الآخرة 389هـ، ومرّ على طبنة وعاملها يومئذ فلفل بن سعيد بن خزرون المغراوي الزناتي الذي آلت إليه منذ 382هـ، بعد وفاة أبيه وبأمر من المنصور بن بلكين، لكنه فلفل تحول إلى ثائر وحاصر باغية، بيد أن

[1]_ ابن الخطيب، الأعلام، ص 106.

[2]_ مجهول، مفاخر البربر، تحقيق، بوباية عبد القادر، طبعة، دار أبي الرقراق، الرباط، 2005، ص ص97.

[3]_ مفاخر البربر .**Erreur ! Signet non défini**، ص167.ابن خلدون، العبر، ج7، ص40.

المنصور لم يعبأ له وواصل زحفه لحرب زيري بن عطية الذّي كان يحاصر أشير[1]، لكن زيري بن عطية رحل عن أشير بمجرد علمه بوصول باديس إلى المسيلة، واتّجه غربا نحو فاس هربا من قوة باديس أما فلفل فقد بقيت ثورته في الشرق من المغرب الأوسط وبلاد افريقية.

عيّن باديس عمه يطوفت بن بلكين على تيهرت وأشير، لكن عمه استخلف ابنه أيوب على تيهرت وعاد إلى أشير[2].

عاد باديس إلى المسيلة في أول شوال 389هـ، لكنه علم بأنباء خروج عمومته عليه في أشير ومحاولتهم قتل عامله يطوفت، وأعمامه هم "ماكسن، زاوي، جلال، مغنين وعزم أبناء زيري بن مناد[3]، لكن باديس رغم ذلك اتجه شرقا للقضاء على فلفل بن سعيد الزناتي الّذي بدأت قوته تتعاظم وتتجه نحو افريقية واستطاع إلحاق الهزيمة بقوات فلفول بن سعيد الذي هرب إلى جبل الحناش.

انتهز زيري بن عطية الفرصة وعاد إلى أشير وحاصرها فاستأمنه أعمام باديس المنازعين له في الملك، مما سمح لهم بالالتحاق بالثائر فلفل بن سعيد الذّي يبدو أنه تعاقد مع زيري بن عطية على حرب باديس وحاصرت قواتهما المشتركة تبسة سنة390هـ[4].

ولم يقف مع باديس إلاّ عمّه حمّاد، استمر الصراع حتى وفاة زيري بن عطية في12 رمضان391هـ في المغرب الأوسط، وقبيل وفاة زيري بن عطية قضى حماد بن بلكين على عمه ماكسن بن زيري وابنه محسن فتخلص باديس من زيري بن عطية وأعمامه في نفس الفترة. لقد كان النشاط الزناتي في مواجهة صنهاجة استغلالا للفرص والنزاعات الداخلية.

---

[1] _ ابن الأثير،أبي الحسن علي، الكامل في التاريخ، ج 8، تحقيق، الدقاق محمد يوسف، طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص ص 7- 8.

[2] _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص250.

[3] _ ابن خلدون، العبر، ج6، ص186.

[4] _ابن الأثير،المصدر السابق،ج8،ص8.بن خلدون،العبر،ج7،ص40.

ج _ العهد الحمادي(405هـ_547هـ) والمرابطي (472هـ_539هـ)في المغرب الأوسط:

1 _ تأسيس الدولة الحمادية

أدّى الصراع العسكري بين الزيريين خلفاء الفاطميين والزناتيين حلفاء الأمويين بالأندلس في المغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري، إلى بروز شخصية "حماد بن بلكين بن زيري" كقائد عسكري وسياسي، كان يتداول حكم أشير هو وأخوه يطوفت في عهد أخيهم المنصور بن بلكين(373هـ_386هـ).

بعد وفاة المنصور بن بلكين سنة386هـ/996م، خلفه ابنه باديس الذي خرج عنه أعمامه إلّا حمادا، فكلفه بمواجهتهم، فانتصر عليهم لكن الصراع ضد زناتة لم يتوقف عند هذا الحد مما دفع باديس إلى المزيد من الاعتماد على "حماد" هذا الأخير الذي اشترط على ابن أخيه تملك أشير وكل ما يفتحه من بلاد زناته في المغرب الأوسط.

قَبِل باديس بشروط عمه لتأمين ملكه وحدوده الغربية وذلك سنة395هـ، هذا العقد سيكون البداية الحقيقية لوضع أسس دولة جديدة في المغرب الأوسط هي "الدولة الحمادية "التي ارتبط تأسيسها باختطاط حماد لمدينة: "القلعة" في جبل كيانة سنة398هـ، استمر بناؤها حتى سنة405هـ، حيث أصبحت قاعدة الدولة الجديدة وعاصمتها[1]، وأصبح حمادا أقوى شخصية في إقليم الزاب[2].

تطلع حماد لتقوية دولته وتوسيع نفوذها، لدرجة جعلت باديس يتخوف من نفوذه في منطقة الزاب، أدت هذه المشاعر المتناقضة بين حماد الطامع في التوسع وتقوية دولته في إقليم الزاب والمغرب الأوسط، وباديس المتخوف من هذا النفوذ المتنامي والأطماع التوسعية لحماد، وربما النادم على فقدان إقليم الزاب من بلاد المغرب الأوسط.

أدت هذه المشاعر والطموحات المتناقضة إلى تدهور العلاقات بين الطرفين لدرجة اندلاع الحرب بينهما سنة405هـ، خاصة بعد اتخاذ حماد عدة إجراءات دلت على انفصاله عن السلطة الزيرية والخلافة الفاطمية ومن أبرز مظاهر ذلك، تكوينه لجيش قوي قوامه حوالي30 ألف مقاتل، إظهار السنة وقتل الرافضة، نبذ طاعة العبيديين وإعلان الدعوة للعباسيين منذ405هـ.

---

1 - Golven,Lucien, Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,op cit,pp100-101.

2 - بورويبة، رشيد، الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص ص33-34.

كادت الحرب سنة405هـ أن تقضي على دولة حماد الفتية لولا الموت المفاجئ لباديس الذي كان يحاصر "القلعة"، فانسحبت قواته نحو المحمدية(المسيلة) ومنها إلى القيروان.
خلف "المعز" والده باديس سنة 406هـ وكان صغير السن ففضل ولاة أمره وفق الحرب وتثبيت حكم المعز، لكن الحرب تجددت وهزم حماد للمرة الثانية وطلب العفو والصلح فكان له ذلك سنة408هـ[1].

ويبدو من سياق الأحداث أنّ المعز لم يكن يرغب في القضاء على نفوذ حماد بقدر ما كان يتطلع إلى وضع حد لطموحاته التوسعية خاصة على حساب مناطق نفوذ الدولة الزيرية في افريقية(المغرب الأدنى)، ومما يؤكد ذلك هو قبول المعز للصلح مع حماد والعفو عنه وأكثر من ذلك إكرام ابنه القائد بن حماد ومصاهرة ابن حماد "عبد الله".
كما أمضى له المعز بن باديس الإنفراد(الاستقلال) بالمسيلة(المحمدية) وطبنة والزاب وأشير ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة ومقرة وتاهرت وما يفتح على يديه من بلاد المغرب وهكذا استقل حماد ببلاد المغرب الأوسط.
رضي الجميع بالصلح وتحسنت العلاقات بينها[2]، ساد السلام النسبي بينهما حتى غزو بني هلال لبلاد المغرب في أواخر في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي442هـ.

2_ المجال الجغرافي للدولة الحمادية[3]

إنّ أبرز ما يميز حدود الدولة في بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط هو عدم استقرارها _في الغالب_ وهذا ينطبق بشكل واضح على حدود الدولة الحمّادية التي امتدت في معظمها في بلاد المغرب الأوسط فشملت إقليم الزاب ومن أبرز مدنه، طبنة، المحمدية(المسيلة)، سطيف والقلعة (العاصمة)، كما امتدت شمالا من بونة(عنابة) من أعمال قسنطينة، مرسى الدجاج، جزائر بني مزعنة حتى القرب من مدينة وهران في سيوسيرات(سيق)

---

[1] _ عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، طبعة دار الصحوة، القاهرة، 1991، ص ص62-69.

[2] _ نفسه، ص 69. بن خلدون، العبر، ج6، ص259.

[3] – ينظر: الملحق رقم 2.

وتيهرت شرق تلمسان أما جنوبا فامتدت حتى واد ريغ وورجلان [1]، كما توسعت على حساب زناتة حتى تلمسان وفاس في عهد القائد بن حماد.

لكن هذه الحدود توسعت على حساب افريقية خاصة بعد ضعف الزيريين بعد هزيمة المعز بن باديس في معركة حيدران سنة443هـ أمام بني هلال مما سمح للناصر بن علناس بالاستيلاء على تونس والقيروان وصفاقص وبلاد الجريد.[2]

عاشت الدولة الحمادية حوالي142سنة(405هـ حتى54هـ) ويمكن تمييز مرحلتين أساسيتين في تطورها من الناحية الحضارية، مرحلة القلعة (405هـ_460هـ) ومرحلة بجاية(46هـ_547هـ) وفي كل مرة تميزت الدولة الحمّادية فيها بسمات سياسية وعسكرية وحضارية تختلف نسبيا عن الأخرى وربما كان ذلك مرتبطا بالجغرافيا والسكان.

3)_ مراحل تطورها:

2 _1 :مرحلة القلعة (405هـ_460هـ)[3]

وضعت اللبنات الأولى لبناء الدولة الحمّادية في هذه المرحلة _كما سبق الذكر_ حيث اختط حماد القلعة سنة 398هـ، واتخذها عاصمة لدولته الفتية سنة 405هـ.

بنى حمّاد قوة عسكرية بلغت سنة405هـ حوالي 30 ألف مقاتل، وأعلن استقلاله السياسي والمذهبي عن الزيريين وخلفائهم الفاطميين، كما استطاع تأمين السلام لمدة معتبرة لدولته الفتية خاصة مع الزيريين في عهد المعز بن باديس(406هـ_447هـ).

حكم الدولة الحمادية في هذا العهد خمس أمراء هم حماد بن بلكين مؤسسها(405هـ_419هـ)، القائد بن حماد(419هـ_446هـ)،محسن بن القائد(446هـ_447هـ)، بلكين بن محمد بن حماد (447هـ_454هـ)، الناصر بن علناس(454هـ_481هـ).

نقل هذا الأخير في بداية حكمه سنة 460هـ عاصمته إلى بجاية متأثر بضغط القبائل العربية الهلالية ومتفاديا عواقب مواجهتها، مما أدّى إلى انتقال الدولة إلى مرحلة جديدة في

---

[1] _ عويس، عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص80-85.

[2] _ نفسه، ص70.

[3] - Golven,Lucien,Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,op cit,pp105 – 109.

تطورها السياسي والعسكري والاقتصادي والحضاري،وقد تميزت المرحلة الأولى بعدّة خصائص من أبرزها :

- فتوّة الدولة وجهود التأسيس.
- بناء هياكل الدولة السياسية،العسكرية والإدارية.
- توسع نشاطها الاقتصادي و التجاري كمركز هام في بلاد المغرب.

_ ظهور نشاط فكري معتبر،تدعم بالمهاجرين القادمين من افريقية خاصة بعد غزو افريقية وتراجع دولة المعز بن باديس[1].

3 _ 2 : مرحلة بجاية (460هـ_547هـ)[2]:

بدأت تصل طلائع بنو هلال إلى بلاد المغرب الأوسط وتمثل ضغطا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا على سكان الدولة الحمّادية وحتى حكامها في القلعة لكن بنو حماد تفادوا الاصطدام العسكري معهم كما فعل المعز خوفا من الكارثة، وحاولوا استيعابهم خاصة في عهد الناصر بن علناس(454هـ_481هـ)، الّذي يعد من أعظم وأشهر ملوك بني حماد، بلغ نفوذه إلى ورجلان وبسكرة كما توسع على حساب إفريقية بعد تراجع نفوذ الزيريين حتى صفاقس وقسنطينة والقيروان وتونس، نقل العاصمة إلى بجاية منذ460هـ وكان محبا للفنون والعمارة، فبني في بجاية قصر اللؤلؤة.

بلغت الحياة الثقافية في عهد أوج ازدهارها في جميع العلوم ،الدينية والعقلية والتطبيقية

_ عرفت الدولة في عهده حالة من الانفتاح على العالم الخارجي بحكم موقعها(العاصمة) الجديد، في المجال الاقتصادي والثقافي والسياسي[3].

_ حكم هذه الفترة خمس أمراء منهم الناصر بن علناس الّذي يعد مخضرما جمع بين المرحلتين القلعة وبجاية، وهمّ الناصر بن علنا المنصور بن الناصر(481_498هـ)، باديس

---

[1] – تناولت هذا الجانب في الدولة الحمادية دراسة كل من بورويبة رشيد، وعويس عبد الحليم بعنوان الدولة الحمادية، إلى جانب عدد معتبر من الرسائل الجامعية (ماجستير، ماستر).

[2] – – Golven,Lucien,Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,op cit,pp,110 – 115.

[3] – بورويبة، رشيد، المرجع السابق، ص ص58– 70.

بن المنصور (498_498هـ)، العزيز بن المنصور (498_515هـ)، يحيى بن عبد العزيز (515_ 547هـ).

قوي في هذه المرحلة نفوذ المرابطين في بلاد المغرب الأوسط واستطاعوا الاستيلاء على تلمسان وزحفوا نحو وهران فأصبح وجودهم في غرب بلاد المغرب الأوسط حقيقة مؤكدة[1]. كما واجهت الدولة الحمّادية تعاظم نفوذ العرب الهلالية الذين ثاروا ضد المنصور الناصر (481_498هـ).

أدى الضغط المرابطي والهلالي إلى تراجع تدريجي للقوة العسكرية والنفوذ السياسي للحماديين في بلاد المغرب الأوسط[2]، لكن الحياة الثقافية بلغت في هذه المرحلة أوج قوّتها وازدهارها مستفيدة من الموقع المنفتح للعاصمة على العالم الخارجي وتوسع شبكة علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية، إلى جانب التسامح الفكري والديني السائد فيها، حيث تراجع التعصب المذهبي واتصل حكامها بالأندلس بشكل مباشر والمشرق وحتى العالم المسيحي في عهد الناصر بن علناس.

زاد الاهتمام بالفنون في مجال العمارة والموسيقى واللباس والصناعة واستمر هذا التطور حتى أواخر عهد العزيز بن منصور(498_515هـ)

وصل في هذه الفترة المهدي بن تومرت إلى بجاية قادما من المشرق سنة 511، وقد أثار مقامه فيها فتنة ذات أبعاد فكرية واجتماعية بسبب نزعته المعادية للحكام والمذهب المالكي وفقهائه، نزل المهدي بمسجد الريحانة، واتخذه منبرا لنشر المفاهيم التي جاء يدعوا لها، هذه المفاهيم التي كانت تحمل بعدا تجديديا بنزعات متبايينة جمعت بين السنة في ثوبها الأشعري، والباطنية في ثوبها صوفي المناهض لهيمنة فقهاء المالكية ونزعتهم إلى التقليد والجمود والتعصب لعلم الفروع[3].

---

1 - Golven,Lucien,Le Maghreb Central,op cit, p116.

2 - Ibid, pp122 – 123.

3- النجار،عبد المجيد، المهدي بن تومرت، حيات هوآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، طبعة، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص ص356،89.

كما تعاظمت الأخطار الخارجية المؤذنة بنهاية العهد الحمّادي في بلاد المغرب الأوسط ومن مظاهر ذلك زحف النُرمان على افريقية ودخولهم المهدية وتطلعهم للتوسع على حساب الدولة الحمّادية، هذا في الشرق.

أما في الغرب فقد بدأ زحف الموحدين، خلفاء المهدي بن تومرت يتعاظم قادما من بلاد المغرب الأقصى، يتوغل في المغرب الأوسط ويقلص نفوذ الحمّاديين حتى وصل إلى العاصمة بجاية سنة547هـ مما أدّى إلى سقوط الدولة على يد الموحدين.

وقد تميزت الدولة في هذه المرحلة بجملة من الخصائص:

الازدهار الاقتصادي والثقافي، ظهور صناعة بحرية، تطور العلوم التطبيقية والعقلية من رياضيات والفلك وفلسفة وتوسع علاقاتها التجارية والسياسية والثقافية مع بلاد المشرق والأندلس وحتى العالم المسيحي.

كما تراجعت النزعة العسكرية في الدولة الحمادية وخلد حكامها إلى طلب السلام وحياة الرفاهية ومالوا إلى الترف[1].

د _ النفوذ المرابطي بلاد المغرب الأوسط(473هـ - 437هـ).

وجه يوسف بن تاشفين قائد المرابطين[2] أول حملة عسكرية ضد بلاد المغرب الأوسط سنة472هـ، هذه الحملة التي استطاعت دخول تلمسان سنة473هـ، كما واصلت زحفها حتى جبال الونشريس ومنطقة شلف ووهران وتنس ثمّ جزائر بني مزغنة[3] .

كانت الحملة بقيادة "مزدلي" وقومها عشرون ألف مقاتل، دخلت تلمسان وألقي القبض على أميرها "معلى بن يعلى المغراوي" فقتل[4].

اصطدم التوسع المرابطي في بلاد المغرب الأوسط بالنفوذ الحمادي في عهد الناصر بن علناس (460هـ_480هـ) ورغم ضعف قوة الحماديين إلاّ أنهم استعانوا بعرب بني هلال لاسترجاع

---

[1] – النجار، عبد المجيد، المرجع السابق، ص90.

[2] _ المرابطون حركة سياسية،دينية إصلاحية ظهرت في جنوب الصحراء، وامتد نفوذها إلى بلاد المغرب والأندلس، تبنت المذهب المالكي وفرضت سيادته في القرن الخامس وحتى أواسط القرن السادس الهجري.

[3] _ ملياني، زينب، التصوف في المغرب الاسلامي في عصر المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير مرقونة، تحت إشراف، محمد الأمين، بالغيث، جامعة الجزائر، 2000، ص06.

[4] _ حمدي، عبد المنعم، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، ط 1997،العبر، ج6، ص188، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ص230.

المناطق التي فقدوها في غرب المغرب الأوسط[1]، وحاصر الناصر بن علناس تلمسان لكنّه عجز عن دخولها بعد أن أقام فيها المرابطون حامية عسكرية قوية.

استمر الوجود المرابطي ببلاد المغرب الأوسط لحوالي 66 سنة(473_537هـ) تميز بانجازات حضارية متنوعة في مجال العمرانالفكر السياسي، الاقتصاد، الإدارة والجيش[2].

ربما دلّ توقف التوسعات المرابطية على تغلب نزعتهم الجهادية ونصرة الإسلام في الأندلس، ولم يكن إسقاط دولة سنية مالكية كالدولة الحمادية يمثل لهم أي هدف استراتيجي، وإنّما كان الهدف من التوسع في بلاد المغرب الأوسط بالدرجة الأولى هو المرور إلى افريقية لمواجهة النصارى من النورمانديين وهذا دليل ثاني على النزعة الجهادية تأكد بدعم بحري للدولة الصنهاجية فيما بعد، لكن نداء الاستغاثة كان قويا من الأندلس، فلباه يوسف بن تاشفين[3].

في عهد علي بن تاشفين، خليفة يوسف بن تاشفين،عاد "محمد بن تومرت" المصمودي من رحلته إلى المشرق وأقام في بجاية عاصمة الحماديين، ثمّ انتقل إلى تلمسان حيث نزل بمسجد العُبّاد واستمال أهلها، ثمّ توجه إلى فاس ومنها إلى مراكش.

هـ _ العهد الموحدي (539هـ_636هـ)إلى قيام الدولة الزيانية :

تعرف سكان بلاد المغرب الأوسط على أفكار ومنهج ابن تومرت من خلال رحلة عودته من المشرق، هذه الرحلة العلمية التّي دامت خمسة عشرة سنة قضاها المهدي بين عواصم العالم الإسلامية الثقافية خاصة في بلاد الحجاز والعراق، التقى فيها عددا من العلماء وأخذ منهم أفكار متنوعة لدرجة التناقض جمعت بين العقائد وأفكار التشيع والاعتزال والأشاعرة[4].

في المغرب الأوسط نزل ابن تومرت في قسنطينة عند أحد فقهائها ويسمى "عبد الرحمن المسيلي" ثمّ عند يحيى بن أبي القاسم وعبد العزيز بن محمد[5]، ثمّ انتقل إلى عاصمة الحماديين بجاية في عهد عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن الناصر بن علناس حوالي سنة

---

1 _ نفسه، ص231.

2 _ سعدون، عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، طبعة، دار النهضة، بيروت، 1985، ص ص،48،164،166.

3 – Golven,Lucien,Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,op cit,pp125 – 126.

4 _ النجار، عبد المجيد، المرجع السابق، ص ص131–138.

5 _ الصنهاجي، أبوبكر بن علي(البيدق)، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق، حاجيات عبد الحميد، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص34.

سنة512هـ (511هـ_1117م) ، في بجاية نزل بمسجد الريحانة ومارس التعليم وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد، واجتمع حوله الطلبة والفقهاء[1].

لكن منهجه يقوم على أساس الأخذ بالأصول والتزام التأويل، فكان مثار جدال وإعجاب، لكن منهجه العنيف في تغيير النكر والأمر بالمعروف دفع الأمير الحمادي إلى إخراجه من المدينة، استقر ابن تومرت غير بعيد عن بجاية برباط "ملالة" وفي حماية(بني عبد العزيز) الّذين حموه لمّا طلبه الأمير الحمادي، في رباط ملالة بنا مسجدا واتخذه مدرسة لنشر أفكاره فقصده المريدون والطلبة كان أشهرهم "عبد المؤمن بن علي الكُومي"[2].

قرر ابن تومرت الذهاب إلى تلمسان، فمرّ بمتيجة، وجساس، تنملت ثم نزل تلمسان في "جامع العباد" وفيه استمال أهلها[3]، ثمّ اتجه نحو المغرب الأقصى.في طريق عودته كان المهدي يتخير الأصحاب والرّفاق، فلّما دخل فاس كان معه عبد الواحد الشرقي، والحاج عبد الرحمن، والحاج عبد الله يوسف الدكالي وعبد الله بن محسن الونشريسي: "المكنى بالبشير" وعبد المؤمن بن علي وأبو بكر الصنهاجي وعبد الحق بن عبد الله[4].

دخل ابن تومرت بلاد المغرب الأقصى وقضى فيها حياته في صراعه ضد سلطة المرابطين الدينية والدنيوية انتهت بمقتله سنة524هـ، وشاءت الأقدار أن يكون خليفته الأول من بلاد المغرب الأوسط وهو"عبد المؤمن بن علي الكومي" الّذي واصل مسيرته في مواجهة دولة المرابطين.

دارت أولى مراحل الصراع السياسي والعسكري بين المرابطين وأتباع المهدي بن تومرت والّذين سماهم "بالموحدين" في بلاد المغرب الأقصى في الفترة الممتدة ما بين518هـ_537هـ[5].

انتقل الصراع العسكري بين الطرفين إلى بلاد المغرب الأوسط منذ 526هـ حيث وصلت جيوش الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي إلى تلمسان ثمّ وهران، ودخلت في طاعته غمارة، ربّما كان هدف عبد المؤمن هو إشراك قبيلته(الكومية) في بناء دولته الجديدة ثمّ عاد إلى بلاد

---

[1] _ نفسه، ص36، النجار، عبد المجيد، المرجع السابق، ص90. Golven,Lucien,Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,pp121 – 122.

[4] – الصنهاجي، أبوبكر بن علي(البيدق)، المصدر السابق، ص ص36-42.

[3] _ البيدق، الصنهاجي، أبوبكر بن علي، المصدر السابق، ص ص46-47.

[4] _ نفسه، ص52.

[5] _ النجار ،عبد المجيد، المرجع السابق، ص ص128-129.

المغرب الأوسط سنة539هـ/1144م واستولى تدريجيا على مدن المغرب الأوسط، فدخل مليانة سنة544هـ/1159م، ثمّ جزائر بني مزغنة صلحا، ثمّ دخل بجاية عاصمة الحماديين، ثمّ دخل الموحدون قسنطينة وبونة ومنها زحفوا نحو افريقية[1].

سيطر الموحدون مع مطلع النصف الثاني للقرن السادس الهجري على معظم بلاد المغرب الإسلامي بما فيها بلاد المغرب الأوسط، واستمر وجودهم ببلاد المغرب الأوسط حتّى انفصال بني عبد الواد الزيانيين، أمراء تلمسان عنهم بزعامة يغمراسن بن زيان بن ثابت سنة633هـ/1235م.

[1]– ابن أبي الزرع، الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة، الرباط1972،ص 194.

الفصل الأول

الإباضية في المغرب الأوسط من القرن الثالث حتى السادس الهجري(9-12م)

تمهيد

أولا: الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة الحركة الإباضية

أ - الجذور التاريخية لنشأة الحركة الإباضية

ب - الأصول الفكرية للإباضية

ثانيا_ الدور السياسي للاباضية في المغرب الأوسط

أ_ مرحلة الدعوة

ب _ مرحلة تأسيس الدولة الرستمية(160هـ -296)

ج _ مرحلة ما بعد سقوط الدولة الرستمية(296- 500هـ)

ثالثا - مساهمة الإباضية في تطور الحياة الثقافية في المغرب الأوسط(ق3_6هـ/9_12م)

أ - النشاط الفكري للإباضية في عهد الدولة الرستمية في ق3هـ/9م

ب - النشاط الفكري والثقافي للاباضية بعد سقوط الدولة(296_500هـ)

تمهيـــد:

أثارت مسألة خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته جدلا عميقا بين المسلمين فتشعبت الآراء وتناقضت فيمن هوّ أحق بخلافة الرسول في تسيير شؤون المسلمين.

أدّى هذا الخلاف إلى بروز أهم الفرق الإسلامية في صدر الإسلام كالخوارج والشيعة، خاصة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان _رضي الله عنه_ وقيام الفتنة الكبرى بين الصحابة وموقعة الجمل[1] ثمّ "معركة صفين[2]" في ذي الحجة سنة36هـ بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام، استمرّ القتال بين الطرفين بشكل متقطع حتّى محرم سنة37هـ حيث توقف القتال، ثمّ تجدد بعنف مما دفع أهل الشام رفع المصاحف منادين بتحكيم كتاب الله[3].

أثارت قضية التحكيم جدلا وانشقاقا عمقين في صفوف أتباع علي بن أبي طالب، وأدّت إلى ظهور فئة معارضة لمسألة التحكيم، بررت موقفها بقولهم "لا حكم إلا لله وأنّه لا يجوز تحكيم الرّجال في أمر من أمور الله".

انشقت جماعة من جيش علي الرّافضين للتحكيم ونزلوا حروراء قرب الكوفة، وهم الذّين أطلق عليهم المؤرخون اسم الحرورية أو"المحكمة"، تواصل علي معهم وحاول إقناعهم فدخل بعضهم الكوفة، وكانوا يصلون خلفه في المسجد، وكثيرا ما قاطعوه في خطبه بقولهم: "لا حكم إلّا لله"، وحاولوا دفع علي إلى رفض التحكيم، وعدم إرسال أبو موسى الأشعري للمحكمة ولماّ رفض مطلبهم اختاروا لهم إماما هو "عبد الله بن وهب الراسبي"[4]، وتجمّعوا بمنطقة "النهروان" قرب مكان بناء بغداد فيما بعد، لكن التحكيم فشل، فقرر علي حسم المعركة بالقوة ضدّ أهل الشام وحاول استمالة أهل النهروان، لكنه فشل فقرر مواجهتهم قبل أهل الشام، فانقسم أهل النهروان بين من عاد إلى علي ومن فضل الحياد وبقي عبد الله بن وهب الراسبي وأتباعه،

---

[1] _ وقعة الجمل هي معركة جرت أحداثها سنة 36هـ، بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والجيش الذي يقوده الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وعائشة –رضي الله عنهم– التي قيل أنها ذهبت مع الجيش على تركب جملا ،فسميت المعركة نسبة إلى ذلك الجمل.

[2] – موقعة صفين هي المعركة التي وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان في شهر صفر سنة 37هـ،وانتهت بعملية التحكيم سنة38هـ.

[3] _ الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير،تاريخ الأمم والملوك،ج6،طبعة،دار الفكر،1979،ص ص37–38.

[4] _ عبد الله بن وهب الراسبي قبيلة الأزد اليمنية كان قائد الخوارجفي معركة النهروان.

فكانت هزيمتهم في سنة38هـ، لكن رغم الهزيمة إلاّ أنّهم استطاعوا الغدر بعلي وقتله على يد "عبد الرحمن بن ملجم الخارجي"سنة40هـ[1].

عرف هذا التيار عدة انشقاقات خاصة في القرن الأول الهجري، تراوحت مواقف فرقه بين التطرف والاعتدال، فإذا كان الأزارقة في الطرف الأقصى تطرفاً، فإن الإباضية تمثل الطرف الأكثر اعتدالاً والأقرب إلى التوجه السني.

يعالج هذا الفصل قضية الوجود الإباضي في المغرب الأوسط في الفترة الممتدة من القرن الثالث حتى أواخر القرن السادس الهجري، محاولا البحث في الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة هذا التوجه مشرقا ومغربا، ثم البحث في دوره السياسي والفكري وحتى الاجتماعي، ومساهمته في تطور ثقافة مجتمع المغرب الأوسط في مرحلة الدراسة.

أولا:الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة الحركة الإباضية:

أ ـ الجذور التاريخية لنشأة الحركة الإباضية:

1 . ظهور حركة الخوارج في المشرق الإسلامي:

كان معظم الزعماء المعارضين لحركة التحكيم من القبائل العربية الشمالية التّي أسلمت متأخرة ولم تكن ذات إرث حضاري، سيطرت عليهم النزعة البدوية الرافضة للحكم المركزي وسلطة قريش(نزعة قبلية) وكذا قبيلة تميم المضرية، التي ارتدت ومنها سجاح التي ادعت النبوة[2].بدأت أراء الخوارج تظهر رافضة لنفوذ قريش بقولهم أنّ الخلافة "يجب ألا تكون وقفا على جماعة معينة"، كما تميزت حركة الخوارج بالعنف والتطرف منذ البداية، والبراءة من مخالفيهم واعتبارهم كفارا إلّا إذا تابوا[3]، لذا استحلوا سفك دماء باقي المسلمين المخالفين لهم في الرأي باعتبارهم كفارا مرتدين، وكان أكثرهم تطرفا، الأزارقة، الّذين استباحوا قتل النساء والأطفال الصغار[4].

---

[1] – الطبري،المصدر السابق،ج6،ص ص83-84.

[2] – حُرُوبُ الرِّدَّةِ هي سلسلةٌ من الحملات العسكريَّة التي جرت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ضد القبائل التي بدأت تتراجع عن الإسلام بعد وفاة الرسول بين سنتيّ 11 و12هـ.

[3] _ عوض، خليفات، نشأة الحركة الإباضية، طبعة عمان،1987، ص55

[4] _ الأزارقةإحدى فرق الخوارج، سميت باسمنسبة إلى زعيمها نافع بن الأزرق، وهي من الفرق الخارجية الأكثر تطرفا في تاريخ الإسلام مما أدى إلى زوالها.

تمت القطيعة بين علي والمحكمة لمّا نزلوا حروراء وانتخبوا إماما لهم هو "عبد الله بن وهب الراسيبي" واتفقوا على اللقاء في النهروان، وأصروا على أن يتوب علي ويخضع لسلطة إمامهم[1].

واجه علي الخوارج في معركة النهروان سنة38هـ، ففرق جموعهم وتلاشت قوتهم بعد ذلك رغم تعدد ثوراتهم، كما نقلوا نشاطهم السياسي والعسكري من الكوفة إلى البصرة وقاموا بعدّة ثورات في الفترة الممتدة ما بين(41-64هـ) لكنها كانت فاشلة وبالمقابل كان موقف الولاة الأمويون حازما لدرجة القسوة خاصة في عهد "زياد بن أبيه" وابنه عبيد الله[2].

أدى فشل الثورات ضد الولاة الأمويين إلى بروز جناح يميل للاعتدال اتخذ من البصرة مقرًا له واختار السلم بدلا من الحرب لنشر أفكاره، تزعم هذا التوجه "أبو بلال مرداس بن أدية التميمي"هذه الجماعة هي التي كوّنت النواة الأساسية للفرقة الاباضية والصفرية[3] .

كانت تميم من أهم قبائل البصرة ومعظمهم كانوا ممن رفضوا التحكيم وشهدوا النهروان، كما كانت أهم الشخصيات السياسية والدينية والفكرية في البصرة منهم[4]، منهم في البصرة، أبرزهم الأحنف بن قيس السعدي التميمي(ت87هـ) المشهور بحكمته وسداد رأيه، وكان من أنصار علي بن أبي طالب حتّى في النهروان لكنّه تخلّى عنه بعد ذلك، بيد أنه لم يوالي بني أمية أو الخوارج المتطرفين، وربما كان متعاطفا مع المعتدلين "القعدة" من أصحاب أبي بلال مرداس بن أدية التميمي لأسباب ذات أبعاد قبلية(تميم) لذا يدعي الاباضية أنّه أحد أسلافهم[5].

في البصرة بدأ مرداس بن أدية بنشر أفكاره لتكوين تيار معتدل لقب أصحابه من طرف خصومهم بالقعدة، وكان مرداس يعقد المجالس والمناظرات فكسب العديد من الأنصار من بني تميم وابتنى وأنصاره مسجدا بالبصرة، كما أنّ سياسة زياد بن أبيه اتجاه الخوارج المعتدلين أو "القعدة" كانت متسامحة وإن كان يتحسس خطرهم.

---

[1] _ بحاز ،إبراهيم،الدولة الرستمية،ص73.

[2] _ عوض خليفات،المرجع السابق،ص64.

[3] _ نفسه،ص65.

[4] _ مرداس بن أدية التميمي،شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب،وأنكر التحكيم واشترك في معركة النهروان مع المحكمة ضدّ علي بن أبي طالب،لكنه أدرك أنّ القتال بين المسلمين أمر لا يصح،فأنسحب وأهله من تميم وهم سكان البصرة آنذاك.

[5] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص7.

رغم المواقف المعتدلة لابن مرداس إلّا أنّ عبيد الله بن زياد سجنه وقتله هو ومجموعة من أصحابه سنة 61هـ.

كان ابن مرداس إماما للخوارج "القعدة" ثمّ شهيدا ومثلا أعلى لأتباعه فانتقم له الخوارج باغتيال "عباد بن علقمة المازني"، قائد الجيش الأموي في البصرة الذي قتل مرداس وأصحابه[1] ومنذ ذلك الحين أصبح الاغتيال السرّي أسلوبا لدى القعدة والاباضية فيما بعد للتخلص من كبار أعدائهم.

في هذه الفترة أي حوالي 64هـ ظهر "نافع بن الأزرق" من بين الخوارج المتطرفين وانتهى الجدل بين الخوارج إلى تكفير ابن نافع للقعدة من الخوارج كباقي المسلمين واستحل دماء وأموال المسلمين[2].

يعتبر هذا الحدث الانقسام النهائي بين الخوارج المتطرفين والمعتدلين "القعدة" هذه الفئة الأخيرة التي آثرت الدعوة لمذهبها بالطرق السلمية، أمّا "القعدة" فلم ينقسموا إلى إباضة وصفرية إلّا في وقت لاحق، بعد مقتل مرداس برز الشاعر المعروف "عمران بن حطان من بين قادتهم البارزين، والمتتبع لتاريخ "القعدة" من الاباضية والصفرية قبل انقسامهما يرى أنّهم كانوا يتولون كل من عبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير السعدي،ومرداس بن أدية التميمي وعمران بن حطان[3].

في عهد عمران بن حطان اهتم "القعدة" بالتعمق في علوم الدين والتزموا الهدوء، كما أنّ عمران يعد من العلماء المحدثين وفقيها سار على منهج أبي بلال في نشر الدعوة وإنكار الاستعراض وتحريم أموال ودماء المسلمين.

أمّا بعد الافتراق بين "القعدة" فقد اعتبر الصفرية أن "عمران بن حطان" هو مؤسس مذهبهم الحقيقي، كما اعتبر الاباضية جابر بن زيد مؤسس مذهبهم، في حين يذهب السنة إلى نفي أن يكون جابر بن زيد على نحلة الخوارج وإن كان من بني تميم[4].

---

[1] _ عوض،خليفات،نشأة الاباضية،ص70.

[2] _ الشهرستاني،المصدر السابق،ج1،ص ص95-97.

[3] _ عوض،المرجع السابق،ص72.

[4] _حجازي،عبد الرحمن عثمان،تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي(95-713هـ)،طبعة، المكتبة العصرية،بيروت،2000،ص ص16-19.

توفي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة 64هـ، فأعلن عبد الله ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين واتخذ من مكة عاصمة لحكمه، وبايعته الولايات كلها إلا بعض المناطق في الشام، لكن ثورته ضد الأمويين فشلت سنة 73هـ، رغم مساند الخوارج المعتدلين(القعدة) لها، كانت العلاقة بين القعدة وابن الزبير حسنة لم تعرف الاصطدام حتّى أنّ مصعب ابن الزبير كان يحترم زعماءهم ويمشي في جنائزهم، وقد أدرك الطرفان أهمية السلام بينهما[1].

2_ انشقاق الخوارج المعتدلين"القعدة" وظهور الإباضية.

عاد الحكم الأموي إلى العراق بعد فشل ثورة بن الزبير، فنشط "القعدة" في معارضة علنية دون اللجوء للسلاح وتولى الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق75هـ، ولما اشتدت دعوتهم طلب الحجاج من عبد الملك بن مروان السماح له بمواجهة عمران بن حطان وأتباعه لأنهم أفسدوا العراق.

لكن رغم ذلك حاول الأمويون "الحجاج" مهادنة عمران وأتباعه بهدف مواجهة المتطرفين من الخوارج كالأزارقة والنجدات[2] وحتّى الشيعة، وكان الحجاج قد حبس عمران لكنه أطلق سراحه، فلما اجتمع إليه أصحابه طلبوا منه محاربة الحجاج فقال لهم: "هيهات غل يدا مطلقها، واسترق رقبة معتقها، والله لا أحاربه أبدا..."[3].

أدّت سياسة الحجاج العنيفة وموقف عمران بن حطان الرافض للخروج إلى انقسام "القعدة" إلى صفرية[4]، ترى ضرورة الخروج والثورة لكنها لا تكفر من قعد، وإباضية[5] آثرت الاستمرار في القعود حتى تأتي الظروف الملائمة لإقامة الإمامة طبقا لمبادئهم.

3 _ ظهور الحركة الصفرية ونشاطها ببلاد المغرب:

جاء ظهور الصفرية كنتيجة لسياسة الحجاج بن يوسف القائمة على اضطهاد الخوارج المعتدلين أو القعدة، ورفض عمران بن حطان فكرة الخروج والثورة، فوقف الصفرية موقفا وسطا

---

[1] -الطبري،المصدر السابق،ج7،ص13 ومايليها.

[2] _ الشهرستاني،المصدر السابق،ص ص95-99.

[3] _ الدرجيني،المصدر السابق،ص6،خليفات،نشأة الحركة الإباضية،ص74.

[4] _ أتباع زياد الأصفر أو النعمان بن الأصفر أو عبد الله بن صفار،وهم مثل الأزارقة،خالفوهم فقط في امتناعهم عن قتل أطفال المخالفين لهم في الاعتقاد.

[5] _ الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض المري التميمي.

بين تطرف ابن الأزرق واعتدال الاباضية، مما ساهم في التخفيف من نزعة التطرف لدى الخوارج في عقائدهم، حيث رفض الصفرية تكفير عامة المسلمين، كما رفضوا الاستعراض واستباحة أموال ودماء المسلمين وأطفالهم، لكنّهم أجازوا التقية في القول دون العمل، وأجاز بعضهم تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية[1].

أمام فشل ثورات الخوارج لعدة أسباب منها التطرف والفوضوية(عشوائية) والانقسامات الداخلية لجأ الخوارج المعتدلون من الصفرية والاباضية إلى أسلوب الدعوة "السرية المنظمة"، وبدأت جهودهم في الدعوة تتجه نحو بلاد المغرب الإسلامي البعيدة عن قبضة السلطة المركزية للخلافة.

تذكر المصادر الاباضية أنّ "أول من جاء بطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد[2]، قال قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة[3] مولى ابن عباس على بعير، سلمة يدعو إلى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية"[4].

رغم ما يثيره هذا التقارب من الشك في صدق هذه المقولة إلّا أنّها تؤكد أنّ المحطة الأولى للمشارقة في بلاد المغرب كانت هي القيروان، حيث اتصل عكرمة بزعيم مطغرة "ميسرة المطغري" وتلقى على يديه هذا الأخير تعاليم الصفرية ثمّ عاد إلى أهله ونشر مذهب الصفرية بين برير مطغرة[5]، كما اتصل بعكرمة من مكناسة أبو القاسم سمكو بن واسول حتّى أضحى "مقدم الصفرية" في بلاد المغرب.

نشر "أبو القاسم سموكو بن واسول" المذهب بين قومه مكناسة معتمدا أسلوب التستر والتخفي واتّجه نحو الصحراء فرحل إلى واحة تافيلات وامتهن تربية الماشية ونشر مذهب الصفرية في منطقة التقاء القبائل الرعوية والقوافل التجارية القادمة من بلاد السودان[6].

---

[1] _محمود إسماعيل،المرجع السابق،ص 45.

[2] _ سلمة بن سعيد،صنفه الدرجيني في طبقة تابعي التابعين،أخذ العلم عن إمام المذهب أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة هو أول من جاء من البصرة بمذهب الإباضية،ليدعو إليه في بلاد المغرب الإسلامي.

[3] _ عكرمة مولى بن عباس،أصله مغربي، خالط كبار الفقهاء والمحدثين كأبي هريرة،السيدة عائشة.للمزيد يراجع محمود إسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،ص47 وما يليها.

[4] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص11.

[5] _ العبر،ج7،ص11.

[6] – إسماعيل،محمود،المرجع السابق،صص47-51.

كما انتشر المذهب الصفري بين بربر برغواطة على يد طريف بن شمعون الذّي لقي بدوره عكرمة في القيروان[1] وهكذا فشى المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى وحتّى الأوسط وقد برز ذلك جليا من خلال ثورة ميسرة المطغري سنة121هـ(739م).

انتشر المذهب الصفري بين بربر زناتة خاصة بنو يفرن في المغرب الأوسط وحتى الأدنى منه، ولم يقتصر المذهب الصفري على البربر وحدهم بل شمل حتى بعض العناصر العربية بافريقية، في حين انتشر المذهب الصفري بين الأفارقة وهم من البربر اختلطوا بالروم ودخلوا في خدمتهم واعتنقوا ديانتهم، أومن الأجانب الذين اختلطوا بالسكان المحليين من البربر[2]، أقبل الأفارقة على الإسلام وحاولوا الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المرموقة في الوسط البربري، لكن الولاة الأمويون حاولوا النيل من هذه المكانة مما دفع الأفارقة تدريجيا إلى النزعة الخارجية الصفرية.تلقى زعيم الأفارقة عبد الأعلى بن جريج تعاليم المذهب الصفري على يد عكرمة بالقيروان ونشره بين قومه، ولما قام ميسرة المطغري بثورته سنة121هـ(739) ساندة الأفارقة، وأصبح عبد الأعلى واليا لميسرة على طنجة بعد فتحها[3].

كما يبدو أنّ النزعة المذهبية الصفرية وجدت طريقها عبر الصحراء وبواسطة القوافل التجارية نحو بلاد السودان[4]، وما يؤكد ذلك هو تولية "عيسى بن يزيد الأسود" إمامة أول دولة صفرية في بلاد المغرب في سجلماسة سنة 140هـ(757م)[5].

أمام هذا الانتشار الواسع الذي حققته الصفرية في بلاد المغرب، تطلعت إلى إعلان إمامة الظهور، لكن كي تستكمل كل الشروط النظرية والمبررات الفقهية لإعلانها ضد "أئمة الجور" وجه البربر الصفرية وفدا يشكو للخليفة هشام بن عبد الملك جور ولاته الذّين حرموهم غنائم الحرب مع ابن الحباب، ونهبوا أموالهم وسبوا بناتهم، ومهما يكن لهذه الشكوى من مبررات

---

1 _ ابن خلدون،العبر،ج6،ص107.

2 _سير توماس،أرنولد،الدعوة إلى الاسلام،ترجمة،حسن إبراهيم حسن،عابدين عبد المجيد،طبعة مكتبة النهضة المصرية،1970،صص143-148.

3 _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج2،ص52.

4 – Tadeusz ,Lewicki ,l'Etat nord– Africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8[eme] au 9[e] siècle, source :Cahier d'Etudes Africaines, vol 2,cahier 8 ,année 1962 ,PP 513–535.

5 _ البكري،المصدر السابق،ص149.

تاريخية حقيقية دلّت على استبداد ولاة بني أمية في أواخر عهدهم وبداية عهد بني العباس، إلّا الهدف الحقيقي من هذه الشكوى كان هو استفاء شروط الثورة من الناحية الفقهية حسب المفهوم الخارجي الصفري[1].

بعد سنة من رفع الشكوى إلى الخلافة عاد ميسرة المطغري وبويع بالإمامة وبدأ زحف الصفرية على مناطق نفوذ الخلافة الأموية في بلاد المغرب، زحف على طنجة فدخلها وقتل عاملها "عمران بن عبيد الله المراديّ" ونصّب عبد الأعلى بن جريج الإفريقي واليا عليها، واستولى على السوس وقتل إسماعيل بن عبيد الله بن الحباب[2].

استولى الصفرية بزعامة "ميسرة المطغري" على المغرب الأقصى وبدأ زحفهم باتجاه افريقية عبر المغرب الأوسط لكن قوات الخلافة بقيادة خالد بن حبيب الفهري دفعتهم إلى التراجع نحو طنجة، مما دفع الصفرية إلى اختيار "خالد بن حميد الزناتي" لقيادتها العسكرية، تمكن الصفرية بزعامة خالد بن حميد الزناتي من إلحاق هزيمة مؤثرة بقوات الخلافة في معركة الأشراف التي قتل فيها خيرة فرسان أشراف العرب بالقرب من واد شلف بالمغرب الأوسط، أما ما بقي من جند الخلافة فقد لجأ إلى تلمسان بقيادة "حبيب بن أبي عبيدة".

لقد كانت هذه الهزيمة مدوية في القيروان ودار الخلافة، مما أدى إلى ثورة العرب في القيروان ضد واليها عبيد الله بن الحباب وتنحيته وغضب الخليفة لهذا الأمر وبعث بجيش كبير للقضاء على ثورة الصفرية والانتقام لموقعة الأشراف وقال قولته الشهيرة "والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولا أبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي..."

لكن الجيش الذي بعثه الخليفة كان يضم عناصر من الجند متباينة[3] ومتنافسة وأحيانا بأهداف متناقضة مما أدّى إلى هزيمته في معركة "بقدورة" سنة123هـ(741م).

انتقل بعد ذلك الصراع إلى المغربين الأدنى والأوسط وظهرت قيادة محلية جديدة للصفرية أبرزهم: عكاشة بن أيوب النفزاوي وعبد الواحد بن يزيد الهواري[4].

---

1 _ محمود إسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب ،ص64.

2 _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،ص52.

3 _ التوسع في ذكر تباين الجيش (الهامش)،ابن خدون،ج4،ص189._الحميدي،جذوة المقتبس180،ابن عذارى،ج1،ص58،_المقري،نفح الطبيب،ج4ص294،_محمود اسماعيل،ص69.

4 _ ابن عبد الحكيم،ص294،ابن الأثير،ج 5،ص70،في يعتبر ابن خلدون ،عبد الواحد الهواري اباضيا، العبر ،ج6،ص124.

رغم أنّ الخليفة هشام بن عبد الملك بعث بجيش قوي سنة 124هـ دفاعا عن مركز الخلافة في بلاد المغرب، إلّا أنّ الصفرية كانت قد تمكنت من المغرب الأقصى وحتى بلاد المغرب الأوسط التي ظهر فيها قائد جديد للصفرية هوّ "أبي قرة اليفريني" في تلمسان.

ورغم أن قوات الصفرية هزمت في معركة القرن والأصنام بالقرب من القيروان أمام "حنظلة بن صفوان"،إلا أن قوة الخلافة تداعت بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125هـ حتى سقوطها على يد العباسيين سنة132هـ[1].

استفادت الصفرية من الاضطراب الّذي أحدثه انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين في ثلاثينيات القرن الأول الهجري(8هـ)، وتزعمت ورفجومة بقيادة عاصم بن جميل نفزاوة، واستطاعت الاستيلاء على القيروان سنة139هـ وتصفية وجود الفهريين في سائر افريقية منذ سنة140هـ (757م)[2].

توسع نفوذ الصفرية فشمل المغرب الأقصى والأوسط ووصل حتى افريقية مما هدد نفوذ الاباضية في المغرب الأدنى وجبل نفوسة ودفع "أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المغافري" إلى مواجهتهم في القيروان بحجة رد مظالمهم على أهل القيروان، لكن المتبع للأحداث يجد أنّ الاباضية ومنذ عودة "حملة العلم" من البصرة بزعامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع سنة 140هـ، بدأت في مرحلة إعلان "إمامة الظهور" في المغرب الأدنى فاصطدم مشروعها بتوسع الصفرية واحتلال القيروان رغم ما توردە بعض المصادر السنية والاباضية من استبداد الصفرية. دخل الاباضية القيروان سنة141هـ، وولى أبي الخطاب "عبد الرحمن بن رستم" عليها وعاد لمواجهته قوات المنصور العباسي في ضواحي طرابلس.

تراجع الصفرية نحو المغرب الأوسط وأسسوا أول إمارة مستقلة لهم بضواحي تلمسان بزعامة أبي قرة اليفريني سنة148هـ[3]، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من إقامة إمارة بني مدرار مدرار الصفرية في سجلماسة سنة140هـ[4]..

---

[1] – Eugène , Guernier, la Berbère, l'Islam et la France ,Tome Premier, édition, de l'Union Française , Paris ,1950,pp253-256.

[2] _محمود اسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،صص72-74.

[3] –إبن خلدون،العبر ،ج7،ص17.

[4] –نفسه،ج6،ص ص171-173.

4 _ ظهور الحركة الاباضية:

رغم أن انتساب الإباضية لعبد الله بن إباض المري التميمي يبدو صريحا وهذا ما أكدته المصادر التاريخية وكتب الفرق الإسلامية، الاباضية تعتبر عبد الله بن اباض شخصا ثانويا مقارنة بجابر بن زيد الأزدي الّذي تعتبره إماما للجماعة ومؤسس فقههم ومذهبهم، وتذكر أنّ ابن إباض كان يصدر في كل أقواله وأفعاله عن جابر بن زيد[1].

وتتشكك بعض المصادر في انتماء جابر بن زيد للاباضية، وهو المعروف لدى البصريين كأحد التابعين والمحدثين الثقات وأهم فقيه في البصرة بعد الحسن البصري[2].

لكن خليفات يرى أنّ جابرا كان ذا صلة وثيقة بالاباضية من بداية النصف الثاني للقرن الأول الهجري بحكم الرابطة القبلية، في حين كان ابن إباض المتحدث باسمهم والمعلن لأفكارهم، وهو الذي راسل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، مما أدى إلى نسبة الحركة إليه، ويرى المؤرخ الاباضي المعاصر، محمد علي دبوز أنّ الأمويين هم من أطلق هذا الاسم على الحركة حتى لا تنسب إلى جابر بن زيد صاحب السمعة الحسنة في نفوس المسلمين[3].

وقد أنكر الاباضية هذه التسمية منذ البداية وكانوا يصفون أنفسهم باسم "المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل الدعوة"، ورغم أنّ الحركة كانت في مرحلة كتمان(سرية) إلّا أنّها كانت بحاجة لإعلان أفكارها للحكام وعامة المسلمين أمام تطرف بعض فرق الخوارج منهم الأزارقة وسخط المسلمين عليهم، فكان ابن إباض المؤهل لهذه المهمة، عرف بقدرته على المجادلة والمناظرة وانتمائه إلى قبيلة تميم القوية ذات النفوذ الواسع في البصرة.

لقد وصف ابن إباض عثمان بن عفان وخلفاء بني أمية بالظلم والفساد ومخالفة المبادئ الإسلامية في مراسلاته مع عبد الملك بن مروان.

وخاطب عبد الملك بن مروان في مراسلاته مجردا من اسم الخلافة، ورغم ذلك لم يتخذ عبد الملك ضدّه أي إجراء، وتعد رسالته إلى عبد الملك ابن مروان وثيقة تاريخية هامة تبرز المبادئ الأساسية للحركة في تلك الفترة[4].

---

[1] _حجازي،عبد الرحمن،المرجع السابق،صص16-18.

[2] _ هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي محدث وفقيه، وهو من أبرز تلاميذ بن عباس، وممن روى الحديث عن كبير من الصحابة.

[3] -معمر،علي يحيى، الاباضية،في موكب التاريخ،ج1،طبعة،مكتبة وهبة،القاهرة،دت ،صص150-151.

[4] _ ينظر الملحق رقم 3: رسالة عبد الله بن إباض إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

ومن أشهر تلاميذه عبد الله بن إباض، أبو عبيدة مسليم بن أبي كريمة التميمي،أما عبد الله بن يحيى _طالب الحق_ وقائده المختار بن عوف الأزدي الملقب بأبي حمزة الشاري فهم تلاميذ أبو عبيد الذي تزعم الاباضية بعد وفاة الحجاج منذ سنة95هـ[1].

عُرف أبو عبيدة من علماء الاباضية في أواخر القرن الأول الهجري، بالخبرة السياسية مما سمح له بتنظيم الدعوة وإعطائها الفاعلية التي ستسمح بانتشارها في مناطق بعيدة من العالم الإسلامي خاصة جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد المغرب وحتى مصر.

كان أبو عبيدة يعمل على نشر مبادئ الحركة مستخدما مدارس سرية في السراديب تحت الأرض في البصرة، كما كان يبعث بطلبته النجباء ورجاله الأوفياء إلى الأقطار البعيدة لنشره الدعوة. أشهر علماء الاباضية في فترة الكتمان[2].

في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(99_100هـ/719_721م) بعث أبوعبيدة بوفد اباضي للخليفة بقيادة جعفر بن السماك وسالم الهلالي لمناقشته في أمر الخلافة[3].

كما كان حريصا على تهدئة أتباعه في مناطق قوة نفوذ الخلافة خاصة البصرة تفاديا للاصطدام معها، كما فعل نافع بن الأزرق.

اهتم أبو عبيدة بترسيخ مبادئ المذهب في عقول وقلوب أتباعه وتوسيع نفوذ حركته في المناطق النائية _كما سبق الذكر_ وأهمها بلاد المغرب حيث سيكون لهم دور أساسي في الحياة السياسية والفكرية في القرن الثاني والثالث الهجريين.

ب ـ الأصول الفكرية للإباضية:

يقصد بالأصولية في السياق التاريخي العودة إلى ما تعدُّه جماعة معيّنة أو أمة معينة أساساً لهوِّيتها الثقافية، والفرق والاتجاهات الفكرية في الإسلام ترتبط بالدرجة الأولى بالأصول التي بني عليها الإسلام، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية، لكنها سعت في إطار تجربتها التاريخية أن تتميز عن بعضها البعض من خلال مفاهيمها السياسية، والعقدية وحتى تجربتها الفقهية

---

[1] – أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة هو الإمام الثاني للإباضية بعد جابر بن زيد، ولد حوالي 45 هجرية، سكن البصرة وكان له جهد كبير في تنظيم الدعوة وانتشارها في مختلف الأمصار.

[2] _ عوض،خليفات،نشأة الاباضية،ص103.

[3] _ حجازي،عثمان،المرجع السابق،ص30.

التشريعية المستمدة من تعاليم الإسلام، كما أنها نصبت التاريخ في كثير من الحالات كمصدر لاستلهام مفاهيم جديدة تتمسك بها لضمان استمراريتها، وتطورها ومواجهة المحن التي تمر بها.

1 ـ الأصول السياسية

يتميز الاتجاه الاباضي _كباقي الفرق الخارجية_ بطابعه السياسي والاجتماعي وحتى الأخلاقي، ويظهر ذلك جليا في رسالة الزعيم السياسي التاريخي عبد الله بن إباض إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(65-86هـ)[1].

والدّارس لنشأة هذا التوجه يدرك أنّ السبب الرئيسي لانفصال الخوارج عن جيش علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_ كان سببا سياسيا يتمثل في رفض وقف القتال في مواجهة معاوية بن أبي سفيان وأنصاره، تمّ الانشقاق عن جيش علي لما قبل التحكيم، ولمّا تأكد لديهم أنّ عليًا لن يتراجع عن موقفه، أقدموا على خطوة حاسمة في مسارهم السياسي وهيّ اختيار إمام من بينهم، هو"عبد الله بن وهب الراسبي" وقد كان هذا الأخير من قبيلة الأزد اليمنية، ولاختيار الإمام من غير قريش دلالته السياسية[2].

لا تختلف الفرق الخارجية عن بعضها البعض إلاّ بدرجة التطرف لديها، فإذا كان الأزارقة هم الفئة الأكثر تطرفا، فإننا وصلنا في بداية هذا الفصل إلى نقطة أساسية مفادها أن الاباضية هي الفئة الأكثر اعتدالا من بين فرق الخوارج، بل هي الأقرب إلى أهل السنة، ولا شك أن اعتدالها هو الذي ضمن لها البقاء في وسط سني كبير لمدة قرون طويلة، وأنّ التطرف أدعى لزوالها.

يمثل الموقف السياسي لمختلف الفرق الخارجية خطا موازيا للتشيع بمختلف فرقه، ولا يمكن أن يلتقي معه، لكن رغم ذلك قرّب الاعتزال بينها في المجال العقدي، أمّا في المجال السياسي فلا مجال للتقارب بينهما.

وتستلهم الاباضية مبادئها السياسية من التجربة التاريخية الّتي مرّ بها الخوارج في القرن الأول الهجري وتطور بتطور الأحداث.

ومن بين القضايا السياسية الأساسية الّتي تدور حولها نظرية الاباضية نذكر على سبيل المثال لا الحصر، موقفهم من نصيب الخلافة من عدمه، الموقف من الخلفاء الراشدين، الموقف من

[1] _ ينظر:الملحق رقم2 .

[2] _ ناصر،محمد صالح، منهج الدعوة عند الاباضية،طبعة،عمان 2002،ص ص67-76.

معاوية وأنصاره وأصحاب الجمل، مسألة التحكيم، الخروج على أئمة الجور، مسألة الإستعراض وأخيرا مسألة التكفير[1].

ولفهم المبادئ السياسية للإباضية لابد من توضيح مدلولات هذه المفاهيم وفي مقدمتها مسألة الخلافة.فالخلافة أو الإمامة أو الإمارة،عبارات مختلفة في اللفظ متفقة المعنى، وهي كما عرّفها الشيخ طفيش محمد[2] بقوله: "رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص، وهي خلافة الرسول في إقامة الدين وحفظ حوزة الملّة"[3].

هذا المفهوم في الواقع لا يختلف في جوهره عن المفهوم السني للخلافة الّذي عبّر عنه أبو الحسن الماوردي بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[4]، كما لا يختلف هذا المفهوم عمّا ذهب إليه ابن خلدون[5].والخلافة سواء بالمفهوم الاباضي أو السني أمر واجب لتطبيق تعاليم الإسلام وسياسة الأمة، كما يتفقان على أنّ أمر نصب الإمام أمر دنيوي أكثر منه ركن من أركان الدين، كما ذهب إلى ذلك الشيعة.

أمّا الموقف من الخلفاء الرّاشدين، فإنّ الاباضية تتولى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وترى أنّهما أخذا بكتاب الله وسنّة نبيه، كما كان عمر بن الخطاب قويا في الحق، شديد على أهل النفاق، ولمّا حضرته الوفاة ترك الأمر شورى بين المسلمين[6].

أمّا عثمان فقد طعنوا فيه، وبرر بن إباض ذلك باستبداده بالأمر، ونفي كثير من خيرة الصحابة، كما أمّر على الناس أخاه الوليد بن عقبة وهو رجل فاسق سكير[7]، كان يصلي

---

[1] _ ينظر : الملحق2.

[2] _ طفيش،محمد،هو الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم، طفيش،رجل دين وأديب وفقيه،اباضي جزائري شارك في الحركة الاصلاحية في الجزائر في القرن 20 توفي سنة 1965.

[3] _ جهلان،عدون،الفكر السياسي عند الاباضية،من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش،نشر جمعية التراث،القرارة،الجزائر ،د،ت،ص127.

[4] _ الماوردي،أبو الحسن علي بن محمد،الأحكام السلطانية والولايات الدينية،تحقيق،عصام فارس الحرستاني والزغلي محمد ابراهيم،طبعة،المكتب الأسلامي،بيروت،1996،ص13.

[5] _ابن خلدون،عبد الرحمن،المقدمة،ج1،تحقيق،شيخة جمعة،طبعة دار النشر التونسية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ،1984،ص244.

[6] _ ينظر :الملحق رقم 3.

[7] – لما شهد الثقات عليه عند الخليفة عثمان عزله وأمر بجلده.

بالناس كما كان يحابي أقربائه بالمناصب والجاه، إلى جانب ذكر بعض المظالم ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي[1].

والمتأمل في أسباب الطعن على عثمان _رضي الله عنه_ يجد أنها ذات طابع سياسي، قبلي، اجتماعي وحتّى اقتصادي، ولا يوجد فيها المبرر الديني القوي.

أمّا عليا بن أبي طالب فقد قبل تحكيم الرجال وعطل حكم الله، وفي هذا الصدد ذكر بن إباض قوله متحدثا عن علي وموجهاً الخطاب للخليفة عبد الملك بن مروان: "اعلم أنّ علامة كفر هذه الأمة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله"[2].

هذا الموقف القائم على تكفير من يخالفهم في الرأي _مهما كان دنيويا_ قد استخدموه، ضد أصحاب الجمل ومنهم عائشة أم المؤمنين،وضد معاوية وأنصاره وخلفاء دولته، وحتّى ضد من قبل التحكيم من المسلمين يتقدمهم علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري.

أمّا الخروج على أئمة الجور والضلالة الّذين يحكمون بغير ما أنزل الله فهو واجب ديني، ويستشهد بن إباض بعدة آيات قرآنية تبرر الخروج عن أئمة الجور بعد رميهم بالكفر مما يبرر الخروج ضدهم[3]، قد يكون الخروج بدون اللجوء إلى السلاح وإنّما المعارضة كما فعل الاباضية وهذا ما ذهب إليه الإباضية في القرن الأول الهجري.

مسألة الاستعراض الّتي جاء بها بن الأزرق، وتعني القتل بغير وجه شرعي، فقد استنكرها الإباضية ورفضوا تطرف بن الأزرق وتبرّأوا منه[4].

ومن المبادئ الأساسية الّتي تمسك بها الخوارج بصفة عامة والاباضية بصفة خاصة مبدأ الشورى في اختيار الإمام(الحاكم) وفق الشروط المستمدة من التجربة التاريخية للمسلمين خاصة عند اختيار أبي بكر وحتى وعمر وحتّى عثمان، لكنهم لم يشترطوا النسب القرشي، بل اعتبروا كل مسلم تتوفر فيه شروط الخلافة أو الإمامة، من علم وقدرة يمكنه تولي هذا المنصب ولو لم يكن قرشياً.

---

1 _ ينظر:الملحق رقم 3.

2 _ نفسه.

3 _ ناصر محمد صالح، المرجع السابق، ص ص220-221.

4 _ ينظر:الملحق رقم 3.

ولقد حرص الاباضية على الالتزام بهذا المبدأ في اختيار أولى قادتهم التاريخيين في المشرق والمغرب، منذ عبد الله بن وهب الراسبي حتى اختيار أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في طرابلس سنة140هـ، ثمّ اختيار عبد الرحمن بن رستم في تاهرت سنة160هـ.

لكن الرستميين سرعان ما مالوا إلى تعطيل هذا المبدأ، واتّخذ الاباضية الوهبية دور المدافع عن هذا الانحراف السياسي، وما يؤسف له أن نجد أقلاما إباضية حتى الآن تحاول الدفاع عن هذا الانحراف وتسعى جاهدة لتبريره[1]،في حين كان الرافضون لهذا المنحى السلبي في انتقال الحكم، طرفاً بارزًا في تاهرت وضواحيها وهم الّذين عرفوا "بالنكار" لأنّهم أنكروا توريث الحكم لأنّه انحراف عن أهم مبادئ الحكم عند الاباضية، مما سيكلف الدولة الرستمية كثير من المتاعب.

كما يتميز الفكر السياسي عند الاباضية بتعدد نظرته للإمامة(الخلافة)عند الاباضية ويصطلحون عليها ب"مسالك الدين"والمسلك لغة يعني الطريق،لكن اصطلاحاً يعني عند الاباضية "الطرق الّتي يتوصل بها إلى إنفاذ الأحكام الشرعية"[2].

والمسالك تعني المراحل التي تمر بها الإمامة عند الإباضية في مختلف مراحلها،ويعتبر مفهوم "مسالك الدين" أصلاً أساسياً في مفهوم الإمامة والفكر السياسي الاباضي، يميزهم عن باقي الفرق الإسلامية.

ويسمح هذا المفهوم للاباضية بالتكيف مع مختلف الظروف والمراحل الّتي يمرون بها سواء في حالة الضعف أو حالة القوة، كما يسمح من الناحية النظرية وحتى العملية باستمرار الإمامة ولو بأشكال مختلفة.

ومفهوم مسالك الدين يقوم على جملة من التعاليم والمبادئ تحدد على أساسها سياسة الجماعة الإباضية في كل مرحلة من مراحل الإمامة وتطورها،وهذه المراحل هيّ مرحلة إمامة الكتمان، مرحلة الشراء ومرحلة الظهور، ولكل مرحلة قواعدها وضوابطها.

فمرحلة الكتمان تعبر عن الوضع الّذي تكون فيها الجماعة الإباضية الاباضية غير قادرة على إعلان الإمامة لضعفها، وتكون الدعوة في هذه الحالة سرية، كما تنصب الجماعة إماماً لها، غالباً ما يكون عالماً تقياً ورعاً وحكيمًا[3].

---

[1] _ جهلان،عدون،المرجع السابق،ص ص44-45.

[2] _ جهلان،عدوان،المرجع السابق،ص149.

[3] _ الوهبي،مسلم بن سالم بن علي،الفكر العقدي عند الاباضية حتى نهاية القرن الثاني الهجري،طبعة المكتبة الضامري،عمان،2006،ص ص،407-409.

وقد طبق هذا المفهوم لأول مرّة في القرن الأول الهجري،يذكر الاباضية أئمة هذه المرحلة وأبرزهم _على حد قولهم_ جابر بن زيد الأزدي العماني،وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي،كما يلجأ الاباضية في هذه المرحلة إلى استخدام مفهوم آخر وهو "التقية"[1].

أمّا مرحلة الشراء،فهي مرحلة الخروج عن الحاكم الّتي يقرر فيها عدد محدود من أفراد الجماعة الاباضية القيام، وهذا العمل طوعي والاباضية يقتدون في ذلك بإمامهم "أبو بلال مرداس بن أدية التميمي" الّذي خرج على الأمويين سنة61هـ، فاستشهد هو وأصحابه، وفي هذه الحالة فإنّ الجماعة الّتي اختارت "الشراء" تنصّب إماماً لها يقودها في عملية الخروج على أئمة الجور[2].

أما مرحلة الدفاع، في هذه الحالة تكون الجماعة الاباضية منشغلة بالدفاع عن أنفسها، دينها ومكتسباتها، كما تهيئ هذه المرحلة لإقامة إمامة الظهور، وقد طبق الاباضية هذا المفهوم بعد مقتل الإمام أبو الخطاب بن السمح المعافري بطرابلس سنة 144هـ، من طرف قوات الخلافة العباسية واختاروا إماماً للدفاع هو"أبو حاتم الملزوزي" الّذي قتل بدوره أمام القوات العباسية سنة155هـ[3].

إمامة الظهور هي المرحلة الّتي يبايع فيها الاباضية إماماً بشكل علني، وتكون لهم الغالبية والأغلبية على مخالفيهم من غير الاباضية في المنطقة الّتي يتواجدون فيها، وهذا الغلبة تقتضي أن يكونوا أكثر عدداً وأكثر مالاً وأقوى معرفة[4].

لاشك أنّ تحقيق هذه الغاية (الظهور) قد يدفع الاباضية إلى الضغط على مخالفيهم وربما محاولات تهجيرهم لتحقيق الأغلبية، مما يسمح لهم بإقامة إمامة الظهور.

وفي الختام فإنّ إباضية المغرب الأوسط قد أوجدوا سبيلا بديلا أو مكملا لهذه المفاهيم وهو نظام العزابة، ورغم طابعه التربوي والاجتماعي إلاّ أنّه لا يخلوا من البعد السياسي الّذي يضمن وحدة الجماعة الاباضية، ويمنح شيوخها سلطة قوية على أعضائها، ويجعل من نظام العزابة نظاماً بديلا للإمامة بأشكالها المختلفة.

---

1 _ التقية:إظهار الولاء للجهة المتغلبة بالقول والمداراة وما شابه ذلك وإخفاء الموقف الحقيقي إتّقاء للضرر، للمزيد يراجع،الوهبي مسلم بن سالم،ص ص416_418.

2 _ الوهيبي،مسلم،المرجع السابق،ص ص،409-4010.

3 _ ناصر ،محمد صالح،المرجع السابق،ص218.

4 _ الوهيبي،مسلم بن سالم،المرجع السابق،ص411.

2 ـ الأصول العقدية

نشأت حركة الخوارج كموقف سياسي بالدرجة الأولى، رافض لوقف القتال ضد معاوية وأنصاره، وفي نفس الوقت رافض لمسألة التحكيم _الّتي سبقت الإشارة إليها_ وقد كان لهذه النشأة أثرها في التطور الفكري لمختلف الفرق الّتي تفرعت عن الخوارج، وفي مقدمتها فرقة الاباضية، لكن هذا لا ينف أنّ الاباضية لم تكن لها آراء عقدية تميزها وتبرز من الناحية الشرعية مواقفها التاريخية

وليس الهدف في هذه الدراسة التفصيل في الجانب العقدي عند الاباضية أو أي اتجاه مذهبي يشمله البحث، وإنّما الهدف إبراز المبادئ العقدية الأساسية الّتي يقوم عليها أي اتجاه محل الدراسة، لتمكين القارئ أو الباحث من فهم الخلفيات الفكرية الّتي تتحكم في القرارات والمواقف والسلوكات الّتي تصدر عن هذا الاتجاه أو ذاك.

وسوف نكتفي في هذه الدراسة بتناول القضايا العقدية الأساسية المميزة للاباضية عن باقي الفرق الإسلامية، وأهمها مسألة التكفير، البراءة، القتل، الحكم بما لم ينزل الله.

في حديث عبد الله بن اباض إلى عبد الملك بن مروان يعدد الأسباب الّتي دفعت إلى الطعن في عثمان بن عفان،ومنها قوله: "وكان من عمل عثمان أنّه يحكم بغير ما أنزل الله،وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه"

ثمّ يستشهد بعدد من الآيات من القرآن الكريم تفيد بوصف عثمان ومن سار على نهجه بأنّهم ظالمون وكافرون وفاسقون وملعونون وكلّها صفات تخرجهم من دائرة الإيمان إلى الكفر، أو بتعبير آخر ترمي المؤمن بالكفر وتجعل من طاعته طاعة لإبليس، وقد جرّه هذا المنطق التكفيري إلى تبرير قتل عثمان بن عفان بقوله (ابن اباض): "فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله".[1]

وبعد الحديث عن علي بن أبي طالب يوجه بن اباض كلامه إلى عبد الملك بن مروان قائلاً: "وأعلم أن علامة كفر هذه الأمة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله"[2].

وبالتالي فإنّنا نلاحظ من خلال هذه الشواهد المستمدة من رسالة ابن اباض، أنّ هذا التوجه المذهبي يعتقد أنّ المسلم إذا خالف بعض الأحكام الشرعية، أو ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر فقد كفر.

---

[1] _ ينظر:الملحق رقم03.

[2] _ نفسه.

لكن الكفر عند بن اباض كفر بالنعم والأحكام الشرعية ولا يخرج المسلم من دائرة الملّة، وهذا الموقف أقل تطرفاً مما ذهب إليه بن الأزرق الّذي اعتبره كفر مخرج من الملّة وهذا ما دفعه إلى القول بالاستعراض واستباحة دماء النساء والأطفال وقتل مخالفيه بدون وجه شرعي[1].

والتكفير يقود بدوره إلى البراءة من أصحاب المعاصي والكبائر أو بتعبير آخر البراءة من الكفار بالنعم والأحكام.

والبراءة تعني التبرؤ من الفعل المكفر ومفارقة أهله التخطئة لهم والإنكار عليهم، والكراهية لهم وترك الرضا بفعلهم[2].

ويعني هذا الكلام أنّ الولاية تكون للمؤمنين ويقصد بهم أتباع المذهبين والبراءة من العاصين وهم مخالفيهم في الرؤية والمذهب، وهذا أصل هام من أصول العقيدة الاباضية[3].

ويبدو أنّ هذا المعتقد الأخير يصنف المجتمع الإسلامي إلى مجموعتين متنافرتين مجموعة مؤمنة هم أهل الاستقامة أو الاباضية، والأخرى كافرة بالنعم، مدعوة للتوبة هي جبهة مخالفيهم في الرأي.

لا شك أنّ موقفاً كهذا يحدث شرخا عميقا بين أبناء الدين والوطن الواحد، وربّما يدفعهم إلى الصراع باستمرار.

أمّا في المعتقدات ذات الطابع الميتافيزيقي كالإلهيات، النبوّات والسمعيات والإيمان بالقضاء والقدر، فإنّ الاباضية أخذت بما قالت به المعتزلة في أغلب الأحيان ولم تخالفها إلّا في بعض الجزيئات[4].

فهم يذهبون إلى سلب الصفات والتوحيد بينها وبين الذات الإلهية، وهذا ما ذهب إليه المعتزلة، كما يقولون بخلق القرآن، وينكرون الرؤية يوم القيامة، كما ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر إلّا إذا تابوا[5]،كما يعتقدون أنّ الإيمان قول وعمل، ومن خالف قوله عمله فلا إيمان له[6].

---

1 _ طعمية،صابر،الاباضية عقيدة ومذهباً،طبعة الجيل،بيروت،1986،ص29.

2 _ الوهيبي، مسلم بن سالم،المرجع السابق،ص423

3 _ نفسه،نفس الصفحة.

4 – خضير، بن بكير بابا وأعمر،الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي،المطبعة العربية،غرداية، 2003، ص ص219،155،133 .

5 _ طالبي،عمّار،المرجع السابق،ص208.

6 – خضير، بن بكير بابا وأعمر،المرجع السابق، ص ص245 –250.

ثانيا_ الدور السياسي للاباضية في المغرب الأوسط.

أ_ مرحلة الدعوة.

1 _ الإباضية في المغرب الأدنى.

استغل الاباضية وكذا الصفرية عامل الجغرافيا والسياسة لتوسيع نفوذهم بعيدا عن مركز الخلافة الأموية، فأرسلوا دعاتهم لتلك الأقطار البعيدة والتي تذمر سكانها بشدّة من مظالم الولاة الأمويين السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية[1].

ولتحقيق هذا الهدف وصل إلى بلاد المغرب مع مطلع القرن الثاني الهجري، قبل سنة 110هـ وسلمة بن سعيد أو"سعد"هو أول الدعاة الاباضيين، نزل بالقيروان التي كانت آنذاك عاصمة سياسية وثقافية لبلاد المغرب الإسلامي ومركز الإشعاع الفكري فيه.

وفي طريقه إلى القيروان نزل بجبل نفوسة من نواحي طرابلس بالمغرب الأدنى، وربما دلّ ذلك الاختيار على وجود أنصار للاباضية في هذه المنطقة التي تسكنها نفوسة وهوارة من قبائل البربر، في جبل نفوسة كسب سلمة بن سعيد أتباعا مخلصين للاباضية أثر فيهم بفرط حماسته لانتصار المذهب وهو الذي كان يردد قوله: "وددت أن لو يظهر هذا الأمر يعني مذهب الإباضية - يوما واحدا أو أول النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده"[2].

دلّ سلامة بن سعد بربر نفوسة على أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي رأس هذه الدعوة، فتطلع أتباع المذهب الاباضي إلى الرحلة في طلب العلم من البصرة وفق تعاليم المذهب الاباضي وكان من أشهرهم "أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر" الذّي عاد إلى جبل نفوسة رفيقا في الدعوة لسلمة بن سعيد حتى وفاته، وهو الذي أصبح مقدم الاباضية بعده، واستطاع كسب بني قومه للمذهب الاباضي[3].

أخذ بن مغيطر النفوسي الجناوني عن أبي عبيدة مسلم قبل حملة العلم الخمسة الذين ساهموا في الانتشار الواسع للإباضية في بلاد المغرب، وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم[4]

---

[1] _ للمزيد يراجع،بحاز ابراهيم،الدولة الرستمية،ص61.،عثمان، حجازي،المرجع السابق،ص،31.

[2] – الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص11.

[3] – الشماخي،أبو العباس أحمد بن سعيد،كتاب السير ،تحقيق،محمد حسن،د دار طبع،1995تونس،ص50.

[4] – نفسه،نفس الصفحة،الدرجيني،المصدر السابق،ص18.

خلال العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة كان المذهب الاباضي قد فشى بين قبائل البربر بنواحي طرابلس بالمغرب الأدنى وبدأت تأثيراته تصل جربه ثم القيروان وربما الأوراس في بلاد المغرب الأوسط اعتنقت قبائل هوارة،زناتة وسدراتة ولواتة المذهب الاباضي.

كما ويبدوا أنّ الاباضية في بلاد المغرب قد وقفوا على الأثر الفكري الذي خلفته البعثة العلمية التي وجهها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى بلاد المغرب سنة99/100هـ بهدف تعليم البربر تعاليم الإسلام وفق مذهب أهل الحديث، فحاولوا تقليدهم وبعث مجموعة من الطلبة إلى البصرة لأخذ تعاليم المذهب مباشرة من الإمام أبا عبيدة ثمّ العودة بهدف نشرها في الوسط البربري.

وقصد تحقيق هذه المهمة توجه أربعة من طلبة العلم إلى البصرة وهم من قبائل مختلفة بهدفهم التفقه في تعاليم المذهب والعودة لنشرها بين قبائلهم وقد عرف هؤلاء بحملة العلم وهم:

- أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسي، من غدامس جنوب طرابلس
- عبد الرحمن بن رستم من القيروان وهو من أصل فارسي.
- عاصم السدراتي من نواحي أوراس بالمغرب الأوسط (قبيلة سدراتة)
- أبو داود القبلي النفزاوي من نفزة جنوب افريقية.
- وفي البصرة انظم إليهم أبو الخطاب المعافري وهو من عرب اليمن

تذكر المصادر تاريخ عودتهم إلى بلاد المغرب بأنّه سنة140هـ وأنّهم قضوا خمس سنوات في البصرة يتلقون تعاليم المذهب على يد أبي عبيدة مما يدل على أن رحلتهم إلى المشرق كانت حوالي135هـ[1].

رجع حملة العلم إلى بلاد المغرب وبدؤوا مهمة نشر وترسيخ تعاليم المذهب الاباضي بين البربر، مما أدى إلى ظهور جيل جديد من علماء الاباضية المغاربة من أصول بربرية، عرفوا بتلاميذ"حملة العلم"ومن أبرزهم: "أبو خليل الدركلي،عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم،محمد بن يانس، وعمر بن يمكتن، هذا الأخير فتح أول مدرسة لتعليم القرآن وتفسيره في جبل نفوسة في القرن الثاني الهجري في حدود سنة 140هـ بمدينة إفطامن[2].

---

[1] _الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص18.

[2] _ كودري،محمود حسين،الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السودان الغربي(ق2-8هـ)،طبعة دار الكتب،بنغازي،ليبيا،2008،ص85.

ويبدوا أنّ أبا عبيدة كان يُعد حملة العلم لتولي إعلان إمامة الظهور في بلاد المغرب وهو أدرى بأحوال الخلافة بعد تحولها من الأمويين إلى العباسيين وحالة الاضطراب التي تشهدها الدولة الإسلامية خاصة افريقية.

أعد أبا عبيدة حملة العلم وفق مهام محددة، وأمّر عليهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وأوصاهم بمداومة الاتصال به، وما إن عاد حملة العلم إلى بلاد المغرب حتّى أعلنوا إمامة الظهور سنة140هـ/757م مستفيدين من سقوط حكم الأسرة الفهرية في افريقية ودخول ورفجومة القيروان وتنكيلها بأهلها ومقدساتها[1].

تذكر المصادر أنّ ورفجومة لما دخلوا القيروان استحلوا الحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا من بالمدينة من قريش وندم الذين استنجدوا بهم...[2]. في هذه الظروف المضطربة مشرقا ومغربا وجد الاباضية الفرصة سانحة لإعلان "إمامة الظهور"خاصة بعد عودة حملة العلم من البصرة وقد أوصاهم أبا عبيدة بقوله: "توجهوا إلى بلادكم فإن كان في أهل دعوتكم ما يجب عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على أنفسكم رجلا منكم، فإن أبى فاقتلوه وأشار إلى أبي الخطاب كما عين إسماعيل بن درار الغدامسي قاضيا لهم[3].

بعد مشاورات وعدة لقاءات بين شيوخ القبائل الاباضية البربرية اتفقت كلمتهم على أبو الخطاب إماما لهم واشترطوا عليه عقدا بينهم وبينه أن يحكم بينهم بالكتاب والسنة وأثر الصالحين، كما اشترط عليهم أن لا يذكروا في معسكره مسألة الحارث وعبد الجبار فقبلوا الشرط وتمت البيعة عام140هـ[4]. استطاع الإباضية لإفادة من ظروف الفوضى التي سادت إفريقية واستولوا على طرابلس التي انسحب واليها بعد استسلامه نحو المشرق، واستتب الأمر لأبي الخطاب الاباضي.

تطلع أبو الخطاب بعد ذلك نحو افريقية متوجها نحو القيروان بعد أتّم استعداداته في طرابلس واستل سيفه وهو خارج من المسجد وكسر غمده دليلا على تصميمه على عدم وقف

---

1 – الدرجيني،المصدر السابق،ص26.

2 _ ابن عذارى،المراكشي،المصدر السابق،ج1،ص70.الدرجيني،المصدر السابق،ص 26.الرقيق،القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب،تحقيق،المنجي الكعبي،تونس،1974،ص ص 145،146.

3 _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص56.،الدرجيني،المصدر السابق،ص،22.

4 – نفسه ،نفس الصفحة.

جهاده حتى تحقيق أهدافه وقال: "لا حكم إلاّ لله"،واجتمع أصحابه وهم ينادون: "لا حكم إلاّ لله ولا إمام إلاّ أبي الخطاب"[1]،هذا الشعار يؤكد الانتماء الخارجي للحركة الاباضية وقد روي في مصادر الاباضية.

انتصر أبو الخطاب على ورفجومة بعد فشل حصاره للقيروان التي عاد إليها وقد ساندته قوى داخلية من سكان القيروان سنة141هـ، وقد كانت معاملته للسكان قائمة على الإحسان ولا تذكر المصادر السنية وغيرها أي انحرافات في معاملة أهل القيروان كما فعلت ورفجومة الصفرية.

عين أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل واليا على القيروان وعاد إلى طرابلس التّي اتّخذها مقرا له، ونقطة استعداد لمواجهة الأخطار المحتملة من الشرق خاصة بعد تصميم العباسين على ضرورة استعادة نفوذهم في بلاد المغرب.

في مطلع العقد الخامس من القرن الثاني للهجرة، كانت الخلافة العباسية قد استكملت توطيد حكمها بالمشرق الإسلامي، وبدأت تولي اهتماما مركزا لاسترجاع بلاد المغرب إلى سلطتها، فوجه أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس سنة142هـ حملة عسكرية هامة لاستعادة بلاد المغرب بقيادة ابن الأشعث الخزاعي بعد أن عينه واليا على مصر وأمره بالزحف إلى بلاد المغرب لاسترجاعها من الحركات الخارجية الصفرية والاباضية[2].

استطاع أبو الخطاب التصدي لحملات قوات والي مصر ابن الأشعث، مما دفع الخليفة إلى إمداده بجيش قوي قوامه أربعون ألف رجل، وأمره بالسير لحرب الاباضية بنفسه وأمده بكبار قادته مثل الأغلب بن سالم التميمي،والمحارب ابن هلال والمخرق بن عفار الطائي[3].

رغم أنّ أبا الخطاب سمع بنبأ قوات بن الأشعث وبعث لأتباعه وولاته يطلب المال والسلاح لكنه في الواقع لم يواجه ابن الأشعث إلّا بأقل من ستة عشر ألف رجل من أصحابه، مما أدى إلى هزيمته،سنة144هـ في منطقة تاورغا قرب سرت حيث قتل ومعظم جيشه[4].

في جمادى الأولى سنة144هـ دخل بن الأشعث القيروان وقام بتحصينها وإقامة سور لحمايتها كما تراجعت القوات الاباضية أمام الهزائم التي ألحقتها بها قوات الخلافة بقيادة ابن

[1] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص60.

[2] _ عوض،خليفات،نشأة الإباضية،ص 152،

[3] _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،ص72.بن الأثير،ج5،ص317.

[4] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص69.الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص33،ابن عذارى،ج1ص،73.

الأشعث، وانسحب عبد الرحمن بن رستم والي أبي الخطاب على القيروان نحو بلاد المغرب الأوسط ومعه من بقي من الاباضية وقد طاردتهم قوات ابن الأشعث حتى أواسط بلاد المغرب الأوسط فتحصنوا بجبل(سوفجيج) وهكذا انتقل الصراع إلى بلاد المغرب الأوسط[1].

أما نفوذ الخلافة فقد وصل حتى منطقة الزاب من بلاد المغرب الأوسط والتي كانت تابعة لولاة القيروان، وقد ولى عليها ابن الأشعث الأغلب بن سالم التميمي،الذي سيخلف الأشعث في ولاية القيروان سنة148هـ[2].

2 ـ الإباضية في المغرب الأوسط قبل تأسيس الدولة.

في المغرب الأوسط ثار الخوارج الصفرية بزعامة "أبي قرة اليفريني" سنة148هـ[3] في نواحي تلمسان،فزحف إليه الأغلب بن سالم فتراجع نحو منطقة طنجة بالمغرب الأقصى،لكن الانشقاق بدأ يظهر في جيش الخلافة في القيروان بدافع التنافس على الزعامة ودوافع قبلية أخرى انتهى بمقتل الأغلب بن سالم سنة150هـ على أيدي جنوده.[4]

بعث الخليفة بوالٍ جديد إلى افريقية هو"عمر بن حفص"من آل المهلب[5].

وقد عرف بشجاعته ولباقته فانقاد إليه الناس بسهولة، وساد السلام والأمن والازدهار لمدة ثلاث سنوات(151_ 153هـ)[6].

بعد مقتل أبي الخطاب بن السمع المعافري التفت الاباضية في المغرب الأدنى(طرابلس) حول أبا حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي ونصبته إماما للدفاع سنة145هـ/762م[7].

---

[1] – الدرجيني،المصدر السابق،ص35.

[2] _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،صص73_75.

[3] _ أبو قرة الصفري ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي كانت تستقر بضواحي تلمسان،تمكن من إقامة إمارة صفرية في غرب المغرب الأوسط سنة 148هـ،لكنها سقطت سنة170،وربما يكون لبني يفرن دور أساسي في ذلك،اشتهرت هذه القبيلة بالنزعة الخارجية،أما جيرانهم من بني يفرن فقد عرفوا بإتباع السنة، وهذا ما ذكره بن خلدون في كتاب العبر،ج7،ص18،ط2000.

[4] _ ابن عذارى ،المصدر السابق،،ج1،صص73-75 الأثير،ج5،318.

[5] _ الأغلب بن سالم بن عقال التميمي قائد عباسي، ولي على إفريقية من طرف الخليفة هارون الرشيد سنة 184هـ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الأغلبية.

[6] _ ابن خلدون،ج4،ص 412،عوض خليفات، نشأة الإباضية،ص156.

[7] _ أبو زكرياالمصدر السابق،ص73-74.الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص ص36-37.

كما استطاع الإباضية في عهده دخول طرابلس سنة151هـ لكنهم ارتكبوا جرائم لم تكن معروفة في سلوكهم الحربي ولا مبررة في عقيدتهم، مما يدل على ذلك إنكار الإمام أبا حاتم لها بقوله: "ليس من سيرة المسلمين (الاباضية) إذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد أن يسلبوهم بل يقولوا لأهل المدينة: "ارجعوا إلى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم " كما هدد أتباعه باعتزال الإمامة إن لم يرجعوا الأسلاب إلى أهلها[1]. كما حاصروا طبنة بالمغرب الأوسط والتي كان يتحصن فيها الوالي "عمر بن حفص المهلبي" وقد شاركتهم في ذلك الصفرية بقيادة أبي قرة اليفريني وكذا إخوانهم الاباضية في المغرب الأوسط بزعامة عبد الرحمن بن رستم.

رغم كثافة قوات الاباضية إلّا أنّ الخلاف سرعان ما دبّ "في صفوفهم خاصة بين الصفرية والاباضية فتفرقوا[2].أما عبد الرحمن بن رستم فقد عاد إلى المغرب الأوسط بعد أن ألحقت به قوات الخليفة هزيمة مؤثرة في تهودة من إقليم الزاب، في حين عاد أبا حاتم الملزوزي إلى المغرب الأدنى واستمر في صراعه مع ولاة القيروان حتى مقتله على يد قوات الخلافة سنة155هـ.[3]

في المغرب الأوسط يبدو أنّ الاباضية قد نصبوا "عبد الرحمن بن رستم" إماما للدفاع بعد مقل الإمام أبي الخطاب ابن السمح المعافري سنة144هـ، وفي نفس الآونة كان إخوانهم في المغرب الأدنى قد نصبوا الإمام أبا حاتم الملزوزي إماما للدّفاع[4]، والمفهوم العقدي والسياسي، لدى الاباضية يجيز تنصيب إمامين في نفس الوقت وحسب الظروف والشروط التي يحدّدونها. تحصن الاباضية في المغرب الأوسط بجبل سوفجيج لمناعته وقد جاءت الوفود من مشايخ الاباضية تعلن تأييدها ودعمها لإمامة عبد الرحمن بن رستم[5].

وخوفا من استفحال أمر الاباضية في المغرب الأوسط زحف ابن الأشعث بقواته وضرب حصارا على الاباضية في جبل سوفجيج بالمغرب الأوسط، لكن دون طائل، فانسحب بعد أن حلّ الوباء بجيشه وخشي تمرد أهل القيروان ضدّه.

---

1 _ نفسه،ج1،ص37،عوض،خليفات،ص159.

2 _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،ص77.

3 _ شماخي، المصدر السابق،ص ص36-37.

4 _ محمود إسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،ص،150.

5 _ نفسه ، ص،147، Gautier : OP.cit.P301._

بعد فشل حصار ابن الأشعث انتقل عبد الرحمن بن رستم وأتباعه إلى منطقة تاهرت القديمة في مكان تجمعت فيه عدّة قبائل بربرية إباضية منها، هوارة، لواتة، مكناسة، ومزاتة، ولماية[1].

ويبدو أنّ الاباضية في بلاد المغرب الأوسط كانوا على اتصال دائم بإخوانهم في المغرب الأدنى بزعامة "أبا حاتم الملزوزي"،وما يؤكد ذلك هو اشتراكهم في حصار "عمر بن حفص" في طبنة سنة 551هـ/768م، لكن فشل الحصار وهزيمة عبد الرحمن بن رستم وأتباعه في معركة تاهودة[2] دفعهم إلى التفكير في إقامة إمامة مستقلة عن المغرب الأدنى وبالتالي تأسيس دولة جديدة (ظهور) للاباضية في المغرب الأوسط.

ب _ مرحلة تأسيس الدولة الرستمية(160هـ -296).

فشل حصار طبنة سنة 151هـ، وهزم الاباضية بزعامة عبد الرحمن بن رستم في تهودة فتراجعوا نحو المناطق الداخلية من المغرب الأوسط ونزلوا منطقة تاهرت القديمة، كما اجتمع رأيهم على تأسيس مدينة تأويهم من خطر الأعداء، فوقع اختيارهم على موضع كان لأحدى القبائل البربرية من صنهاجة[3]،التي سمحت لهم بإقامة المدينة شرط حصولها على نصيب من الخراج، ويبدو أنّ المكان كان عبارة عن منطقة تغطيها الأشجار مما اضطرهم إلى اقتلاعها وحرق جذوعها[4].

ثمّ شرعوا في عمارتها وفي هذا الشأن يذكر أبو زكريا قوله: "فلما أرادوا أن يبنوها انتخبوا أربعة أمكنة واقترعوا عليها أيها يجعلونه للمسجد الجامع، فأخذوا في إنشائها وعمارتها فجعلوها ديارا وقصور..."[5].

ويبدو أنّ حدث بناء تيهرت قد تزامن مع تولية عبد الرحمن بن رستم إمامة الظهور وهذا ما يفهم من قول ابن الصغير: "لما نزلت الاباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم فقالوا قد علمتم أنّه لا يقيم أمرنا إلّا إمام...."[6]

---

[1] _ محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب،ص147.

[2] _ العبر،ج6،ص .

[3] _ البكري،المصدر السابق،ص،68.

[4] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص،81.

[5] _ سير الأئمة وأخبارهم،ص82. البكري،المصدر السابق ص ص66_96. اليعقوبي،المصدر السابق ص14. ابن الصغير،المصدر السابق ص25.

[6] _ ابن الصغير،المصدر السابق،ص ص،28-29.

بعد مشاورات بين شيوخ القبائل الاباضية وقع اختيارهم على تولية عبد الرحمن بن رستم الإمامة بعد أن توفرت فيه شروطها وأجمعت الاباضية على أحقيته لها وتفاديا لتنافس القبائل، وفي هذا السياق يذكر ابن الصغير وهو أقدم المصادر التي وصلتنا تتناول هذا الحدث قوله: "هذا عبد الرحمن بن رستم، لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم..."[1].

إنّ قرار الاباضية بناء مدينة خاصة بهم تأويهم وتلم شملهم، واختار إمام يمثّل وحدتهم ويسوس أمرهم يمثّل الخطوة الأساسية الأولى لبناء أول دولة مستقلة عن الخلافة في المشرق وذلك ببلاد المغرب الأوسط وبتوجه مذهبي معارض لسلطة الخلافة السنية، إنّها أول تجربة تاريخية لبناء الدولة المستقلة في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

لقد كان الهدف واضحا من اختيار الإمام وبناء الدولة ويظهر ذلك من قول الاباضية: "...قد علمتم أنّه لا يقيم أمرنا إلّا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا..."[2].

إنّه هدف تنظيمي للجماعة الاباضية في مجال الحياة اليومية والعلاقات السياسية والاجتماعية داخل المجتمع الجديد، إنّه ميلاد مجتمع جديد، قائم على أسس قانونية مستمدة من الشريعة الإسلامية، إنّها الخطوة الأولى لقيام الدولة.

عاشت الدولة الرستمية ما يقارب136سنة، وامتدت في مناطق واسعة من المغرب الأوسط، كما شمل نفوذها منطقة الجريد في جنوب إفريقية، إلى جانب منطقة جبل نفوسة في إقليم طرابلس بالمغرب الأدنى[3]، وضمت قبائل بربرية كان معظمها من فرع البتر وغلبهم من زناته، أما تجربتها السياسية فقد تناولناها في الفصل التمهيدي من هذه الدراسة.

ج _ مرحلة ما بعد سقوط الدولة الرستمية(296- 500هـ).

انهارت الدولة الرستمية في تاهرت سنة296هـ/909م، وبشكل دراماتيكتي وبدون مقاومة تذكر مما يدل على ضعفها وتفككها قبل وصول الداعي الشيعي إليها بسبب الانشقاقات

---

1 _ نفسه،ص30.

2 _ نفسه،ص ص25_26.

3 – يراجع الملحق رقم 2،خريطة حدود الدولة الرستمية.

المذهبية والحروب الداخلية التّي عرفتها في ق3هـ/9م، وخاصة منذ عهد محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (258هـ_260هـ) وظهور فتنة ابن عرفة، كما مرّ بنا في الفصل التمهيدي.

بعد هذا الحدث المأساوي نزح الإباضية على شكل هجرات وأحيانا بشكل تدريجي نحو المناطق الجنوبية الصحراوية الشرقية لبلاد المغرب الأوسط، وبالذات نحو إقليم ورجلان الممتد من وادي سوف وواد أريغ حتّى واحة بني وركلان، ونقلوا معهم الكثير من تراثهم الفكري والثقافي إلى جانب ما كان يزخر به هذا الإقليم من مكتسبات حضارية تراكمت في القرون الثلاثة الماضية من تاريخ الإسلام، كما كان ينعم بالأمن والاستقرار سياسي والاجتماعي إلى جانب حالة الرخاء الاقتصادي، في إقليم ورجلان جنوب المغرب الأوسط، تجددت الحياة الثقافية الاباضية واستمر عطاؤها هذا حتّى وإن فُقِدت الدولة بمفهومها النظري[1].

1 _ هجرة الرستميين إلى ورجلان.

تذكر المصادر الاباضية أنّ أهم شخصية رستمية هاجرت إلى إقليم وارجلان بعد سقوط الإمامة في تاهرت _على يد الداعي الشيعي_ هو يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، خرج ومعه أصحابه بعائلاتهم وأهاليهم[2].

بعث الداعي الشيعي بقوات عسكرية محدودة لمطاردة الرستميين ومن هاجر معهم، وربما كان داعي الشيعة يخشى دورا مستقبليا للرستميين في مقاومة توسع نفوذ الدولة الفاطمية، مما دفعه إلى تقتيلهم في تاهرت، خاصة اليقضان وأبنائه.كما كان هذا التهديد يستهدف كثيرا من إباضية تاهرت بحكم التناقض المذهبي الحاد بين كلا الاتجاهين الشيعي الإسماعيلي، والخارجي الإباضي.

أمام هذا التهديد لم يجد الرستميون وأتباعهم سبيلا إلاّ الهجرة نحو الصحراء باتجاه إقليم ورجلان ورغم ذلك لم يتوقف الشيعة ملاحقتهم مما دفع الإمام أفلح إلى نصح أتباعه بأن يتفرقوا والإباضية يذكرون أنّ أفلح نظر إلى الطالع وهو شكل من الكهانة، فقال لأصحابه إنّه: "لا

---

[1] – للمزيد يراجع،بوعصبانة،عمر لقمان،معالم الحضارة الإسلامية بورجلان،دون دار طبع،الجزائر1992.

[2] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص188.الدرجيني،المصدر السابق،ج2،ص104وما يليها. الشماخي،المصدر السابق،ص ص256_266.

يجتمع اثنان منكم إلّا وكان عليهم الطلب، افترقوا، فقد انقضت أيامكم وزال ملككم لا يعود إليكم إلى يوم القيامة"[1].

وصل يعقوب بن أفلح إلى ورجلان هو وعياله وأهله فاستقبله أهل ورجلان يتقدمهم الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان وهو من كبار علماء ورجلان في تلك الفترة ومقدمها، وقد بلغت حفاوة أهل ورجلان بيعقوب بن أفلح أن عرضوا عليه إحياء الإمامة بإقليم ورجلان، لكنه رفض الأقدام على هذه الخطوة ربما لإدراكه لمدى تواضع إمكانيات أهل ورجلان، وما يمكن أن تجره عليهم خطوة مثل هذه في مواجهة الشيعة، فكان ردّه الشهير:" لا يستتر الجمل بالغنم"[2].

في ورجلان صاهر يعقوب بن أفلح حموم بن لؤلؤة والعز بن محمد وكانا من أهل العلم والصلاح[3]، خلّف يعقوب ابنًا هو سليمان بن أفلح، خالف الاباضية في عدّة مسائل وربما حتّى في حياة والده، التّي تذكر الاباضية أنّه حذّرهم منه[4].

بعد أن فرغ الداعي الشيعي أبو عبد الله الحسن بن أحمد "الحجاني"[5] من غزو دولة بني مدرار الصفرية بسجلماسة وتخليص عبيد الله المهدي من الأسر، وجّه حملة عسكرية قوية ومنظمة للقضاء على الرستميين وحلفائهم بورجلان.

تحصن أهل ورجلان بكدية كريمة وهي تشبه الجبل وكان من بينهم يهودي كما ذكر أبو زكريا[6]، وتؤكد هذه الحادثة ضعف أهل ورجلان من الناحية العسكرية في مواجهة العبديين

---

[1] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص198،وربما تدل هذه العبارة على التأثر بالملك الموعود عند العبرانيين (اليهود).

[2] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص189.

[3] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص106،الشماخي،المصدر السابق،ص514.

[4] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص 192.

[5] _ناشر الدعوة العبيدية الإسماعلية الشيعية بالمغرب بأرض كتامة من بلاد المغرب الأوسط والملقب "بالمعلم" والمبشر بظهور المهدي المنتظر 286ه الذي قتله سنة298ه.

[6] _ المصدر السابق،ص172،يؤكد هذا الخبر ما ذهبا إليه بعض الارسين من وجود أثر فكري واجتماعي يهودي،وتذكر المصادر العبرانية أنّ يهودا بن القريش عاش في تاهرت في ق3ه،وكان عالما بالغات العبرانية وهو مكتشف علم اللغات المقارن.

الشيعة،الذين قاموا بإحراق المسجد الكبير لجنون بن يمريان[1]، مما يدل على العداء المذهبي الّذي يكنه الشيعة للاباضية.

رغم هيمنة الشيعة الاسماعلية على بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة بقي الوجود المذهبي الاباضي قائما في مناطق مختلفة من المغرب الأوسط سواء في تاهرت أو منطقة أوراس بين القبائل البربرية الزناتية وحتى الصنهاجية وقد برز ذلك جليا عند اندلاع ثورة أبي يزيد.

2 _ ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفريني الزناتي النكاري [2].

كان أبو يزيد على مذهب النكار، وهو فقيه ومعلم صبيان، ولد سنة 270هـ(883م) وتوفي سنة 336هـ(947م)، درس المذهب الاباضي في تاهرت وبها درّس الصبيان في الكتاب، ثمّ انتقل إلى جبال أوراس، ولما قرّر الثورة ضد الفاطميين الشيعة، ساندته قبيلة بني كملان الهوارية[3].

وقد ذكرت المصادر أخبار ثورته كابن عذارى المراكشي في كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" والرقيق القيرواني "تاريخ افريقية والمغرب" وبن خلدون "العبر" وكذا ابن الأثير والمقريزي وغيرهما[4].

كان أبو يزيد صديقا للشيخ أبو الربيع سليمان ابن زرقون[1] وقد درسا معا عند بن الجميع وسافرا معا[2]، ولما قرر أبو يزيد الثورة ضدّ العبيديين كان ينتقل بين ورجلان وجبل أوراس في المغرب الأوسط وبني برزال وبني زندك بإقليم الزاب.

---

[1] _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص172، الدرجيني، المصدر السابق ،ج2،ص341_344، الشماخي، المصدر السابق،ص،362.

[2] _ أبو يزيد بن مخلد بن كيداد اليفريني:إباضي نكاري،عرف بصاحب "الحمار" مارس الزهد والتقشف وتعليم الصبيان،بدأ تمرده ضدّ السلطة الشيعة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي منذ316 هـ لكن أعلن الثورة ضدّ الدولة الفاطمية العبيدية منذ(322_336هـ)وكاد أن يقضي عليها لولا فشل سياسته في كسب أتباعه من مختلف الطوائف.للمزيد يراجع،ابن عذارى المراكشي،البيان الغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج1، ص320،316،193،أبو زكريا،المصدر السابق،الهامش،ص175،رسالة افتتاح الدعوة،للقاضي النعمان بن محمد.

[3] _ الشيخ،سليمان بن الحاج ،داود بن يوسف (المقدمة،عمار طالبي)،ثورة أبي يزيد،ط1،1981،ص21

[4] _ La révolte d'abou_ yazid ,cahiers de Tunisie 1953 PP, 103_ 125 et Revue des Etudes Islamiques, 1936, pp 80 _87.

وقد سبق وأن أشرنا في هذا البحث في الفصل التمهيدي إلى ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد الفاطميين الشيعة، وكل ما نهدف إليه في هذا الفصل هو إبراز علاقة الاباضية في ورجلان بهذه الثورة وانعكاسات ذلك على التطور الثقافي لهذا الاتجاه المذهبي.

لم يعلن أبو يزيد توجهه النكاري في بداية ثورته، وحاول كسب كل الاباضية وحتى علماء السنة الذين حاربوا إلى جانبه خاصة في افريقية[3]، كما كسب تأييد إخوانه الاباضية الوهبية في بداية ثورته ضد الفاطميين وزار ورجلان سنة 325هـ/936م ونزل عند بني زنداك وبني واركلا، لم يعلم الناس بمذهبه، فاعتقدوا فيه خيرا لذا ساندته الاباضية من نكار ووهبية في جميع بلاد المغرب بما فيها أهل ورجلان، وحتى السنّة خاصة علماء المالكية[4].

خلّفت هذه الحرب مواقف سياسية ومذهبية دلّت على التقارب المذهبي الذّي لا يزال قائما بين الاباضية والسنة، وعلى الرفض المشترك والعنيف للوجود الشيعي الإسماعيلي المفروض في بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، هذه التجربة انتهت بفشل الثورة وعودة العداء والصراع المذهبي إلى بلاد المغرب، وتمزق الاباضية فكريا واجتماعيا أكثر مما كانت عليه،إذ زادت حدة العداء بين الطوائف المذهبية على اختلافها.

وأبرز ما تجدر الإشارة إليه أنّ فشل ثورة النكار بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد، كانت نتائجها كارثية بالنسبة لبلاد المغرب الإسلامي خاصة الأدنى والأوسط منه بما لحقها من ودمار.

أمام الواقع المتردي الذي يخلفه فشل أي حركة ثورية خاصة إذا كانت عنيفة، فإننا نجد أنّ المؤرخين وأرباب المذاهب شيعة، سنة، وإباضية وهبية، قد اتّخذوا من سيرة بن كيداد سببا في

---

[1] _ أبو الربيع،سليمان بن زرقون،من كبار علماء الاباضية،للمزيد يراجع، صالح باجية،الاباضية بالجريد، ط1،تونس،ص115 وما يليها.

الشيخ،داود بن يوسف،المرجع السابق،ص26،ابن خلدون،العبر، ج7،ص129

[2] _ نفسه،ص28

[3] _ المالكي،أبو بكر عبد الله بن محمد،كتاب رياض النفوس،تحقيق،بشير البكوش،المطوي محمد العروسي،ج2، طبعة دار الغرب الإسلامي1994،لبيروت،ص 309.

[4] _مزهودي،مسعود،الإباضية في المغرب الأوسط من سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب،طبعة،المطبعة العربية،القرارة،الجزائر،1996ص77.

فشلها وراحوا ينسبون إليه كل الصفات الذميمة وينعتونه بعدو الله ومنهم من شبهه بن الأزرق[1].

كما أن أحداث ثورة أبي يزيد خلّفت لنا مواقف فكرية من جميع الاتجاهات المذهبية إباضية، نكار، وهبية وسنة خاصة علماء المالكية وحتّى مواقف شيعية اسماعلية تشكل مادة معرفية هامة لدراسة التطور الفكري لبلاد المغرب عامة والأوسط خاصة.

رغم فشل ثورة أبي يزيد بمقتله سنة336هـ إلّا أن الاباضية ساندت ابنه الفضل خاصة النكار وعلى رأسهم معبد بن خزر الزناتي[2]، لكن الوهبية تخلوا عن ثورة النكار هذه المرة وحاولوا كسب السلام مع الفاطميين وأتباعهم من بني زيري الصنهاجيين[3].

نَعم الاباضية في ورجلان وأريغ وسوف بسلام نسبي في القرن الرابع الهجري خاصة بعد فشل ثورة النكار مما سمح لهم ببناء حياة ثقافية متميزة وحياة اجتماعية مستقرة ومزدهرة شاركهم فيها المالكية من السنة[4].

في ورجلان يبدو أنّ الاباضية الوهبية شرعوا في تخطيط مدينة جديدة سيكون لها شأن في وجودهم الحضاري،ألا وهي مدينة سدراتة والتّي تعرف لدى البربر "بسدراتن"[5] التّي عرفت في القرنين الرابع والخامس الهجريين تطورا حضاريا مهم وهي المدينة التّي يعتقد أنّ يحيى بن إسحاق الميورقي دمّرها في القرن7هـ/13م.

---

[1] _ محمود اسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،ص251،أبو زكريا،المصدر السابق،ص،181.

[2] _ محمود إسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،ص 250.

[3] _ باجية،صالح ،الإباضية بالجريد،طبعة،تونس،1976،ص115.

* أبا نوح ،سعيد بن يخلف المزاتي،كان من دعاة الثورة ضد الفاطميين

خاصة بعد أن حصل الاباضية على الأمان في عهد "أبو تميم الفاطمي" وعفى عن شيوخهم في بلاد المغرب وهم "أبا نوح، و"أبي خزر" اللّذان ثارا ضد "المعز الفاطمي"بعد مقتل أبي القاسم يزيد بن مقلد،الدرجيني، ج1ص،121_142.

_ وقد اشترك أهل الزاب وأريغ وورجلان في تأييد هذه الثورة رغم أنّها قامت في افريقية وأرض الجريد بالمغرب الأدنى (الدرجيني،ج1،ص129).

[4] _ للمزيد،يراجع صالح ،باجية،المرجع السابق،ص197 وما يليها.

[5] _ بلغراد،محمد،الحركة الاباضية في تاهرت وسدراتة،**مجلة الأصالة**،الجزائر،1977 العدد،41،ص46.

ويعتقد الاباضية أنّ وجود مدينة سدراتة كان قبل سقوط الدولة الرستمية وهذا ما تؤكده الدراسات التي قامت بها Marguerite van Berchem وهي دراسات أثرية جرت في العهد الاستعماري الفرنسي 1953[1].

وكل ما أضافه إليها المهاجرون الجدد هو الاستقرار بها، وإحداث نهضة اقتصادية وفكرية أبرزت أهميتها[2].

عرفت الاباضية في ورجلان وسدراتة استمرار ظاهرة الاختلافات الفقهية والفتن الداخلية ومن أبرزها ما أثاره سليمان بن يعقوب بن محمد بن أفلح والذي أصبح يقوم بالفتوى بعد وفاة والده وخالف فقهاء الاباضية في سبع مسائل[3].

في القرن الخامس الهجري(11م)، بدأت تصل إلى إقليم ورجلان وواد أريغ القبائل العربية الهلالية والتي مثلت تهديدا للوجود المذهبي الإباضية بالمنطقة، هذه القبائل التي يبدو أنّ توجهها كان سنيا، رغم أن ميراثها الفكري المكتوب شبه منعدم، كما عرفت المنطقة في هذه الفترة صراعات قبلية بسبب غياب سلطة مركزية قادرة على فرض السلام، مما تسبب في تدهور المنطقة في أواخر القرن الرابع الهجري فهجرها العلماء[4].

انتشرت ظواهر اجتماعية سلبية في المنطقة كقطاع الطرق والانحرافات الخلقية والسرقة، وبدأت القبائل البربرية تتخلى تدريجيا عن الاباضية وتقبل على المذهب المالكي، وفي هذا السياق يذكر الدرجيني أنّ جبال تمسولة والتي كانت معقلا للاباضية: "لم يعد فيها أحد من أهل

---

[1] _ Sedrata une ville au moyen âge ensevelie dans les sables du sahara ,documents

_ Marguerite van berchem : Deux compagnes de fouilles à sedrata(1951_1952) travaux de L'institut de recherches Sahariennes T10_1953 P 128

_ Glaude Bavard : La civilisation urbaine du m'zab swed Alger, p11

_ ويؤكد مسعود،مزهودي،أنّ أعداد الاباضية تقلصت في بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط خاصة،بعد فشل ثوراتهم ضد الفاطميين (النكار) فانحصروا في بلاد الجريد بالمغرب الأدنى وورجلان بالمغرب الأوسط

[2] _ مزهودي، مسعود،المرجع السابق،ص ص109_110.

[3] _ الشماخي،المصدر السابق،ص،366،الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص ص109-110.

[4] – Mercier,Ernest,L'Afrique Sptentrionale (Berbérie),T2,op cit,pp10 –15.

الدعوة، فإنّهم تغيّروا وبدّلوا إلّا "يصلتين"عم الفقيه أبي الربيع سليمان بن يخلف"[1]، وتصاعدت حدّة الصراع المذهبي في المنطقة، ويذكر الشماخي أنّ أهل ورجلان(اباضية) قتلوا جماعة من الأشعرية وهم سنّة[2].

أدرك الإباضية أن وجودهم المذهبي مهدد بالزوال فاستنجدوا بالشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، والّذي لعب دورا أساسيا في الحفاظ على تماسك المجتمع الإباضي حيث أسس لنظام اجتماعي وثقافي متماسك، لا يخلوا من أبعاد سياسية كميثاق لتحقيق الاستقرار والوحدة والتطور للاباضية في واد أريغ وإقليم ورجلان وهو ما سيعرف بنظام العزابة[3].

رغم اضطراب المنطقة إلا أن الهجرات البشرية كانت تصل إلى ورجلان من مناطق مختلفة خاصة من افريقية، ربما هروبا من بطش العبيديين وأتباعهم من بني زيري الصنهاجيين، حيث هاجر إباضية قلعة بني درجين بمنطقة الجريد جنوب افريقية إلى ورجلان، خاصة بعد تدميرها من طرف المعز بن باديسسنة 440هـ[4]، كما جاءت الهجرة من طرابلس حوالي سنة (430هـ/ 1038م) وللإشارة فقد انتشرت في هذه الفترة لدى الاباضية خرافة مدنية "جغراف"[5].

أدّت هذه الهجرات إلى اكتظاظ مدينة ورجلان بالسكان وكان من بينهم البدو من زناتة فاضطربت أحوالها، وربما بدأت بوادر العرب الهلالية في الوصول خاصة في منتصف القرن الخامس الهجري/11م، كما بدأت سلسلة من التحالفات مع القبائل البربرية خاصة في صراعهم مع الأمراء الزيريين في افريقية وأبناء عمومتهم الحماديين في بلاد المغرب الأوسط.

---

[1] _ نفسه،ج1،ص 168.

[2] _ مسعود،مزهودي،المرجع السابق،ص،51.ويؤكد مسعود،مزهودي،أنّ أعداد الاباضية تقلصت في بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، بعد فشل ثوراتهم ضد الفاطميين(النكار) فانحصروا في بلاد الجريد بالمغرب الأدنى وورجلان بالمغرب الأوسط.

[3] _ نظام العزابة،نظام تربوي اجتماعي ظهر عند الإباضية في القرن 5هـ بالمغرب الأوسط.

[4] – باجية،صالح،المرجع السابق،ص147.

[5] _ " جغراف" خرافة يعتقد فيها الاباضية أنّ دولتهم الموعودة ستقوم فيها،تمتاز بالعدل والصلاح وتتفق هذه الفكرة مع قول يعقوب بن محمد بن أفلح الّذي أشار أن ملك الاباضية لن يعود إلاّ في آخر الزمان وهي فكرة قريبة من "المهدوية".

أدّى هذا الصراع بالأمير الحمادي إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة ابنه الناصر بن علناس استولت على ورجلان وبعض المناطق في أريغ[1]، لم تبدِ أهل ورجلان أي مقاومة تذكر مما يدل على عدم وجود قوة سياسية فاعلة فيها معادية للحماديين.

وأمام اضطراب أحوال إقليم ورجلان وواد أريغ بسبب الفتن والهجرات المتتالية، بدأ الاباضية انسحابا تدريجيا نحو بلاد الشبكة النائية صعبة المسالك وهي المعروفة بواد ميزاب(مصاب) وفيها بدأت تظهر المدن الاباضية الجديدة في القرن الخامس الهجري.

وللإشارة فإنّ سكان هذه المنطقة والمعروفون ببني ميزاب والّذين يرجع ابن خلدون أصلهم إلى بني مصاب من زناتة[2] كانوا في القرون الأولى على مذهب الاعتزال(الواصلية).

وتذكر المصادر الاباضية أنّ العالم أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي دعا سكان هذه المنطقة إلى الاباضية فاستجاب له بعضهم لكن رفضه البعض[3]، لكن رغم ذلك كان انتشار هذا المذهب بعد 420هـ/1023م _تاريخ زيارة أبي عبد الله_ في واد ميزاب مهما لدرجة أنّ جموع الاباضية من أريغ وورجلان بدأت تهاجر إليه، خاصة عندما كثرت الفتن والاضطرابات في ورجلان وسدراتة، وبدأت طلائع بني هلال تصل إلى المنطقة،وربما كان ضغط المالكية فيها يتعاظم على حساب الاباضية قبل وصول بني هلال.

يبدو أنّ هذه الهجرة كانت منذ مطلع القرن الخامس الهجري/11م، وما يؤكد ذلك هو تأسيس المدن التاريخية الجديدة للاباضية في واد ميزاب، حيث بنيت مدينة العطف(تاجنينت) التّي أسسها خليفة ابن أيغور المعتزلي من ثلاثة عشر عائلة سنة402هـ/1011م[4].

ثمّ مليكة سنة408هـ/، وغرداية سنة442هـ_447هـ(1053م)، وبونورة438هـ، ثم بني يزقن748هـ، وتختلف المصادر الاباضية كثيرا في هذه التواريخ مما يدل على عدم وجود مصادر معاصرة لفترة بنائها وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون عند حديثه عن مدن ميزاب

---

[1] _ ابن خلدون،العبر ،ج6،ص231.

[2] _ نفسه،ج7،ص80،تحقيق،خليل شحادة،سهيل،زكار ،ط،دار الفكر ،بيروت 2010

[3] _ طبقات الدرجيني،ج1ص183.

[4] _ بحاز ،ابراهيم،الميزابيون المعتزلة،قراءة جديدة لنصوص قديمة، **مجلة الحياة**، العدد1،المطبعة العربية،القرارة، الجزائر ،السنة1998،ص131.

بقوله:" لم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم..."[1].

وربما ينطبق هذا الواقع على كثير من قبائل البربر خاصة البدوية منها وكذا قبائل بنو هلال العربية التّي نجهل الكثير عن تراثها الثقافي وتوجهاتها الفكرية، إلّا ما وصلنا عن طريق خصومهم بالدرجة الأولى وبشكل سلبي[2].

وفي إطار التحول المذهبي لبني مصاب من الاعتزال إلى الاباضية يجب التنبيه إلى أنّ الجانب العقدي للمذهبيين يكاد يتطابق مما سهل هذا التحول[3]، وربما كانوا قد مزجوا بين تعاليم الاباضية السياسية والفقهية، وعقيدة الاعتزال.

في العهد الحمادي خاصة في القرن5هـ/11م ظهرت سياسة التسامح المذهبي خاصة بين السنة المالكية والشيعة الاسماعيلية لأسباب سياسية، وساد المذهب المالكي بلاد المغرب الإسلامي، لكن هذا السلام سرعان ما اختفى لما تحول ولاء بني زيري وبني حماد إلى المذهب المالكي، خاصة في عهد "المعز بن باديس" وتحوله لدعوة العباسيين440هـ.

في منتصف القرن الخامس الهجري ظهرت موجة من الصراع المذهبي الدامي في المغرب الأدنى وواد ريغ وورجلان بين الاباضية والمالكية[4]، كما وصل إلى بلاد المغرب الأوسط المرابطون وكانت علاقاتهم بالاباضية في ورجلان عدائية بسبب التوجه المذهبي للمرابطين الرافض لظاهر التنوع المذهبي وتعصبهم للمذهب المالكي[5].

وللإشارة فإنّ نفوذ المرابطين لم يصل إلى ورجلان وإن وجدت طوائف مؤيدة لهم بها وكذا في واد ريغ وذلك لارتباطها بالمذهب المالكي.

رغم وجود الاباضية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأوسط في القرن والسادس الهجري، مثل جبل أوراس، وواد أريغ، سوف، ورجلان وواد ميزاب إلاّ أنّ أهم حاضرة ثقافية

---

1 _ ابن خلدون العبرج7،ص81.

2 _ غيّر ابن خلدون وغيره من المؤرخين المغاربة وقد سانده في ذلك المستشرقون بهدف توجيه الحقائق التاريخية بما يخدم أطروحاتهم. Mercier,Ernest,T2,opcit,pp17-20.

3 _ بحاز ابراهيم،مقال،المزابيون المعتزلة،مجلة الحياة،العدد01،ص132،صالح باجية،المرجع السابق، ص147.

4 _صالح باجية،المرجع السابق،ص ص148_149.

5 – Mercier,Ernest,T2,op cit,pp17-20

واقتصادية لهم في هذه الفترة كانت ورجلان، وهي التي يتحدد منها وبالرجوع إلى علماء موقف الاباضية من توسع أهم دولة إسلامية في تاريخ المغرب، ألا وهي دولة الموحدين (515_668هـ/ 1121_1269م) والتي وصل نفوذها السياسي والعسكري إلى بلاد المغرب الأوسط منذ سنة 539هـ، تاريخ سقوط تلمسان بيد الموحدين[1].

وتذكر المصادر الاباضية أنه لما وصل أول داعي من دعاة الدعوة المهدية إلى ورجلان ويسمى "العتروسي" تآمر الاباضية على قتله مخافة معرفة بلادهم والاطلاع على ثرائها مما يغري الموحدين بغزوها، لكن استشارتهم للفقيه أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني دفعتهم إلى التراجع عن هذا الأمر والترحيب بدعاة الموحدين، بعد أن قال لهم الفقيه يعقوب: "هؤلاء لا يخربون بلادكم بل تنالون في أيامهم عزاً وإقبالا، وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء إكراما وإحسانا....فأجيبوا دعوتهم تفلحوا..."[2].

ويبدو أنّ موقفه هذا لم يأت من فراغ، بل من معرفة حقيقية لتعاليم المهدي، والتّي تأخذ بجانب من المفاهيم الخارجية الاباضية، والرافضة لهيمنة المذهب المالكي على بلاد المغرب والأكثر تحررا من فقهاء المالكية.

وتعود معرفة أبي يعقوب لدعوة الموحدين إلى فترة دراسته بالأندلس في مرحلة الشباب(520_530هـ/1126_1136م)، التي توافق المرحلة الهامة لقيام دولة الموحدين.

ويؤكد ابن خلدون هذا الموقف المنسجم للاباضية في بلاد المغرب الأوسط مع الاتجاه السياسي والعقائدي للموحدين بقوله: "وبنو مصاب كانوا يتولون رياف المغرب الأوسط وتُلولِه ما ليس يليه أحد من زناتة... كأنهم من جملة عساكر الموحدين وحاميتهم..."[3].

وقد حضي الاباضية بمكانة مرموقة لدى الموحدين وربما يعود ذلك لوجود تقارب مذهبي بين الاباضية وحركة المهدي بن تومرت ومن أمثلة هذه الحظوة أنّ الفقيه التاجر "زكريا بن صالح اليراسيني" كان من المقربين من يعقوب المنصور الموحدي(580_595هـ/1184_1198م)

---

[1]_ عز الدين،عمر موسى،الموحدون في الغرب الإسلامي،طبعة ،دار الغرب الإسلامي،1991ص،43. البيان المغرب،ج3،ص18، مجهول،مفاخر البربر ص ص58_59.

[2]_ الدرجيني،المصدر السابق،ج2 ،ص315،بحاز ،إبراهيم،مجلة الحياة،العدد،2،سنة 1999 ،ص148.

*_ أبو يعقوب،يوسف بن إبراهيم الورجلاني،فقيه اباضي عاش ما بين(500_570هـ/1106_1174م) وبالتالي عاصر ظهور دعوة المهدي وخلافة عبد المؤمن بن علي(524_558هـ) وعهد ابنه يعقوب .

[3]_ العبر ،ج6 ،ص29.

كما شهدت ورجلان وبلاد بني مصاب(ميزاب) حالة من الاستقرار والازدهار الاقتصادي والفكري، لم يعكر صفوه إلاّ صراع الموحدين بابن غانية، الأمير المرابطي والّذي غزا ورجلان في القرن السابع الهجري ودمرها وخرّب مساجدها حوالي سنة 627هـ.

ثالثا - مساهمة الإباضية في تطور الحياة الثقافية في المغرب الأوسط(ق3_6هـ/9_12م):

أ - النشاط الفكري للإباضية في عهد الدولة الرستمية في ق3هـ/9م:

ظهرت الإباضية منذ نشأتها في المشرق الإسلامي كفكرة سياسية ذات خلفية اجتماعية، لاتجاه معارض للحكم السائد، المبني الحكم القرشي، الوراثي في عهد بني أمية وبني العباس، وحاولت التعبير عن أصالتها والدفاع وجودها التاريخي.

إنّ هذه النشأة بأبعادها المختلفة هي جعلت من الفكر والنشاط الفكري عاملا أساسيا لاستمرار وجودها وإثبات أهليتها التاريخية كاتجاه فكري أساسي في الثقافة العربية الإسلامية، ويبرز اهتمام إباضية المغرب الأوسط بهذا الجانب خاصة منذ المراحل الأولى لتأسيس الدولة الرستمية الاباضية بتاهرت[1]، والتّي وضعت من أولوياتها تثبيت دعائم المذهب الاباضي بين سكانها وربما تطلعت لنشره بين قبائل المغرب الإسلامي[2].

1- العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية:

وفّر قيام الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط والأدنى الأسباب والعوامل الملائمة لظهور حياة ثقافية وفكرية متميزة،ساعدت على ظهور وازدهار الحياة الثقافية الفكرية أهمها:

1 _1- انتشار الإسلام واللغة العربية:إنّ الإسلام في جوهره نسق فكري متكامل ومتماسك بلّغة الرسول صلى الله عليه وسلم - بلغة العرب ومنذ ذلك الحين ارتبط الإسلام بلغة العرب الفاتحين

---

1 – Tadeusz ,Lewicki ,l'Etat nord– Africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8eme au 9e siècle,op cit,pp514–515.

2 _ استطاع الإباضية توسيع نفوذهم المذهبي في بلاد المغرب من خلال سلطتهم السياسية،نشاطهم التعليمي،والمناظرات التي كانت تجري بينهم وبين الواصلية وحتى أهل السنة،كما لجأوا إلى التأليف.

والتي مثلت الإطار المادي لاحتواء الفكر الإسلامي في حين أصبحت تعاليم الإسلام التي تضمنها النص القرآني والحديث النبوي الشريف هي الروح الحقيقي للثقافة العربية الإسلامية[1].

وبوصول الفتح الإسلامي إلى بلاد البربر بشمال إفريقيا بدأت تظهر معالم حياة ثقافية عربية إسلامية بهذه البلاد خاصة في أواخر القرن الهجري الأول، السابع الميلادي وعلى امتداد القرن الثاني الهجري(8م)، واستمرت مسيرتها في القرنين الرابع والخامس الهجريين حيث بلغت الثقافة العربية الإسلامية أوج تطورها وازدهارها.

انتشر التعليم الإسلامي في معظم أرجاء بلاد المغرب بما فيها المغرب الأوسط وتحسن المستوى الثقافي وتعددت مجالات وقضايا الفكر الإسلامي.

واهتم المسلمون ببناء المساجد والكتاتيب وتعليم الناس تعاليم الدين الجديد واللغة العربية سواء للكبار أو الصغار[2]، وقد تمخض عن انتشار الإسلام واللغة العربية وتعدد طرق ووسائل التعليم ظهور حياة ثقافية وفكرية نشطة من أبرز نتائجها ظهور العلماء والأدباء والمتكلمين، إلى جانب حركة التأليف[3]

1 _2_ قيام نظام سياسي مستقر.

إنّ أقدم مصادرنا التاريخية حول قيام الدولة الرستمية كتاب بن الصغير المالكي صاحب كتاب أخبار الأئمة الرستميين توفي بعد280هـ،والذي كان مواطنا استقر بتيهرت وكان يملك دكانا في أحد أحيائها يسمى الرداهنة[4]،يذكر بن الصغير أنّ الإباضية لما استقروا بالمغرب الأوسط بالقرب من تيهرت الرومانية،أجمعوا رأيهم على تعيين عبد الرحمن بن رستم إماما لهم وتأسيس إمامة إباضية، وفي هذا السياق يذكر جرى بينهم الحوار التالي:"قد علمتم أنّه لا يقيم

---

[1] _ للمزيد يرجع إلى رسالة ماجستير الطالب ملاح،الهواري،انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد المغرب خلال ق2هـ،رسالة ماجستير،(مرقونة)، جامعة وهران .1999-2000م.

[2] _ كان أول عمل يشرع فيه في بناء المدن الإسلامية هو اختطاط المساجد كما حدث في بناء القيروان سنة 50هـ/ م أو تيهرت سنة 160هـ.

[3] – للمزيد يرجع إلى رسالة، سايح دين، حركة التعليم بالمغرب الأوسط(ق3هـ/9م)،مرقونة،جامعة سيدي بلعباس،2009-2010.

[4] _الرداهنة: حي تجاري في مدينة تيهرت الرستمية في القرن 3هـ

أمرنا إلاّ إماما نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا..."[1]

إنّ إجماع الاباضية على تأسيس إمامة جديدة بالمغرب الأوسط في حدود160هـ يعد خطوة هامة لإقامة الدولة التّي اختير لها عبد الرحمن بن رستم إماما،وتيهرت عاصمة _ كما سبقت الإشارة_ هذا الاجتماع المنظم والهادف يعني ميلاد مجتمع جديد منظم تسود فيه العدالة والاستقرار وحتى التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وقد أكدت الأحداث التّي مرّ بها تطور هذا المجتمع الجديد ذلك.

حيث يذكر ابن الصغير بناء المسجد الجامع، والذّي سيلعب دورا مهما في نشر الإسلام واللغة العربية ونشأة وتطور الحياة الثقافية بمنظور مذهبي محدد اباضي،ولكن دون إقصاء للاتجاهات المذهبية والفكرية المعارضة خاصة السنية منها.

استطاعت سلطة الدولة الرستمية تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع الجديد في المغرب الأوسط، واستفادت من المساعدات المالية من اباضية المشرق خاصة فترة حكم الإمام عبد الرحمن بن رستم، وابنه عبد الوهاب(160هـ_208هـ)[2].

كما عرف أئمة الدولة الرستمية بحبهم لاكتساب العلم ونشره، فعبد الرحمن بن رستم هو أحد كبار حملة العلم عند الإباضية والّذين تتلمذوا على يد أبي عبيدة بن أبي كريمة بالبصرة بعد أن أوفدهم إليه سلمة بن سعيد[3]، فإلى جانب مهامه السياسية كان إماما للإباضية بالمسجد الجامع يجلس للدرس والوعظ والإرشاد ويؤم الناس في الصلاة،ويذكر سيد عبد العزيز سالم أنّ عبد الرحمن كان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك، وانّه أقبل على التأليف فألف كتابا في التفسير لم يصل إلينا[4]، لكن هناك من يحتفظ على وجود هذا التفسير ويعتقد أنّه ربما كان شفويا.

أما خليفته عبد الوهاب بن رستم(171هـ_208هـ)، فإلى جانب اهتمامه بجمع الكتب وقراءتها[5]، جلس للتدريس لمدة سبع سنوات في منطقة الجبل بالمغرب الأدنى في شرق الدولة الرستمية،

---

1 _ ابن الصغير،المصدر السابق،ص29.

2 _ احسان،عباس،المجتمع التاهرتي،في عهد الرستميين،محاضرات ومناقشات الملتقى 11 للفكر الإسلامي، ورجلان،فبراير 1977،المجلد الأول،منشورات وزارة الشؤون الدينية ،الجزائر،ص123.

3 _ ابو زكريا،المصدر السابق،ص53.الدرجيني،طبقات،ج1،ص43.، بحاز،إبراهيم،الدولة الرستمية،ص91.

4 _ سيد عبد العزيز سالم،المغرب الكبير،ج2 ص،574.

5 _ قصة شراء أحمال من الكتب من المشرق الإسلامي ،(نواة مكتبة إباضية في بلاد المغرب الإسلامي)، (مقال الشيخ بوقرية)

وخلف لنا كتابا بعنوان "مسائل نفوسة الجبل" وهو عبارة عن أجوبة فقهية مبسطة لكنّها تعكس القضايا الفكرية التي كانت محور اهتمام الاباضية في تلك الفترة ويعتقد طلاي إبراهيم محمد محقق كتاب مسائل نفوسة أنّ أجوبة أخرى ووصايا لابنه أفلح قد أضيفت لها[1].

كما عرف عهد أفلح بن عبد الوهاب(208_258هـ) بالاستقرار النسبي واستمرار قوة وهيبة الدولة الرستمية، وتقريب أميرها للأدباء والعلماء وقد عاصر هذه الفترة الشاعر الشهير "بكر بن حماد" وكان سنيا[2].

اهتزت أركان الدولة والمجتمع بعد وفاة أفلح بن عبد الوهاب سنة 258هـ بحدوث فتنة كبرى إثر مقتل ابن عرفة ذو الأصول العربية وكادت هذه الأزمة أن تقضي على وجود الدولة.

حاول الإمام اليقضان(261_281هـ) وهو محمد بن أفلح أن يعيد للدولة هيبتها واستقرارها وإشعاعها الفكري، لكن يبدو أنّ عوامل الضعف والفساد والانقسامات كانت أقوى، فتوالت الفتن حتى تفككت وحدة المجتمع وتمزق انسجامه.

1 _3_ الرخاء الاقتصادي.

عرف المغرب الأوسط في عهد الدولة الرستمية حالة من الازدهار الاقتصادي أدت إلى تطور الزراعة والتجارة وتحسن في مستوى الوضع الاجتماعي لدرجة الرخاء،وقد استفادت الدولة الرستمية خاصة في تيهرت وضواحيها من المساعدات التي حصل عليها الاباضية من المشرق إلى جانب الاستقرار الّذي حققه حكم الرستميين في مراحله الأولى.

يصف بن الصغير هذا الوضع فيقول:"...شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات[3] وغرس البساتين وأجراء الأنهر..."[4]

---

[1] _ ابن رستم،عبد الوهاب،كتاب مسائل نفوسة، تحقيق،ابراهيم، محمد طلاي،المطبعة العربية،غرداية،1991، ص11.

[2] _ بكر بن حماد بن إسماعيل الزناتي التيهرتي(200 -298هـ) بها تلقى دروسه الأولى عن طريق علمائها ومحدثيها وفقهائها ،يعد بكر من أوائل الشعراء المجيدين والذائعي الصيت في المغرب العربي.

[3] _ الأموات: يقصد بها الأراضي غير المستصلحة وإحياؤها يعني استصلاحها.

[4] _ المصدر السابق،ص35.

ونظرا لأهمية موقع تيهرت التي تتوسط بلاد المغرب الإسلامي وخاصة الأوسط منه، تعتبر حلقة الربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، جذبت تيهرت إليها القبائل البربرية وكذا المهاجرين من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي.

وصف ابن الصغير ذالك بقوله:" ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلّا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه"[1].

كما برع الرستميون في التجارة، فسيّروا القوافل إلى المشرق، والقيروان وفاس والأندلس وكذا بلاد السودان الغربي[2]، والتي كانت عاملا أساسيا في ازدهار مجتمعهم اقتصاديا وبروز حواضر رستميية جديدة لعل أبرزها ورجلان، كما استفاد الرستميون من تجارة الذهب والرقيق الأسود من بلاد السودان مما جعل دولتهم وعاصمتها تيهرت تغدوا حاضرة إسلامية شهيرة، فشبهها الرحالة "بعراق المغرب"[3].

انعكس هذا الرّخاء الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي بشكل إيجابي على الوضع الثقافي والفكري في ظل الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط خاصة في حواضرها الكبرى وأهمها تيهرت العاصمة وورجلان، فبنيت المساجد والكتاتيب وانتشر التعليم وتناجت الفقهاء في قضايا الدين والعقيدة وظهر الفقهاء والعلماء والمتكلمون، وتأسست المكتبات وظهرت المؤلفات الرستمية.

1 _ 4_ المؤثرات المشرقية (الخارجية).

تتمثل تأثيرات المشرق الإسلامي على بلاد المغرب في كون المشرق كان مهد الإسلام والحضارة العربية الإسلامية خاصة في قرونها الأولى، ومنه كانت تصدر الأفكار في مجال الفقه والعقيدة وحتى السياسة، فيتلقاها المغرب ويتقمصها، وفي هذا السياق تعد الأفكار الخارجية بفروعها المختلفة نتاج لهذه التأثيرات وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

في المغرب الإسلامي نشأت نقطة تأثير هامة من الناحية الفكرية والعقائدية وحتى السياسية هي القيروان، وإليها انتقلت الاتجاهات الفقهية والعقائدية الإسلامية من سنة، اباضية وشيعة.

وفي القرن الثاني للهجرة انتشرت الحركات الخارجية بقوة في بلاد البربر ببلاد المغرب الإسلامي مستفيدة من تدهور نظام الحكم الأموي في أواخر عهده واستبداد ولاته.

---

[1] _ نفسه،ص36.

[2] – Tadeusz ,Lewicki ,l’Etat nord– Africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental,op ccit,pp518–519.

[3] _ اليعقوبي،المصدر السابق،ص109.

كما كانت أفكار علماء المشرق من مختلف الاتجاهات تنتقل إلى بلاد المغرب بواسطة رحلات الحج وطلب العلم وحتى البعثات العلمية التي كانت تأتي من المشرق إلى بلاد المغرب، إلى جانب دور القوافل التجارية في تسهيل تنقل العلماء والأفكار والكتب[1].

كما استطاعت الحركة الاباضية في المغرب الأدنى خاصة في منطقة جبل نفوسة بناء قاعدة علمية مذهبية مؤثرة على بلاد المغرب في أواخر القرن الثاني وعلى امتداد القرن الثالث الهجري وأصبح علماء نفوسة الموجه الروحي الحقيقي للاباضية في بلاد الجريد وتيهرت وواد أريغ بالمغرب الأوسط [2].

هكذا كان المشرق باتجاهاته الفكرية والعقدية عاملاً حاسما في تحديد التوجهات الثقافية لبلاد المغرب الإسلامي حتى مطلع القرن الخامس الهجري.

2_ مظاهر النشاط الفكري الاباضي في ظل الدولة الرستمية(160_296هـ) :

2 _1_ انتشار حركة التعليم.

جاء الإسلام فرفع قدر العلم والتعليم، وجعل محوره القرآن الكريم والسنة النبوية، فظهرت الكتاتيب الإسلامية لتعلم القرآن وتعليمه، ومن الأحاديث التي تحث على ذلك قول الرسول ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[3].

نشأت الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم منذ صدر الإسلام وانتشرت بانتشار الإسلام، وكان أول عمل يقوم به المسلمون عند تخطيط مدنهم، هو وضع أساس المسجد الجامع اقتداء بسنّة الرسول، ويظهر ذلك جليا في تخطيط القيروان بافريقية[4]،

---

[1] _ الشماخي،المصدر السابق،ص70.

[2] _ كانت نفوسة القوة الحقيقية المؤثرة في تماسك الدولة الرستمية وقاعدتها الروحية الموجهة حتى بعد سقوط الدولة الرستمية.

[3] – البخاري، صحيح البخاري، فضل القرآن.

[4] – هي أول مدينة بناها المسلمون في مراحل الفتح الأولى في افريقية من بلاد المغرب بقيادة عقبة بن نافع (51– 55هـ)،وعنها قال لأصحابه:"إنّ افريقية إذا دخلها أمير تحزّم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها،رجعوا إلى الكفر،وإنّي أرى أن أتّخذ بها مدينة،نجعلها معسكرا،وقيروانا تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر.

وتاهرت بالمغرب الأوسط،حيث يذكر أبو زكريا، قصة بناء مسجد تاهرت بقوله:"...فبنوا المسجد الجامع، فأخذوا في إنشاءها وعمارتها، فجعلوها ديارا وقصورا "[1].

إلى جانب المسجد الجامع كانت تبنى المساجد الصغرى، ويبدو أن الطوائف المذهبية كانت تبنى مساجدها الخاصة بها، وهذا ما يؤكده قول ابن الصغير:"...هذا مسجد القرويين[2] ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين[3]وهذا مسجد الكوفيين[4]..."[5].

بالقرب من المساجد أو في بعض أركانها أقام المسلمون الكتاتيب لتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم، وتعليمهم تعاليم الإسلام ومبادئ اللغة العربية من كتابة ونحو وغيرها[6].

وتروي لنا المصادر الاباضية أن أول من تعلم القرآن وعلمه بطريقة عجيبة في جبل نفوسة هو عمر بن يمكتن(ت 144 هـ/761 م)[7]، الذي يذكره الشماخي،نقلا عن ابن سلام بقوله: "أن أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن، علمه بمنزل يقال له: ايفاطمان .."[8]ومن أوائل العلماء الذين اهتموا بالتدريس إسماعيل بن درار الغدامسي وهو أحد حملة العلم الخمسة إلى بلاد المغرب عرف باهتمامه بالتعليم بصفة عامة[9]،وعنه قال الشماخي: "وهو أحد الشيوخ المشهورين في العلم والتعليم"[10].

---

1 – المصدر السابق، ص 82،الدرجيني،المصدر السابق،ج2،صص، 40-41، الشماخي،المصدر السابق، ص 44.

2 – نسبة إلى القيروان، ويقصد بهم أتباع المذهب المالكي.

3 – البصرة مدينة عراقية، كانت تعج بالمذاهب من خوارج، و شيعة ومعتزلة و حتى السّنة .

4 – نسبة إلى مدينة الكوفة العراقية و يقصد بهم الأحناف،لأن الكوفة مسقط رأس أبي حنيفة وبها أتباعه.

5 – المصدر السابق، ص 36.

6 – التليسي، المرجع السابق ، ص 391, بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 78.

7 – أحد أعلام جبل نفوسة بليبيا تعلم القرآن الكريم وحفظه، باعتراضه لقوافل العرب القادمين من المشرق إلى بلاد المغرب، للمزيد،يراجع،كودري،محمود حسين،المرجع السابق،ص ص،84 ، 85.

8 –افاطمان:مدينة أثرية حاليا في منطقة الجبل بليبيا تبعد عن مدينة الرحيبات بحوالي 25كلم .

9 – بحاز ،ابراهيم وآخرون،معجم أعلام الإباضية،جمعية التراث، غرداية،المطبعة العربية،غرداية،سنة 1999 الترجمة107،ج2،ص ص109-110.

10 – الشماخي،المصدر السابق،ص47.

لم تذكر المصادر الاباضية _المتوفرة لدينا_ الكتّاب بالاسم إلا أنها أشارت إلى تعليم القرآن في جبل نفوسة وبلاد المغرب "بدور القرآن أو دار القرآن" خاصة في عهد الدولة الرستمية[1].

2 _2_ العلماء و إنتاج المعرفة في عهد الدولة الرستمية.

شهد المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري(9م) في ظل الدولة الرستمية ظهور فئة معتبرة من العلماء ورد ذكرهم في كتب السير والطبقات أهمها وأقدمها تاريخيا كتاب"أخبار الأئمة الرستميين"لابن الصغير المالكي(ق3هـ)، و"كتاب سير الأئمة وأخبارهم"لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني(ت570هـ)، و"كتاب طبقات المشايخ بالمغرب"لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني(ت670هـ) و"كتاب السير"لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي(ت928هـ).

ولعل أبرز علماء الإباضية والأقوى أثرا في القرن الثاني والثالث الهجريين هم حملة العلم الخمسة الذين عاصروا بناء أولى الدول الاباضية في بلاد المغرب، ونقصد بها دولة أبي الخطاب ابن السمح المعافري اليمني في إقليم طرابلس بالمغرب الأدنى في الفترة مابين 140هـ حتى 144هـ، ثمّ الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط من 160 حتى296هـ.

وفي مقدمتهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري(ت144هـ)، رغم مساهمته الفعّالة في تطور التوجهات الفكرية والسياسية لدى الاباضية ببلاد المغرب الإسلامي، إلّا أنّه مات قبل تأسيس الدولة الرستمية سنة160هـ[2]، ثمّ عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط في حدود سنة 160هـ والذي توفي في حدود سنة171هـ[3].

كان عبد الرحمن بن رستم _كما سبقت الإشارة_ إلى جانب مهامه السياسية في بناء الدولة، يجلس في المسجد الجامع بتيهرت يلقي دروس الوعظ والإرشاد ويصلي بالناس وقد ترك _حسب المصادر الاباضية_ مجموعة خطب أشار إليها أبو يعقوب يوسف الورجلاني في كتابه "الدليل والبرهان"[4].

---

[1] – للمزيد يرجع إلى رسالة،سايح،دين،حركة التعليم بالمغرب الأوسط خلال القرن الثالث الهجري/9م، رسالة ماجستير مرقونة، إشراف، بلعربي خالد، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس،2009-2010.

[2]– Eugène , Guernier, la Berbère l'Islam et la France ,Tome Premier,op cit,pp256-257.

[3] _ بحاز،ابراهيم، عبد الرحمن بن رستم، مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر،ط، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1990،ص19.

[4] _نفسه،ص21_22

كما يذكر بعض كتاب الأباضية أنّ عبد الرحمن بن رستم خلّف كتابا في التفسير، أشار إليه الدرجيني في طبقاته[1]، وكذا بن الصغير، ورغم أهمية شخصية عبد الرحمن بن رستم بالنسبة للاباضية إلّا أنّ أحدا لم يعثر بشكل مؤكد على هذا الكتاب مما يدل على عدم وجوده، ويدفع إلى الاعتقاد أنّه كان عبارة عن دروس شفوية أو تفسير شفوي تداول ذكره الناس[2].

خلف عبد الرحمن بن رستم في الإمارة والعلم ابنه عبد الوهاب(171_208هـ) وكان عالما فقيها خلف لنا كتاب "مسائل نفوسة الجبل"، كما عرف عبد الوهاب بن رستم بخوضه في علم الكلام من خلال المناظرات التي كانت تدور بينه وبين الواصلية في تاهرت وضواحيها، وتذكر المصادر الإباضية دوره التعليمي خاصة لما انتقل إلى جبل طرابس التي قضى فيها سبع سنوات يعلم الناس مسائل الصلاة[3]، كما شهد المغرب الأوسط في القرن الثالث وفي إطار الدولة الرستمية ظهور عدد معتبر من العلماء مبرزين أشار إليهم بن الصغير في مواضع مختلفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن يانس، ومهدي النفوسي الّذين استنجد بهم الإمام عبد الوهاب بن رستم لمناظرة المعتزلة فرحلوا من منطقة الجبل إلى تيهرت[4].

ويذكر لنا ابن الصغير مجموعة من علماء القرن الثالث الهجري(9م) في تيهرت لعل أبرزهم أبو عبيدة الأعرج الّذي قال عنه أنّ الاباضية كانوا مقرين له بالفضل والعلم والورع، فقيه يصدرون عن رأيه، وقد عاصره ابن الصغير ودرس عنه كتاب "إصلاح الغلط" لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي، كان أبو عبيدة فقيها وعالما لغويا ويبدو أنّه لم يكن مواليا للرستميين[5].

ومنهم عبد العزيز بن الأوز فقيه وصاحب رحلة إلى المشرق، عرف برفضه لهيمنة نفوسة على الحكم في تيهرت وتوريث الحكم للرستميين[6]. ولعل صرختة كانت أبلغ تعبير رافض لانحراف أسس اختيار الحاكم أو الإمام.

وفي هذا السياق يذكر ابن الصغير قوله أي بن الأوز: "الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين، وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى"[1].

---

1 – نفسه،ص21.

2 _ معجم أعلام الاباضيةالمرجع السابق،ص،517.

3 – الدرجيني،المصدر السابق،ج1،صص64-65.

4 _ نفسه،ج1،ص56.

5 _ المصدر السابق،ص،96.

6 _ نفسه،ص،99

ومن علماء وفقهاء الاباضية هذه الفترة "محكم الهواري" من جبل أوراس والّذي تولى القضاء في عهد ولاية عبد الوهاب ابن رستم[2]، وابنه "هود" المعروف بتفسير كتاب الله العزيز[3].

لم يذكر ابن الصغير هذا التفسير، إلّا أنّ أبا زكريا ذكره في كتابه "سير الأئمة" بقوله: "ذكر أنّ رجلين اختصّما في تفسير هود بن محكم الهواري...."[4]

هذا التفسير الذي حققه شريفي بلحاج بن سعيد في أربع أجزاء، وبعد دراسة متأنية تأكد المحقق أنّ أصل هذا التفسير لكاتب مشرقي هو ابن سلام البصري[5].

اختصره هود وغير فيه بعض المسائل بما يتوافق وتوجهاته المذهبية خاصة في مجال العقيدة ولذا نسب إليه فيما بعد[6].

وإلى جانب علماء المغرب الأوسط في القرن3هـ/9م، يمكننا اعتبار علماء منطقة الجبل أو نفوسة بالمغرب الأدنى وحتّى منطقة الجريد امتداد لجهد الاباضية الفكري في المنطقة، ذلك لأنّ جهودهم الفكرية كلّها كانت موحدّة لخدمة الاباضية دولة ومذهبا، كما أنّ الرحلات العلمية لم تنقطع بين نفوسة ومنطقة الجريد وواد أريغ وورجلان ثمّ تيهرت على مدى عمر الدولة الرستمية وقد تجاوزت هذه العلاقات الثقافية عمر الدولة الرستمية لتتأكد في القرون التالية، وهذا ما سنتناوله في هذه الدراسة _بإذن الله تعالى_.

وفي هذا السياق يمكننا ذكر مجموعة معتبرة من علماء الاباضية والّذين تنقلوا إلى بلاد المغرب الأوسط أو ساهموا في تطورها الفكري _ خاصة من بلاد المغرب الأدنى وبالتحديد من منطقة جبل نفوسة ومنطقة الجريد ومنهم:

---

[1] _ نفسه،ص70،عبّر ابن الأوز عن رأيه الرافض لتنصيب أبي بكر بن أفلح (258هـ_260هـ) وفي عهده حدثت فتنة مقتل ابن عرفة،مما أدّى إلى انهيار تماسك الدولة في تيهرت.

[2] _ بن الصغير،المصدرالسابق،ص،5.

[3] _هود محكم،الهواري الأوراسي،تفسير كتاب الله العزيز،تحقيق شريفي،بلحاج،بن سعيد،طبعة،دار البصائر، الجزائر2005 ،ج 1،ص27.

[4] _ المصدر السابق،ص

[5] _ ابن سلّام،أبو زكريا يحيى بن سلّام بن أبي ثعلبة التيمى،من ربيعة ولد بالكوفة 124هـ/742م،عاش في البصرة في أوج ازدهارها العلمي انتقل إلى القيروان واتصل بالأغالبة،ثمّ عاد إلى المشرق،توفي سنة200هـ/815م ترجم له أبو العرب،طبقات علماء إفريقيا،ص،37_39،المالكي،رياض النفوس،ص 122،125،ابن الآبار،الحلة السيراء،ج1،ص،105.

[6] _ هود محكم،المصدر السابق،ج1،ص،35.

لواب بن سلام بن عمرو التوزري المزاتي(ت بعد887/237م) من أهل الجبل،صاحب كتاب "بدء الإسلام وشرائع الدين"[1]، جمع فيه بين التاريخ والتفسير، حيث تناول جانبا من تاريخ الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب _رضي الله عنهما_ وتحدث عن معركة صفين، كما تناول بالحديث ولاية بني أمية وثورة عبد الله بن يحيى الكندي طالب الحق وكذا حمزة الشاري، واختصر الحديث عن ثورة أبي الخطاب بن الأعلى بن السمح المعافري وأبي حاتم الملزوزي[2]، كما تناول في هذا الكتاب تفسير سورة الشورى، ربّما لتأكيد أحقية موقف اتجاهه المذهبي من رفض تحول الخلافة إلى ملك.

ومن بين علماء المغرب الأوسط المبرزين في القرن3هـ/9م الشاعر والمحدث السني بكر بن حماد التاهرتي الزناتي(200_296هـ) الذي رحل إلى المشرق في حوالي217هـ وسمع من سحنون بن سعيد في القيروان ومن مسدد بن مسرهد في البصرة وعمر بن مرزوق وغيرهم وروى عن مسدد مسنده بتيهرت[3].

وقد برز في مجالين أساسيين وهما الشعر وعلم الحديث، تنقل في حواضر العالم الإسلاميين وترك ولدا هو أبو يزيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد، وكان محدثا من أهل تيهرت، رحل إلى قرطبة[4].

إلى جانب العلماء والفقهاء في تيهرت، انتقل علماء الإباضية وظهروا بحواضر أخرى هامة في بلاد المغرب الأوسط وهي بلاد أريغ و ورجلان ومن أبرزهم:

الشيخ أبو صالح جنون بن يمريان[5]،الذي قال عنه الشماخي أنّه: "كان عالما سخيا ذا كرامات وهو أحد أقطاب الدين..."[6].

---

[1] _ معجم أعلام الإباضية،ص،773،الترجمة،760

[2] _بحاز ،إبراهيم،الدولة الرستمية،صص376-368.

[3] _ نفسه،صص308_309.

[4] _ الدباغ،بن ناجي،معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،ج2،تحقيق،محمد الأحمدي،محمد ماضوى،طبعة القاهرة،1972،ص 282.

[5] _ عاصره العالمان الاباضيان المعز لدين الله الفاطمي،أبي خزر يعلى بن أيوب،وأبي نوح سعيد بن زنغيل ففر أبا نوح إلى ورجلان في ضيافة أبو صالح الذي استمر نفوذه وتأثيره العلمي على ورجلان في ق4هـ

_ مسعود مزهودي،الاباضية في المغرب الأوسط،من سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب(296_442هـ/909_1058م)،طبعة،جمعية التراث،القرارة،الجزائر ،1996،ص42.

[6] _ الشماخي،السير ،ص362،مسعود،مزهودي،المرجع السابق،ص43.

عرف لدى الاباضية بعلمه وسخائه وهو الذّي كان يكرم الفقراء والمساكين وينفق من ماله الخاص على طلبة العلم عنده، كان المقدم عند الاباضية في ورجلان في أواخر القرن الثالث وحتى القرن الرابع الهجري،استجار به يعقوب بن أفلح عند سقوط الإمارة الرستمية أمام الداعي الشيعي سنة296هـ.

كما عرف المغرب الأوسط في هذه الفترة بروز علماء وفقهاء إباضيون كثيرون لم تتناولهم الدراسة بسبب عدم وصول تراثهم الفكري إلينا وإن وصلتنا بعض أخبارهم عن طريق كتب الطبقات والسير منهم:

مهدي النفوسي،محمد بن يانس،أبو الحسن الأبدلاني،عمروس بن فتح النفوسي،ابن أبي إدريس، أحمد التيه، أبو العباس فتحون عثمان الصّفار، وأبو زكريا التويكيتي، عيسى بن فرناس، عبد الله اللمطي[1]، كما ترجم لهم الشماخي في سيره، وأبو العباس الدرجيني في طبقاته.

كما عرفت ورجلان في القرن3هـ/9م وجود عالم مشهود له بالعلم والمعرفة هو أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي المعروف بالطرفي[2] تعلم في تاهرت، واستقر به المقام في ورجلان في القرن الثالث للهجرة، وبها أصبح مرجعا علميا بالنسبة للاباضية.

مارس أبو يعقوب يوسف بن سيلوس في ورجلان القضاء والتعليم، فتخرج على يديه مجموعة معتبرة من العلماء أبرزهم "أبو صالح جنون بن يمريان" مقدم ورجلان في القرن الرابع الهجري.

وقال الدرجيني متحدثا عن الطرفي أنّه منتهى الفتوى في وورجلان كما عدّه من علماء الطبقة السادسة(250_300هـ) وقد أدرك عدّة علماء في الدولة الرستمية وأخذ عنهم[3].

كما عرف المغرب الأوسط عددا معتبر من العلماء الإباضيين سواء في تاهرت أو ورجلان في القرن3هـ/9م، اكتفينا بذكر العلماء الأكثر شهرة وعلما بهدف التعريف بنشاط هذه الفئة من رجال العلم والفكر في مجالات مختلفة، في الفقه،التفسير، والآداب وحتّى في السياسة والعقائد، ويبقى مجال البحث في التاريخ الثقافي في هذه الفترة مجالا خصبا، لفهم هذه المرحلة من تاريخنا الثقافي والاجتماعي، وإعطاء التاريخ بعده الفكري التحليلي، الذي يتجاوز مرحلة السرد والوصف.

---

[1] _ محمود،إسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،ص293.

[2] _ علي،يحيى معمر،الاباضية في الجزائر،ص147.

[3] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج2،ص ص147-148.

وللتنبيه فهناك علماء وفقهاء وسياسيون معارضون إباضيون كالنكار وأتباع نفاث بن نصر النفوسي وحتّى أتباع خلف بن السمح في إقليم طرابلس، أعرضت عنهم الاباضية الوهبية[1] ولم تعترف بهم مما أدى إلى اندثار ذكرهم، وتراثهم الفكري خاصة بعد فشل ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد العبيديين في القرن الرابع هجري(10م) حوالي336هـ.

ب ـ النشاط الفكري والثقافي للاباضية بعد سقوط الدولة(296_500هـ).

بعد سقوط الدولة الرستمية الاباضية سنة (296هـ909م)، تعرضت تاهرت والمناطق المجاورة لها لصراعات سياسية واجتماعية قضت على حضارتها ووجود الاباضية فيها، خاصة بعد أن أصبحت في القرن الرابع الهجري مجالا مفتوح للمواجهة بين زناتة المدعومة من طرف الخلافة الأموية في الأندلس في وصنهاجة في الشرق المدعومة من الشيعة الفاطميين، مما أدى إلى نزوح الرستميين وكذا أتباعهم من تاهرت نحو

المناطق النائية في الجنوب الشرقي لبلاد المغرب الأوسط وبالتحديد إلى إقليم ورجلان وواد أريغ ووادي سوف ثم بلاد بني مصاب في أرض الشبكة[2]، ومن بقي من الاباضية في تاهرت وما جاورها لم نعثر لهم على أثر فكري في كثير من المصادر التي توفرت لدينا، إلاّ الاباضية في الأوراس والزاب.

في إقليم ورجلان وضواحيها ازدهرت حياة اجتماعية وثقافية بتوجهات اباضية، أفرزت نظاما تعليميا متميزا عرف بنظام العزابة ذو أبعاد تربوية، اجتماعية، بني في الأساس على نظام حلقة التعليم لعدد محدود من الطلبة يمكن التحكم فيه، أدّى هذا النظام الجديد إلى بروز فقهاء وعلماء ومؤلفين،لم يصلنا إلاّ ذكر الإباضيين منهم،ربما لأنّ نظام العزابة كان في الأساس ولا يزال ذو طالع طائفي أدرك أصحابه مبكرا أهمية التعليم والتدوين لاستمرار وجودهم الذهبي وحمايته من الاندثار، في حين تجاهل ذلك جيرانهم من السنة، خاصة المالكية وبالرغم وجودهم القوي والمؤثر بالمنطقة، لم يخلفوا لنا تراثا مكتوبا يمكن الرجوع إليه، حسب ما توفر لدينا حتى الآن في هذه المنطقة، وفي هذه الفترة من تاريخنا.

---

[1] _ يقصد بهم أتباع عبد الوهاب بن رستم،أنصار توريث الحكم في الدولة الرستمية.

[2] _ الشبكة:أرض صحراوية صخرية قاسية بها واد ميزاب وواد متليلي شعانبة في الجنوب الشرقي للمغرب الأوسط(الجزائر)

1 _ حلقة التعليم في القرن الرابع الهجري

استمد النظام التعليمي عند الاباضية أسسه من التعليم الإسلامي بصفة عامة، فمارس الاباضية في المغرب كما في المشرق التعليم في الكتاتيب والمساجد والرباطات، لكن ما تميز به التعليم عند الاباضية خاصة في بلاد المغرب الأوسط هو تطوير نظام حلقة التعليم والذي أصبح يعرف في القرن الخامس الهجري خاصة في منطقة ورجلان وواد أريغ ثم بلاد بني مصاب "بنظام العزابة"، هذا النظام الذّي شهد تطورا مهما على يد العالم أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي (345هـ_440هـ)[1] فأصبح له هيكل تنظيمي متطور بمهام تعليمية واجتماعية وحتى اقتصادية وسياسية،حتى غدا نظاما متميزا قائما.

وقد تناولت عدّة مصادر"نظام العزابة" أهمها كتاب أبو عمار عبد الكافي التانوتي(ق6هـ/12م) "سير الحلقة" وهو أقدم مصدر تناول بالتفصيل هذا النظام التربوي قبل الدرجيني(ت679هـ) في طبقات المشايخ بالمغرب، والبرادي(697هـ/1297م) في كتابه "الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات".

أمّا الدراسات الحديثة فهي كثيرة أهمها دراسة، خليفات محمد عوض، "النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في إفريقية في مرحلة الكتمان" وكذا دراسة ناصر محمد،"حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي" ودراسة حجازي عبد الرحمن عثمان، تطور الفكر التربوي عند الاباضية في الشمال الإفريقي(ق1_10هـ).

وتوجد العديد من الدراسات لهذا الموضوع لذا سنكتفي في هذا البحث بإبراز جوانب التجديد في هذا النظام التربوي من حيث الشكل والأهداف التربوية والأبعاد الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية.

إن أبرز ما يميز التعليم في العالم الإسلامي مغربة ومشرقة هو التشابه في المناهج المقررة(البرامج) وكذا الأساليب والطرق، وحتى الجانب المؤسساتي، فأول مرحلة في التعليم هي الكتّاب ومنهاجها الأساسي تحفيظ القرآن ومبادئ اللغة العربية والفرائض، وفي هذا الصدد ذكر بن خلدون قوله:"... فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ...لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر

[1] – أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي،ولد في جبل نفوسة في القرن الرابع الهجري،عرف لدى الإباضية بالعلم والورع،فطلب منه أهل مذهبه أن يرتب لهم نظاما محكم الحلقة التعليم،فكان ذلك دافعا له أن يضع نظام العزابة سنة 409هـ بوادي أريغ.

ولا من كلام العرب... وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرّاء البربر، أمم المغرب... إلى أن يجاوز حد البلوغ إلى الشبيبة... "[1].

أمّا التعليم في المساجد فكان على شكل حلقات تلقى فيها الدروس في مواضيع مختلفة في العلوم القرآنية، اللغة والنحو وحتى العقيدة(علم الكلام)، ودروس الوعظ والإرشاد[2]، إلى جانب الرباطات[3] ومجالس العلماء والتي كانت تعقد في أماكن مختلفة يستغلها العلماء للمناظرات، وتعليم الناس مختلف فنون المعرفة.

وقد كان الطلبة يجلسون أمام الشيخ أو المعلم بشكل دائري يسمى بالحلقة، الّتي عرفتها جميع الاتجاهات المذهبية في الإسلام، لكن الاباضية كانوا أكثر اهتماما وتمجيدا لهذا النظام خاصة وأنّه ارتبط بانتشار المذهب الاباضي في البصرة في أواخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني الهجري على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، والذّي سافر إليه ابن مغيطر النفوسي، ولحق به حملة العلم الخمسة _السابق ذكرهم_ ودرسوا بنفس الأسلوب الذّي هو نظام الحلقة، وتشبعوا بالفكر العقدي الاباضي.

منذ ذلك الحين ارتبط التعليم لدى الاباضية بنظام الحلقة خاصة في عهد الأزمات ولا شك أنّ سقوط الدولة الرستمية وفشل ثورات الاباضية في بلاد المغرب ضد الفاطميين الشيعة، كان سببا في العودة إلى نظام الحلقة بهدف ترسيخ القيم العقدية للاباضية في نفوس أتباعها.

وتذكر المصادر الاباضية أنّ من أبرز الفقهاء الّذين جلسوا للتدريس واعتمدوا نظام الحلقة في القرن الرابع الهجري سليمان بن زقون وتلاميذه وأشهرهم" أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يعلا بن زلتاف الوسيانيان(300_350هـ)[4].

وقد عاش العالمان بالمغرب الأدنى، لكن كانا على اتصال دائم بإباضية المغرب الأوسط خاصة في أريغ وورجلان وإقليم الزاب، كما كان الطلبة يأتونهم من عدّة مناطق، أما العلوم التي كانوا يدرسونها فهي علوم القرآن، الحديث، الفقه وعلم العربية والسير[5].

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة،ج2،تحقيق ،جمعة شيخة،الدار التونسية للنشر،تونس،1984،ص 701.

[2] _ التليسي،بشير رمضان،المرجع السابق،ص ص386-390.

[3] _ الرباط:هو مكان يستقر به المجاهدون ويكون على تغور(حدود) الدولة الإسلامية بهدف حماية الدولة الإسلامية من غزو الكفار وكذا نشر الإسلامية والتعليم والتعلم.

[4]– خليفات،عوض،النظم الاجتماعية والتربوية،ص21.

[5] _ الدرجيني،المصدر السابق،ص ص،121_122.

وقد أدخل أبو القاسم قواعد تنظيمية جديدة لتطوير نظام الحلقة فألزم طلبته الحضور إلى الدرس في أوقات معلومة وتناول الطعام بشكل جماعي في زمن محدد، وأقرّ نوم الهاجرة أي عند الضحى....

وللإشارة فإنّ أبا القاسم وضع القواعد وأبا خزر من أهل الحامة بقسطيلية قد أخذ العلم ونظام الحلقة عن الشيخ أبا الربيع سليمان بن زقون النفوسي عاش في القرن الرابع الهجري، درس مع أبا يزيد مخلد بن كيداد عند بن الجميع في سجلماسة وهو عالم مشرقي وتاجر[1].

وقد كانت حركة تنقلات القوافل والعلماء والطلبة والمهاجرين لا تنقطع بين الأقاليم الاباضية في بلاد المغرب خاصة جبل نفوسة،منطقة الجريد ومنطقة أريغ وورجلان وحتّى سجلماسة، وبالتالي فعمليات التأثير والتأثر بشكل تفاعلي كانت قائمة بقوة وفي جميع المجالات، ولا شك أنّ العامل الجغرافي المتمثل في الطابع الصحراوي لهذا الإقليم وسهولة مسالكها، وبعدها عن مراقبة وتحكم الدول المعادية للاباضية كانت من العوامل الأساسية مساعدة لتوثيق هذه الروابط[2].

ومن إفريقية تحايل الشيخ أبا نوح سعيد بن زنغيل[3] ليتخلص من مرافقة أبي تميم الفاطمي 361هـ ونزل في ضيافة أبي صالح جنون بن يمريان الذّي كان من علماء ورجلان وقدمها، وهو الذّي استقبل المهاجرين من الرستميي، ولمّا وصل أبا نوح إلى ورجلان، قال له بن يمريان[4]:(لا تخف نجوت من القوم الظالمين) سورة القصص الآية 25.

لاشك أنّ هذا التواصل بجميع أشكاله ساهم في انتقال وتطور أسلوب حلقة التعليم عند الاباضية عن طريق الطلبة أو عن طريق العلماء والفقهاء وقد أكّد الدرجيني أنّ أبا نوح سعيد بن زنغيل جلس للدرس وللوعظ والإرشاد إلى جانب الشيخ جنون في جامع ورجلان، وقضى فيها زمنا معتبرا وأهل ورجلان وإمامهم أبو صالح له مكرمون[5].

---

[1] _ نفسه،ج1،ص،110_111، أبو زكريا،193.

[2] _ يراجع الملحق رقم 2،خريطة التواجد الاباضي في بلاد المغرب الإسلامي (ق4_6هـ).

[3] – الدرجيني،المصدر السابق،ص145.

[4] _ نفسه،ص145،أبي زكريا،سير الأئمة،ص229.

[5] _الدرجيني،المصدر السابق،ص147،يذكر قول أبا صالح،لأبي نوح لما عزم على الرحيل،" إقليم وأقاسمك في جميع ما أملك "لكن أبا نوح عاد مرة ثانية إلى المغرب الأوسط فزار سوق،ثم أريغ،ورجلان التي وجد أنّ أمورها قد فسدت،فقبح ذلك ورحل..."

2 _ نشأة نظام العزّابة وأبعاده المختلفة

لقد سبقت الإشارة في هذا الفصل إلى أنّ نظام العزابة من المواضيع التّي أنجزت حولها عدّة دراسات، وأنّ هدفنا الأساسي من مناقشة هذا الموضوع هو إبراز جوانب التجديد في هذا النظام التربوي وأبعاده الفكرية والاجتماعية وحتّى الاقتصادية والسياسية، بما يخدم موضوع دراستنا.

2 _ 1 نظام العزابة ومظاهر التجديد التربوي:

لغة واصطلاحا: كلمة العزّابي تعني لغة طالب العلم وسير أهل الخير من الاباضية والملتزم بتعاليمهم علما وعملا[1].

أما اصطلاحا فتعني المتميزون عن سواهم بعلومهم، سلوكهم وعباداتهم وحتى مظهرهم، فهم ينزعون إلى الزهد، ولباس الصوف والبياض والتقشف والتواضع وحلق الشعر، وكما تعني كلمة عزّابة العزلة والإنفراد[2].كان التعليم لدى الاباضية يمارس في المناطق المعزولة في الجبال والمغارات والكهوف، بعيدا عن الناس،كما أنّ الطلبة يتنقلون خاصة في الربيع إلى البوادي[3].

كما ارتبط نظام العزابة بالشيخ أبي عبد الله بن بكر(345_440هـ) الّذي ألح عليه بعض الطلبة في أن يعقد لهم حلقة علم، أبرزهم أبناء شيخه أبي زكريا بن أبي مسعود وأبا بكر بن يحيى وغيرهم من الطلبة[4].

تأسست الحلقة في مسجد "المنية" بمدينة تيقوس بمنطقة الجريد بالمغرب الأدنى، لكن أبي عبد الله أشار على طلبته بالانتقال إلى أريغ وقال لهم: "إنّ هاهنا ناسا رقاق القلوب أرجو أن ينتجع فيهم الاسلام،... وهم "مغراوة ريغ" فما رأيكم في الانتقال إلى جهتهم..."[5].

نزل أبو عبد الله وتلاميذه عند بني ويليل بأريغ، ثمّ انتقلوا إلى غار أُعِدّ لهم من طرف أبي القاسم يونس بن ويزكن الويليلي "بتينيسلي" بلدة اعمر حاليا بناحية تقرت بهدف الانعزال والتفرغ لطلب العلم ودراسة سير أهل الخير من الاباضية وقد وافق ذلك سنة 409هـ[6].

[1] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج1،ص03.

[2] _ خليفات،عوض،النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية،ص96.

[3] _ حجازي،عبد الرحمن،المرجع السابق،ص148.

[4] _ الدرجيني،طبقات،ص ص168-168.

[5] _ نفسه،ص،171.

[6] _ نفسه،ص 172.

2 _2: القواعد التنظيمية للعزابة(قوانينها).

_صفات العزابي:

يجب أن يتميز العزابي عن غيره من عامة الناس بالتجرد من الأطماع الدنيوية ويعبر عن ذلك بحلق شعر رأسه وألاّ يتركه يطول أبدا.

كم يتميز بالباس الأبيض بعيدا عن الألوان والزخارف، دلالة على الصفاء والتقشف والتواضع والزهد،وهم أميل إلى لباس الصوف حتّى الآن.

_ **أعضاء حلقة العزابة:**_ أهل الحلقة صنفان:آمر ومأمور.

_ **فالآمر:**هو شيخ الحلقة أو نائبه وعريف أوقات الختمات والنوم، وعريف أوقات الطعام، وهم من حملة القرآن ولهم مهام محددة[1].

_ **المأمور:**هم طلبة القرآن، طلبة فنون العلم والأدب والعاجزون[2].

_ تتألف هيئة العزابة من عدد محدد من الأعضاء يتراوح ما بين عشرة حتّى ستة عشرة عضوا حسب حجم البلد الّذي يسيرونه(المجتمع).

_ **مهام أعضاء حلقة العزابة:** إنّ المهمة أو الهدف الأساسي الذّي أنشئت من أجله هيئة العزابة هوّ تربية جيل جديد من العلماء والدعاة بهدف حماية الوجود العقائدي للمذهب الاباضي في بلاد المغرب وضمان استمرارية وترسيخ مبادئه في نفوس الأتباع[3].

لكن نظام العزابة تطور بمر الأيام وأدخلت عليه مهام ذات أبعاد مختلفة، خاصة على يد "أبو عمار عبد الكافي" في القرن السادس الهجري.

_ تتألف هيئة العزابة من عدد محدد من الأعضاء يتراوح ما بين عشرة حتّى ستة عشرة عضوا حسب حجم البلد الّذي يسيرونه(المجتمع).

---

[1] _ الدرجيني،المصدر السابق،ص 172.

[2] _ حجازي،المرجع السابق،ص151،ناصر ،محمد،حلقة العزابة،ص170،

_ استمرت عمليات تطوير هذا الجهاز من حيث الأهداف،الشكل والأبعاد خاصة على يد الشيخ أبي القاسم بن يحيى الدادي في القرن التاسع الهجري.

[3] _ النامي،عمرو خليفات، ملامح الحركة العلمية بورجلان ونواحيها من انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري،محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي،ورجلان 1977،المجلد الأول منشورات وزارة الشؤون الدينية،الجزائر ،ص104.

ـ يلتقي أعضاء هيئة العزابة أسبوعيا، لتدارس القضايا الأساسية،التشاور واتخاذ القرارات والتوصيات[1].

ـ يتوزع أعضاء هيئة العزابة المهام في المجتمع.

ـ **شيخ العزابة:** يكون أعلم أهل المدينة (الأفضل)، صاحب شخصية قوية،وقدرة على حل المشاكل (سياسة)[2]. يتولى مهام الوعظ والإرشاد والجلوس لطلبة فنون العلم والفتوى ويحدد العقوبات التأديبية والتّي تتراوح بين الجلد للصغار والخطة والهجران للكبار[3].

ـ العريف(العرفاء): يكلف العريف بالالتزام بأوقات الدراسة، المذاكرة، النوم وحتّى الطعام والنظام بهدف ضمان السير الحسن للحلقة والتزام آداب العزابة[4].

ـ يعاقب كل طالب تخلف على أي التزام اتجاه حلقة العزابة بما يعرف عندهم "بالخطة".

- **الطلبة:** الطلبة ثلاث أصناف.

ـ **طلبة القرآن:** برنامجهم الرئيسي حفظ القرآن الكريم وباستخدام الألواح وعادة يكونون صغار السن ولا يكلفون إلّا بمعرفة العبادات وفرائض الإسلام، كالطهارة والصلاة والصيام وغيرها[5].

ـ **طلبة العلوم:**فهم أصحاب الكتب يجتمعون في المسجد للبحث والمذاكرة والمناظرة، لكن في جو من التسامح العلمي، يجلسون أمام الشيوخ في أوقات معلومة، يجب احترامها[6].

ـ العاجزون: وهم فئة عريضة من المجتمع الاباضي المسجدي ومنهم القاصرون في الفهم لأسباب خلقية، أصحاب العاهات الغير قادرين على الدراسة كالطرشان والعميان، وحتى عامة الناس الذين ليس لهم كبير اهتمام بطلب العلم وإنّما يكتفون ببعض المعارف البسيطة، ومنهم

---

[1] ـ ناصر ،محمد،حلقة العزابة،ص،12.

[2] ـ حجازي،المرجع السابق،ص149.

[3] ـ الدرجيني،المصدر السابق،ص ص،175_176.

ـ الهجران:متى أجرم أحد من الطلبة أو أتى بنقيصة يهجره العزابة، فلا يكلمونه، ولا يحضر جماعة ولا يصلي معهم ولا يجالسهم،ولا يأكل معهم،فإن تاب واستغفر،عاد للجماعة.(سلطة أخلاقية)

[4] ـ الدرجيني،المصدر السابق،ص ص178،177،176 .

[5] ـ نفسه،ص179.

[6] ـ نفسه،ص،180.

كبار السن الذين يجيدون صعوبة في طلب العلم[1]، يكتفي هؤلاء بمعرفة ما تيسر لهم من أمور دينهم ودنياهم.

إن رحابة هذا النظام التربوي تدل على أنّ طلب المعرفة العلمية الدينية هدف أساسي لجميع فئات المجتمع الاباضي.

وقد اعتمدنا في هذا العنصر بالدرجة الأولى على ما أورده الدرجيني في طبقاته وهو أقرب المصادر لهذه الفترة، بما ينسجم وسياق تطور حلقة العزابة تاريخيا، لأن الدرجيني عاش في أواخر القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع[2].

2 _ 3: أبعاد نظام العزابة

بدأ نظام حلقة العزابة، على هيئة مؤسسة تعليمية تربوية دينية إباضية على يد أبي عبد الله بن بكر الفرسطائي(345_440هـ)، لكن يبدو أنّ نجاح هذه التجربة دفعت الاباضية إلى توسيع هذه المؤسسة لتشمل جوانب اجتماعية واقتصادية وربما حتى سياسية ولكن بشكل غير مباشر وسري ولهذا تعددت وتطور مهام العزابة وأبعادها.

_ البعد الديني والتربوي.

يتمثل في تكوين جيل متمسك بتعاليم الاباضية علما وعملا قادرا على أن يدعو على أساس من المعرفة العلمية لترسيخ ونشر العقيدة الاباضية،إلى جانب تحسين المستوى الثقافي للمجتمع الاباضي إلى جانب إمامة الناس وإعطاء دروس والوعظ والإرشاد.

_ البعد الاجتماعي:

يتمثل في خدمة المجتمع من الناحية الثقافية، والتربوية وذلك بفرض مجموعة من السلوكيات والضوابط التّي يجب أن يلتزم بها الاباضي، وإلاّ تعرض لجملة من العقوبات المعنوية والمادية كالتغريم والهجران والبراءة...

كما يشرف العزابة على إدارة حفلات الزواج وتغسيل الأموات وإقامة المآتم، وتحديد المهور، وتنفيذ الوصايا، والقيام على شؤون الأيتام والأرامل وكفالتهم وحل النزاعات في عن طريق القضاء[1].

---

[1] _ نفسه ص،181.

[2] _ نفسه،ص181،ذكر أنّه دخل حلقة ورجلان سنة 616هـ في أول ما وجب عليّ الصوم...وهذا يدل على أنّه في مرحلة الشباب الأولى.

_ البعد الاقتصادي.

يشرف مجلس العزابة على إدارة الأوقاف الاباضية وتنميتها،وجمع الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء من الاباضية[2]، مراقبة البيع والشراء محاربة الغش....

حاولنا في هذا الفصل التعريف بحلقة أو نظام العزابة ولا ندعي أنّه ظهر منذ البداية في القرن الخامس الهجري بهذا المستوى من القوة والتأثير، ولكن نرى أنّه ظهر تجربة بسيطة لكن فاعليتها ونجاحها أدّى إلى تطورها وتوسع وظائفها بتوجيه من العلماء وأصحاب الرأي حتّى غدا نظام العزابة نظاما شاملا يتحكم في المجتمع الاباضي خاصة بعد القرن السادس الهجري، وكأنّه حكومة ظل.

3 _ علماء الاباضية ومساهماتهم في الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط (ق4_6هـ).

عرفت هذه الفترة الطويلة نسبيا ظهور عدد معتبر من علماء الاباضية ورغم أهمية الدور الّذي لعبوه لا يمكننا التعريف بهم جميعا في هذا البحث المحدود، وإنّما سنكتفي بذكر أبرزهم وما تركوه لنا من تراث فكري،نكتفي بعرضه.

يعد الشيخ "أبي صالح جنون بن يمريان" الذّي استقبل المهاجرين من الرستميين في ورجلان بعد سقوط دولتهم وعلى رأسهم يعقوب بن أفلح أشهر العلماء في مطلع القرن الرابع الهجري عدّه الدرجيني في الطبقة السابعة(300_350هـ)[3]، أصبح بن يمريان أكبر علماء الاباضية في ورجلان، بعد وفاة الشيخ "أبو يعقوب يوسف بن سلوس" المعروف بالطرفي سنة 300هـ.

وقد كان لأبي صالح جنون مسجدا جامعا في ورجلان، ويبدو أنّه من أكابر سادات ورجلان في القرن الرابع الهجري بدليل أنّه كان يستقبل الضيوف والمهاجرين إلى ورجلان وهذه مهام اجتماعية وسياسية بالدرجة الأولى، كما كان ذا جاه ومال.

ومن علماء الاباضية المبرزين الذين زاروا وادي ريغ وورجلان في القرن الرابع الهجري وتركوا أثرا، فكريا فيها: "أبي نوح سعيد بن زنغيل" _سابق الذكر_ الذّي احتال على أبو تميم الشيعي الفاطمي[4] الذي كان يريد اصطحابه معه إلى مصر سنة361هـ.

---

[1] _ حجازي،عبد الرحمن،المرجع السابق،ص،153.

[2] _ نفسه،ص،153.

[3] _ الدرجيني،طبقات،ج1،ص94،ج2،ص158.

[4] _ الدرجيني،المصدر السابق،ج2،ص161،ج1،ص145.

وصل أبو نوح إلى ورجلان، وجلس للدرس والإرشاد والوعظ والفتوى في مسجد الشيخ جنون، ومكث في ورجلان زمانا ثم قرر العودة إلى بلاد قسطيلية، وهذا في عهد المنصور بن بلكين بن زيري الصنهاجي الذّي كان يكن له الاحترام والتقدير [1].

لكنه عاد ثانية إلى بلاد المغرب الأوسط فزار وادي سوف[2]، ثمّ ريغ فورجلان التي وجد أنّ أحوالها الأخلاقية قد فسدت بعد وفاة الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان، وربما كان هذا في أواخر القرن الرابع الهجري، فقال لأهل ورجلان: "إنّي رأيت فيكم ثلاث خصال غير مرضية، ولا ناهيا عنها..."[3]

أما هيذه الخصال الذميمة فهي، نكاح السر، والمجاهرة بالفاحشة، والكسب الحرام وإدّعاء التدين والتحزب والفرقة[4]، لذا رحل عنها إلى تين ماطوس ثمّ زويلة.

ويبدو أن ظاهرة الانحلال الخلقي والنزعات الطائفية والتحزب أصبحت منتشرة لدى الاباضية خاصة بعد فشل ثورة النكار بقيادة بن كيداد(336هـ)، وما يؤكد ذلك حال منطقة الجريد "قسطيلية" لما عاد إليها أبي نوح، وكذا قصته مع النكاري وصدقته بسوف، ثم حال ورجلان عند زيارته الثانية[5].

ومن علماء هذه الفترة، أبو عبد الله محمد بن بكر،السابق الذكر المعروف بتأسيس حلقة العزابة في واد أريغ، هذا النظام الذّي أصبح شاملا لحياة المجتمع الاباضي خاصة منذ القرن السادس الهجري.

---

[1] _ نفسه،ج1،ص148،أبو زكريا،سير الأئمة،ص،237،236،235.

[2] _ أبو زكريا،ص 244

يروي الدرجيني،ج1ص154،قصة الصدقة التي أعطاها النكاري لأبي نوح فرده إياه قال له:"...إنّي أحبك.." تدل على حدّة الصراع والعداء داخل المذهب الواحد وبين طوائفه(تفكك) رغم أنّ الخلاف ليس عقائديا بل سياسيا وقد مضى عليه دهر من الزمن.

[3] _ الدرجيني،ج1،ص156،أبو زكريا،246_247.

[4] _ نفسه،ج1،ص156:هامة في مجال دراسة أسباب ضعف الاباضية واختفائها قبل وصول العرب الهلالية،(لصالح المالكية) ملحق للمراجعة.

* تين ماطوس:إحدى قري وادي أريغ.

* زويلة:بلدة بالمغرب الأدنى، ضواحي المهدية تدعى زويلة بني الخطاب.

[5] _ يراجع في هذا الشأن،الدرجيني،ص،156،154،147.

ويعتبر هذا النظام في نظر الباحث، عمرو،خليفات النامي أهم انجاز في إطار الحركة العلمية لدى الاباضية في القرنين الرابع والخامس الهجريين[1].

ومن تلاميذه حلقة العزابة التّي أسسها الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي(ت471هـ/1078)[2]، الذّي انتقل إلى جربة، وبها درس عند ويسلان بن أبي صالح وزكريا ويونس فصار عالما في أصول الدين يأتيه الطلبة من أنحاء مختلفة كما اقتحم مرحلة التأليف في العقائد وترك كتابا في جزئين بعنوان: "التحف المخزونة والجواهر المصونة"[3] لكن هذا الكتاب لم يذكره أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني رغم أنّه روى أخبار السير عن أبي الربيع.كما أنّ البرادي في "كتابه الجواهر المنتقاة" لم يذكر أنّ لأبي الربيع كتابا بهذا العنوان[4] ،في حين ذكر الدرجيني أنّ أبا الربيع ترك كتابا بعنوان "المتحف في الأصول"[5].

ومن الذين أخذوا العلم عن الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي المؤرخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني صاحب كتاب "سير الأئمة وأخبارهم" الّذي رواه عن شيخه.

ويعتبر كتاب سير الأئمة أقدم كتاب في السير وتاريخ الاباضية وصل إلينا، ويتناول تاريخ الاباضية في بلاد المغرب منذ وصول أول الدعاة الاباضية إلى بلاد المغرب "سلمة بن سعد"[6] في القرن الثاني الهجري، حتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري470هـ، كما ترجم لكثير من علماء الاباضية ببلاد المغرب.

ومن علماء ورجلان أيضا، أبو العباس أحمد بن بكر الفرسطائي(ت 504هـ)، درس عند أبيه وأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، قضى شبابه في منطقة الجريد بالمغرب الأدنى ثمّ تنقل بين أريغ وورجلان خاصة في الفترة ما بين من471هـ حتّى وفاته سنة 504هـ[7].

وقد عرف هذا العالم بكثرة التأليف في مختلف فنون المعرفة من مؤلفاته :

---

1 _ عمر ،خليفة،النامي،المقال السابق،ص106.

2 _ الدرجيني،المصدر السابق،ج2،ص،248_249.

3 _ عمر ،خليفة النامي،المقال السابق،ص107.

4 _ البرادي،أبو القاسم بن إبراهيم،الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني،طبعة حجرية،القاهرة،1880.

5 _ الشماخي،سير ،ص،412.

6 _ أبو زكريا،المصدر السابق،ص41.

7 _ الدرجيني،المصدر السابق،ج2،ص،26.

1_ كتاب أبي مسالة وهو مختصر في مسائل الفروع ويسمى أيضا "بجامع الشيخ أبي العباس".
2_ وكتاب في "مسائل التوحيد": يتناول قضايا أساسية في علم الكلام.
3_ كتاب "تبيين أفعال العباد": وهو في الأخلاق في ثلاث أجزاء.
4_ كتاب "القسمة وأصول الأرضيين": في عدّة مجلدات،يتناول قضايا هامة في المجتمع كالبناءات، الطرقات،وحتّى الجار وعن الحريم، قسما من النخيل والأشجار، حققه بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد بن صالح ناصر[1]. وله مؤلفات أخرى منها، كتاب مسائل الأموات، كتاب الجنائز، وكتاب السيرة في الدماء، هذا الأخير حققه عبد الرحمن بن إبراهيم طبّاخ سنة 2002م.

ومما تقدّم يظهر لنا أنّ هذا العالم خلّف تراثا فكريا معتبرا لا يزال معظمه عبارة عن مخطوط[2].
وقد عاصر الشيخ أبو العباس أحمد بن بكر، الفتنة التّي وقعت بين الوهبية في أريغ "بين قبيلة خيران وتغمارت" والتّي لم يذكر الدرجيني أسبابها بل يكتفي بأن يذكر أنّها كانت سببا في خروج المشايخ من أريغ إلى ورجلان[3] وهذا يدل على أنّ حل المشكلة استعصى عليهم فلجئوا إلى الهجران بشكل سلبي[4].

كما عرفت ورجلان في القرن السادس الهجري(12هم) ظهور أبرز علمائها وأكثرهم إنتاجا وأعمقهم فكرا وهو أبو عمار عبد الكافي ابن أبي يعقوب التناوتي الورجلاني صنّفه الدرجيني في طبقاته في الطبقة الثانية عشر(550هـ_600هـ)[5]، درس بورجلان، ثمّ انتقل إلى تونس وفيها تبحر في فنون العلم والمعارف من علم اللسان والمنطق، وعلم الكلام والفقه، ويقول عنه المستشرق Lewicki أنّه أكثر مؤلفي الاباضية علما[6].

---

[1] _ بوعصبانة، المرجع السابق،ص ص132_133.
[2] _ خليفات،عمرو النامي،المقال السابق،ص، 108.
[3] _ طبقات،الدرجيني،ج2، ص269.
[4] _ الهجران:هو الإبعاد والطرد من جماعة أهل الصلاح "الغرابة" يطبق على كل من أجرم بنقيصة من قول وعمل، وفي هذه الحالة فأهل الصلاح هم الذّين اختاروا أن يهجروا أرض الفتنة "ريغ"،للمزيد، يراجع،طبقات المشايخ، الدرجيني،ص5.
[5] _ الدرجيني، المصدر السابق،ج2، ص306.خليفات، عمرو النامي، المقال السابق، ص112.
[6] _ Tadeuz,Lewicki,De quelque textes Inédits en vieux Berbère,revue des Etudes Islamiques(R,I), T3,Librairie Orientaliste,Paris,1934 ,P278 .

وعنه يقول عمّار طالبي: "يعتبر أبو عمّار من الذين أحيوا المذهب الإباضي تأليفا وتعليما، وهو من أعظم مؤلفي الاباضية مقدرة على الجدل والنظر، وأكثرهم عمقا في التفكير"[1].

عاد إلى ورجلان وبها أقام حلقة للدرس واهتم بالتأليف وكانت له عدّة زيارات إلى بادية بني مصعب خاصة في فصل الربيع[2]، ومن آثاره:_ كتاب الموجز في الرّد على كل من خالف الحق،حققه عمّار طالبي تحت عنوان:آراء الخوارج الكلامية، الموجز لأبي عمّار عبد الكافي الاباضي[3].ومن آثاره كذلك كتاب الاستطاعة،كتاب في اختصار المواريث والفرائض، وكتاب سير الحلقة وغيرها[4].

ومن أبرز علماء المغرب الأوسط بورجلان في القرن السادس الهجري، العالم أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني،_السابق الذكر_ ولد سنة500هـ، توفي سنة570هـ، قال عنه أبو حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"ج1،ص،99 وما يليها أنّه: "أنبل من رأيته في عمري"[5]، وقد كان له إصلاح ومعرفة لعلوم شتى منها علم القرآن،علم اللسان وعلم الحديث والأخبار، وعلم النظر والكلام والشريعة والحساب والتنجيم وغيرها[6].

يذكر الشماخي أنّه أخذ العلم عن أبي عمار عبد الكافي وأبي زكريا يحيى بن زكريا وأبي سليمان أيوب بن إسماعيل في ورجلان[7].

ثم رحل إلى الأندلس ودرس في قرطبة، كما أشرنا إلى ذلك في هذا الفصل، واطلع على أصحاب النزعة العقلية والاجتهاد وأفكار المهدي بن تومرت ووقف على مدى التقارب بينها وبين الاباضية[8]، ومن مؤلفاته: "العدل والإنصاف في أصول الفقه" و"الدليل لأهل العقول" في حين يذكره الدرجيني باسم كتاب: "الدليل والبرهان"، كما ورتب كتاب "مسند الربيع بن حبيب

---

[1] – طالبي،عمّار،آراء الخوارج الكلامية،ج1،الموجز لأبي عمّار عبد الكافي طبعة،الشركة الوطنية للنشر التوزيع،وتوزيع،الجزائر،1978،ص219.

[2] _ الدرجيني، 2،ص،308.

تناوت: احدى قرى،ورجلان،ربما بالقرب من سدراتة.

[3] _ طالبي،عمّار،المرجع السابق،ص215 وما يليها.

[4] _ بوعصبانة،المرجع السابق،ص135.

[5] _ الدرجيني، المصدر السابق ،ج2،ص312.

[6] _ نفسه،ص، 312.

[7] _ شماخي،المصدر السابق،ص 443.

[8] _ عمار، طالبي،المرجع السابق،ص216.

البصري"، كما ترك لنا قصيدة شعرية جمعت بين النزعة الدينية والصوفية، لكنها غنية بالجوانب الفقهية، والإشارات الجغرافية وحتى الاجتماعية وجديرة بالدراسة الأدبية عدّها بأيام السنة[1].

وفي الختام فإن المغرب الأوسط في الفترة ما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين قد عرف تطورا ثقافيا مهما، شمل مختلف العلوم والمعارف، ساهم فيه الاتجاه الإباضي بفاعلية، سواء في مجال التجربة السياسية والاجتماعية، أو في مجال التعليم وإنتاج المعرفة وتطويرها، وما ظهور عدد معتبر من طلاب العلم والمعرفة والعلماء إلاّ دليلا على حالة الازدهار والتطور الثقافي.

---

[1] _ بوعصبانة،المرجع السابق،ص216.

الفصـــــل الثـــاني
التشـــيع ودوره في تطور الحياة الثقـــافية بالمغرب الأوســـط (ق3– 6ه)

تمهيد

أولا: الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة الشيعة الزيدية والإسماعيلية

أ _ الجذور التاريخية للتشيع في المشرق الإسلامي

ب_ الأصول الفكرية للشيعة الزيدية والإسماعيلية

ثانيا:_ التشيع الزيدي والإسماعيلي في بلاد المغرب الأوسط(ق3–4هـ)

أ_ التشيع الزيدي بالمغرب الأوسط(ق2–3هـ)

ب ـ التشيع الإسماعيلي في بلاد المغرب الأوسط (ق3 ـ 5هـ)

ثالثا:_ المساهمة الثقافية والفكرية للتشيع في بلاد المغرب الأوسط (ق3 ـ 5هـ)

أ_ مساهمة الشيعة الزيدية في الحياة الثقافية (ق2– 3هـ)

ب_ مساهمة الشيعة الإسماعيلية في الحياة الثقافية والفكرية في المغرب الأوسط (ق3–5هـ)

تمهيد:

يتناول هذا الفصل البدايات الأولى لنشأة التيار الشيعي أو ما يعرف بالتشيع في التاريخ والثقافة الإسلامية، من البدايات الأولى للأزمة السياسية في صدر الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الحادية عشر للهجرة، حتى قيام الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية العبيدية ببلاد المغرب الإسلامي، سنة (297هـ/909-910م) والنتائج التي تمخضت عن ذالك.

كما يتناول هذا الفصل الأصول الفكرية أو المبادئ الأساسية التي يقوم عليها التشيع الزيدي الإسماعيلي الذي وصلت تأثيراته حتى بلاد المغرب الأوسط، خاصة في الفترة الممتدة من القرن الثاني حتى أواخر القرن الرابع الهجري.

خلف وصول التشيع الزيدي الإسماعيلي إلى بلاد المغرب، أثرا عميقا، فكريا، وسياسيا، بل وحتى اجتماعيا، استمر هذا التأثير حتى بعد رحيل الفاطميين بقرون، وربما لا زالت بعض معالمه مؤثرة في ثقافة المغاربة حتى عصرنا هذا.

كما يتناول هذا الفصل الميراث الفكري والأدبي الذي خلفه الوجود المذهبي والسياسي للتشيع بفرعيه الزيدي الإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة، والأوسط منه بصفة خاصة، هذا الميراث الفكري شمل الجوانب التاريخية، السياسية، العقائدية والفقهية وحتى الجوانب الأدبية، كما أثرى الحياة الثقافية بعلوم ومعارف جديدة، لم تكن في متناول أهل المغرب،خاصة في علم أصول الدين والفلسفة.

وقد تميز التواجد الشيعي في بلاد المغرب الإسلامي بظهور شخصيات تاريخية مؤثرة في مجال الدعوة،كأبي سفيان والحلواني الذين قدما إلى بلاد المغرب في القرن الثاني للهجرة على حسب ما ذكره القاضي النعمان المغربي[1]، ومن الشخصيات التاريخية في مجال الدعوة والسياسة الداعي أبو عبد الله الشيعي الصنعاني، الذي لعب دورا أساسيا في نجاح الدعوة الشيعية الإسماعيلية ببلاد المغرب الإسلامي، وكذا قيام الدولة الفاطمية العبيدية سنة 297هـ.

أما في المجال الفكري، ورغم ما لحق بالموروث الأدبي الإسماعيلي من عمليات التخريب والطمس، بدوافع الصراع المذهبي، فإن القاضي النعمان المغربي يعد بلا منازع، فقيه ومنظر

---

[1]- افتتاح الدعوة،تحقيق،فرحات،الدشراوي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،الطبعة الثانية،سنة1986 ص27-29.

التجربة الشيعية الإسماعيلية الباطنية المغربية. **أولا: الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة الشيعة الزيدية والإسماعيلية**

أ _ الجذور التاريخية للتشيع في المشرق الإسلامي.

1_ نشأة الاتجاه الشيعي .

تعود الجذور التاريخية لنشأة الاتجاه الشيعي أو التشيع المذهبي إلى بدايات الإسلام الأولى، وخاصة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة11هـ، حيث ظهر الخلاف بين الأنصار والمهاجرين حول من يخلف الرسول في إمامة المسلمين وتسيير شؤونهم[1].

حسم الخلاف في اجتماع السقيفة لصالح المهاجرين من قريش[2]، في فترة كانت فيها الروح الإيمانية في أوج قوتها فولي أبا بكر الصديق(11-13هـ)، ثمّ خلفه عمر بن الخطاب(13-23هـ)، فعثمان بن عفان(23-35هـ) رضي الله عنهم أجمعين.

في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام وجد من بين المسلمين من كان يرى أنّ أحقّ النّاس بالخلافة هم آل البيت وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وفي هذا الصدد أورد الطبري عند ذكره لحوادث السنة الثالثة والعشرين للهجرة، في مجلس الشورى الذي اختير فيه عثمان بن عفان _رضي الله عنه_ خليفة للمسلمين، قال عثمان لعلي: "إنك تقول إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين..."[3]، لا شك أن لقول عثمان دوافعه، شرط أن تكون رواية الطبري هذه صحيحة.

لكن المعارضة السياسية نمت بقوة في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان(23-35هـ) واتخذت شكلا معاديا لهيمنة قريش على الدولة الإسلامية وخاصة الأمويين منهم، فجاء المحتجون حتّى المدينة المنورة، وانتهى بهم الأمر إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة35هـ[4].

تسلّم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه الخلافة، لكن بنو أمية يتزعمهم معاوية بن أبي سفيان رفضوا خلافة علي بن أبي طالب، واتهموه بالتفريط في دمّ عثمان.

---

[1] _ الطبري،محمد بن جرير،تاريخ الأمم والملوك،طبعة،دار الفكر،سنة1979،المجلد الثاني،الجزء الثالث، ص179_198.

[2] _ نفسه،ج3، 199_200.

[3] _ الطبري،المصدر السابق،ج5،ص 36.

[4] _ نفسه،ج5،ص145.

أدّى الخلاف إلى قيام حرب أهلية بين الصحابة، فانقسموا إلى فريقين، علي بن أبي طالب وأنصاره في مواجهة معاوية بن أبي سفيان ومن سانده[1]، استمرّت الصراع حتّى سنة 37هـ حيث لجأ الطرفان إلى التحكيم، بعد أن كانت كفة الحرب بدأت تميل لصالح علي وأنصاره بعد معركة الجمل سنة 36هـ، ومعركة صفين سنة 37هـ.

تسببت حادثة التحكيم إلى انشقاق جيش علي وظهور فئة رافضة لمسألة التحكيم سموا في بداية هذا العهد "بالمحكمة" وهم الّذين عرفوا في التاريخ الإسلامي بعد ذالك بالخوارج، وقد تناولنا هذا الحدث في الفصل الأول من هذه الدراسة.

أما الّذين بقوا مع علي فسيعرفون "بالشيعة" وكان من بينهم فروع من القبائل اليمنية العربية وعناصر من الفرس ولهذا البعد القبلي أثره في توجهاتهم الفكرية فيما يتعلق بمفهوم الإمامة مستقبلا، لكن عليّ قتل غدرا من طرف عبد الرحمن بن ملجم الخارجي سنة40هـ (660م)[2]، مما أدّى إلى تنصيب معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين، وقد جعل هذا الأخير أمر الخلافة وراثيا في بني أمية، وتحولت الخلافة كما يقول ابن خلدون إلى ملك.[3]

رفض أتباع علي والّذين سيعرفون عند الفقهاء والمتكلمين _بعد كربلاء سنة61هـ_ بالشيعة تولي بني أمية الخلافة، وناصروا أبناء علي وذريته في استرجاع حقّهم في الخلافة، وظهروا منذ مطلع النصف الثاني من القرن الهجري الأول كحزب سياسي مؤيد لحق آل البيت في الخلافة[4]. ويرتبط هذا الظهور باستشهاد الحسين بن علي _رضي الله عنهما_ في كربلاء سنة 61هـ إثر ثورته ضد الأمويين في عهد خلافة يزيد بن معاوية، بعد أن دعاه فريق من أهل العراق إلى ذلك ووعدوه بالنصر لكنهم خذلوه وتركوه يلقى مصيره مع ثلة من أتباعه المخلصين.

ندمت الفئة التي دعت الحسين بن علي للثورة وخذلته، فقرروا التكفير عن ذنوبهم بالخروج عن الدولة الأموية ورفض مهادنتها حتى إسقاطها، ومنذ ذالك الحين عرف هؤلاء بالشيعة، لكن

---

[1] _ نفسه،ج5،المجلد3،ص ص204 _205، 236_237.

[2] _ نفسه،المجلد الثالث،الجزء6،ص ص،84_85.

[3] _ابن خلدون،المقدمة،ج1،ص ص262،260.

[4] _ ابن خلدون،عبد الرحمن،المقدمة،ج1،ص250.

_ الشهرستاني،الملل والنحل،يعرف الشيعة بأنّهم هم من الّذين شايعوا علياً، وأقاموا بإقامته نصاً ووصية،إمّا جلياً أو خفيا وأنّ الإمامة أولاده كما قالوا:"الإمامة قضية أصولية وركن الدين...ج1،ص145.

يدّعي الشيعة أنّ سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري،وعمّار بن ياسر،والمقداد بن الأسود من أوائل شيعة علي.

موقفهم هذا كان موقفا سياسيا محضا يتمثل في مناصرة حق آل البيت في الخلافة، بيد أن هؤلاء أقحموا في موقفهم السياسي هذا عنصر المأساة وربطوه باستشهاد الحسين في كربلاء بالذات، فأذكوا مشاعر العداء في أنفسهم، وربما حتى في نفوس باقي المسلمين المتعاطفين مع قضية آل البيت ضد الأمويين.

وقد روي عن علي زين العابدين أنه كان عالما ورعا لكنه شديد الحزن والبكاء بعد كربلاء وهو الذي كان يقول: "إن يعقوب _عليه السلام_ بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة يوم واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبي"[1].

في هذه الفترة المتأخرة من القرن الأول الهجري لم يكن الشيعة إلاّ فرقة سياسية معارضة للحكم الأموي الذي تحول إلى ملك، ومؤيدة لحق آل البيت في الخلافة، لكن مظاهر الغلو بدأت تظهر لديهم، وقد واكب ذلك تبلور النظرية السياسية للشيعة في الخلافة أو ما يعرف عندهم بالإمامة، كما بدأت تبرز لديهم بعض المواقف العقدية الممزوجة بالسياسة كقولهم:

- أنّ الإمامة (الخلافة) ليست من المصالح العامة الّتي يحقّ للأمة النظر فيها بل هي أصل من أصول الدين، لا يجوز لنبي إغفاله.

- وأنّ علياً رضي الله عنه أوصى له الرسول بالخلافة، لكنهم اختلفوا حول طبيعة الوصية[2].

وقد شهد الاتجاه الشيعي عدّة تقلّبات وأزمات واختلافات أدّت إلى تعدد الفرق الشيعية على أساس الاختلافات الفكرية الّتي نشأت بينها، والّتي وصلت إلى حد التناقض في المبادئ ومن أبرز هذه الفرق الّتي وصل نشاطها وتأثيراتها السياسية والثقافية حتّى بلاد المغرب الإسلامي، الزيدية والإسماعيلية.

2_ ظهور الشيعة الزيدية

تنتسب الزيدية إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرّم الله وجهه(80-122هـ)، خرج على الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك، بعد دعوة الشيعة من أهل العراق بالكوفة له من أجل مبايعته ضدّ الأمويين، لكنّهم تخلّوا عنه لمّا رفض أن يتبرأ من

---

[1] – محمد، أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ط، دار الفكر العربي، القاهرة،1996 ،ص633.

[2] _ يورد الشيعة عدّة نصوص (أحاديث) ويتناولونها بما يخدم موقفهم، ومعظمها موضوع، أو مطعون فيه الشهرستاني، المصدر السابق، الصفحة145.

الشيخين أبا بكر وعمر _رضي الله عنهما_ وقال: "إنّ أشدّ ما أقول فيمن ذكرتم أنّا كنّا أحقّ بهذا الأمر، لكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ الكفر...وقد ولوا وعدلوا، وعملوا بالكتاب والسنة"[1].

كانت النتيجة أن استشهد الإمام زيد سنة 122هـ، بعد أن تخلّى عنه غلاة الشيعة ورفضوا إمامته، وأعلنوا أن الإمام هو جعفر الصادق وبذلك سموا "بالرّافضة"[2].أمّا المعتدلون من الشيعة فبقوا مخلصين لحق آل البيت وأصبحوا فرقة شيعية معتدلة عرفت "بالزيدية" ومن مواقف الأمام زيد بن علي بن زين العابدين استلهمت مبادئها[3]، كما تولى الزيدية سلالة الحسين بن علي، في حين تولى الرافضة ذرية الحسن بن علي، وقد عرفت ثورة زيد بن علي هذه تأييد العرب والموالي والفقهاء[4].

استفاد العباسيون وهم من آل البيت من ظروف سخط المسلمين على الأمويين جراء ما ألحقوه من أذى بالعلويين، وما أحدثوه من تغيير في طبيعة نظام الحكم في الإسلام، فأطاحوا بالدولة الأموية سنة132هـ مستفيدين من اهتزاز قوّتها ومكانتها إثر الثورات المتتالية التي كانت تواجهها في المشرق والمغرب هذه الثورات التي لعب فيها الخوارج دورا أساسيا، لكن العباسيين بدورهم استأثروا بالخلافة لأنفسهم مما أدّى إلى قيام نزاع قوي بينهم وبين أبناء عمومتهم العلويين بعد ذالك[5].

استأنف الشيعة الزيدية بقيادة العلويين ثوراتهم ضد العباسيين في المشرق، ويذكر أن المعتزلة قد شاركوا الزيدية في ثوراتهم ضد العباسيين في هذه الفترة[6]، فكانت أوّلها ثورة "محمد

---

[1] _ قلهزون، يوليوس،أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، ترجمة، عبد الرحمن، بدوي(1958)،طبعة، مكتبة النهضة المصرية، 1958، ص ص257_258.

[2] – الرافضة إحدى فرق الشيعة المتطرفة، وتلقب بهذا الإسم لرفضها خلافة أبا بكر وعمر ومن يواليهما.

[3] _ ابن خلدون، المقدمة، ج1،ص251.

[4] _ إسماعيل محمود، الأدارسة حقائق جديدة، طبعة،مكتبة دمبولي، القاهرة،1991،ص30.

[5] _ برر المنصور العباسي استئثارهم بالخلافة بقوله:"إنّ أولاد أبي طالب تركناهم و الخلافة لم نعرض لهم بقليل ولا كثير...وقام بها علي بن أبي طالب فما أفلح،ثمّ قام بعده الحسن فوا الله ما كان برجل...ثمّ قام الحسين فخذله أهل العراق...ثمّ قام زيد فخذله أهل الكوفة...ثمّ وثب علينا بنو أمية فأهانوا شرفنا وأذهبوا عزّنا...فأحيا الله شرفنا وأصار إلينا ميراثنا".

[6] _ إسماعيل محمود،الحركات السرية في الإسلام،ط فاس،1977،ص80.

النفس الزكية" سنة145هـ بالمدينة المنورة، ثمّ ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، بالحجاز سنة169هـ، أي في عهد خلافة موسى الهادي الّذي قضى على الثوار بسهولة في معركة "فخ" قرب مكة[1].

شارك في هذه المعركة إدريس وأخاه يحي أبناء عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي، عما الحسين بن علي بن الحسن _قائدا الثورة_ والّذين نجيا من القتل، فأمّا يحيى بن عبد الله بن الحسن ففرّ إلى بلاد الديلم، لكن هارون الرّشيد احتال عليه بالسياسة وألقى عليه القبض وقتله، أمّا إدريس ففرّ إلى مصر ومنها إلى بلاد المغرب برفقة مولاه راشد ونزل بلاد المغرب الأقصى عند قبيلة أورية البربرية بوليلي سنة172هـ، وأميرها حينئذ إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي[2]. في بلاد المغرب الأقصى أسس إدريس بن عبد الله أول إمارة علوية ببلاد المغرب جمعت بين الاعتزال والتشيع الزيدي القريب من أهل السنة[3].

3- ظهور الشيعة الإسماعيلية.

تعود الجذور التاريخية للإسماعيلية إلى ثورة زيد بن علي زين العابدين سنة 122هـ، حيث برزت طائفة من أتباعه يرفضون موقفه المعتدل من الشيخين "أبا بكر وعمر"، فانشقوا عنه ورفضوا إمامته، ومنذ ذالك الحين عُرفوا في التاريخ الإسلامي "بالرافضة"، ساق الرافضة الإمامة إلى جعفر الصادق(ت148هـ)، ابن محمد الباقر(ت114هـ) أخو زيد بن علي زين العابدين.
توفي جعفر الصادق وكان له من الأبناء موسى الكاظم وإسماعيل فاختلف الشيعة فيمن تساق إليه الإمامة، فذهب فريق منهم إلى أنّ الإمامة في موسى الكاظم(ت183هـ/799م)، وهؤلاء هم الّذين عرفوا بالا ثنا عشرية لأنّهم قالوا في القرن الثالث الهجري(9م) بعد 260هـ بأنّ الأئمة اثنا عشر فقط، آخرهم "محمد بن الحسن العسكري" الّذي لم يمت وإنّما اختفى وسيعود في آخر الزمان وهو"المهدي المنتظر"[4].

---

[1] _ نفسه،ص ص32-34.

[2] _ ابن خلدون،العبر،ج4،ص17.

[3] – Gautier,E.F, Le Passé de L'Afrique du Nord,op.cit, pp,286– 293.

[4] _ الشيعة الإثني عشرية هم طائفة دينية إسلاميَّة، وعادة فإن لفظة إذا قيلت مطلقة دون تخصيص فإن الذهن ينصرف نحو الإثني عشرية لكونها الطائفة الأكبر من حيث عدد الأتباع من بين الطوائف الشيعية الأخرى.

أمّا الّذين ساقوا الإمامة إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق، فهم الّين عرفوا "بالإسماعيلية "رغم أنّ إسماعيل مات(143هـ) قبل وفاة أبيه جعفر الصادق إلّا أنّهم يعتقدون أنّه لم يمت في ذلك التاريخ وأنّ أباه أظهر وفاته "تقية"[1] وخوفا عليه من العباسيين.

ويسوق الإسماعيلية الإمامة في ذريته ومنهم "محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق" الملقب "بالمكتوم" والّذي يبدأ به دور الأئمة المستورين[2] ومن بعده ابنه "محمد الحبيب"، ثمّ "عبيد الله المهدي" الّذي ظهر ببلاد المغرب بعد نجاح دعوة "أبي عبد الله الشيعي" بأرض كتامة من بلاد المغرب الأوسط[3]، أماّ اتّصال الإمام بعامة الناس في هذه المرحلة فيكون عن طريق دعاته الظاهرين.في مرحلة الستر(الكتمان) وضعت أسس البناء الدعوي الإسماعيلي القائم على مبدأ استتار (اختفاء) الإمام إن لم تكن له شوكة تحميه، وبرز دور الدعاة الشيعة وفي مقدمتهم ميمون القدّاح[4] في السلمية بريف حمص، وأبو الحسن علي بن الفضل وبن حوشب باليمن، ثم أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة في بلاد المغرب.

ب_ الأصول الفكرية للشيعة الزيدية والإسماعيلية:

نقصد بالأصول الفكرية،المبادئ والأفكار الأساسية التي ارتكزت عليها هذه الحركات المذهبية، كما تمثل الأصول المنطلقات السياسية والعقدية لأي اتجاه فكري وأوردنا هذا الفصل بهدف الكشف عن الأبعاد الفكرية والثقافية للحركات السياسية التّي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي عامة ووصلت تأثيراتها إلى المغرب الأوسط وساهمت في تطوره الفكري في القرون الأولى للإسلام.

---

[1] _ التَّقِيَّة من الفعل العربي يتقي أي يخشى، والتقية كمصطلح ديني هي إخفاء معتقد ما، خشية الضرر المادي أو المعنوي.

[2] _ ابن خلدون،المقدمة، ج1، ص250. الشهرستاني، الملل والنحل،ص156.

[3] _ نفسه،ص156.

[4] – أبرز دعاة ومنظري التشيع الإسماعيلي في مرحلة الستر(145-260هـ)عند الشيعة الإسماعيلية.

1_ الشيعة الزيدية:

1 _ 1 : سيـاسيا

تتناول المبادئ السياسية مسألة الخلافة أو الإمامة والّتي تتمحور حول من هو أحق بخلافة الرسّولﷺ في تسيير شؤون المسلين؟ وما هي الشروط الواجب توفرها في الإمام؟ وهل مسألة الحكم أو الإمامة مسألة فرعية أم أصل ثابت من أصول الدين الإسلامي؟.

في هذا الإطار يتميز الموقف المبدئي للشيعة الزيدية بالاعتدال وقربه من المفاهيم السياسية السنية، فالزيدية كما سبق الذكر لا تنكر خلافة الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كما يفعل الرافضة من الشيعة،بل ترى أنّ الأفضل كان علياً _كرّم الله وجهه_ لكن الخلافة آلت إلى المفضول وهما الشيخان، الّذين قال عنهم زيد بن علي: "كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة... إلّا أنّ الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها..."[1].

ويرى المعتدلون من الزيدية أنّ الأدلة على تعيين علي للخلافة جاءت بالوصف لا بالنص كما يدّعي غلاة الشيعة، كما يرى الزيدية أيضا أن مساق الخلافة بعد علي في ولد فاطمة سواء من الحسن أو الحسين، لكن باختيار الشيوخ، ويشترط في الإمام عند الزيدية أن يكون عالما، زاهدا جوادا، شجاعاً، داعيا لإمامته[2].

لا يدّعي الزيدية عصمة الإمام، وهذا ما عرّف به العلويون خاصة الأدارسة ببلاد المغرب، لكنّه يلتقي مع باقي فرق الشيعة في أنّ الإمامة أصل من أصول الدين، والإمام زيد بن علي لا يجيز أن يكون الإمام مستوراً،و لا رجعة عنده إلاّ عند البعث[3].

1 _ 2:عــقائديا

يذكر بن خلدون أن الإمام زيد بن علي أخذ عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة، مبادئ العقيدة[1]، في حين يذهب الشهرستاني أبعد من ذلك حيث يعتبر الإمام زيد بن علي أنّه تتلمذ في الأصول على واصل بن عطاء الغزال الأثلج رأس المعتزلة[2].

---

[1] _ الشهرستاني،الملل والنحل،تحقيق،محمد عبد القادر،الفاضلي،ط،المكتبة العصرية،بيروت،2005، ص124. الإمام أبو زهرة،المرجع السابق،ص651.

[2] _ ابن خلدون،المقدمة،ج1،ص251.

[3] _ الإمام،أبو زهرة،المرجع السابق،ص ص652_653.

لكن الإمام محمد أبو زهرة، وان كان يقر بتأثر الإمام زيد بالمعتزلة والتقائه بواصل بن عطاء في البصرة، فإنّه يرى أنّ التأثير كان متبادلا بينهما حيث يذكر قوله: "ونحن نرى أنّهما تذاكرا مسائل الاعتقاد..."[3].

ومما يؤكد الصلة بين الإمام زيد بن علي والمعتزلة آراؤه في العقيدة والقريبة من المعتزلة، هذا التقارب الفكري هو الّذي سهل التقارب السياسي بين إدريس الأول في المغرب الأقصى وقبيلة أورية وزعيمها اسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي _كما سبق الذكر_هذا التقارب الذي تطور في فترات لاحقة لدرجة أصبحت فيه الآراء العقدية للشيعة في أغلبها معتزلية، كما امتدّ هذا التأثير فشمل الإباضية أيضا.

ومن أهم الآراء المأثورة عن الإمام زيد في العقيدة أنّه أخذ بقول المعتزلة في أنّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لكنّه اختلف معهم بأنّ مرتكب الكبيرة ليس مخلدا في النار وإنّما يعاقبه الله بمقدار ذنوبه، ووقف موقفا وسطا بين الجهمية القائلين بالجبر والمعتزلة(القدرية) القائلين بحرية الإنسان في أفعاله، فقرر الإمام زيد وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ الإنسان حرّ مختار في أفعاله ولكن الله لا يرضى منه إلّا الطاعة، أمّا المعصية فلن يفعلها إلّا بقدرة أودعها الله تعالى فيه، لكنّه لا يرضاها منه.

كما قرّر الإمام زيد أنّ علم الله أزلي، وأنّ كلّ شيء يحدث بتقديره عز وجل وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء من المسلمين[4]، ومواقف الإمام زيد وإن كانت ذات صلة وثيقة بالمعتزلة فإنّها وسطية قريبة من أهل السنّة.

2- الشيـعة الإسـماعيلية.

يتميز النظام الفكري لدى الشيعة الباطنية بصفة عامة والإسماعيلية بصفة خاصة بظاهرة الخلط بين الدين والسياسة والفلسفة وحتى المعتقدات الدينية القديمة مما أضفى عليه طابع الغموض والتعقيد، وليس الهدف من دراستنا تحليل هذه الظاهرة، وإنما إبراز بعض الجوانب

---

[1] _ المقدمة،ج1،ص251.

[2] _ الملل والنحل،ج1،ص124.

[3] _ تاريخ المذاهب الإسلامية،ص654.

[4] _ قال ابن خلدون في مقدمته:"أمّا الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها،وأنّها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص،فقالوا بإمامة علي ثمّ ابنه الحسن،ثمّ أخيه الحسين،ثمّ ابنه علي زيد العابدين،ثمّ ابنه زيد بن علي صاحب هذا المذهب،وخرج بالكوفة..."المقدمه،ج1،ص ص،253-254.

المميزة للفكر الشيعي الإسماعيلي الذي وصلت تأثيراته بقوة إلى بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة في القرون الأولى للإسلام.

ومن أبرز الأسس التي يقوم عليها الفكر الشيعي الإسماعيلي، اعتبار"الإمامة" مسألة دينية بحتة وأصل من أصول الدين، وهم بهذا الموقف يجمعون بين السياسة والعقيدة، أمّا المبدأ الثاني وهوّ أساسي كذلك في الفكر والسلوك الإسماعيلي فهوّ "التأويل بالباطن".

2 _ 1: السيـاسـية والعـــقيدة

_ الإمامة أصل من أصول الدين

يعتقد الشيعة الإسماعيلية أنّ الإمامة أو ما يصطلح عليه بالخلافة عند أهل السنة،أصل من أصول الدين أو بعبارة أخرى ركن من أركان الدّين كالصلاة والزكاة والحج، وفي هذا الصدد يذكر القاضي النعمان قوله: "ففرض الله ولاية ولاة الأمر فلم يدروا ما هي فأمر الله نبيه عليه السلام أن يفسّر لهم ما الولاية مثل ما فسّر لهم الصّلاة والزّكاة..."[1].

وعليه فإنّ نصب "الإمام" في نظر الشيعة واجب ديني، الغرض منه إقامة الحجة على الناس ومن لا يأخذ بهذا الاعتقاد وبحق آل البيت في الإمامة في نظرهم فلا دين له[2].

وفي هذا الباب يرى الشيعة خاصة الإسماعيلية منهم أنّ رسول الله ﷺ قد أمره الله عزّ وجل أن يبلّغ المؤمنين بأن أمر الولاية من حق علي بن أبي طالب وذريته من بعده، لكن الرّسول _على حدّ قولهم_ ضاق بهذا الأمر ذرعاً، وخشي أن يكذّبه المسلمون ويرتّدوا عن دينهم فراجع ربّه فأوحى إليه بقوله عزّ وجل:﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾[3].

ويذكر القاضي النعمان في كتابه "دعائم الإسلام "رواية عن أبي جعفر محمد بن علي الصادق" عن رجل مجهول عن الحسن البصري هذا الحديث، الّذي سنورده كاملا في الملحق للأمانة العلمية[4].

---

[1]– القاضي النعمان،المغربي،دعائم الإسلام،ج1،تحقيق،آصف بن علي أصغر فيضي،دار المعارف،القاهرة، 1963،ص15.

[2] – عارف،تامر،تاريخ الإسماعيلية،الدعوة والعقيدة،ط1،دار رياض الريس،قبرص،1991،ص ص77-78.

[3] – سورة المائدة،الآية67.

[4] – ينظر:الملحق رقم 3.

وتذكر هذه الرواية أنّ الرسول صدع بأمر الله وقام بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، يوم "غدير خم"[1].

ثمّ يروي عن أبي جعفر( ) عن الرّسول ﷺ أنّه قال: "أوصي من آمن بالله وبي وصدّقني بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فإنّ ولاءه ولائي، أمرني به ربّي وعهد عهده إلي وأمرني أن أبلغكموه عنه"[2].

استناداً إلى هذا الحديث الّذي يرويه النعمان، وبعض الأحاديث المشابهة أقام الشيعة خاصة الإسماعيلية نظرية سياسة مكملة لمفهوم الإمامة عندهم ألا وهي "نظرية الوصاية أو الوصي".

- الوصاية(الوصي)

والوصي هو علي بن أبي طالب، الّذي أوصى الله الرسول _الّذي يسمونه بالنّاطق_ يأمره بإعلان ولايته كما ورد في الحديث السابق، والجدير بالذكر أنّ الوصي عند الشيعة في مرتبة أرقى من الإمام الّذي يخلفه وهو في مرتبة تقارب النبوة أو تكملها، يكون فيها الوصي مرافقاً للرسول وخليفة له، كما كان "يوشع بن نون" وصيا لموسى عليه السلام[3]، أو كما جاء في الحديث الذي يرويه النّعمان، أنّ الرسولﷺ بعد حجّة الوداع نادى بالصلاة جامعة وقال: "أيّها الناس، اعلموا أنّ علياً منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبي بعدي، وهوّ وليكم بعدي، فمن كنت مولاه فعلي مولاه" ثمّ رفع يديه حتّى رؤي بياض إبطيه، فقال: "اللهم والِ من ولَاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار"، ثمّ يتساءل القاضي النعمان فيقول مستفهماً "فأي بيعةٍ تكون آكد من هذه البيعة والولاية"[4].

والوصاية في نظر الشيعة الإسماعيلية جاءت بنص صريح يؤكدها ولم تكن بالإيحاء والوصف، وبالتالي فإنكارها يعتبر انحرافا في العقيدة يستوجب البراءة من صاحب هذا القول.

---

1 – القاضي،النعمان،دعائم الإسلام،ج1،ص15.

2 – نفسه،ج1،ص15.

3 – عارف،تامر،المرجع السابق،ج1،ص75.

4 – النعمان،دعائم الإسلام،ج1،ص16.

*- يفتتح القاضي النعمان المغربي،مقدمة كتابه "أساس التأويل" بقوله :"الحمد لله مفيد النعمة،وصلى الله على محمد نبي الرّحمة،وعلى وصية علي ولي الأمة، وعلى الأئمة الطاهرين من أبنائه الطيبين"، تحقيق، تحقيق،عارف تامر،ط ،سنة، ،ص23.

كما أنّ اغتصاب الإمامة من علي بن أبي طالب وذريته يعتبر إنكاراً لأمر"الوصية" وتعطيلا لركن من أركان الإسلام.

وعلى هذا الأساس يذهب الشيعة الإسماعيلية إلى اعتبار خلافة أبي بكر وعمر وعثمان _رضي الله عنهم_ باطلة، وأنّهم اغتصبوا حقاً من حقوق "الوصي" علي بن أبي طالب وعطّلوا أمراً من أمور الله، ألا وهو استمرار"الإمامة"، فوجب الحكم عليهم بالجور والطغيان والفسوق وحق لعنهم في نظر المتطرّفين من الشيعة الباطنية[1].

- واجبات الأمة اتجاه الأئمة:

للأمة اتّجاه الأئمة في نظر الإسماعيلية،واجبات أساسية يجب التقيد بها واحترامها، وأهمها الوفاء بعهود الأئمة، لأنّ الوفاء بعهد الأئمة وفاء بعهد أنبيائه وبالتالي وفاء بعهد الله.

كما يجب توقير الأئمة وتعظيمهم لأنّ تعظيمهم من تعظيم الله، وطاعتهم موصولة بطاعته، لذا يتأولون قول الله عزّ وجل:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾"على أنّ المقصود بأولي الأمر هم "الأئمة" بالمفهوم الإسماعيلي[2].

ومن واجبات أتباع الأئمة الصبر على ما يمتحنهم به الأئمة وشكرهم على النّعم التّي يشملون بها أتباعهم، فهم يحيون قلوبهم بالحكمة ويبصّرونهم بالحقيقة، ويخرجونهم من الضلالة إلى الهدايه ويحلونهم محل الأبرار، ويستغفرون لهم فيغفر الله لهم، ويشفعون لهم عند الله فتقبل شفاعتهم[3]، ومن معتقداتهم في الأئمة، ضرورة التسليم لهم في جميع الأمور، اعتقادا ونيةً وعملاً.

وقد تناول القاضي النعمان معتقد الشيعة الإسماعيلية في أئمتهم في كتابه: "الهمّة في آداب إتباع الأئمة فقال: "ينبغي لمن عرف الأئمة أن يخافهم كما يخاف الله، ويتّقيهم كما يتّقي الله _عزّ وجل_ وقد قرن طاعتهم بطاعته، وجعلهم الوسائط فيما بينه وبين خلقه، والشهداء على

---

[1] – ابن خلدون،المقدمة،ج1،ص ص250-252.

[2] – سورة النساء،الآية59.للمزيد يراجع،بدوي،عبد الرحمن، الرجع السابق،ص ص1042-1044 .

[3] – بدوي،المرجع السابق،ص1044_1045.

عباده..."[1].وفي هذا الصدد يذكر النعمان قول جعفر بن محمد الصادق: "بنا يعبد الله، وبنا يطاع الله، وبنا يعصى الله، من أطاعنا فقد أطاع الله ومن عصانا فقد عصا الله..."[2].

ومن الأمور الواجبة على الأتباع اتجاه إمامهم،"دفع الخمس من المكسوب للإمام"، وفي هذا الصدد يتأولون قول الله عزّ وجل:﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[3].

قال جعفر بن محمد الصادق: "الخمس لنا أهل البيت، ليس للناس معنا فيه شيء، ونحن شركاؤهم في أربعة أخماس الغنائم فيما شهدناه معهم(يقصد الحروب)"، والخمس لنا دونهم، نعطي منه يتامانا وفقراءنا ومساكيننا وابن سبيلنا، وليس لهم ولا لنا في الصدقات شيء"[4].

ومما تقدم نستنتج أنّ الإمام عند الشيعة الإسماعيلية ومنهم الفاطميون الّذين حكموا بلاد المغرب في القرن الرابع الهجري، يحظى بمكانة مقدّسة، ترفعه إلى مصاف النبوة وربما التأليه في بعض مبالغات الشعراء والمتطرفين هذا في باب علم الظاهر، وربما يكون الأمر أخطر في علم الباطن[5].

وفي هذا الصدد نورد بعض الأشعار الّتي تؤكد هذا المعتقد كقول الشاعر"علي بن الوليد" وهو من دعاة الإسماعيلية يمدح أئمته:

يا آل طه أنا العبد المقّر بـأنّ ... لا دين إلّا لمن كنتم له أمــر

لأنكم فلك طوفان الظِلّال بكم ... نجاة شيعتكم منه بغير مــرا

بحبكم تقبل الأعمـال إن قبلت ... ويغفر الذنب للعاصي إن غفـرا

أسلمت نفسي إليكم وهي خائفة ... عظيم ذنب لها عن ذاتها صدرا

لكنــها وثقت منكم بكونكـم ... يوم الشفاعة في العقبى لها وزرا[6]

---

[1]– القاضي،النعمان بن محمد،الهمة في آداب إتّباع الأئمة،نشره،محمد،كامل حسن،القاهرة،بدون تاريخ،ص ص 78_79. بدوي، المرجع السابق،ص1046_1047.

[2] – القاضي،النعمان،الهمة في آداب إتّباع الأئمة،ص ص،78_79.

[3] – سورةالأنفال،آية 41.

[4] – بدوي،عبد الرحمن،المرجع السابق،ص1049.

[5] – إحسان إلهي،ظهير ،الإسماعيلية،تاريخ وعقائد،إدارة ترجمان السنة،لاهور ،باكستان،دت،ص،375.

[6] _ نفسه،ص372.

ومن باب التعظيم والتبجيل قول الشاعر الإسماعيلي: "ابن هانئ الأندلسي" في مدح الخليفة المعز الفاطمي قوله:

ما شئت لما شاءت الأقـدار   فاحكم فأنت الواحد القهـار
وكأنما أنــت النبـي محمد   وكأنّ أنصارك الأنصـــار
أنت الّذي كانت تبشرنا بـه   في كتبها الأحبار والأخبار
هذا الّذي تجدي شفاعته غدا   حقا، وتخمد إن تراه النـــاّر[1]

وقد ترك لنا القاضي النعمان في مؤلّفاته العديدة، الكثير من الصور الّتي تعبر عن معتقدات الشيعة الإسماعيلية في أئمتهم الفاطميين في بلاد المغرب ومن أكثر المؤلّفات تعبيرا عن هذه الحالة كتاب: الهمة في آداب إتباع الأئمة[2]

- المهدي المنتظر:

من المعتقدات الشيعية الأساسية في الفكر الإسماعيلي كذلك فكرة "المهدي المنتظر"رغم اعتقاد السنة في أمر ظهور المهدي المنتظر إلّا أنّ الشيعة عامة والإسماعيلية بصفة خاصة جعلوا من هذا الأمر نظرية أساسية ومعتقدا راسخاً.

ويعتقد أنّ جذور فكرة المهدي المنظر تعود إلى المعتقدات الّتي روج لها عبد الله بن سبأ[3] في صدر الإسلام، وقد ذكر الطبري جانبا منها، حيث قال:"...كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء،فأسلم زمان عثمان ثمّ انتقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم..."[4]

---

[1] _ نفسه،ص384،ديوان ابن هانئ،القصيدة الرابعة والعشرون ص365.

[2] – ينظر: الملحق رقم4

[3] – عبد الله بن سبأ شخصية مختلف في حقيقة وجودها؛يقول المؤمنون بها أنها ظهرت في فترة خلافة عثمان بن عفان و تنسب إليه روايات تاريخية بأنه هو مشعل الاضطرابات والاحتجاجات ضد الخليفة الثالث في الخفاء،كان من الغلاة بحب علي بن أبي طالب ومدعٍ لألوهيته،ويقال أنه أصل هذه الفكرة ومؤسس فكرة التشيع.ويعتبر البعض بن سبأ أول من نادى بولاية علي بن أبي طالب وبأن لكل نبي وصياً وأن وصي الأمة هو علي بن أبي طالب وهو أول من أظهر الطعن والشتم في الصحابة وخصوصاً أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة بنت أبي بكر زوجة الرسول محمد.

[4] – الطبري،محمد بن جرير،المصدر السابق،المجلد الأول،ص98(حوادث سنة35هـ).

ومن بين المقولات الّتي روّج لها عبد الله بن سبأ، مقولة الرجعة كما ذكر الطبري قوله: "لعجب ممن يزعم أنّ عيسى يرجع، ويكذب بأنّ محمداً يرجع..."[1]. ثمّ قال بالوصاية ويذكر الطبري أنّه قال_ابن سبأ_: "إنّه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد"[2].

ولمّا قتل علي _رضي الله عنه_ أنكر بن سبأ إمكانية موته بقوله: إنّه لم يمت حقيقة وإنّما شبه للناس، وأنّه سيرجع من السحاب، وهوّ المسيح المنتظر، هذه الفكرة الّتي كانت موجودة في المعتقد اليهودي والنصراني خاصة في جنوب اليمن، نتيجة لذلك التقارب الّذي كان قد تعمق بين الديانتين في صنعاء جنوب اليمن وحتّى في الحبشة بين اليهودية والمسيحية[3].

رغم أن فكرة المهدي المنتظر توجد عند عامة المسلمين حتّى السنة منهم، إلّا أنّ الشيعة جعلوا منها نظرية سياسية مرتبطة بالإمامة، فقال بها الإثنا عشرية في القرن الثالث الهجري، بعد وفاة "إمامهم" محمد بن الحسن العسكري سنة260هـ، حيث ذهبوا إلى القول بأنّه لم يمت وإنّما اختفى وسيعود في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، واعتبروه "المهدي المنتظر".

أمّا الإسماعيلية فقد ذهبوا إلى هذا الاعتقاد منذ القرن الثاني الهجري، لمّا أنكروا موت "إسماعيل ابن جعفر الصادق" الّذي يعتقد أنّه توفي قبل موت أبيه سنة 143هـ، في حين توفي والده سنة 148هـ، لكن الإسماعيلية _كما سبق الذكر_ أنكروا موته، ثمّ ساقوا الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الملقب بالمكتوم والّذي بدأ به دور الستر ولم يظهر الأئمة الإسماعيلية إلاّ في أواخر القرن الثالث الهجري وبعد نجاح ثورة الداعي الشيعي ببلاد المغرب، وقد تمثل هذا الظهور في "عبد الله المهدي"[4].

ونظرية المهدي المنتظر توجد جذورها في اليهودية كما في المسيحية،وما يؤكد وجود هذا المعتقد لدى الشيعة الإسماعيلية وصف عبد الله بالمهدي وذكر بعض الأشعار "لسفر دانيال" الّذي ورد فيه ذكر رجعة المسيح من السحاب "سيجيء في السحاب"[5].

---

1 – نفسه،نفس الصفحة.

2 – نفسه،نفس الصفحة.

3 – بدوي،المرجع السابق،ص746.

4 – ابن خلدون،المقدمة،ج1،ص250، الشهرستاني،الملل والنحل،156.

5 – بدوي،عبد الرحمن،المرجع السابق،ص770.

ويعتبر فلهوزن من أبرز الباحثين الّذين وقفوا على هذه العلاقة بين عقائد الشيعة الباطنية في جنوب اليمن والديانة اليهودية، إلى جانب الباحث " فريد ليندر".

- التأويل بالباطن:

يعتبر التأويل بالباطن من الخصائص الأساسية المميزة للفكر الإسماعيلي، خاصة في جانبه العقدي والفلسفي، ويقوم التأويل على أساس القاعدة التالية حسب قولهم: "إنّه لابد لكل محسوس من ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع الحواس عليه، وباطنه ما يحويه، ويحيط العلم به..."[1].

وقد أفرد القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي(ت363) كتابا لهذا الغرض تحت عنوان: "كتاب أساس التأويل" هذا الكتاب الّذي حققه " تامر عارف" وهو شيعي إسماعيلي معاصر، ومن أكبر المرجعيات الفكرية الإسماعيلية المعاصرة، يرى أنّ "كتاب أساس التأويل" أهم مصدر تناول موضوع التأويل بجميع جوانبه[2].

وكتاب "أساس التأويل" هذا من كتب علم الباطن، هذا العلم الّذي اختص به الله عزّ وجل _في نظر الشيعة الإسماعيلية_ الوصي علي ابن أبي طالب، ومن بعده الأئمة من ذريته، ولا يطلع عليه إلّا العلماء المقربين من الإمام.

وقد حضي"القاضي النعمان" بمكانة رفيعة لدى أئمة الدولة الفاطمية الإسماعيلية خاصة في طورها المغربي(297_361هـ) وحتّى في مصر، فتمكن النعمان من الإطلاع على علم الباطن وتلقاه من الأئمة الفاطميين مباشرة مما سمح له بتأليف هذا الكتاب الّذي يعتبر أصلا لعلم الباطن، كما كان كتاب "دعائم الإسلام"_سابق الذكر_ أصلا لعلم الظاهر[3].

وعلم الباطن يقوم على أساس التأويل الرمزي للنص المقدس الّذي هو"القرآن والأحاديث النبوية"، تأويلا يدعي الوصول إلى باطن المعنى أو رمزه، أو جوهره، وبعبارة أخرى حقيقة النص المستترة وراء اللفظ والّتي تدل على معناه الحقيقي[4].

---

1 – القاضي،النعمان المغربي،(ت 363هـ)،"كتاب أساس التأويل" تحقيق:عارف تامر،ط، بيروت، ص28.

2 – عارف، تامر، مقدمة، كتاب أساس التأويل، ص7.

3 – النعمان، أساس التأويل، ص27.

4 – عارف، تامر، مقدمة، كتاب أساس التأويل، ص7.

والتأويل يختلف اختلافا واضحا عن التفسير الّذي جعله الشيعة الإسماعيلية من مهام "الناطق" ويقصدون به الرسل وآخرهم محمد ﷺ فإن كان التفسير يذهب إلى إجلاء معاني الكلمات والعبارات الغامضة في النص القرآني وحتّى الأحاديث النبوية الشريفة، بأسلوب مباشر حتّى يفهم معناها القارئ، فإنّ التأويل من مهام "الوصي ومن بعده الأئمة" وهم وحدهم القادرون على إدراك المعاني الباطنية للنص المقدس، أو ما يسمى عندهم "بعلم الحقيقة "[1].

وعلى أساس هذا المعتقد لقبت طوائف الشيعة خاصة "الإسماعيلية والإمامة" "بالباطنية".

والتأويل في اعتقاد الشيعة ليس من اختصاص العامة الّذين يكفيهم علم الظاهر، لأنّهم عاجزين عن فهم الأبعاد الحقيقية للتأويل، كما أنّ مفهوم العامة لدى الشيعة يتسع في هذه الحالة ليشمل جميع الطوائف الإسلامية بما فيهم أهل السنة والخوارج.

- الفرق بين علم الظاهر وعلم الباطن.

علم الظاهر الّذي اختص به"الناطق" وهو الرسولﷺ في نظر الشيعة هوّ "علم الشريعة" وفي هذا الصدد يذكر أبي حاتم الرّازي قوله: "إنّ الظاهر هوّ الشريعة والباطن هوّ الحقيقة، وصاحب الشريعة هوّ الرسول محمد صلوات الله عليه، وصاحب الحقيقة هوّ الوصي علي بن ابي طالب"[2]. ويستدل الإسماعيلية على هذا التقسيم بأحاديث موضوعة كقولهم أنّ الرّسولﷺ أنّه قال: " أنا صاحب التنزيل، وعلي صاحب التأويل"[3].

والإسماعيلية بهذا المسلك يجعلون من علي بن أبي طالب_رضي الله عنه_ شريكاً للرّسول ﷺ في الرّسالة، بل يذهبون أبعد من ذلك،عندما يقسمون الرسالة إلى ظاهر وباطن ويفاضلون بينهم فيجعلون علم الظاهر كالقشور وعلم الباطن كاللب أو الجوهر، وفي أحسن الأحوال يجعلون الظاهر مكملا للباطن والعكس صحيح، مثل علاقة الجسد والرّوح، وعلاقة الدنيا والآخرة، ولهم في ذلك نظرية متكاملة ذات بعد فلسفي قوامها أنّ الخلق هو تركيب بين عالمين:

---

[1] – علم الحقيقة: يعتقد الشيعة وحتى المتصوفة من أهل السنة أن الإسلام له بعدان، بعد تشريعي عملي وبعد روحي تأملي، قال الإمام القشيري: "الشريعة أمر بالتزام العبودية،والحقيقة مشاهدة الربوبية،وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيّدة بالشريعة فأمرها غير محصول والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدّر، وأخفى وأظهر".

[2] – إحسان، إلهي،المرجع السابق، ص 474.

[3] – نفسه، نفس الصفحة، يذكر المصادر الشيعية الّتي ورد فيها هذا الحديث المكذوب عن الرسولﷺ

"الأمثال والممثولات"[1].فإن كان الجسم "مثل" فإنّ النفس هي "الممثول" وإن كانت الدنيا "مثل" فإنّ الآخرة هي"الممثول" وهذا التركيب المزدوج نجده في كلّ الظواهر الّتي خلقها الله.

علم الباطن في نظر الشيعة خاصة الإسماعيلية منهم_كما سبق الذكر_ من اختصاص الوصي ومن بعده الأئمة من ذريته وهوّ علم متوافر بينهم استودعه الله في قلوبهم لا يكشفون منه للناس إلّا بقدر ما يفهمونه، ويمنعون منه من يجب منعه[2].

أمّا الّذين يكشفون لهم جانبا من علم الباطن فهم العلماء المقربين منهم كان القاضي النعمان المغربي، أمّا الّذين يمنعونهم فهم عامة الناس خاصة الطوائف المخالفة لهم في المذاهب، كأهل السنة والخوارج.

هذا المعتقد جعل للشيعة مستويين من المعرفة، مستوى ظاهري يتناول قضايا الشريعة والفقه والقانون وهو معروف لدى عامة المسلمين شيعة كانوا أو سنّة أو خوارج وهو علم الظاهر، ومستوى باطني سرّي، غامض كتبه غبر متداولة بشكل علني ولا يصل إليها إلّا العلماء المقربين من أئمتهم والّذين نالوا ثقة ومكانة معتبرة.

وتدخل كتب الباطن في إطار ما يسمّى "بالتقية" وقد أشار عارف تامر إلى ذلك في تقديمه لكتاب "أساس التأويل" حيث قال عنه:"... من الكتب الثمينة والذخائر الغالية الّتي تقتضي تعاليمه،السهر على منع تسرب المواد العقائدية التي وردت فيه لمن هم من غير الإسماعليين"[3]. وللشيعة الباطنية كتب سرية كثيرة ذات أبعاد عقائدية، جرى عبر التاريخ إخفاء تعاليمها عن عامة الناس وخاصة الطوائف المخالفة لهم في المذهب، ولهم في أمر إخفائها مذهب قائم على "التُقية"[4].

هذا الجانب السرّي المميز للمذاهب الشيعية الباطنية وخاصة الإسماعيلية هوّ الّذي أضفى عليها طابع الغموض في الفكر والتاريخ السياسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري وحتّى بعد

[1] – عارف، تامر، مقدمة "كتاب أساس التأويل"، ص8. احسان،الظاهر، المرجع السابق، ص ص483_484.

[2] – القاضي، النعمان، كتاب أساس التأويل، ص31–32.

[3] – عارف، تامر،أساس التأويل، ص6.

[4] _ التقية: المصطلح والمفهوم عند الشيعة وحتّى الخوارج.

ظهور الدعوة الشيعية الباطنية ببلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري، وأدّى إلى تناقض حاد في آ راء الدّارسين ومواقفهم من الحركات الشيعية الباطنية وفي مقدمتها الإسماعيلية[1].

من أبرز الكتب الّتي تناولت علم الباطن عند الشيعة الإسماعيلية ما تركه الدعاة الأوائل لهذه الحركة وفي مقدمتهم، ابن حوشب[2] والمعروف بداعي الدعاة ومؤسس أول دولة شيعية إسماعيلية بجنوب اليمن، ومن ما تركه لنا "كتاب الشواهد والبيان"، "كتاب الكشف"، نشره شتروطمان، "فصل من الرشد والهداية" لابن حوشب، نشر الجمعية الإسماعيلية، "كتاب الذخيرة في الحقيقة" للداعي علي بن الوليد(ت612هـ)، "أعلام النبوة" لأبي حاتم الرّازي، وكتاب "إثبات النبوءات" للسجتاني، كتاب "راحة العقل" للكرماني من أهم الكتب الحقائق السرية[3]. وغيرها لا يتّسع المجال لذكره.

وللتأويل جذور تاريخية تعود إلى ما قبل الإسلام وتقوم على أساس أنّ النصوص الدينية المقدسة في حقيقتها رموز وإشارات إلى حقائق كونية خفية، وينطبق هذا الأمر على الشعائر الدينية، كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها وأن من يكتفي بالظواهر لا يفقه حقيقة الدين[4].

وفي هذا السياق يرى عبد الرحمن بدوي أنّ الجذور التاريخية للتأويل تقود إلى عهد الحضارة اليونانية، والّتي جعلت من أشعار "هومروس"[5] الّتي تضمنتها "الإلياذة والأوديسا" نصوصا ذات سلطة أدبية ودينية في المجتمع، هذه الأشعار الّتي سرد فيها هومروس أساطير ذات أبعاد دينية وخيالية غامضة، أصبح العقل اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد في حاجة إلى تبسيطها وتقريبها من الفهم العقلي المنطقي، لكنّه لم يكن قادراً عل رفضها والتخلي عنها، فلجأ إلى تأويلها رمزياً[6].

---

[1] _القصير، سيف الدين،ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن،ط، دار الينابيع، دمشق،1993، ص31 ومايليه

[2] _ ابن حوشب: هوّ أبو القاسم،الحسن بن فرج بن زادان الكوفي، كما عرّفه القاضي النعمان وهو أقرب المصادر إليه، وهناك اختلاف في تعريف شخصيته في المصادر، للمزيد يراجع، سيف الدين،القصير، المرجع السابق، ص31وما يليها.

[3] _ احسان، إلهي ظهير، المرجع السابق، ص357.

[4] _ بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، المرجع السابق، ص749.

[5] _ هومروس شاعر اغريقي، عاش قبل الميلاد.

[6] _ بدوي، المرجع السابق، ص754.

من الفلاسفة اليونان الأوائل الّذين اهتموا بالتأويل نجد نتستانس Antisthenes، وهوّ أول من استخدم عبارة "الظن" doxa والحقيقة Aletheia، في تأويله لأشعار هومروس، لا شك أنّ هذه العبارات "الظن والحقيقة" قريبة إلى ما تذهب إليه الحركات الباطنية في الإسلام.

ومن الفلاسفة اليونان الّذين أخذوا بمنهج التأويل الفيلسوف "الرواقي زينون"[1].

في القرن الأول الميلادي انتقلت نزعة التأويل إلى الفكر الديني اليهودي على يد "فيلون اليهودي" الّذي جعل من التأويل مذهبا ومنهجاً لفهم الثورات "العهد القديم"، وتأويل الأساطير الواردة فيه والّتي تتميز بالسذاجة واللامعقولة خاصة في نظر منتقديها من فلاسفة اليونان. مثل أحلام يوسف... ويعتقد فليون أنّ التفسير بالمعنى الحرفي، لا يتعدى الشكل الظاهري أو هو مجرد جسم النص، ويقود إلى الكفر والإحالة، أمّا التأويل بالباطن فهو روح النص المقدس[2]، وهذا المفهوم ذاته الّذي عبر عنه الحركات الباطنية في الإسلام ومنها الإسماعيلية.

انتقل مذهب التأويل إلى المسيحية في عصر الآباء (ق1-3م) بهدف الدفاع عن تعاليم المسيحية من الانتقادات الموجهة لها من طرف الفلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أصحاب المدرسة الأفلاطونية الحديثة.

ورغم وجود معارضة قوية من بعض رجال الدين المسيحيين إلاّ أنّ ظروف الصراع الفكري ضد التيارات الفلسفية اليونانية فرضت سيادة مذهب التأويل في المسيحية كما سبق الأمر بالنسبة لليهودية "التوراة"[3].

لكن السؤال الّذي يطرح نفسه، هو كيف وصل التأثير اليهودي والمسيحي إلى الإسلام وهل توجد روابط تاريخية وفكرية بين اليهودية والإسلام سمحت بانتقال مذهب التأويل إلى المسلمين خاصة الحركات الباطنية منهم كالإسماعيلية.

إنّ المتتبع للجذور التاريخية للحركات الباطنية خاصة الشيعية منها يجد أنّها ارتبطت تاريخيا بعناصر من قبائل عربية يمنية حتّى وإن نمت وترعرعت في مناطق بعيدة كالعراق وبلاد المغرب الإسلامي أو حتّى فارس كما أنّ النّجاحات الأولى الّتي حققتها انطلقت من بلاد

---

[1] _ نفسه، ص755 .

[2] _ نفسه،ص 756 .إحسان الظهير، المرجع السابق، ص484.

[3] _ نفسه، ص257.

اليمن، جنوب شبه الجزيرة العربية، وحتّى بعض المناطق في الشام المعروفة بالحضور اليهودي والمسيحي كبلدة "السّلمية" بالشام.

بالعودة إلى التاريخ الديني لليمن الجنوبي، نجد أنّ الوجود اليهودي والمسيحي كان متأصلا في هذه المنطقة، الّتي عرفت وصول التأثير اليهودي منذ عهد مملكة سبأ الثانية (300 ق.م) أمّا المسيحية فقد وصلت تأثيراتها إلى جنوب اليمن منذ القرن الرابع الميلادي، حيث وجه الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أول بعثة دينية تبشيرية إلى المنطقة في حدود 356م بقيادة "ثيوفيلوس إندوس Theophilus Indus" ورغم خلفياتها السياسية إلاّ أنّ الحملة اتّخذت من نشر المسيحية أداة لتوسيع نفوذ الإمبراطورية.[1]

في هذا الصدد يذكر الطبري رواية سيف بن عمر التميمي عن يزيد الفقعسي قال: "كان عبد الله بن سبأ يهودياً، من أهل صنعاء، أمه سوداء فأسلم زمان عثمان ثمّ انتقل في بلدان المساكين يحاول ضلالتهم..."[2] ومن مقولات ابن سبأ المعروفة قوله: "بالرجعة" و"الوصاية"، وهيّ مقولات أخذت بها الحركات الشيعية الباطنية.

كما أنجز الأستاذ فريد ليندر دراسة مهمة تؤكد الدور اليهودي في نشأة الحركات الباطنية في الإسلام بعنوان عبد الله بن سبأ مؤسس الشيعة وأصله يهودي[3].

وللإشارة فإنّ يهودية أهل اليمن كانت سطحية، وامتزجت بالتعاليم المسيحية مثلها مثل يهودية "الفلاشا" بأثيوبيا[4]، وبالتالي جاء التأثير على الحركات الباطنية مزدوجاً يجمع بين المذاهب ذات الأصول اليهودية والمسيحية.

هذه الخلفية الفكرية للحركات الباطنية في الإسلام وفي مقدّمتها حركة التشيع الإسماعيلية هيّ الّتي دفعت علماء السنة إلى اتخاذ مواقف حادة من الحركات الباطنية بصفة عامة، ويظهر

---

[1] _ لطفي، عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، طبعة، دار النهضة العربية، بيروت،1979 ،ص ص 389-391.

[2] _ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث،طبعة، دار الفكر،1979، ص98، الشهرستاني، ج1، 132.

[3] _ بدوي، عبد الرحمن، المرجع السابق، ص761.

[4] _ نفسه، ص773.

جلياً في مواقف الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) من الباطنية في كتابه الشهير "فضائح الباطنية"[1].

وقد أبدى علماء المالكية وحتّى الاباضية نفس المواقف من الحركة الإسماعيلية الفاطمية في بلاد المغرب في القرن الثالث والرابع وحتّى الخامس الهجري، ورموهم بكثير من الاتهامات الّتي تمس معتقدهم[2].

ومن علماء السنة الّذين ألّفوا كتبا لكشف زيف تعاليم الحركات الباطنية الديلمي في كتابه: "بيان مذهب الباطنية وبطلانه". الّذي طبع في باكستان وكتاب:"الافحام لأفئدة الباطنية الطغاة" للعلوي يحيى بن حمزة[3].

ومن بين المقولات الّتي أوردها علماء السنة في حق الحركات الباطنية وفي مقدمتها الإسماعيلية، قول الإمام الغزالي: "أمّ الجملة فهو أنّه مذهب ظاهرة الرفض وباطنه الكفر المحض ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم وعزل العقول عن أن تكون مدركة الحق..."[4].

ويقول، الديلمي، محمد بن الحسن وهو شيعي زيدي (ت720هـ) _أصله بن الديلم، عاش في اليمن_ في كتابه بيان مذهب الباطنية وبطلانه، متحدثاً عن الباطنية: "اعلم أنّ ابتداء وضع مذهب الباطنية... كان سنة خمسين ومائتين من الهجرة، وضعه قوم تطابقوا وكان في قلوبهم بغض للإسلام وبغض النبي عليه السلام، من الفلاسفة والملاحدة والمجوس واليهود، ليسلخوا الناس عن الإسلام..."[5].

---

[1] _ الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية، تحقيق، عبد الرحمن بدوي، طبعة المكتبة العربية، القاهرة، 1964، ص 55.

[2] _ موقف علماء المغرب "مالكية واباضية" من الإسماعيلية الفاطمية.

[3] _ إحسان، الظهير، المرجع السابق، ص ص 481 –482.

[4] _ الغزالي،أبو حامد، فضائح الباطنية، 1964، ص19.

[5] _ الديلمي، محمد بن الحسن(ت711هـ)، بيان مذهب الباطنية وبطلانه، صححه، شتروطمان، طبة، مكتبة المعارف، الرياض، دت، ص3.

ثانيا:- التشيع الزيدي والإسماعيلي في بلاد المغرب الأوسط(ق3-4هـ).

أ - التشيع الزيدي بالمغرب الأوسط(ق2-3هـ).

وصل إلى بلاد المغرب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي زين العابدين بن الحسين بن أبي طالب بعد فشل ثورة العلويين في معركة فخ بضواحي مكة سنة169هـ[1]، واستطاع إيجاد مكانة سياسية للعلويين بين البربر، نزل تلمسان من بلاد المغرب الأوسط[2] ومنها انتقل إلى وليلي سنة172هـ بضواحي طنجة، في ضيافة اسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي أمير قبيلة أورية[3]. بالمغرب الأقصى وفي مدينة وليلي أجمع البربر على نصرة العلويين في إقامة دولتهم[4]، ومنها بدأ إدريس الأول أو الأكبر توسيع نفوذ دولته، حتى وصلت تلمسان بالمغرب الأوسط سنة 173هـ، تلمسان التي بنى مسجدها واختط اسمه على منبره[5].

استطاع إدريس أن يجمع القبائل البربرية بزعامة أورية على مبايعته، فتمكن من تأسيس أول دولة شيعية زيدية معتدلة قريبة من المذاهب السنية، لكنها موافقة للمعتقدات المعتزلية، وتدل هذه الأحداث على التواجد المبكر لعقيدة المعتزلة في بلاد المغرب الإسلامي ومنذ القرن الثاني للهجرة.

استطاع هارون الرشيد الخليفة العباسي الشهير أن يكيد لإدريس الأول ويدسّ له من يقتله مسموما سنة177هـ، فخلفه في الملك ابنه إدريس الثاني وكان صغير السن، أمه جارية بربرية،

---

[1] _ حدثت بضواحي مكة إثر خروج الحسين بن علي ابن الحسن ابن الحسن ابن الحسين ابن علي ابن أبي طالب عن سلطة العباسيين وفيها انهزم العلويون وقتل الحسين بن علي وكثير من أتباعه، للمزيد يراجع الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الخامس، ج10،ص ص24-30. اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج2،طبعة دار صادر، بيروت، د.ت، ص ص404، 405.

[2] _ إسماعيل محمود، الأدارسة، ص48.

[3] _ابن خلدون، العبر، ج7،طبعة، سنة،1986، ص24. Mercier,L'Afrique Septentrionale,T1,op cit,P268

[4]- William Marçais, Articles et Conférences, Edition Librairie D'Amérique et D'Orient, 1961,P 181.

- Eugène Guernier,Les siècles obscures, opcit, P261.

[5] _ ابن خلدون،العبر،ج7، ط ، ص ص24- 25.

مما يدل على أن مرحلة التمازج العرقي كانت قد بدأت هي الأخرى في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي وشملت حتى أشراف العرب.

ويذكر ابن خلدون أنّ إدريس الأول لحق به أخاه سليمان إلى بلاد المغرب:"(أما سليمان)أخو إدريس الأكبر فإنه فرّ إلى المغرب... فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس، وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة... ولحق بتلمسان فملكها... وورث ملكه ابنه محمد بن سليمانثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط..."[1]، كما ذكر كذالك أنّ إدريس الثاني ابن إدريس الأكبر عاد إلى تلمسان غازيا فدخلها وأقام فيها ثلاث سنين، وجدد بناء مسجدها[2] سنة 199هـ. وقد ترك لنا ابن خلدون نصّا مهما يشير إلى هذه التحولات السياسية والمذهبية التي حدثت في بلاد المغرب الأقصى والأوسط، وبالذات على حدود التماس بينهما، جاء فيه في معرض حديثه عن غزو إدريس الثاني لتلمسان قوله:"... وأقام بها ثلاث سنين،وانتظمت كلمة البرابرة وزناته ومحوا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشموس الأقصى إلى شلف"[3].

يبدو من خلال قول بن خلدون أنّ الأدارسة أرادوا في المرحلة الثانية من دخول تلمسان تثبيت وجودهم فيها ومن دلائل ذلك بقاء إدريس الثاني فيها هذه المدة الطويلة.

وسّع الأدارسة العلويون نفوذهم ببلاد المغرب الأوسط على حساب الأغالبة حتى نهر شلف[4]، وقد لحق بهم العديد من أبناء عمومتهم العلويين، وأبرزهم أبناء سليمان بن عبد الله أخو إدريس الأول الذين قال عنهم بن خلدون في معرض حديثه عن تقسيم إمارة الأدارسة بين أبناء إدريس الثاني وفي عهد ابنه محمد بعد سنة 213هـ: "وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله"[5].

الله"[5].

[1] – نفسه،ج4،ط،2010،ص23.

[2] _ نفسه،ص،27.

[3] _ العبر، ج4، ص18.

[4] _ نهر شلف يمتد بالمغرب الأوسط إلى الغرب من منطقة متيجة ويصب في البحر المالح(المتوسط)وهو نهر فصلي الجريان.

[5] _ ابن خلدون،العبر،ج4،طبعة،سنة2010ص19.

لقد سنّ الأدارسة في المغرب الأقصى بمشورة جدّتهم كنزة أم إدريس الثاني، البربرية، مبدأ تقسيم الملك بين الورثة[1]، هذا المبدأ الذي أدى إلى تفكك دولة الأدارسة وإضعاف دورها السياسي والحضاري[2]، تأثرت إمارة بني سليمان العلوية في المغرب الأوسط بهذا التوجه السلبي لمفهوم الدولة والملك، فانتشر أبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط وأسسوا إمارات علوية ذات طابع إقطاعي قد لا تتعدى حدودها وآفاقها السياسية والحضارية المدنية وضواحيها[3].

لم يكن أبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط هم وحدهم من استفاد من الوضع السائد في بلاد المغرب الأوسط،بل لحق بهم العلويون من فروع مختلفة وشاركوهم في تأسيس الإمارات ببلاد المغرب الأوسط وأبرزهم بنو محمد بن جعفر بن الحسن بن علي بن أبي طالب.[4] كما استفاد العلويون من ضعف سلطة الخلافة العباسية في المغرب الأوسط،وحب أهله لآل البيت وتعاطفهم مع قضية العلويين لدرجة دفعت ابن أبي الضّياف إلى القول:"وأهل افريقية يدينون بحب علي وآله، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم.."[5].

هذا الوضع السياسي والنفسي العاطفي السائد في بلاد المغرب الأوسط سمح للعلويين بتأسيس العديد من الإمارات الإقطاعية في مدن المغرب الأوسط، زارها الجغرافي اليعقوبي وهو شيعي زيدي، جده راشد مولى إدريس الأول ودليله في رحلته إلى بلاد المغرب، في الفترة الممتدة ما بين(263-276هـ) وأعطانا فكرة واضحة عنها[6].

وتنتمي الأسر العلوية التي استقرت ببلاد المغرب الأوسط إلى ثلاث فروع رئيسية وهي:

_ بنو سليمان بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

_ بنو محمد بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

---

1 – Mercier,L'Afrique Septentrionale,T2,op.cit,P276.

2_ السلاوي، الناصري، الإستقصا لدول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، ج1، طبعة، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1955، ص172.البكري، المصدر السابق، ص ص123 - 124 .

_ بوخالفة، نور الهدى، المرجع السابق، ص444.

3 – بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية، ص73.

4 – نفسه، ص67.

5 – ضمن أطروحة بن معمر محمد، المرجع السابق، ص66.

6 – Marçais G : la berbérie Au IX siecle d'après El-Yaquoubi ,Extrait de la Revue, Afrécaine (R-A) n 386-387,1 et 2 trimestre,T86, Alger,1941,P42

ـ بنو الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1].

وسنتعرف على هذه الإمارات مسترشدين بما أورده الجغرافي اليعقوبي(ت284هـ) في كتاب البلدان والذي بدأ رحلته من الشرق نحو الغرب، أي من افريقية الأغلبية باتجاه فاس الإدريسية مرورا ببلاد المغرب الأوسط،التي يذكرها باسم بلاد المغرب فقط، كما كان سائدا في عهده. وأولى المدن في المغرب الأوسط(المغرب) التي ذكرها مدينة أربة التي قال عنها: "ومدينة أربة وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب"[2] وأهلها من بني برزال ينتسبون إلى زناتة وهم على مذهب الخوارج.

أما الإمارات العلوية في المغرب الأوسط فهي:

ـ **إمارة الحسينيين العلوية**:وتقع إلى الغرب من مدينة أربة،قال عنها اليعقوبي:"ومن هذا الموضع البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب"[3] وأهم مدينة في هذه الإمارة يقال لها هاز[4]، ضمت هذه الإمارة قبائل بربرية من زناتة وصنهاجة وزواوة وعرفت وجود مدن عامرة ازدهرت فيها الزراعة وتربية الماشية[5].

ويذكر البكري(ت487هـ) وهو شيعي مدينة علوية أخرى إلى الشمال من هاز أسسها ابن الحسن بن سليمان وهو حمزة والتي عرفت باسمه "سوق حمزة" (البويرة حاليا) وهو الذي خلف والده في ملك هاز[6].

– **إمارة الحسينيين من بني محمد بن جعفر:**

هذه الإمارة نشأت في سهل متيجة بالقرب من المنطقة الساحلية الشمالية للمغرب الأوسط، ملكها بنو محمد بن جعفر بن الحسن بن أبي طالب، يقول عنها اليعقوبي: "ثمّ يصير إلى بلد

---

[1] – بن معمر محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية ،ص67.

[2] – اليعقوبي، البلدان، ص108.

[3] – نفسه، نفس الصفحة.

[4] – تقع بحوالي 40 كلم غرب المسيلة، يذكر ابن حوقل بأنها كانت مدينة قديمة عظيمة خربت في وقته، ص85.

[5] – الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص645.

[6] – ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة دار المعارف، مصر 1962، ص55. البكري، المصدر السابق، ص ص64-65.

يقال له متيجة تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يقال لهم بنو محمد بن جعفر..."[1] ثم يصفه بأنه بلد زرع وعمارة.

- **الإمارات العلوية السليمانية:** تنسب هذه الإمارات إلى بنو سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب،وسليمان بن عبد الله هو أخو إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى[2]، وقد تمكن العلويون من الفرع السليماني من تأسيس عدة إمارات في شمال وغرب المغرب الأوسط في القرن الثالث للهجرة وخاصة في نصفه الثاني[3] ومن بين هذه الإمارات "مَدْكَرة" وهي التي عرفت بمليانة[4]، وعنها يقول اليعقوبي: "ثم مدينة مَدْكَرة، فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية، وعددهم كثير حتى أنّ البلد يعرف بهم وينسب إليهم..."[5].

من أهم المدن التي حكمها هذا الفرع العلوي مدينة سوق إبراهيم والتي تقع على الساحل في مصب وادي سلي وواد شلف[6]، كما ملك العلويون في المغرب الأوسط مدينة الخضراء(عين الدفلى الحالية) وإلى الغرب منها وجدت قاعدة ملك السليمانيين، تلمسان التي يقول عنها اليعقوبي: "... ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان..."[7].

تلمسان التي كان يحكمها في عهد اليعقوبي(ت284) محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان، وحولها وجدت مدن وإمارات علوية كثيرة امتد نفوذها حتى المنطقة الساحلية وتخوم المغرب الأقصى حيث يبدأ نفوذ أبناء عمومتهم الأدارسة[8].

---

[1] – البلدان، ص109، حول سلسلة النسب لهذه الأسرة، يراجع, بن حزم، المصدر السابق، ص ص 44-45.

[2] – نفسه، ص ص48 -49.

[3] – الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص645.

[4] – Marrçais, G : la berbérie Au IX siecle, p58.

[5] – اليعقوبي، البلدان، ص،109.

[6] – الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص646.

[7] – نفسه،ص 112.

[8] – المزيد، يراجع بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية ، ص76.

في المغرب الأوسط والأقصى وجد العلويون ملجأهم من اضطهاد سلطة الخلافة، وتمكنوا من بناء دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، لكن طموحاتهم لم تتعدى إمارات المدن في المغرب الأوسط، مما جعل تاريخهم السياسي بالمغرب الأوسط يبدو باهتا[1].

لكن هذا لا ينفي أنهم ساهموا في إذكاء روح محبة آل البيت من العلويين ونشر التشيع الزيدي القريب من المفاهيم السنّية حول الإمامة، كما مهدوا للتشيع الإسماعيلي الفاطمي.

ب ـ التشيع الإسماعيلي في بلاد المغرب الأوسط (ق3 ـ 5هـ).

إن المتتبع لتاريخ التشيع الإسماعيلي في بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة في فترة الدراسة، يستطيع تمييز ثلاث مراحل أساسية وهي مرحلة الدعوة وتبدأ من منتصف القرن الثاني الهجري حتى قيام الدولة الفاطمية ومرحلة الدور المغاربي للدولة الفاطمية من قيامها حتى رحيلها إلى مصر(296-361هـ)، ثم مرحلة ما بعد رحيل الدولة الفاطمية حتى تحول بني زيري إلى المذهب المالكي(361-440هـ).

1 _ مرحلة الدعوة

برز دور الدعاة عند الإسماعيلية في مرحلة الستر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري،واستمر بفاعلية حتى أواخر القرن الثالث، كما عُرف الدعاة بالعلم والمعرفة الواسعة بالدين والسياسة والعقائد والفلسفات القديمة، مما سمح لهم بتنظيم الدعوة وتطوير أساليبها ووسائلها،ومن أبرز الأساليب الّتي لجأ إليها الإسماعيلية تكوين الدعاة وبعثهم إلى المناطق النائية من الدولة الإسلامية خاصة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، بقيادة الدعية "عبد الله بن ميمون القدّاح" والذي كان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز [2].

ومن بين المناطق الّتي لقي فيها التشيع الإسماعيلي نجاحاً معتبراً بلاد اليمن، على يد الداعية "ابن حوشب" الملقب بمنصور اليمن(ت302هـ/914م) الّذي تمكن من تأسيس أول دولة شيعية إسماعيلية في التّاريخ الإسلامي باليمن في حدود سنة270هـ/883م.

---

[1] –الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص،647.

[2] _ عبد الرّحمن، بدوي، المرجع السابق، ص841 .

ويعتقد أنّ الإمام الّذي كان يدعو له ابن حوشب هو"محمد بن الحبيب" الّذي كان يقيم في بلدة "سلمية" بالشام[1]، من اليمن بعث بن حوشب بالدعاة إلى سائر البلدان كاليمامة، البحرين، السند والهند وكذا مصر وبلاد المغرب[2].

لكن دعاة التشيع الأوائل إلى بلاد المغرب الإسلامي، كانوا قد وصلوا منذ القرن الثاني للهجرة بوصول الحلواني وهوّ عبد الله بن علي، وكذا الحسن بن القاسم الملقب بأبي سفيان، حسب ما ذكره القاضي النعمان وهو أقرب المصادر المتوفرة لدينا لهذه الفترة التاريخية المتقدمة[3]، حيث قال:"قدم إلى بلاد المغرب في سنة خمسة وأربعين ومائة رجلان من المشرق قيل إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد(صلوات الله عليه) بعثهما وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة... وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود بلاد البربر..."[4].

استقر في بلاد المغرب الأوسط وهو أبو سفيان بضواحي مرماجنة في مكان يقال له "تالة"، حيث بنى مسجدا اتّخذه لنشر أفكاره الّتي تدور حول حب آل البيت وذكر فضائلهم، فجذب بعلمه وورعه إلى التشيع سكان مرماجنّة وكذا الأربس وحتّى التجار الذّين كانوا يفيدون على هذه المنطقة.

أمّا الثاني فهو الحلواني الذي تقدّم غرباً حتّى بلاد المغرب الأوسط ونزل موضعاً يقال له "النّاظور" في ناحية "سُوجمَار"على حدود بلاد كتامة في المغرب الأوسط، سار الحلواني على نفس النهج الّذي عرف به أبو سفيان، فتزوّج من امرأة بربرية لتوثيق الصلة بسكان المنطقة ويتعلم لغتهم ويدرك خلفيات حياتهم الاجتماعية، كما بنى مسجداً اتّخذه منبراً لدعوته الّتي ظاهرها العبادة وغرس حب آل البيت وذكر فضائلهم، لكن باطنها غرس التشيع في بلاد المغرب.

فكانت النتيجة أن تشيع كثير من أهل المنطقة من قبيلة كتامة ونفزة وسُماتة، ويؤكد ذالك قول إبن خلدون حيث ذكر أن أبي عبد الله الشيعي لما نزل بالمغرب وجد في كتامة من الباطنية

---

1 _ سلمية:مدينة تجارية صغيرة في الشام تقع بين حما وحمص(مقر خفي).

2 _ القاضي، النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص ص27-28.

3 _ نفسه، نفس الصفحات.

4 _ القاضي، النعمان، المصدر السابق، ص ص26_28.

خلقاً كثيرا[1]، أما القاضي النعمان فيذكر أنّ الحلواني كان يقول لأتباعه في بلاد المغرب: "بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا: اذهبا إلى المغرب، فإنّكما تأتيان أرضاً بوراً، فاحرثاها، وكرّباها وذلّلاها إلى أن يأتي صاحب البذر..."[2].

في القرن الثالث الهجري وبعد انسحاب الشيعة الإثنا عشرية من مواجهة العباسيين، وركونهم إلى القعود والاستتار وإعلان اختفاء إمامهم الثاني عشر _كما سبق الذكر_ محمد بن الحسن العسكري سنة260هـ، نشط الشيعة الإسماعيلية بقوّة في اليمن، وتمكّن الداعية بن حوشب الملقب بمنصور اليمن من إقامة أوّل دولة شيعية إسماعيلية في اليمن سنة270هـ.

من اليمن وبتوجيه من ابن حوشب جاء إلى بلاد المغرب "الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الملقب بأبي عبد الله الشيعي"(ت 298هـ) ويعود أصله إلى الكوفة، أمّا صفاته فيعدّدها القاضي النّعمان بقوله: "كان ذا علم، وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة وكان أكثر علمه الباطن ونظر في علم الظّاهر"[3].كان أبو عبد الله الشيعي من المقربين من أبي القاسم بن حوشب ورفيقا له في عدّة معارك في اليمن.

رحل من اليمن أبو عبد الله داعية الشيعة الإسماعيلية إلى بلاد المغرب ومعه أحد أصحابه وربّما خليفته في حالة حدوث أي طارئ، وهوّ عبد الله بن أبي المُلاحف،والّذي صحبه حتى بلاد كُتامة، ثمّ عاد إلى اليمن[4].

استغلّ أبو عبد الشيعي موسم الحج للتقرب من حجاج كتامة من بلاد المغرب الأوسط وصحبهم في رحلة عودتهم إلى بلادهم مستخدما عدّة أساليب للتأثير عليهم لدرجة جعلتهم يصّرون على مرافقته إياهم وهوّ يتمنع، ويتنافسون على استضافته والاستزادة من علمه الغزير بينهم[5].

أثناء الرّحلة إلى بلاد المغرب كان أبو عبد الله يسأل الحجاج من كتامة عن بلادهم وأحوالها،

---

[1] – العبر، ج4، ط2010، ص40.

[2] _ القاضي، النّعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص29.

[3] _ نفسه، ص30.

[4] _ محمد طالبي، الدولة الأغلبية، ص663، بعد عودة"أبي الملاحق"إلى اليمن لحق بأبي عبد الله "إبراهيم بن أبي اسحق الزبيدي" أرسله داعي اليمن، لكن لم يكن له دور.

[5] _ الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص664.

حتّى يكون على بصيرة من المكان الّذي يقصده والظروف الّتي سيواجهها، ومن بين ما سألهم عنه علاقتهم بسلطة الأغالبة وحجم نفوذهم في بلادهم.

وقد ذكر صاحب كتاب" افتتاح الدعوة "جانبا من هذا الحوار الّذي يسأل فيه أبي عبد الله حجاج كتامة: "كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم؟، فقالوا ما له علينا من طاعة ولا حكم". ثمّ يسألهم عن المدن القريبة من بلادهم فذكروا ميلة، سطيف وبلزمة وكلّها مدن في المغرب الأوسط كانت تحت نفوذ الأغالبة السياسي في هذه الفترة، كما سبقت الإشارة في المدخل[1]، كما سألهم عن بلادهم من حيث المسافة طولا وعرضا وعن فروع قبيلتهم كتامة وإمكانياتها المادية والعسكرية إلى جانب حميتهم القبلية ومدى.

التقى ببلاد المغرب الأوسط بأرض سماتة في سوجمار أبو عبد الله برجال من الشيعة يذكرهم النعمان وهم حريث، موسى،أبو المفتش وأبو القاسم الورفجومي وأبو عبد الله الأندلسي[2].

لما وصل أبو عبد الله الشيعي إلى بلد كتامة سنة 280هـ وبرفقته أبو عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الفرجومي وحجاج كتامة،قرّر النّزول عند "بني سكتان" في مكان يسمى "فج الأخيار "بايكجان" وهوّ موضع موسى بن مكارمة وحريث الجميلي من بني سكتان[3].

نزل أبو عبد الله بأرض كتامة من بلاد المغرب الأوسط، وتفرق الحجاج كل إلى حيّه وأهله، فتسامع الناس بأمره وما يحمله من علم، فبدأت الوفود من القبائل تأتيه من كل ناحية، فيجلس إليهم ويحدثهم عن فضائل علي وآله ويغرس في نفوسهم حب آل البيت، فإن أيّقن من ثباتهم أفصح لهم عن أمره وأخذ عنهم العهد على الالتزام وكتمان السر.

فأتاه هارون بن يونس بن موسى المسالتي وكان يلقب بشيخ المشايخ، ثمّ الحسن بن هارون وهو من أكابر كتامة، ثمّ أتاه أبو يوسف ماكنون بن ضبارة، وابن أخيه تمام بن معارك أبو زاكي وغيرهم كثير من سادات البربر[4].

يذكر ابن خلدون في هذا الصدد قوله: "واجتمع إليه الكثير من أهل كتامة ولقي علماءهم واشتمل عليه الكثير من أهوائهم فجاهر بمذهبه، وأعلن بإمامة أهل البيت"[1].

---

[1] _ النعمان، إفتتاح الدعوة ،ص36.

[2] –نفسه، ص48 .

[3] _نفسه، ص47، محمد الطالبي، المرجع السابق، ص664.

[4] _افتتاح الدعوة، 49_50 .المقريزي، اتّعاظ الحنفا، ج1،ص ص 55–59.

اشتهر أمر أبي عبد الله عند كتامة وعرف "بالمشرقي" وكان الذين ارتبطوا بدعوته يتنادون بينهم "بالإخوان" ويكتمون أمر دعوتهم حتى على أقرب النّاس إليهم، كما عرّفوا بالإقبال على الصلاة، والصّيام، وأعمال البر والإحسان، وتجنب المعاصي[2]، فأصبحت سلوكياتهم أهم وسائل نشر دعوتهم، كما أن جماعة من بني سكتان أقامت لأبي عبد الله مجلساً يدعوا فيه النّاس وتكفلوا بأمر الإنفاق على الضيوف، شاع أمر الدعوة وانتشر في الشمال الشرقي من بلاد المغرب الأوسط ووصل الخبر إلى والي الأغالبة بميلة "موسى بن العباس" بل أكثر من ذلك فقد وصلت أصداء الدعوة حتّى افريقية مركز الدولة.

فكان رد إبراهيم بن الأغلب أن بعث إلى أبي عبد الله برسول خاص وهوّ "ابن المعتصم"، ردّ أبو عبد الله على رسالة إبراهيم بن الأغلب بقوّة وحزم وإصرار دلّا على أنّه كان يستشعر القوّة في نفسه وأنصاره، وذهب أبعد من ذلك فقد أفصح في رده عن دعوته علناً بقوله يدعو الأمير الأغلبي عن طريق رسوله إليه فقال: "إنّي أدعوه إلى الله(يقصد إبراهيم بن الأغلب) وإلى كتابه، وإلى الإمام المهدي من ذرّية رسوله، دعوة محتجٍّ عليه، وأرغب فيما ينجيه..."[3].

يعتبر هذا الموقف الصريح والقوي في مواجهة الأغالبة نهاية لمرحلة الدعوة السرية وبداية لمرحلة جديدة بشكل علني وبهدف إقامة الدولة الشيعية الإسماعيلية في بلاد المغرب منذ 291هـ.من "ايكجان" بأرض كتامة من بلاد المغرب الأوسط بدأت الدعوة الشيعية، الفاطمية الإسماعيلية الّتي استطاعت بناء الدولة وقلب الموازين السياسية والفكرية في بلاد المغرب الإسلامي في القرن الثالث والرابع الهجريين، وربّما استمرّت تأثيراتها الفكرية في بلاد المغرب حتّى عهد الموحدين بزعامة "المهدي بن تومرت" في القرن السادس الهجري.

2 ـ مرحلة الدور المغربي للدولة الفاطمية (296-361هـ).

ظهرت الدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية بالشمال الشرقي لبلاد المغرب الأوسط ومنذ280هـ وعلى حدود التّماس بين إفريقية الأغلبية والإمارات العلوية، وثبّتت وجودها ببلاد المغرب الأوسط وتعتبر هذه المنطقة "سطيف وضواحيها وكتامة" امتدادا لإقليم الزاب، الخاضع

---

[1] – العبر، ج4 ، ص،42.

[2] _ النعمان، افتتاح الدعوة، ص ص52 – 53.

[3] _ نفسه، ص58.

آنذاك لسلطة الأغالبة وفيه بدأت المواجهات الأولى ضدّ ولاة الدولة الأغلبية منهم موسى بن العباس في ميلة وعلي بن عسلوجة في سطيف وحيّ بن تميم في بلزمة[1].

2 _ 1: المواجهة العسكرية ضد الأغالبة:

بدأت المواجهات العسكرية الأولى سنة 291هـ، حيث استولى الداعي أبو عبد الله الشيعي على ميلة والتي كان أغلب سكانها من عرب ربيعة ثمّ سطيف ثمّ توجه نحو مدينة بلزمة وطبنة[2].

بعد صراع دامي بين القوات الأغلبية والقوات الشيعية النامية، ومن إقليم الزاب اندفعت قوات الداعي الشيعي نحو وسط افريقية الأغلبية، خاصة بعد أن ثبتت وجودها في المغرب الأوسط في الفترة ما بين(291- 296هـ) مما أدّى إلى سقوط الدولة الأغلبية وظهور الدولة الشيعية الفاطمية، وسّعت هذه الأخيرة نفوذها من جديد في وسط وغرب المغرب الأوسط، ثم في المغرب الأقصى خاصة بعد خروج الداعي الشيعي من افريقية متجها إلى إمارة بني مدرار الصفرية بسجلماسة لتحرير الإمام المهدي الّذي كان يدعو إليه والذي كان أسيرا عند بني مدرار ألا وهو"عبد الله المهدي"، ويذكر المقريزي في هذا الشأن قوله: "قام المغرب لخروجه، وخافته زناته وزالت القبائل عن طريقه"[3]، ويدل هذا القول عن القوة والهيبة التي اكتسبتها القوات الشيعية في هذه المرحلة.

في طريقه إلى سجلماسة مرّ أبو عبد الله الشيعي بتاهرت الرستمية فدانت له دون مقاومة تذكر مما يدل على تفكك وضعف الدولة الرستمية في أواخر القرن الثالث الهجري، وتذكر المصادر أنّ" أبا عبد الله الشيعي وصل إلى تاهرت فدخلها بالأمان وقتل من بها من الرستمية"[4] ويذكر أبوزكريا أنّ رؤساء الطوائف من غير الإباضية خرجوا إلي الشيعي ووعدوه بالعون على فتح تاهرت وهونوا له من شأن بني رستم[5].

ولمّا دخل الشيعي تاهرت قضى على الرستميين وعلى رأسهم الإمام اليقظان بن أبي اليقظان وبنيه[6]،ولم يسلم منهم إلّا من فرّ إلى الصحراء نحو ورجلان وعلى رأسهم يعقوب بن أفلح وكثير

---

1 – ابن خلدون، العبر، ج4، ص45.

2 _ النعمان، افتتاح الدعوة، ص ص 165-170.

3 _ اتعاظ الحنفاء، ج1، ص65.

4 _ البكري، ص 68، ابن عذارى، ج1،ص ص209- 210.

5 _ محمود، اسماعيل، الخوارج، ص 232.

6 _ أبو زكري، المصدر السابق، ص169-170.

من أهله وأتباعه، هذه الهجرة التي سيكون لها دور فعّال في نهضة ورجلان وبناء سدراتة في المستقبل في ضيافة شيخ ورجلان أبو صالح جنون بن يمريان.

2 _ 2: المقاومة الزناتية بقيادة محمد بن خزر المغراوي اليفريني(297- 331هـ).

رغم سقوط تاهرت الرستمية بسهولة أمام الزحف الفاطمي الشيعي الإسماعيلي إلّا أنّ روح المقاومة التّي قادتها زناته في بلاد المغرب الأوسط والأقصى لم تهدأ حتّى رحيل الفاطميين عن بلاد المغرب سنة361هـ، بل أنها استمرت حتى عهد خلفائهم الزيريين.

وقد قادت قبيلة مغراوة الزناتية بزعامة بني خزر[1]مقاومة الوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط، الذي يعتقد أنّ قلب بلاد مغراوة يجب البحث عنه في سهل شلف، غير أنّهم كانوا ينتشرون في الهضاب العليا للصحراء"[2].

يعتبر المغرب الأوسط موطن زناته، وكانت السيادة لمغراوة فيه، خاصة في بني خرز، الذّين استقروا في تلمسان وحول تيهرت وحتّى منطقة الزاب وجبل راشد المعروفة حاليا بالهضاب العليا.

جرى الصراع بين زناته والفاطميين عنيفا، وكانت ساحته الرئيسية هي المغرب الأوسط خاصة المنطقة الممتدة مابين طبنة والمحمدية(المسيلة)، من جهة الشرق، وتلمسان غربا مرورا بتاهرت وما حولها، تاهرت التي كانت محورا لهذا الصراع[3].

ترك هذا الصراع الدامي بين الطرفين أثرا سلبيا بليغا مسّ جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المغرب الأوسط، وقضى بشكل شبه كلي على الميراث الحضاري الرستمي في المنطقة.

بدا العداء واضحا منذ ظهور الدعوة الفاطمية ومحاولة أبي عبد الله الشيعي العبور إلى سجلماسة لتخليص"عبيد الله المهدي" من الأسر وعبوره أرض زناتة التي أجفلت من طريقه خاصة إثر مقتل رسل أبي عبد الله الشيعي الأربعة عشر من طرف عناصر زناتية كانت تخضع لأمير مغراوة محمد بن خزر[4].

---

1 _ بنو خرز، أحد فروع مغراوة والّذين كانت لهم السيادة فيها.

2 – Gautier, Le passé de l’Afrique du Nord, les siècles obscures, op cit, P383

3 –Mercier,L’Afrique Septentrionale,T2,op.cit,P338.

4 _ النعمان، افتتاح الدعوة، ص 222.

وقد أثر سقوط تاهرت بيد الفاطميين علي زناته بشكل سلبي لأنها تقع داخل مضاربهم،كما تعد محور حركتهم الاقتصادية خاصة التجارية منها، بين الشرق والغرب وحتى الشمال والجنوب[1].

وما إن غادر أبو عبد الله الشيعي تيهرت سنة 296هـ نحو سجلماسة حتى تحالف محمد بن خزر مع جماعة من أهل تاهرت يعرفون ببني دبوس للاستيلاء على الحامية الكتامية بقيادة دواس بن صولات اللهيصي[2].

رغم فشل هذه المحاولة من طرف محمد بن خزر إلّا أنّه كان يأمل باستمرار في السيطرة على تيهرت باعتبارها عاصمة الخوارج الإباضية وقاعدة اقتصادية هامة في المنطقة .

ويبدو أنّ أول مواجهة بين ابن خزر والفاطميين كانت سنة (296هـ/909م) وفي السنة الموالية غزا الفاطميون بقيادة الشيعي مضارب زناته بالمغرب الأوسط وقتل منهم خلق كبير واستبشر الفاطميون بالنصر،لكن الصراع استمر وانتهز محمد بن خزر فرصة انشغال المهدي بإخماد حركة أبو عبد الله الشيعي المضادة وحاصر تاهرت،بيدا أنّ قواته هزمت سنة 299هـ وفقدت الكثير من الرجال[3].

أوكلت مهمة حماية قاعدة تاهرت إلى "مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي" الّذي أحكم سيطرته عليها حتى غدت قاعدة عسكرية هامة لمواجهة خطر زناته في الغرب والزحف منها سنة 304هـ/918م نحو تلمسان والمغرب الأقصى، برز في هذه الحرب محمد بن خزر المغراوي كأمير حرب زناتي رافض لهيمنة الفاطميين الشيعة على المغرب الأوسط لأسباب مذهبية وسياسية وحتى عرقية قبلية، فأما البعد المذهبي فيتمثل في رفض التشيع الإسماعيلي، لأن بنو يفرن كانوا على مذهب السنة[4].

أما من الناحية السياسية والعرقية، فإن زناتة بزعامة محمد بن خزر المغراوي اليفريني قد تبنت مبدأ مقاومة المد الشيعي الإسماعيلي المتحالف مع قبائل كتامة وصنهاجة المزاحمة لها في المغرب الأوسط.

---

1 – Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures,op. cit, pp,317320.

2 _ بن معمر، محمد، المقال السابق، ص ص 114_115.

3 _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص ص160_166 .

4 – أبن خلدون، العبر، ج7، ص18.

أدى الصراع العسكري إلى مقتل قائد الحامية العسكرية الفاطمية في تاهرت مصالة بن حبوس على يد قوات محمد بن خزر المغراوي حوالي سنة 312هـ/924_925م[1]، فخلفه أخاه يصل بن حبوس واستمر إشرافه علي تاهرت لمدة 13 سنة.

استمر الصراع بين الفاطميين ومحمد بن خزر، الزناتي على شكل معارك كر وفر كان يلجأ فيها محمد بن خزر إلى الصحراء كلّما ضعفت قوته حتّى سنة 315هـ، كما وطدّ علاقاته بالخليفة الناصر الأموي(تحالف) لصد الخطر الفاطمي الزاحف، فأصبحت زناته تستمد قوّتها من الأمويين بالأندلس[2].

وقد جرّ هذا الصراع قوات عبد الرّحمن الناصر الأموي إلى بلاد المغرب الأوسط مستغلة النجاح الذّي حققه محمد بن خزر على ولاة تاهرت[3].

زاد هذا التدخل الأموي من قوة محمد بن خزر، الذي ساندته القبائل الزناتية من هوارة ولماية ومطغرة وبني برزال ومكلاته، وامتدّ نفوذ بني خزر إلى إقليم الزاب ومناطق مختلفة من المغرب الأوسط، استمر هذا الصراع حتى قيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (331_ 336هـ)[4].

كرد فعل، وجه المهدي حملة كبيرة ضد زناتة في المغرب الأوسط سنة315هـ/927م على رأسها ابنه وولي عهده محمد الملقب بأبي القاسم استطاعت أن تستعيد منطقة الزاب، الّتي أسس بها ولي العهد قاعدة عسكرية لحماية النفوذ الفاطمي في منطقة الزاب، سماها المحمدية نسبة إليه وهي التي ستعرف بعد ذلك بالمسيلة سنة 315هـ، التي سيكون لها دور حضاري هام في المستقبل في بلاد المغرب الأوسط، وقد أوكل أبو القاسم محمد القائم مهمة تعمير المسيلة إلى أحد قادته البارزين علي بن حمدون المعروف بإبن الأندلسي[5].

ولما أنهى علي بن حمدون أشغاله سنة 317هـ/931م، أوكل إليه الفاطميون ولايتها، كما انتقل إليها مركز الثقل من طبنة عاصمة الزاب، وتحولت المسيلة في مدة وجيزة إلى مدينة تعج

---

[1] _ ابن خلدون، ج4، ص 39 .بن عذارى، ج1، ص191.

[2] _ طقوش،محمد سهيل،تاريخ المسلمين في الأندلس،ط،دار النفائس،بيروت،2005،ص318 ومايايها.

[3] _ ابن حيان بن خلف بن حسين،المقتبس في أخبار بلد الأندلس،تحقيق،عبد الرحمن الحجي، بيروت، 1956،ص ص 327،326.

[4] – Mercier,L'Afrique Septentrionale,T2,op.cit,pp,338– 340.

[5] – Mercier,L'Afrique Septentrionale,T2,op.cit,P329.

بالسكان والتجار وأصحاب الحرف، فقصدها العلماء والشعراء والأدباء من مختلف بلاد المغرب، وازدهرت الحياة السياسية فيها في ظل ولاية بني حمدون[1]

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (331_ 336هـ) .

كان أبا يزيد من قسطيلية ببلاد الجريد، أمه سودانية وأبوه من زناته[2]، نشأ في مدينة توزر ثم ارتحل إلى سجلماسة ودرس على بن الجميع شيخ الاباضية لمدة سنتين، ثم انتقل إلى تاهرت حيث أفتى في الفقه الإباضي الوهبي، ثمّ عاد إلى توزر وتحول إلى مذهب النّكار وتبحر في أصول مذهبهم[3].بعد سقوط الدولة الرستمية استقر أبو يزيد في تيقوس وعكف على تحفيظ القرآن للصبية وتعليم مبادئ المذهب النكاري، ويرى المقريزي أنّ أبا يزيد قد بدأ الإعداد للثورة منذ سنة 303هـ، (915م) ولم يجهر بدعوته إلّا سنة316هـ/921م حيث كثر أتباعه وأظهر مذهبه وبدأ:"يحتسب على الناس في أفعالهم ومذهبهم" وأنكر على الفاطميين سياستهم الدينية والمالية[4].

بعث المهدي في طلب أبا يزيد لكنّه هرب إلى الشرق، ولم يعد إلاّ بعد وفاة المهدي سنة 322هـ 934م، بيدا أنه عاد عازما على الثورة فساندته الإباضية وأعلن الثورة من توزر[5]، فتعرض للأسر، لكن شيوخ النكارية خلّصوه منه، فهرب إلى ورجلان وبعث إلى الاباضية في جبال الأوراس يطلب، التأييد فأجابوه، فغادر إلى الأوراس وانظم إليه بنو برزال وموطنهم جنوب

---

[1] _مرمول،محمد الصالح،نشأة مدينة المسيلة وتطورها، **مجلة سرتا**، العدد،4 ، السنة1980، قسنطينة، ص ص28-31.

[2] _ ابن حماد، أبي عبد الله محمد بن علي، تحقيق، التهامي النقرة، عويس عبد الحليم، ط، دار الصحوة، القاهرة، د ت ط، ص ص53-56.

[3] _ ابن خلدون، العبر،ج4، ص41.

[4] _ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،ج1، ط،القاهرة،1996، ص ص75-80.

[5] _ ابن حماد،المصدر السابق، ص20. ابن خلدون،العبر، ج7، ص13. محمود اسماعيل،المرجع السابق، ص242.

المسيلة وكذا بنو زندك من مغراوة إلى جانب دعم لواتة وبنو كملان[1]، وحتى إباضية أريغ و ورجلان.

أجمعت الإباضية وهيبة ونكار على بيعته سنة331هـ/944م لمحاربة الشيعة، كما آزرهم أهل السنّة بعد ذالك، ويذكر أن محمد بن خزر المغراوي كان حليفا لأبي يزيد.

يتصور جوتيه أنّ حركة أبي يزيد ما هي إلّا حلقة من حلقات الصراع التقليدي بين البتر والبرانس[2]، لكن المؤكد أنّ البعد الحقيقي هو البعد المذهبي(الصراع بين الخارجية والشيعية) كان أبا يزيد وهبيا لكنّه تحوّل إلى النّكار الموجودين بجبل أوراس وبلاد الجريد[3].

ومما يؤكد البعد المذهبي لهذا الصراع هذا قول بن حوقل وهو من المتشيعين: "خرج أبو يزيد في أضراب الكفر والنفاق والاباضة والنكارية المراق"[4].

لم يفصح أبا يزيد عن ميوله المذهبية في البداية لتعبئة جميع الطوائف ضد الشيعة الفاطميين، لكن رغم ذلك لم يكن يخفى مذهبه عن الوهبية والسّنة الذين آزروه بهدف الإطاحة بالحكم الفاطمي، حيث اشترط عليه الوهبية عند سقوط القيروان أن يكون الأمر شورى بينهم[5].

وأفتى فقهاء السّنة أنّ قتال الفاطميين الشيعة أفضل من جهاد أهل الشرك، لكن أبا يزيد كان يكن العداء للجميع،[6]وقد أظهر حقيقته لما أحسّ بقرب الانتصار على الفاطميين.

والمتتبع لأحداث هذه الثورة يدرك أن هناك ثلاث عناصر أساسية تحكمت في التطور التاريخي في بلاد المغرب عامة وبشكل تفاعلي، ألا وهي النزعة المذهبية والقبلية والتوجه السياسي.

فُكّ الحصار على قوات أبي يزيد بعد هزيمة القائم الفاطمي في الأوراس سنة331هـ/ 944م وبدأت الثورة زحفها على مدن افريقية، في هذه المرحلة انضمت إلى أبو يزيد عدة قبائل فاستولى على باغية جنوبي الأوراس ثم توّجه إلى قسطيلية[7].

---

[1] _ ابن خلدون،العبر ،ج7، ص13.

[2] _Gautier, le Passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, op cit, p383.

[3] _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص166.

[4] _ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، طبعة مكتبة الحياة، بيروت، 1992 ،ص74.

[5] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ص13.

[6] _ محمود، اسماعيل، الخوارج، ص239.

[7] _ نفسه، ص243-244.

استعان الفاطميون بكتامة لكنّها هزمت واستولى أبو يزيد على رقادة، ثمّ سقطت القيروان في صفر سنة333هـ/946م، وبعث أبا يزيد بأنباء انتصاره إلى عبد الرّحمن النّاصر في قرطبة وانظم إليه المالكية وكوّنوا جيشا تحت لوائه وقد تجاوزوا أحقادهم إلى حين[1].

ساد الهلع في المهدية عاصمة الفاطميين وطلب القائم مساعدة زيري بن مناد الصنهاجي واستنهض الكتاميين[2]، لكن أبا يزيد فشل في اقتحام المهدية ودبّ الشقاق في معسكره وفارقه الاباضية الوهبية والسنة المالكية لما أدركوا تنكره لهم، كما وقفوا على مدى استبداده وفساد عقيدته، لكن اعتماده على أهل الأوراس بقي مستمرا، في حين بدأت القوات الفاطمية تسترجع مواقعها وزادت قسوة المواجهة بين الطرفين.

يذكر ابن خلدون أسباب الانشقاق التي تعود إلى إظهار أبا يزيد لنواياه الحقيقية، وتنكره للمالكية وتخليه عنهم في معركة القيروان، حيث قتل من شيوخهم أربعة آلاف ما بين عابد وعالم وصالح، لكن أبا يزيد هزم بالمهدية وثارت ضدّه معظم مدن افريقية وعادت إلى طاعة القائم[3].

استرد أبا يزيد تونس سنة334هـ/947م لكنه سرعان ما فقدها، كما استعان القائم بدعم عامله بالمسيلة من بلاد الزاب علي بن حمدون مما أدي إلى تراجع مستمر لقوات أبا يزيد وفي توفي نفس السنة القائم وخلفه ابنه إسماعيل الملقب بالمنصور لكن هزائم أبا يزيد استمرت، في أواخر 334هـ/947م، ثم سنة335هـ/948م ولاحقه المنصور حتّى المسيلة[4].

في هذه الأثناء قدم على المنصور محمد بن خزر بعد أن كان قبل ذلك مواليا لأبي يزيد فأكرمه وعهد إلي زيري بن مناد باقتفاء أثر أبا يزيد حتى قضى عليه بعد أنّ تخلت عنه هوارة ولجأ إلى قلعة الشاكر وألقي عليه القبض، وظل سجينا عند المنصور حتى وفاته سنة336هـ(949م)[5].

---

[1] – لقبال، موسى، الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/10م، **مجلة الأصالة**، العدد60-61، السنة 1978، الجزائر، ص57.

[2] _ ابن حماد، ص21، ابن الأثير،ج8، ص139، التجاني، ص324.

[3] _ابن خلدون، العبر، ج4،ص 42.

[4] – Mercier,L'Afrique Septentrionale,T2,op.cit,pp348-350

[5] – لقبال، موسى، الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/10م، ص62.

حاول ابنه "فضل" الثورة من جديد، بيد أنه هزم وتخلت عنه الإباضية والقبائل الزيانية، حاول أيوب بن يزيد الثورة لكنه هزم وقتل على يد رؤساء مغراوة تقرّبا من المنصور[1].

يتحامل المؤرخون اباضية وسنة وشيعة على أبا يزيد وسيرته وسياسته مثل الورجلاني، أبو زكرياء، الدرجيني، وكذا مؤرخي السنة والشيعة[2].

نتائج ثورة أبي يزيد :

أفرزت ثورة أبي يزيد نتائج سياسية ومذهبية فكرية هامة ومؤثرة مست السياسة الفاطمية وأوضاع المغرب الإسلامي المذهبية وحتى الاجتماعية ابرزها أنها:

هزت الثورة كيان الدولة الفاطمية السياسي والعسكري.

أحست الدولة الفاطمية بخطورة انتهاج سياسة مذهبية متعصبة،لذا جنح الفاطميون بعد ذالك إلى عدم فرض تطبيق عقيدة الشيعة وأظهر إسماعيل المنصور تراجعه عن السياسة المذهبية كما يذكر القاضي عبد الجبار[3].

أدت ثورة أبا يزيد إلى تراجع حقيقي للتواجد الإباضي في بلاد المغرب بصفة عامة وانحصاره في بعض المناطق الداخلية والصحراوية النائية، منها منطقة أوراس، جنوب الزاب،أريغ وورجلان بالمغرب الأوسط، وبلاد الجريد وجبل نفوسة بالمغرب الأدنى، مما أضعف دورهم مستقبلا في مقاومة المد الشيعي ببلاد المغرب.

انشقت مكناسة بقيادة حميد ابن يصل أثناء ثورة أبي يزيد عن الخلافة الفاطمية وأعلنت الولاء لأموي الأندلس مما أضعف النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب من جديد، لكن تدخل الفاطميين أدّى مرّة ثانية إلى طرد ابن يصل من الغرب الأوسط فلجأ إلى الأندلس في حين انتهز يعلى بن محمد بن خزر الفرصة واحتلّ تاهرت وسيطر عليها[4].في نفس الفترة تولى المعز لدين الله الخلافة سنة(341-365هـ/م) فوجه حملة عسكرية كبيرة بقيادة جوهر الصقلي لإحكام

---

[1] _ ابن خلدون،،العبر، ج7، ص17.

[2] _ ابن حوقل، المصدر السابق، ص74.ابن حماد، المصدر السابق،ص47.للمزيد يراجع: إحسان، عباس، مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، **مجلة الأصالة**، العدد41، السنة1977، الجزائر، ص 65 ومايليها.

[3] _ محمد إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص253.

[4] – بالهواري، فاطمة، المقال السابق، ص119. Mercier,L'Afrique Septentrionale,T2,op.cit,pp382,386.

سيطرة الفاطميين على تاهرت وسجلماسة[1]، فاستولى على تاهرت وقتل يعلى بن محمد اليفريني وأسرته، وأسر ابنه وهدم المدينة تاهرت عن آخرها[2].

النتائج:

_ أصيب فرع بني يفرن بنكبة عظيمة وزال خطر مغراوة عن تاهرت مؤقتا.

_ منح المعز الأمان لمحمد بن خزر الذي توفي بالقيروان(347هـ/959_960م) وحاول كسب الثوار في منطقة الزاب والأوراس خاصة الاباضية منهم.

_ أصبحت منطقة تاهرت تابعة لزيري بن مناد الصنهاجي.

- آلت الزعامة في بني خزر بعد ذالك إلى الخير بن محمد بن خزر،الّذي تكفل زعيم صنهاجة زيري بن مناد بملاحقته ولما ضيق عليه قتل نفسه وحلّت النكبة ببني خزر فرع مغراوة وتراجع دورهم في الأحداث[3].

3 _ مرحلة ما بعد رحيل الدولة الفاطمية حتى قيام الدولة الحمادية:(361. 405هـ/م).

بعد رحيل الفاطمين إلى المشرق(مصر) سنة361هـ، أوكل أمر المغرب من طرف المعز إلى بني زيري الصنهاجيين وعلى رأسهم بلكين بن زيري بن مناد بن بلكين، في نفس الوقت استعادت القبائل الزناتية بقيادة مغراوة نشاطها السياسي والعسكري وهذه المرّة انطلاقا من المغرب الأقصى، بعد أن أدّت الحروب السابقة إلى تهجيرها من بلاد المغرب الأوسط.

وانتقلت قيادة المقاومة الزناتية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى زيري بن عطية بن عبد الله (368_391هـ) بن تابدلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الخزري وجده محمد بن خزر الذي قاوم الوجود الشيعي في بلاد المغرب الأوسط لأكثر من ربع قرن.

كان زيري بن عطية مواليا لصاحب قرطبة هشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر، بعد سقوط الأدارسة وبني أبي العافية المكناسيين، ملك زيري بن عطية فاس سنة377هـ ثم بنى مدينة وجدة سنة384هـ واتخذ هذه الأخيرة عاصمة له بدلا من فاس البعيدة عن موطنه الأصلي بين شلف وتلمسان بالمغرب الأوسط فأصبحت وجدة نقطة انطلاقه في حروبه لاستعادة موطنه

[1] _ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص542.

[2] _ المقريزي، اتّعاظ الحنفا، ج1، ص92.

[3] _ بلهواري، المقال السابق، ص120.

من الزيريين خلفاء الفاطميين بالمغرب[1]، لكن علاقات زيري بن عطية ساءت بالحاجب المنصور بن أبي عامر في الأندلس بسبب تسلط المنصور على الخليفة(الحجر) وهذا دون أن يخلع طاعة الخليفة، بعد سنة 386هـ[2].

وربما يعود سوء العلاقة بينهما إلى رغبة زيري بن عطية المغراوي في الاستقلال عن المنصور بن أبي عامر مما أدّى إلى قيام الحرب بينهما سنة387هـ، لكن زيري بن عطية سرعان ما توفي بعد ذالك سنة391هـ[3].

ومهما تكن نتائج هذ الصراع فاللافت فيه استنجاد زيري بن عطية بالقبائل الزيانية التي أتته من تلمسان وملوية وسجلماسة والزاب وغيرها من بوادي زناتة لإحساسها القوي بالانتماء القبلي[4]، كما أنّ هذا التحول أضعف من دور المقاومة الزناتية في مواجهة بني زيري الصنهاجيين.

أدّى الصراع العسكري بين الزيريين خلفاء الفاطميين والزناتيين حلفاء الأمويين بالأندلس في المغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري،إلى بروز شخصية "حماد بن بلكين بن زيري" كقائد عسكري وسياسي، كان يتداول حكم أشير بالمغرب الأوسط هو وأخوه يطوفت في عهد أخيهم المنصور بن بلكين (373هـ_386هـ)[5].

بعد وفاة المنصور بن بلكين سنة 386هـ/ 996م، خلفه ابنه باديس الذي خرج عنه أعمامه إلّا حمادا، فكلفه بمواجهتهم، فانتصر عليهم،لكن الصراع ضد زناتة لم يتوقف عند هذا الحد مما دفع باديس إلى المزيد من الإعتماد على "حماد" هذا الأخير الذي اشترط على بن أخيه تملك أشير وكل ما يفتحه من بلاد زناته في المغرب الأوسط[6].

---

[1] _ بن معمر، المقال السابق،149. ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور1973، ص105. ابن خلدون، العبر ، طبعة دار الكتب العلمية، 1992، ج7، ص38.

[2] _ ابن خلدون، ،العبر،7،ص38.

[3] _ ابن أبي الزرع، الفاسي، المصدر السابق، 1972، ص107.

[4] _ نفسه، ص 106.

[5] – Golvin, Lucien ,Le Maghreb central, op.cit, pp 68–72.

[6] – Dhina, amar,cités Musulmanes d'orient et d'occident, édition, Entreprise national du livre,Alger,1986,p77.

قَبِل باديس بشروط عمه لتأمين ملكه وحدوده الغربية وذلك سنة395هـ، هذا العقد سيكون البداية الحقيقية لوضع أسس دولة جديدة في المغرب الأوسط هي "الدولة الحمادية " التي ارتبط تأسيسها باختطاط حماد لمدينة: القلعة" في جبل كيانة سنة398هـ والتي استمر بناؤها حتى سنة 405هـ، حيث أصبحت قاعدة الدولة الجديدة وعاصمتها، وأصبح حمادا أقوى شخصية في إقليم الزاب مع مطلع القرن الخامس الهجري، كما بدأت في هذه الدولة مبكرا معالم التحول المذهبي عن التشيع والعودة إلى السنّة.

ثالثا: . المساهمة الثقافية والفكرية للتشيع في بلاد المغرب الأوسط (ق3 ـ 5هـ).

أ . مساهمة الشيعة الزيدية في الحياة الثقافية (ق2– 3هـ).

تمكن الأدارسة العلويون من تأسيس عدة إمارات مدن في المغرب الأوسط في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريين، أبرزها وأكثرها انتشارا الإمارات السليمانية في الشمال الغربي وأهم مدنها تلمسان، أما في منطقة متيجة فقد وجدت إمارة "بنو محمد بن جعفر من ولد الحسن بن علي"، وإلى الجنوب الشرقي من متيجة وجدت إمارة العلويين الحسينيين وعاصمتها "هاز".

ساهمت هذه الإمارات العلوية بفاعلية في تطور الحياة الثقافية والفكرية في المغرب الأوسط في هذه الفترة، ورغم انتساب معظمها إلى الشيعة الزيدية،إلاّ المصادر لا تشير إلى سعي هذه الإمارات إلى نشر المذهب الزيدي،بل أكثر من ذالك فقد كان أغلب سكانها من أهل السنة والجماعة، مما دفع بعض الدارسين إلى القول بأن هذه الإمارات كانت في حقيقتها سنية، رسخت وجود المذهب المالكي في بلاد المغرب الأوسط[1]، ولم تأخذ من التشيع الزيدي إلاّ القول بأفضلية علي بن أبي طالب على باقي الصحابة، وبالتالي أحقيته في الخلافة ومن بعده العلويين من ذريته، كما أخذت الزيدية بمبدأ "قبول المفضول مع وجود الأفضل"، وتتماشى هذه الرؤية ونظرة أهل السنة[2].

[1] ـ بوخالفة، نور الهدى، المرجع السابق ، ص427. بن عميرة ، محمد دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، ص ص،154 –156.

[2] – طه، الولي، القرامطة، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت،1981 ، ص100.

أبرز مظاهر المساهمة الحضارية لهذه الإمارات،نذكر دورها في نشر الإسلام وترسيخه في نفوس البربر، نشر تعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية، بناء وتعمير المدن،بناء المؤسسات الدينية كالمساجد،الكتاتيب والربط،إلى جانب دورها في تنشيط حركة الرحلة باتجاه المشرق والأندلس لأغراض مختلفة،دون أن نغفل دورها في تحقيق الأمن والاستقرار في المناطق التي كانت تابعة لها.

1. نشر الإسلام والتعريب.

يرتبط الدور الحضاري للإمارات العلوية في المغرب الأوسط بشكل شبه مباشر بدولة الأدارسة في المغرب الأقصى، حيث يعود السبب المباشر لتوالي هجرة العلويين إلي بلاد المغرب الأقصى والأوسط إلى نجاح إدريس بن عبد الله في إقامة أول إمارة علوية بالمغرب الأقصى سنة172هـ، كما استطاع إدريس بن عبد الله أن يوسع من إمارته باتجاه المغرب الأوسط ويضم أهم مدنه الغربية، ألا وهي تلمسان.

تلمسان التي دخلها إدريس الأول صلحا سنة 173هـ، مما يدلالة على أن القوة المعارضة للتوسع العلوي لضم هذه المدينة كانت ضعيفة، وأن القوة المؤيدة كانت أكبر،خاصة بعد أن تغلب على المدينة مغراوة وبنو يفرن من زناته، وانهارت تجربة الدولة الصفرية التي أقامتها قبيلة مغيلة المجاورة لهم وذلك سنة170هـ[1].

دخل إدريس الأول أو الأكبر _كما يلقب_ تلمسان فاستجابت لطاعته مغراوة، وبني يفرن من زناته، وأمّر عليهم "محمد بن خزر بن صولات المغراوي" وهو رئسهم السابق[2].إن دخول تلمسان بهذه السهولة ودون قتال يذكر، وإقرار زعامة محمد بن خزر السابقة لتسيير شؤون المدينة تدل على الرابطة السياسية والمذهبية كانت قوية بين الطرفين وهذا يؤشر على أن مغراوة وبني يفرن كانوا قد تحولوا في هذه المرحلة المبكرة عن الحركة الخارجية الصفرية ولم يوالوا الإباضية في تاهرت، بل أقبلوا على تأييد الأدارسة الذين جمعوا بين التشيع الزيدي والاعتزال القريب من السنّة.

وقد أشار ابن خلدون إلى ما يؤكد هذا الرأي، فبعد أن أشار إلى قوة بنو يفرن مقارنة بجيرانهم في المنطقة من مغيلة، هذه الأخيرة التي يذكر أنها اشتهرت بالنحلة الصفرية الخارجية، أمّا بنو

---

[1] – بوخالفة، المرجع السابق، ص429.

[2] – ابن خلدون، العبر،ج 4،ص17. بوخالفة، المرجع السابق، ص429.

يفرن فيقول عنهم: "وكثير من الناس يقولون:إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنّة كما ذكر بن حزم وغيره والله أعلم"[1].

وبنو يفرن هؤلاء من زناته وموطنهم المغرب الأوسط ولهم بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل راشد بالهضاب العليا، وهم الذين اختطوا تلمسان، كما ذكر ابن خلدون[2].

لما حلّ إدريس الأول بتلمسان، شرع في بناء مسجدها الجامع وكتب على منبره اسمه وتاريخ بنائه وهو سنة174هـ[3]، ومن الأعمال الجليلة التي يُذكر بها إدريس الأول من أجل نشر الإسلام وترسيخه في نفوس البربر، زحفه على أرياف المغرب الأقصى التي كانت تدين بالمجوسية واليهودية والنصرانية، فافتتحها وأسلم أهلها على يديه[4]، لقد كان إدريس الأول وفيًا لمبادئ نشر الإسلام واللغة العربية التي تعتبر الأداة الأساسية لترسيخ مبادئ الإسلام في النفوس.

مات إدريس الأول مسموما سنة 177هـ، فخلفه ابنه إدريس الثاني وبعد أن شبّ وبلغ من العمر إحدى عشر سنة في حدود سنة 188هـ،وفي سنة 197هـ،يذكر ابن خلدون أنّ إدريس الثاني غزا تلمسان وجدد بناء مسجدها وإصلاح منبرها وأقام بها ثلاث سنين[5].

ثم يذكر بن خلدون نصاً في غاية الأهمية من الناحية المذهبية والسياسية جاء فيه ما يلي:"وانتظمت كلمة البرابرة وزناته ومحوا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشموس الأقصى إلى شلف"[6].

فأماّ من الناحية المذهبية فهذا يعني أنّ فروع زناتة من مغراوة وبني يفرن في غرب المغرب الأوسط وحتى الأقصى منه،تحولت عن الخارجية صفرية كانت أو إباضية منذ وقت مبكر يعود إلى أواخر القرن الثاني للهجرة،وفي نفس الفترة تخلصت هذه القبائل من التبعية السياسية للخلافة العباسية وخلفائها من الأغالبة بعد ذلك.

---

1 – العبر، ج7، ص18.

2 – نفسه، ج7، ص17.

3 – نفسه، ج4،ص17.السلاوي، الإستقصاء ،ج1،ص157.

4 – ابن خلدون، العبر، ج4، ص17.

5 – نفسه، ج4، ص18.

6 – العبر، ج4، ص18. نفسه، ج7، ص34.

ويذكر بن خلدون أنّ إدريس الأكبر لحق به إلى بلاد المغرب أخاه سليمان بن عبد الله ونزل تلمسان، التي ولاه إياها بن أخيه إدريس الأصغر وبقيت لأبنائه من بعده، وهذا ما يؤكده بن خلدون في معرض حديثه عن تقسيم دولة الأدارسة بعد وفاة إدريس الثاني سنة213هـ وفي عهد ابنه محمد، حيث بقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله[1].

انتشر أبناء سليمان بن عبد الله وأحفاده في القرن الثالث الهجري(9م) في الشمال الغربي من بلاد المغرب الأوسط وأسسوا عدة إمارات مدن لعبت دورا أساسيا في ترسيخ الإسلام في نفوس البربر ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المغرب الأوسط، وقد لحق بالأدارسة أبناء عمومتهم من العلويين، الذين انتشروا في بلاد المغرب الأوسط وأسسوا بدورهم الإمارات والمدن.

2 ـ دور العلويين في حركة التمصير بالمغرب الأوسط :

ساهم العلويون في تأسيس عدة إمارات ومدن في المغرب الأوسط أدت دورا حضاريا مهما في تطور الحياة الثقافية والاجتماعية بالمنطقة، وقد ساهم فيها العلويون من الفرع السليماني في غرب المغرب الأوسط وبنو محمد بن جعفر بن الحسن من الفرع الحسني في منطقة متيجة، وبنو الحسن بن سليمان من الفرع الحسيني في هاز في وسط وشرق المغرب الأوسط.

ومن أهم هذه المدن تلمسان في أقصى غرب المغرب الأوسط، ونقطة بداية انتشار وتوسع الدور العلوي الشيعي الزيدي القريب من السنّة والاعتزال، رغم أن تلمسان مدينة تاريخية قديمة في المغرب الأوسط، وأنّ الإسلام وصل إليها منذ القرن الأول الهجري، حيث فتحها أبو المهاجر دينار سنة55هـ، إلاّ أن تحولها إلى سلطة الأدارسة في أواخر القرن الثاني للهجرة، الثامن ميلادي هو ما أضفى عليها طابع الإسلامي وأمدها بروح حضارية جديدة.

كما حدد هذا التواجد المبكر_إلى حدٍ ما_ توجهها المذهبي، حيث أصبحت على مرِّ الحقب الزمنية اللاحقة، دار علم وفقه لأهل السنة والجماعة رغم ما واجهته من محاولات التغيير وفي

---

[1] – العبر، ج4، ص19.

هذا الصدد يصف البكري تلمسان على أنها قاعدة المغرب الأوسط ثم يقول عنها:"... ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس..."[1].

أصبحت تلمسان في عهد الأدارسة بمثابة العاصمة للإمارات السليمانية التي انتشرت في القسم الشمالي الغربي من المغرب الأوسط، تلمسان التي بلغت مرحلة صك العملة حيث يعود تاريخ أول درهم ضرب في تلمسان إلى سنة217هـ، في عهد محمد بن سليمان[2]، كما عرفت تلمسان في هذه الفترة ارتفاع الكثافة السكانية بها وتوسع عمرانها مما يدل على حالة الازدهار التي كانت تمر بها، ولا شك أنّ هذه الوضعية المريحة هي المناخ المساعد لانتشار العلم والتعليم وإقبال الناس عليه، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله: "في أنّ العلوم إنّما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"[3].

وجدت عدة مدن علوية إلى جانب تلمسان وبالقرب منها، كمدينة العلويين وهي صبرة حاليا، ومدينة "تمالتة" وهي مغنية، ثم مدينة فلوسن المعروفة حاليا بندرومة وغيرها من المدن[4].

وإلى الشمال الشرقي من تاهرت الرستمية الإباضية وجدت مدينة سوق إبراهيم بالقرب من مدينة شلف الحالية أسسها عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان[5].

كما وجدت في هذه المنطقة مدينة "تنس" الساحلية والتي أسسها بحارة أندلسيون و"مدكرة"(مليانة حاليا) هذه المدن التي سكنها وملكها العلويون[6].

أما في منطقة متيجة فإن المدن فيها كثيرة، لكن اليعقوبي وهو أهم مصادرنا لم يذكرها، بل اكتفى بالقول أنّ العلويين من بني محمد بن جعفر قد تغلبوا عليها[7].

امتد إمارة الحسينيين وإلى جنوب الشرقي من متيجة،عرفت "بهاز" وهي التي ملكها حمزة ابن الحسين بن سليمان العلوي، وأهم مدنها هاز وتقع إلى الغرب من مدينة المسيلة، سكنتها

---

1 – البكري، المصدر السابق، ص76.

2 – بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية ،ص84.

3 – المقدمة،ج2،ص526.

4– بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية، ص77.

5 – ابن حزم، محمد بن أحمد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق، هارون عبد السلام، طبعة دار المعارف، القاهرة، السنة1982،ص48. ابن خلدون ، العبر،ج4، ص24.

6 – اليعقوبي، البلدان،ص110.

7 – نفسه،ص109.

زناته قبل تخريبها وإجلاء سكانها منها من طرف الفاطميين على يد زيري بن مناد الصنهاجي[1]، وتعود أسباب الانتقام الفاطمي من هاز وسكانها إلى موقف زناته الرافض للتوسع السياسي والمذهبي للفاطميين في المغرب الأوسط.

كما تنسب إلى العلويين في هذه الإمارة مدينة سوق حمزة(البويرة حاليا) التي قال عنها البكري: "وهناك مدينة تسمى حمزة نزلها حمزة بن الحسن بن سليمان"[2].

وفي الختام، فإن انتشار العلويين في بلاد المغرب الأوسط في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريين، وتأسيسهم وتعميرهم لعدد معتبر من المدن ساهم في توسع حركة التمصير والاستقرار في المغرب الأوسط، وبالتالي ساهمت هذه التحولات في نشأة حياة اجتماعية حضرية مدنية سمحت بتأسيس المساجد والكتاتيب وانتشار التعليم في كثير من مدن وقري وحتى بوادي المغرب الأوسط، مما أدي إلى تحسن المستوى الثقافي للسكان وتوسع ظاهرة التعريب، إلى جانب بلورة التوجه الثقافي والمذهبي الذي جمع بين المفاهيم السياسية الزيدية والرؤية السنية المالكية في الفقه دون تعصب، لكن هذا لا ينفي الوجود المعتبر للإباضية في المنطقة، كما لا ينفي وجود التشيع العقدي الذي حمله الدعاة من المشرق وحتى بعض المهاجرين والتجار الذين كانوا يفيدون إلى بلاد المغرب لدواعي مختلفة كتلك الجاليات العراقية التي حلت بدولة الأدارسة.

ب . مساهمة الشيعة الإسماعيلية في الحياة الثقافية والفكرية في المغرب الأوسط(ق3- 5هـ).

عرفت الحركة الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري التاسع ميلادي ازدهارا واسعا مسّ جميع جوانب الحياة الحضارية، وقد عبر المستشرق الألماني آدم مِتز عن هذه الظاهرة بوضوح في كتابه الموسوم بعنوان: "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" أو عصر النهضة في الإسلام، تناول فيه جميع جوانب الازدهار الحضاري في المجتمع الإسلامي، وإن كان جل اهتمامه تركز على المشرق أكثر منه في المغرب، لكن الظاهرة كانت عامة في العالم الإسلامي، وقد مثّل هذه التجربة الفاطميين في بلاد المغرب وحتى مصر بعد فتحها.

---

1 – ابن حوقل، المصدر السابق، ص85. الإدريسي، المصدر السابق، ص111.

2 – ابن حزم، المصدر السابق، ص 55.

عُرف الخلفاء الفاطميون بأنهم رجال علم ومعرفة، كيف لا؟ وهم المصدر الأساسي الوحيد للعلم والمعرفة في العقيدة الإسماعيلية وأنّ العلم فيهم مستودع من الله _حسبما يذهب إليه الشيعة_ كما يتميز التشيع الباطني بعمقه الفلسفي واللاهوتي الذي تعود جذوره الفكرية إلى الديانات والحضارات القديمة، وقد أشرنا إلى ذالك في بداية هذا الفصل.

كما تميز الخلفاء الفاطميون بحبهم للعلم ومجالسة العلماء، وإن كان يؤخذ عليهم ارتباطهم الشديد بنزعتهم المذهبية خاصة فيما يتعلق بالمسائل التي تدور حول الإمامة، مما جعلهم يضطهدون العلماء المخالفين لهم في الرأي خاصة المالكية من أهل السنّة وحتى الإباضية، لكن هذا لا ينفِ دور الفاطميين التاريخي في ازدهار وتطور الحياة الثقافية، كما كان لموقفهم المذهبي من مخالفيهم ردّت فعل فكرية من أبرز مظاهرها تلك المناظرات التي كانت تجري بين أرباب المذاهب والشيعة، وكذا حركة التأليف للرّد على المخالفين.

ومن أبرز مجالات النشاط الفكري التي تميز بها الشيعة في بلاد المغرب، عقد مجالس الدعوة أو الحكمة وكذا المناظرات الفكرية مع مخالفيهم في المذهب، إلى جانب حركة التأليف، دون أن ننسى دور المساجد والكتاتيب والذي كان سائدا في العالم الإسلامي منذ القرن الهجري الأول.

1- مجالس الدعوة(مجالس الحكمة)

مجالس الدعوة هي أماكن كان يجلس فيها الداعي إلى أتباعه حديثي العهد بالدعوة في وقت معلوم من الأسبوع، هذه المجالس ما هي إلّا استمرار لعمل الدعاة الشيعة الإسماعيليين، ولكن بطرق وكيفيات جديدة وفي ظروف تختلف عن مرحلة الدعوة الّتي سبقت قيام الدولة.

أمّا الجديد في مرحلة قيام الدولة فيتمثل في أنّ اللقاء بين الداعي وحديثي العهد بالدعوة أصبح يتم بشكل علني وفي أماكن معلومة ويفتح لكل من يُرجى إقباله على الدعوة أو تثبيته عليها. ويروى أنّ عبيد الله لمّا دخل افريقية ونزل برقادة، أمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه في الخطبة، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وبعد الصلاة جلس إلى الناس رجل يعرف "بالشريف" ومعه الدعاة، ودعوا النّاس إلى مذهبهم[1].

[1] – المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص31. الحاجري، محمد طه، مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، ط1،1983، دار النهظة بيروت، ص 36.

كما ذكر بن عذارى أحد الدعاة ويسمّى "علي بن سليمان" هذا الأخير الّذي أوكل له عبيد الله مهمة الخروج إلى نفوسة ومعه جمع غفير، وربما كان هدفه استمالتهم إلى الدعوة الفاطمية[1].
بثّ الفاطميون الدعاة في جميع أرجاء الدولة الفاطمية وفي أهم حواضرها الثقافية والاقتصادية، ولعل أهمها في المغرب الأوسط تاهرت عاصمة الرستميين،تلمسان،ثمّ المسيلة بعد بنائها سنة 315هـ.

لم ينقطع اتصال الدعاة بالعامة في أي مرحلة من تاريخ الدعوة والدولة، بل ربما تزايد عدد هؤلاء الدعاة، وتراوحت مواقفهم المذهبية بين الاعتدال والتطرف، هذا التطرف الّذي كثيرا ما نهى عنه الإمام الفاطمي الرابع "المعز لدين الله الفاطمي" آخر الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب وأولهم في حكم مصر والمشرق، حكم ما بين341هـ حتى365هـ[2].
كان المعز رجل دولة متميز محبا للعلم والفلسفة، وربما أدرك أنّ عمل الدعاة في مختلف أرجاء دولته يسوده الاضطراب والتناقض في مواقف وآراء الدعاة، فأراد أن يؤسس جهازا نظاميا لتوجيه الدعوة وربما التحكم في نشاطهم، ولهذا الغرض استدعى المعز أحد أبرز رجال العلم والدولة توسم فيه القدرة على انجاز هذه المهمة، إنّه القاضي النعمان ابن حيون المغربي (ت363هـ)[3].

يعتبر القاضي النعمان من أبرز رجالات الدولة الفاطمية في دورها المغربي من الناحية العلمية والقضائية، خدم بإخلاص كل خلفائها في هذا الدور، وقد برزت مكانته كقاضي ورجل علم في إطار مذهبي في عهد الخليفة الثالث"المنصور"(ت334هـ) وابنه المعز، ويذكر النعمان مشيدا بفضل المنصور عليه قوله بأنّه "أعلى ذكره، ورفع قدره وأنعم عليه..."[4].
ومن مظاهر هذا التكريم الّذي حظي به القاضي النعمان، أن شرّفه المنصور بإقامة صلاة الجمعة بجامع القيروان، وعهد له بقضاء عاصمته الجديدة المنصورية والقيروان وباقي مدن افريقية وأعمالها[5].

---

[1] – ابن عذارى، المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص .

[2] – ابن حماد، المصدر السابق، ص ص83-84.

[3] –القاضي، النعمان، كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق، الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، ط، دار المنتظر، لبنان، 1996، ص94.

[4] – مقدمة كتاب المجالس والمسايرات، ص8.

[5] – القاضي النعمان، كتاب المجالس والمسايرات، ص384.

وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد الإباضي النكاري سنة336هـ توجه جهاز الدعوة إلى فقهاء السنّة يحاول استمالتهم وبالتالي كسب العامة لصالح الدعوة والدولة.

وفي هذا الصدد يذكر صاحب "معالم الإيمان" في ترجمته لأبي محمد بن التبان(ت371هـ) قوله: "كان عبد الله المختال، صاحب القيروان، شدد في طلب العلماء ليشرفهم، فطلب الشيخ أبي سعيد وأبا محمد وأبا القاسم بن شبلون...وأبا الحسن القابسي..."[1].

ويذكر الدباغ في هذه الترجمة أنّ مجلس صاحب القيروان وهو من الشيعة كان فيه داعيان يلقب أحدهما "بأبي طالب" والثاني "أبو عبد الله" وكان حضورهما بهدف مناظرة ابن التبان لإفحامه وربما لإقناعه بضرورة التحول إلى التشيع والتخلي عن مذهب الإمام مالك، وهذا ما لم يقبل به ابن التبان فكان مصيره القتل بحدّ السيف[2].

تبرز لنا هذه المناظرة جانبا من مجالس الدعوة التي كانت تعقد باستمرار، وفي مناطق مختلفة من الدولة الفاطمية، يستهدف فيها الدعاة نشر التشيع الاسماعيلي وتحويل علماء السنّة بطرق مختلفة إلى التشيع الباطني تصل حد التعسف.

ومن أهم المراكز السياسية والدعوية في بلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة تاهرت والمسيلة هذه الأخيرة الّتي كان فيها بلاط بني حمدون ولاة الفاطميين بالمغرب الأوسط، قد بلغ بلاط بني حمدون في المسيلة درجة من التطور جذب إليه الشعراء والأدباء والمثقفين والكتاب ولعل أشهرهم في الشعر"ابن هانئ الأندلسي" ومن المثقفين والكتاب وأبرزهم "الرقيق القيرواني"، هذا البلاط الّذي لم يخلوا من مجالس الدّعوة،والحكمة.

في المنصورية بافريقية كان يجلس النعمان للقضاء في سقيفة القصر فلّما ضاق المكان بالمتخاصمين وتهيب الناس من دخول قصر أمير المؤمنين، كما يذكر النعمان توسط المعز لدى والده المنصور لبناء مكان أو موضع فسيح يكون محلاً للقضاء الّذي يجلس إليه النعمان[3]. لمّا ولي المعز الخلافة بعد أبيه المنصور سنة341هـ، أبقى للنعمان على مكانته واختصه بالمؤنسة[4]. في هذه الفترة برزت شخصية النعمان كعالم وفقيه متميز عند الاسماعيلية دوّن

---

[1] – الدباغ، معالم الإيمان، ج3، ترجمة، أبي محمد بن التبان، ص130.

[2] _ نفسه، ج3، ص113.

[3] – المجالس والمسايرات، المصدر السابق، ص ص69_70.

[4] – نفسه، ص543.

أمجادها وأحداثها وثبّت أركان دعوتها في مجال الفقه والعقيدة[1]، ولاستكمال هذا الدور أعدّ المعز مجلسا في قصره، يعقد إثر كل صلاة جمعة يقرأ فيه النعمان كتباً من "علم الباطن".
وقد ورد ذكر هذا المجلس عند الحديث عن أسر ابن واسول،[2]حيث قال النعمان: "فحضر ابن واسول كذلك صلاة الجمعة وهو مقيد وجلس في الحلقة بعد الصلاة يستمع المسائل..."[3].

يذكر المقريزي أنّ القاضي النعمان كان يجلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم أهل البيت في مصر وبلاد المغرب[4].

كان أعلى جهاز في الدعوة يتولاه داعي الدعاة وهوّ أقل مرتبة من قاضي القضاة،وله أعوان من الدعاة ونواب في سائر البلاد، كما ويحضر هذا المجلس فقهاء الدولة وكان الفقهاء يتفقون على دفتر يقال له "مجلس الحكمة" في كل يوم إثنين وخميس..."[5].
وترفع تقارير مجلس الحكمة إلى الإمام لدراستها والموافقة عليها أوتصحيحها ثمّ بعد ذلك تعرض على الأولياء ويقصد بهم المعتنقين لمذهب الاسماعيلية، فيكون مجلس للخاصة ومجلس للعامة وحتّى النّساء كان لهن خاصة في مصر مجلس للدعوة.

كانت تصل من العاصمة إلى الدعاة والقضاة في أقاصي الدولة مضامين هذه المجالس المعروفة بمجالس الدعوة أو مجالس الحكمة، أو كما ستعرف كذلك بالمجالس المويدية، تطور النظام الدعوي أكثر بعد انتقال المعز إلى مصر وبناء عاصمته الجديدة القاهرة سنة 358هـ[6].

---

[1] – المجالس والمسايرات، مقدمة المحقق، ص10.

[2] _ استولى عبيد الله المهدي على سجلماسة، وقتل أميرها المدراري سنة 309هـ، وأقام بدلا منه المعتز بن محمد بن ساوى المدراري، الذي أخذ يدعو للفاطميين واستمرت دولة بني مدرار تابعة للدولة الفاطمية حتى سنة 331هـ، إذ استولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار على الحكم، وقطع دعوة للخلفاء الفاطميين ، ودعا إلى نفسه وتلقب بالشاكر بالله، وأخذ بمذهب أهل السنة واستمر يحكم سجلماسه وما يليها حتى سنة 347هـ، إذ زحف إليه جوهر الصقلي،القائد الفاطمي، ففر الشاكر لكن جوهر تمكن من القبض على الشاكر وأرسله إلى القيروان، وهناك تم حبسه إلى أن توفي سنة 354هـ، وبوفاته انقرضت دولة بني مدرار.

[3] _ النعمان، المجالس، ص434.

[4] _ المقريزي، تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثر الجزء الثاني، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، سنة1997، ص،121.

[5] _ نفسه، نفس الصفحة، ص122.

[6] _ نفسه، نفس الصفحة.

وقد كانت تعرض في مجالس الدعوة كتب كثيرة من أهمها كتب القاضي النّعمان مثل: كتاب دعائم الإسلام، وكتاب تأويل الدّعائم،وكتاب المجالس المؤيدية في الدين للشيرازي، والمجالس المستنصرية ومجالس حاتم بن إبراهيم الحامدي..."[1] لكن هذه المجالس توقفت بأمر من الحاكم في بلاد المغرب ورغم رحيل الفاطميين إلّا أنّ مجالس الدّعوة استمر انعقادها بشكل شبه طبيعي، وأنّ العبيديين أوكلوا مهمة "الدعوة" لعبد الله الكاتب وهو المعروف بالمختال_سابق الذكر_ بعد وفاة بلكين بن زيري سنة373هـ/178م، وتولية ابنه "المنصور"[2].

لقد اراد الفاطميون لتأثير دعوتهم أن يستمر في بلاد المغرب لأن استمرارها يعني بقاء بلاد المغرب مرتبطة بهم سياسياً،وفي هذا الصدد يذكر النووي أنّه: "في يوم الاثنين7جمادى الآخر سنة378هـ، جلس المنصور بن بلكين، وأقربائه، ووجوه من بني عمّه، ثمّ دخل عبد الله الكاتب فأخذ عنهم الدعوة"[3].

لكن العلاقة بين الزيريين وداعي الدّعاة الفاطمين في بلاد المغرب"عبد الله الكاتب" سرعان ما ساءت، لمّا أدرك الزيريون موقف الكاتب الدّاعم لثورة "أبي الفهم الخرساني" ومحاولة العبيديين ضربهم بكتامة فكانت النتيجة أن قتل المنصور عبد الله الكاتب وإبنه يوسف [4].
استبشر المالكية خيرا بهذا التحول لكن يبدو أنّ نتائجه لازالت بعيدة المنال، ومهما يكن فإنّ العلاقات بين الفاطميين والزيريين قد اهتزت في هذه الفترة من حكم المنصور بن بلكين [5].

2ـ المناظرات بين أرباب المذاهب:

المناظرة حوار بين شخصين أو فريقين،يسعى كل طرف فيها إلى إعلاء وجهة نظره، ونصرة مذهبه، بشتى الطرق والوسائل العلمية والمنطقية، وتقتضي المناظرة تفنيد الرأي الآخر بالحجة والدليل.

---

[1] _ نفسه، نفس الصفحة

[2] – النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج4، طبعة، دار الكتب المصرية، 1925،ص378.

[3] _ النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24،ص،178.

[4] _ روجي إدريس، الهادي، الدولة الصنهاجية، ج1، ترجمة، حمادى الساحلي، طبعة، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص ص103-106. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص،243.

[5] _ روجي إدريس، الهادي، المرجع السابق، نفس الصفحات.

وتعتبر المناظرات بين الشيعة الفاطميين وأصحاب المذاهب المخالفة لهم كالمالكية من السنّة وحتّى الاباضية من أبرز وسائل النشاط الفكري الّذي لجأ إليه الفاطميون لنشر وترسيخ مبادئ دعوتهم.ولا شك أنّ من بين أهداف الشيعة من المناظرات الّتي كانوا يعقدونها في قصورهم، كان هوّ كسب أتباع جدد وخاصة علماء المالكية، لما لهم من تأثير على العامة في بلاد المغرب.

كانت المناظرات في الغالب تجري في مجالس يحظرها الدعاة الكبار للاسماعيلية والقضاة، هذه المجالس الّتي غالبا ما كانت تعقد بحضور الإمام، خاصة في عهد عبيد الله المهدي(297هـ/ 322م) وكذا في عهد المعز لدين الله(341هـ/356م).

لم تنقطع المناظرات في العهد الفاطمي، بل استمرت حتّى عهد خلفائهم الزيريين. أمّا المواضيع والقضايا الّتي كانت تدور حولها فتتمحور حول مسائل الإمامة وما يرتبط بها من قضايا كالمفاضلة بين الصحابة، أحقية آل البيت بالخلافة، الوصية والأحاديث المرتبطة بها وكذا عقيدة المهدي المنتظر، إلى جانب بعض القضايا الفقهية في الميراث، صلاة التراويح في رمضان وغيرها، وقد جرت معظم المناظرات بين دعاة الشيعة وفقهاء المالكية من السنّة في العهد الأول، ولعل أشهرها تلك الّتي جرت بين أبي العباس أخو عبد الله الشيعي والفقيه المالكي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي، المعروف بابن البردون المتوفى سنة 297هـ[1].

وقد تناولت المناظرة كموضوع أساسي مسألة تفضيل علي بن أبي طالب_رضي الله عنه_ عن باقي الصحابة وخاصة الشيخين أبو بكر وعمر_رضي الله عنهما_

كما ناظر أبو العباس الشيعي، أبو بكر القمودي وهوّ فقيه مالكي، ومن أشهر المناظرات الّتي جرت في المرحلة الأولى لتأسيس الدولة الفاطمية، تلك الّتي جرت بين الفقيه المالكي سعيد بن الحداد(ت302هـ)، أمّا الطّرف الشيعي فقد مثّله أبو العباس الشيعي وإلى جانبه أخاه أبو عبد الله الشيعي والقاضي محمد بن عمر المروزي[2].

---

[1] _ الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص ص223_224. يوسف بن أحمد، حواله، الحياة العلمية في إفريقية، ج2، ط2000، طبعة مركز البحوث والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة، ص117.

[2] _ المروزي، محمد بن عمر،(ت303هـ)،فقيه حنفي تولى القضاء في عهد المهدي وكان شديدا على أهل السنّة، لكنه قتل من قبل الفاطميين.

العهد الأول، ولعل أشهرها تلك الّتي جرت بين أبي العباس أخو عبد الله الشيعي والفقيه المالكي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي، المعروف بابن البردون المتوفى سنة 297هـ[1].

وقد تناولت المناظرة كموضوع أساسي مسألة تفضيل علي بن أبي طالب_رضي الله عنه_ عن باقي الصحابة وخاصة الشيخين أبو بكر وعمر_رضي الله عنهما_

كما ناظر أبو العباس الشيعي، أبو بكر القمودي وهوّ فقيه مالكي، ومن أشهر المناظرات الّتي جرت في المرحلة الأولى لتأسيس الدولة الفاطمية، تلك الّتي جرت بين الفقيه المالكي سعيد بن الحداد(ت302هـ)، أمّا الطّرف الشيعي فقد مثّله أبو العباس الشيعي وإلى جانبه أخاه أبو عبد الله الشيعي والقاضي محمد بن عمر المروزي[2].

ومماّ تقدّم يبدو أنّ أبو العباس الشيعي كان في مقدمة دعاة الشيعة الّذين تصدّوا لنشر الدعوة بأساليب الجدل والمناظرة، كيف لا وقد تسلّح بكل المفاهيم الجدلية والفلسفية والدينية الّتي كانت في المشرق حيث عاش وأتمّ تكوينه العلمي والمذهبي خاصة في الكوفة من بلاد العراق.

أمّا من جهة المالكية فإنّ أشهر من ناظر الشيعة في المرحلة الأولى من تأسيس الدولة الفاطمية فهوّ الفقيه سعيد بن الجداد الّذي ألّف كتاباً في الرد على الشيعة عنوانه "كتاب المقالات"[3]، أمّا في مرحلة ما بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 361هـ فقد برز أبا محمد المعروف بابن التبان _سابق الذكر_ كفقيه يجيد الجدل والمناظرة عن مذهب الإمام مالك وأهل السنّة، وقد واجه في مجلس صاحب القيروان آنذاك عبد الله "المختال"، دعاة الشيعة ويسمى أحدهما "أبي طالب" والثاني "أبو عبد الله".

لقد كان هدف الشيعة هوّ كسب بن التبان لصالح التشيع، لكن إصراره وصموده حال دون ذلك، فكان ردّ فعل ابن المختال _على حساب ما ذكره الدباغ وابن تاجي_ هوّ قتل هذا الفقيه بحد السيف[4].

---

[1] _ الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص ص223_224. يوسف بن أحمد، حواله، الحياة العلمية في إفريقية، ج2، ط2000، طبعة مركز البحوث والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة، ص117.

[2] _ المروزي، محمد بن عمر،(ت303هـ)،فقيه حنفي تولى القضاء في عهد المهدي وكان شديدا على أهل السنّة، لكنه قتل من قبل الفاطميين.

[3] _ الزبيدي، أبي بكر محمد بن الحسن الأندلس، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، ص ص239_240.

[4] _ معالم الإيمان، المصدر السابق، ج3، ص113.

لم تكن القيروان وافريقية هي وحدها الّتي عرفت ظاهرة المناظرات، وإنّما كان هذا النّشاط العلمي والفنّي يجري في مناطق مختلفة في بلاد المغرب الأوسط وحواضره كتلمسان وتاهرت والمسيلة وغيرها، تجري المناظرات حيثما توجد وجهتي نظر مختلفتين لدرجة التناقض كما هوّ الحال بين التشيع والسنّة من مالكية. هذا النشاط الفكري الّذي كان يلجأ فيه الطرفان إلى جميع أساليب ووسائل الجدل الفكري ويستخدمون فيه معارف شتّى في الفقه والعقيدة واللغة والفلسفة واللّاهوت،فكان دافعا للبحث في علوم شتّى وعاملا لشحذ الهمم من أجل طلب العلم والمعرفة.

لكن ما يجب التنبيه إليه عند محاولة دراسة موضوع المناظرات في هذه الفترة هيّ أنّ كل طرف في رواية تفاصيل المناظر يدعي أنّ صاحبه في المذهب هوّ الّذي انتصر وأفحم الخصوم، وهذه الإشكالية سنعود لمناقشتها _إنشاء الله_ في الفصل الخاص بالصراع المذهبي في بلاد المغرب.كما أنّ المصادر الّتي أرخت للمناظرات في العهد الشيعي بالمغرب جلّها سنية، كالدّباغ، الخشني وأبو العرب التميمي والمالكي.

أمّا الاباضية فإنّ احتكاكهم بالشيعة في القيروان فقد كان محدوداً مقارنة بفقهاء المالكية، لكن رغم ذلك تذكر المصادر الاباضية خاصة الوهبية منها جانبا من هذه المناظرات، كتلك الّتي كانت تجري في مجلس المعز بن باديس وكان يشارك فيها شيخ الاباضية "أبا نوح سعيد بن زنغيل وكان صاحب:"علم وفصاحة وبراعة ومعرفة بفنون الرّد على المخالفين...."[1].

ومن الاباضية الّذين ذكر أنّه صاحب جدل ومناظرة الشيخ "أبي خرز يعلى بن زلتاف الوسياني" الّذي اصطحبه المعز معه عند رحيله إلى مصر وفي هذه الرحلة يذكر الدرجيني أنّه ناظر رجلا من المعتزلة[2].

وللاباضية في فن المناظرة تاريخ طويل يعود إلى مرحلة الدولة الرستمية وعلى وجه الخصوص إلى عهد الإمام الثاني عبد الوهاب بن رستم(171-208هـ)الّذي ناظر المعتزلة وحاربهم كما تقدّم في الفصل الأول من هذه الدراسة.

ومهما يكن من أمر هذه المناظرات ومستواها الفكري المحدود بحكم محدودية المعارف العلمية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الحضارة الإسلامية، ومحدودية المعرفة في المجتمع البربري في بلاد المغرب الأوسط، إلاّ أنّ تلك المناظرات كانت تعبّر بشكل فعّال عن النشاط الفكري في

---

[1] _الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، ص137.

[2] _نفسه، ج1، ص ص 144_145.

تلك الفترة، كما أسهمت هذه المناظرات في تفتّح العقل المغربي على علوم جديدة وأساليب وطرق تفكير تقوم على الجدل الذي لم يكن شائعا في ثقافة سكان بلاد المغرب.

3_ الحركة الأدبية(فن الخطابة والشعر).

تعتبر الخطابة والشعر من الفنون الأدبية الّتي ميّزت التاريخ الفكري لبلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وكثيرا ما تناولت قضايا فكرية وتاريخية وحتّى اجتماعية لها صلة بتاريخ المغرب الأوسط أو شارك في إنتاجها شعراء وأدباء من بلاد المغرب الأوسط، خاصة ما كان يجري في بلاط بني حمدون حاضرة المغرب الأوسط الفاطمية وحتّى تاهرت، لكن ما يؤسف له ضياع معظم الآثار الأدبية في بلاد المغرب الأوسط بحكم الظروف الّتي كان يمر بها، حيث اعتبر المغرب الأوسط في هذه المرحلة، وهيّ القرن الرّابع الهجري ساحة للقتال بين الفاطميين وحلفائهم من صنهاجة من جهة والزيانيين وحلفائهم من الأمويين.

وتوجد نماذج عديدة من الخطب في كتب المصادر خاصة تلك الّتي ألقاها الأئمة الفاطميون في مناسبات مختلفة، وقد ذكر العزيزي جوذر أهمها في كتابه "سيرة الأستاذ جوذر" كما أورد المقريزي نماذج منها،وكذلك الداعي إدريس عماد الدين في كتابه عيون الأخبار،وسنكتفي في هذا العنصر بأخذ نماذج محدودة منها بهدف إبراز هذا الفن الأدبي والقضايا الفكرية الّتي يتناولها، كما أنّها تعتبر مادة علمية مهمة للدراسات التاريخية السياسية والثقافية.

ومن أولى هذه الخطب تلك بعث بها أول إمام فاطمي عبيد الله المهدي إلى أهل القيروان وباقي الأمصار في أوّل يوم جمعة من نزوله "برقادة" سنة 297هـ عاصمة الأغالبة سابقا، هذه الخطبة التي أمر عبيد الله أن تقرأ على المنابر، كما أمر بالدعاء بعد الصلاة على النبي محمد المختار وذكر وصية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريته الأطهار[1].

وتبرز هذه الخطبة قضايا سياسية وأخرى عقائدية مذهبية، وشبيهة بها خطبة ابنه وولي عهده القائم سنة 302هـ بالإسكندرية[2] في مناسبة عيد الفطر،هذه الخطب الّتي تجمع بين الدين

---

[1] _ الدّاعي، إدريس عماد الدين، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، قسم خاص من عيون الأخبار، تحقيق، محمد اليعلاوي، طبعة دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1985، ص170.

[2] _ نفسه، ص198وما يليها.

والسياسة تعكس نظام الحكم عند الفاطميين الشيعة الّذي يربط بين الإيمان والإمامة ويرى أنّ الفصل بينهما مروق من الدين.

ومن الخطب ذات الأهمية التّاريخية تلك الّتي ألقاها القاضي المروزي باسم القائم بالله، أثناء فتنة أبو يزيد بن مخلد بن كيداد يستنفر فيها كتامة للحرب، ويذكّر بفضل آبائهم في نصرة آل البيت ويجعلهم كالحواريين مع عيسى والأنصار مع محمد ﷺ[1]، وقد صيغت الخطبة بأسلوب فنّي متميز يعكس مستوى تطور النثر في هذه الفترة، وكعادتهم الفاطميون يجمعون بقوّة بين الدين والسياسة مما يدل على الطابع الديني المميز لهذه الدولة.

وقد أورد صاحب سيرة الأستاذ جوذر العديد من النصوص الأدبية من الخطب والرسائل وحتّى الأشعار الّتي لها صلة بالحياة السياسية والدينية للفاطميين.

وفي الختام ضمن أبلغ الخطب وأكثرها دلالة على تطور هذا الفن الأدبي في عهد الفاطميين تلك الخطبة الّتي ألقاها المعز لدين الله الفاطمي بمناسبة عيد الأضحى والّتي نعى فيها موت والده المنصور سنة341هـ[2]، هذه الخطبة الّتي حوت مفاهيم فكرية عقائدية وسياسية هامة في الفكر الإسماعيلي الشيعي، ودلّت على ازدهار الحياة الأدبية في هذه الفترة،تعتبر هذه الخطبة مادة علمية هامة لكل باحث،خاصة في التاريخ الأدبي والعقدي لهذه الدولة.

ومن الجوانب المشرقة في الحياة الفكرية في هذه الفترة الأشعار الّتي رافقت هذه الدولة إمّا مدحاً أو قدحاً منذ نشأتها حتّى رحيلها إلى مصر.

لقد كان أئمة هذه الدولة في معظمهم إن لم نقل كلّهم شعراء خلّدوا كثيرا من مآثرهم في قالب فنّي رفيع يؤكد مدى ازدهار الحياة الفكرية في عصرهم وفي دولتهم.

ومن بين أشعار الأئمة قصيدة للمنصور الخليفة الفاطمي الثالث وهوّ يحاصر بن كيداد في أحد الجبال في بلاد المغرب الأوسط في إقليم الزاب وبالذات في قلعة كيانة سنة334هـ جاء فيها:

تبدّلت بعد الزعفران وطيبه — صدى الدّرع من محكّمات السامري

ألم ترني بعت المقامة بالسري — ولين الحشا بالخيول الظوامر[3]

---

[1] _الجوذري، أبي علي المنصور العزيزي، تحقيق، محمد كامل حسين، محمد عبد الهادي شعيرة، طبعة، دار الفكر العربي، السنة، دت، ص ص،53-54.

[2] _نفسه، ص ص78_84.

[3] _ الجوذري، المصدر السابق، ص50.

ثمّ بعث بأبيات لابنه وولي عهده المعزّ جاء فيها:

كتابي إليك من أقصى الغروب وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوي الرّمـال وأحمل نفسي على كل هول
أريـد بذاك رضـاء الإلـه وإعـزاز دولـة آل الرسـول
إلى أن يرى السير أجسامنا وكلّ الركاب وتاه الدليـل
فـوا غربتـاه و وحشتـاه وفـي الله هـذا قليـل قليـل[1]

لكن رغم غنى الحياة الأدبية في العهد الفاطمي بالشعر والشعراء إلّا أنّ هذا الموروث لم يبق منه إلّا القليل الّذي يُذَكِّر به شاعر كسعدون الورجيني وهوّ من أوائل الشعراء الّذين بادروا إلى مدح أئمة الشيعة بعد أن خدم الأغالبة.

هذه القصيدة أورد بعض أبياتها كل من النعمان والمقريزي، جاء فيها قوله سعدون الورجيني:

أعن ابن فاطمة تصدين أمـرا بنـت النبـي وعـزة التطـهـر
كفـى عن التثبيط إني زائـر من أهل بيت الوحي خير مزور
هذا أمير المؤمنين،تضعضعت لقـدومـه أركـان كـل أمـيـر
هذا الإمـام الفاطمـي ومن بـه أمنـت مغاربنـا مـن المحـذور[2]

وقد أشار في هذه القصيدة إلى أبي عبد الله الشيعي وهوّ يوجه كلامه إلى المهدي:

يا من تخيّر من خيار دعائه أرجاهم للعسر والميسور
حتّى استمال إليه كلّ قبيلـة ورمى إليه قياد كلّ عثور[3]

ومن بين الشعراء الّذين خدموا الفاطميين الشاعر علي بن محمد الايادي، الّذي يصف النهاية الّتي آل إليها أمر أبي يزيد النكاري في مواجهة المنصور الفاطمي حيث قال:

فارتقى الملعون من خيفته فـي ذي أعيط عـال مصعـد
في ذي خلقاء ملساء، على ذلـك المعقـل، ليسـت بصـدد
معقل من فوقه الله، ومـن تحته المنصور في جيش معد

إلى أن يقول:

---

[1] _ نفسه، نفس الصفحة.

[2] _ الحاجري، محمد طه، المرجع السابق، ص44.

[3] _ نفسه ، ص45.

فإذا مخلد في كف الرّدى موثق الجيد بحبل من مسد

كما عاصر الفاطميين شعراء من أهل السنّة منهم:سهل الورّاق،[1] وأبو القاسم الفزازي.

ومن شعرائهم: أبي جعفر المروذي ومحمد بن المنيب، هذا الأخير الّذي قال عن مخلد بن كيداد:

حلّ البلاء بمخلّد وجميع شيعته النواكر

أمسى بأرض كيانة قد بان عنه كلّ ناصر

إلى أن يقول:

ذق ما جنته يداك قبـ ـل من الكبائر والصغائر

ذق هول شقك للبطو ن وما ارتكبت من الجوائر[2]

وهناك العديد من الصور الشعرية التّي تكشف عن مظاهر النّشاط الفكري في العهد الفاطمي والّتي عبّرت عن جوانب سياسية وأخرى مذهبية.

لكن يبقى أشهر شعراء الدولة الفاطمية الشيعية هوّ شاعر المغرب الأوسط وجليس بلاط بني حمدون بالمسيلة بن هانئ الأندلسي.

ولد الشاعر محمد بن هانئ الأزدي بالأندلس في حدود سنة 320هـ أو316هـ وإليها نسب، في الأندلس عاش وتربى وتعلّم الشاعر محمد بن هانئ، فمهر في الأدب والشعر، رحل إلى بلاد المغرب وفيها اتّصل بالقائد الفاطمي جوهر الصقلي فمدحه ثمّ انتقل إلى المسيلة في بلاط بني حمدون، حيث نال من الشهرة والتقدير ما لم ينله مثله من شعراء زمانه، وفادته ولازم بلاطه حتّى وفاته بطرابلس سنة362هـ وهوّ في طريقه مع المعز إلى عاصمته الجديدة القاهرة مصر،وقد تأسف المعز لوفاة ابن هانئ بقوله: "هذا الرجل كنّا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدّر لنا ذلك"[3].

ومن أشهر القصائد الّتي مدح فيها صاحب المسيلة جعفر بن علي بن حمدون قوله:

يا خير ملتحق بالمجد والكرم وأفضل النّاس من عرب وعجم

يا ابن السدى والنّدى والمعلوات معاً والحلم والعلم والأدب والحِكَم

---

[1] _ نفسه ، ص ص46،47.

[2] _ نفسه ،ص ص،49 _ 52.

[3] _ نفسه، ص89 ومايليها.

لـــو كنت أعطى المنى فيما او مله حملت عنك الّذي حُمِّلت من ألم

لمّا اتّصل بالمعز مدحه وقد غالى في مدحه _كما أشرنا في بداية هذا الفصل_ لكنّه عبّر بصدق عن مستوى الحياة الأدبية الراقية الّتي وصلت بلاد المغرب سواء في بلاط بني حمدون بالمسيلة بالمغرب أو في بلاد المعز الفاطمي بافريقية.

4- حركة التأليف(أعلام الفكر الإسماعيلي)

عرفت حركة التأليف في العهد الفاطمي في بلاد المغرب الإسلامي،ازدهاراً وتوسعاً معتبراً، كنتيجة لانتشار التعليم وتحسن المستوى الثقافي لمعظم شعوب المغرب الإسلامي، بما فيها المغرب الأوسط وإن كان هذا الأخير بدرجة أقل بحكم الظروف السياسية الّتي مرّ بها في العهد الفاطمي، فإلى جانب سقوط أهم دولة فيه وهي الدولة الرستمية وتدمير كثير من حواضره واستباحة أرضه كساحة قتال بين الفاطميين وحلفائهم والزيانتين وحلفائهم فكانت النتيجة أن تراجعت حواضر المغرب الأوسط الّتي نشأت في القرن الثاني والثالث الهجريين كتاهرت وهاز وتلمسان وحتّى طبنة الّتي كانت حاضرة أغلبية متقدمة في شرق بلاد المغرب الأوسط.

لكن رغم تراجع الحواضر الثقافية الّتي ازدهرت في القرن الثالث، نشأت في القرن الرابع الهجري في بلاد المغرب الأوسط أهم حاضرة إسلامية فاطمية، ألا وهيّ "المحمدية" أو "المسيلة" كما ستعرف بعد ذلك، في نفس الفترة أدّت هجرة الرستميين إلى أريغ وورجلان إلى نشأة حواضر ثقافية هامة بصحراء المغرب الأوسط أهمها ورجلان ومدن وادي أريغ التّي أشرنا إليها في الفصل الأول.

في هذا الجزء من هذه الدراسة سنسلط الضوء على حركة التأليف الّتي ساهم فيها علماء ومفكرون إسماعيليون سواء أنتجت داخل المغرب الأوسط وهذا أمر نادر فما استطعنا الوصول إليه باستثناء أشعار "ابن هانئ الأندلسي" أو تلك المؤلّفات الّتي أنتجت في حواضر افريقية الفاطمية كالقيروان ورقادة، المهدية والمنصورية وغيرها، هذه المؤلّفات الّتي كانت دون شك تصل إلى طلاّب العلم والمثقفين في بلاد المغرب الأوسط، ويتم تداولها ومناقش بعض أفكارها واتّخاذ مواقف فكرية منها سواء بالقبول أو الرّفض، هذه المؤلّفات الاسماعيلية المذهبية الّتي كان الفاطميون يحاولون نشرها وفرضها كمصادر ثقافية وحيدة، كما كانوا يستهدفون من وراء نشرها محو آثار المذاهب الخارجية كالاباضية والصفرية، وكذا المذاهب السنيّة كالحنفية

وخاصة مذهب الإمام مالك، هذا الأخير الّذي مثّل هوّ ورجاله جدار الصدّ لمنع انتشار التشيع الاسماعيلي وترسيخه في المنطقة.

تعد الثروة الفكرية التي تركها القاضي النعمان ومن أشهر المؤلّفات الاسماعيلية الّتي لاقت رواجاً فكرياً ومذهبياً كبيرين في التّاريخ الثّقافي الاسماعيلي، تلك الّتي لازال يوجد منها قسم مهم سواء الّذي تمّ تحقيقه أو الّذي لازال مخطوطاً أو مفقوداً، وتعتبر مؤلّفات القاضي النعمان مصادر أساسية في الفكر الاسماعيلي حتّى عصرنا هذا، وقبل التعريف بأهم هذه المؤلّفات يجدر بنا التعريف بالشخصية العلمية للقاضي النعمان.

القاضي النعمان: هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، أصله عربي من بلاد المغرب من أشهر الشخصيات العلمية الاسماعيلية الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ومن أكثر مفكري الاسماعيلية إنتاجاً، لا يعرف تاريخ ميلاده، والّذي يفترض أنّه كان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، أمّا مكان مولده فكان في إفريقية وربّما في القيروان[1].

خدم الخلفاء الفاطميين كلّهم في الدور المغربي للدولة الفاطمية، فخدم عبيد الله المهدي من حوالي313هـ أو314هـ حتّى وفاته، ثمّ خدم القائم والمنصور[2] في عهد هذا الأخير، يبدو أنّ شخصية القاضي النعمان بدأت تبرز كفقيه ومفكر إسماعيلي متميز مما دفع المنصور إلى إعلاء شأنه وتكريمه، وفي هذا الصدد يذكر النعمان قوله: "وكنت أوّل من استقضاه من قضائه ورفع قدري، وأنعم عليّ..."[3].

لمّا توفي المنصور سنة 341هـ حزن النعمان حزنا شديداً لدرجة دفعت المعز لدين الله وهوّ الخليفة الفاطمي الرابع في بلاد المغرب أن يبعث له بخطاب يواسيه ويطمئنه بأنّ المكانة الّتي حضي بها عند المنصور لن تتبدل، بل يَعِدُه بأكثر من ذلك في قوله: "يا نعمان ليحسن عزاؤك ويجمل صبرك مولاك مضى، ومولاك بقي، وأنت واجد عندنا ما كنت واجدا عنده..."[4].

[1] _النعمان، كتاب المجالس والمسايرات، (مقدمة التحقيق)، ص06.

[2] _ نفسه، ص ص79_81.

[3] _ نفسه، ص81.

[4] _ نفسه، ص82.

في عهد المعز زاد النشاط الفكري والدّعوي للقاضي النّعمان وتفتقت شخصيته العلمية وأنجز معظم مؤلّفاته الّتي أصبحت الأساس في الفكر الاسماعيلي سواء في مجال الفقه والعقيدة أو علم الباطن ويذكر صاحب كتاب "تاريخ الخلفاء الفاطميين" أن القاضي النعمان "كان مع الأئمة الّذين عاصرهم في المكان المكين، والمنزلة الّتي يقل فيها المماثل والقرين"[1].

ويدّعي النعمان أنّ كل ما كتبه كان بوحي من الإمام المعز وهذا لترسيخ فكرة، الأئمة هم مصدر كل علم وأنّ العلم فيهم فطري مستودع من الله تعالى[2]، كما أنّ هذا العلم الّذي كان يتلقاه من الأئمة مشافهة كان يعيد صياغته بأسلوبه الخاص لتسهيل فهمه من طرف عامة المؤمنين والذين يقصد بهم الأتباع من الشيعة الاسماعيلية، وقبل عرض هذه الأفكار سواء في مجالسه أو كتبه يراجع الإمام خاصة المعز لدين الله فيما كتبه وفهمه من قول الإمام، وغالباً ما كان موقف الإمام هوّ الموافقة على كتب القاضي النعمان وتندر الحالات التي يطلب فيها الإمام مراجعة بعض الأفكار[3].

وقد تعرض النعمان لهذه المسألة في عدّة مواقع من كتابة المجالس والمسايرات التي يذكر فيها أنّها مرويات في أغلبها إن لم نقل كلها عن الإمام المعز[4].

وتأكيداً لما ذهبنا إليه قال القاضي النعمان: "ولما فتح المعز لدين الله(صلع) للمؤمنين باب رحمته وأقبل علي أوليائه بوجه فضله ونعمته، أخرج إليّ كتاباً من علم الباطن وأمرني أن أقرأها عليهم في مجلس في قصره المعمور"[5].

يذكر النعمان ظروف تأليفه للكتب في عدّة مواطن خاصة في كتابة المجالس والمسايرات هذه الكتب التي بوحي من الأئمة منذ عهد المهدي حتى عهد المعز،لكنها كانت أكثر عدداً وأعمق في هذا الأخير، مصدرها الأئمة الذين استودع الله هذا العلم فيهم.أخذ هذا العلم ورواه النعمان بطرق مختلفة وفي مجالس مختلفة وفي تأليف عديدة، قدرها بعض الباحثين

---

[1] _ إدريس، عماد الدين، المصدر السابق،ص556.

[2] _ المجالس والمسايرات، ص147.

[3] _ إدريس،عماد الدين، المصدر السابق، ص ص559-562.

[4] _ نفسه، ص563.

[5] _ نفسه، ص557. النعمان، المجالس والمسايرات، ص ص386 _387.

بحوالي اثنان وأربعون مؤلفاً في فنون شتى من المعرفة لكنها لا تخرج عن إطار الدعوة الدينية للإسماعيلية[1].

وسنكتفي في هذا الجانب من هذه الدراسة باختصار بعض المؤلفات الأساسية للقاضي النعمان، لتعريف الدارسين بها وبأهميتها الفكرية والمذهبية إلى جانب أبعادها التاريخية،كما أن بعضها لا يخلو من بعض الأفكار ذات الطابع السياسي والاقتصادي وحتى الاجتماعي.
هذه المؤلفات التّي شملت جوانب مختلفة من الحياة الفكرية للفاطميين ولاقت رواجاً في المناطق التّي كانت خاضعة لهم وبدعم من السلطة السياسية الحاكمة.تناولت مؤلفات النعمان جوانب عديدة من الحياة الفكرية منها، الفقه، الأخبار، علم الكلام، العقائد، الوعظ والإرشاد[2].

أهمها في الفقه كتاب: "دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت الرسول عليه وعليهم أفضل السلام"، ويعرف هذا الكتاب بعنوانه المختصر"دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام" وهوّ كتاب فقهي بالدّرجة الأولى، يقع في جزئين، فالجزء الأول خاص بالعبادات يقع في سبع أبواب سمّاها النعمان كتب وهيّ: كتاب الولاية، كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة وكتاب الجهاد، وللرقم سبعة دلالته عند الإسماعيلية كما أشرنا في بداية هذا الفصل لقول الإمام الصادق في حديث الدعائم السبعة.
أمّا الجزء الثاني فيتناول فقه المعاملات، قسّمها إلى ستة وعشرون بابا كلّ باب سمّاه "كتاب" منها: كتاب البيوع والأحكام، فيها كتاب الإيمان والنذور، كتاب الأطعمة، كتاب النّكاح، كتاب الوصايا، كتاب آداب القضاة وغيرها[3].يتناول هذا المؤلف الجوانب الفقهية والتشريعية التّي بني عليها المجتمع والدولة الاسماعيلية في بلاد المغرب وبالتّالي فهو بمثابة دستور هذه الدولة كما يتناول قضايا أساسية ذات صلة بعلم الكلام خاصة باب "الولاية".

أمّا في مجال علم الباطن فقد ترك لنا النعمان كتابان أساسين وهما أساس التّأويل وتأويل الدعائم، وتعكس هذه المؤلّفات الوجه الآخر والخفي للفكر الاسماعيلي _كما سبق الذكر_ في بداية هذا الفصل.

---

[1] _ عارف، تامر(مقدمة تحقيق) كتاب أساس التأويل، ص،14.
[2] _ عبد الرحمن، بدوي، المرجع السابق، ص ص،947_950.
[3] _ حققه آصف بن علي، طبعة، دار المعارف القاهرة، د،ت،(1965).

وللنعمان كتب في الأخبار والسير والتّاريخ وأهمها كتاب: افتتاح الدعوة، ألّف في حدود سنة346هـ، وكتاب المجالس والمسايرات وكتاب شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار والأرجوزة المختارة وهيّ ملحمة شعرية تدل على اطلاع النعمان على الميراث الفكري لليونان. ومن مؤلّفاته ذات الطابع العقدي والجدلي نذكر كتاب: "اختلاف أصول المذاهب" وهو مهم في مجال البحث في علم الكلام وكتاب "الهمة في آداب إتباع الأئمة" وهوّ كتاب تربوي دعوي[1].

تعكس مؤلّفات القاضي النعمان في الفترة المغاربية للدولة الفاطمية المناخ الثقافي والمذهبي الّذي كان سائدا في المناطق الّتي كانت تحت حكم الدولة الفاطمية وخاصة افريقية والمغرب الأوسط دون أن نتجاهل قوّة الرّفض التّي يمثّلها المالكية من السنّة والاباضية من الخوارج، لكن الّذي يشد انتباه الباحث هوّ غياب مؤلّفين غير النعمان من شيعة المغرب الإسلامي وهل مردّ ذلك هوّ عدم القدرة على التأليف، أم أنّ المؤلّفات كانت لا تجاز إلاّ بأمر من الإمام.

وخلاصة القول فإن الاتجاه الشيعي بشقيه الزيدي والإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة مثّل اتجاها فكريا متميزا، ساهم بفاعلية في إثراء الحياة الفكرية والسياسية في المغرب الأوسط، كما كان التوجه الشيعي طرفا أساسيا في تجارب بناء الدولة بالمغرب الأوسط، ورغم النهاية المأساوية للتشيع الإسماعيلي في بلاد المغرب، إلاّ أن أثره الفكري كان عميقا في المجتمع المغربي ويظهر ذلك جليا في حركة المهدي بن تومرت في القرن السادس الهجري وكذا في المفاهيم الصوفية ذات الطابع الفلسفي.

---

[1] _ عبد الرحمن، بدوي ، مذاهب الإسلاميين، ص947_950.

الفصل الثالث

الاتجاه السني ودوره في تطور الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط(ق3- 6ه)

تمهيـــد

أولا: الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة المذاهب السّنية

أ_ الجذور التاريخية لنشأة الإتّجاه السنّي

ب_ الأصول الفكرية للاتّجاه السّني

ج _ الأصول السياسية

ثانيًا:_ الاتجاه السني في بلاد المغرب الأوسط (ق3-6هـ)

أ_ الاتجاه السني في بلاد المغرب الإسلامي

ب_ المذهب الحنفي في بلاد المغرب الأوسط

جـ_ المذهب المالكي في بلاد المغرب الأوسط

ثالثا: دور الاتجاه السني في تطور الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط

أ ـ العلماء وحركة التأليف في بلاد المغرب الأوسط

ب_ الحواضر العلمية في المغرب الأوسط(ق5-6هـ)

تمهيــــد:

يتناول هذا الفصل من البحث الاتجاه السني الّذي يمثل تيار الأغلبية في المجتمع الإسلامي والّذي تعود جذوره التاريخية إلى المراحل الأولى من صدر الإسلام، هذا التوجه الّذي يأخذ كل ما صحّ عن الرّسولﷺ من قول وفعل، كما يأخذ بسير الخلفاء الرّاشدين وكبار الصحابة والتّابعين.

ظهر مصطلح السنة كمدلول معبر عن توجه محدد في الثقافة الإسلامية في القرن الثاني للهجرة(9م)، وذلك لتمييّزه عن التّوجه الخارجي والشيعي، كما تميّز التّوجه السنّي بظاهرة المذاهب الفقهية ذات الطابع التّشريعي، الّتي تمثل تيارات فكرية أساسية داخل هذا التوجه السني العام، هذه التّيارات السُنّية أو المذاهب الفقهية السنية ارتبطت تسمياتها بكبار فقهاء السُنة الّذين برز دورهم العلمي في القرن الثّاني والثّالث الهجريين، لكن تأثيراتهم لازالت مستمرة حتّى الآن ويعتبر الإمام أبو حنيفة النعمان(80-150هـ)أوّلهم، والإمام الأوزاعي(157هـ) ثانيهم أمّا ثالثهم فالإمام مالك بن أنس الأصبحي(3/94_179هـ)، ثمّ جاء دور الشافعي(150-204) وأحمد بن حنبل(164_241) وغيرهم.

ولتحقيق فهم أعمق لهذا التوجه السني الهام والمؤثر في تطور التاريخ والثقافة الإسلامية مشرقاً ومغرباً، عمدت الدراسة إلى البحث في الجذور التاريخية لنشأة هذا التوجه والأصول والمبادئ الفكرية التي قام على أساسها،سواء في المجال الفقهي التشريعي أو في مجال العقيدة والسياسة.

ومن التيارات الأساسية السنية التي لعبت دورا أساسيا في التطور التاريخي والثقافي لبلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، نجد المذهب الحنفي والمذهب المالكي وحتى وإن كان المذهب الحنفي سباقا في الوصول إلى بلاد المغرب الإسلامي، إلاّ أن انتشاره وتأثيره كان محدوداً في بلاد المغرب، رغم استمرار وجوده حتى مطلع القرن الخامس الهجري.

أما المذهب المالكي فقد عرف انتشاراً واسعا في بلاد المغرب الإسلامي في فترة الدراسة (ق3_6هـ)، كما ساهم بقوة في بلورة التوجه الثقافي لبلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة وبلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة، لذا ستركز الدراسة بصفة أساسية - في هذا الفصل - على دور المذهب المالكي دون إهمال دور المذاهب السنية الأخرى.

كما تتناول الدراسة في هذا الفصل مساهمة التوجه السني بمختلف مذاهبه أو تياراته في تطور الحياة الفكرية، من إنتاج للعلوم والمعارف وبروز للعلماء والفقهاء وكذا حركة التأليف.

كما لم تغفل الدراسة في هذا الفصل عن بروز بعض التوجهات الثقافية والسياسية والاجتماعية المرتبطة بالتطور الثقافي العام لبلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، ولعل أبرز هذه التوجهات الثقافية حركة التصوف السني وتجربة المهدي بن تومرت إمام الموحدين، هذه التجربة التجديدية التي جمعت بين السنة والإبتداع.

أولا: الجذور التاريخية والأصول الفكرية لنشأة المذاهب السّنية.

أ ـ الجذور التاريخية لنشأة الإتّجاه السنّي:

شهد المجتمع الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين(11-40هـ) توسعا معتبرا، حيث فتحت مصر والشام وبلاد فارس وبدأت طلائع الفاتحين تعبر إلى الغرب من مصر باتجاه بلاد البربر إلى برقة وطرابلس وإفريقية.

أدّى توسع الفتوحات الإسلامية إلى نشأة مجتمع إسلامي يضم شعوبا وقبائل ذات أصول عرقية ولغوية وحضارية مختلفة، كما واجهت المسلمين قضايا كثيرة وشائكة مسّت جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ممّا لم يَرِد فيها نص قطعي في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف(السنة النبوية)[1].

دفع هذا الأمر الصحابة إلى الاجتهاد قصد تعريف هذه الشعوب بالإسلام، وتمكينهم من فهم عقائده وعباداته وتسهيل تطبيقها في حياتهم وفي بيئات تميّزت بالاختلاف من الناحية الحضارية والاجتماعية وحتّى الجغرافية عمّا كان سائدا في شبه الجزيرة العربية.

اجتهد الصحابة في القضايا المستجدة الّتي عرضت عليهم ولم يجدوا لها نصًا قطعيًا من الكتاب والسنّة، وقد اقتدوا في سلوكهم هذا بما أقرّه الرّسولﷺ في قصّة الصحابي الجليل معاذ بن جبل لمّا أراد إرساله إلى اليمن قاضيا وربّما معلّمًا للمسلمين تعاليم دينهم الصحيحة.

فقال له الرسولﷺ:"بم تقضي ؟ قال:بكتاب الله،قال رسول الله:فإن لم تجد؟،قال:فبسنة رسول الله،قال:فإن لم تجد؟،قال:أجتهد رأيي ولا آلو،فقال رسول الله:الحمد لله الّذي وفّق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله »[2].

---

[1] ـ يوسف، بن أحمد حواله، الحياة العلمية في إفريقية «المغرب الأدنى» منذ تمام الفتح حتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90–450هـ)، ج1،طبعة2000، جامعة أم القرى، مكة، ص262.

[2] ـ الإمام محمد، أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، طبعة، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة،1996، ص،246.

لقد سار منهج الاجتهاد لدى الصحابة على النهج الّذي أقرّه الرّسولﷺ في هذه القصة وفي غيرها من الحوادث الّتي تعرّض لها الصحابة في أسفارهم دون رفقة الرسولﷺ.

فكانوا إذا اعترضهم أمر شرعي رجعوا فيه إلى كتاب الله ثمّ إلى سنّة رسول اللهﷺ، فإن لم يجدوا نصًا قطعيًا صريحًا اجتهدوا آرائهم[1].

واجه الخلفاء الراشدون أبا بكر وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ بعد وفاة الرّسول مشاكلﷺ كثيرة استجدّت في حياة المسلمين.

أمّا أبا بكر _رضي الله عنه_ فقد واجه «حركة الرّدة»، من القبائل الّتي امتنعت عن أداء الزّكاة، كما واجه«مدّعي النبوّة» ومنهم الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكّذاب من بني حنيفة باليمامة في شرق الجزيرة العربية، وطلحة في بني أسد، وسجاح في أحياء من بني تميم[2].

أمّا عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ فتوسعت في عهده رقعة الدولة الإسلامية، ففتحت مصر وبلاد الشام وفارس، وأصبح المجتمع الجديد يضمّ شعوبًا كثيرة وبثقافات ولغات مختلفة إلى جانب اختلاف أصولها العرقية وأعرافها وتقاليدها.

التزم عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ في مواجهة هذه المشاكل بما ورد في القرآن الكريم وسيرة الرّسولﷺ وأضاف إليها بأن أخذ بسيرة وأقضية أبي بكر الصديق، كما كان يدعو أهل الرأي من المهاجرين والأنصار ويشاورهم في حلّ المشاكل[3].

وعلى نفس النهج سار عثمان بن عفان _رضي الله عنه_ لكن تفاقم المشاكل في أواخر عهده أدّى إلى قيام الفتنة الّتي أدّت إلى مقتله سنة 35هـ.

تولّى علي بن أبي طالب _كرّم الله وجهه_ الخلافة ولم تهدأ الفتنة، حيث خرج عليه معاوية بن أبي سفيان والي الشام بحجّة تفريطه في دمّ عثمان بن عفّان، ممّا يسمح له بالطعن في خلافة علي بن أبي طالب ويبرر خروجه عنه[4].

---

[1] _ نفسه، ص،245.

[2] _ منّاع، القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، طبعة، مكتبة، المعارف، الرّياض،1969، ص186.

[3] _ نفسه، ص،187.

[4] _ منّاع،القطان،المرجع السابق،ص،188.

اتسعت دائرة الفتنة بين الصحابة وحصدت حروبها الآلاف من جيل الصحابة والتابعين وشهدت هذه الفتنة وقائع مشهورة أبرزها موقعة الجمل ومعركة صفين سنة36هـ، ثمّ تجدّدت المواجهات سنة37هـ[1].

مالت كفة الحرب لصالح علي وجيشه المتمركز في الكوفة بالعراق، وتراجع معاوية ومن يسانده من أهل الشام، فلجئوا بتدبير من عمر بن العاص إلى رفع المصاحف والمناداة بتحكيم كتاب الله في هذا الصراع، لم يجد علي بن أبي طالب سبيلاً غير قبول التحكيم حقناً لدّماء المسلمين[2].أدّى قبول علي بن أبي طالب التّحكيم بعد أن مالت كفّة الحرب لصالحه إلى انشقاق خطير في صفوف جيشه، وذلك بخروج حوالي اثني عشر ألف مقاتل رفضوا التحكيم، كما أدّى تطور موقفهم هذا إلى ظهور حركة الخوارج، كما مرّ بنا في الفصل الأول من هذه الدراسة.

لم يكن ظهور الخوارج حدثاً سياسيا أو عسكريًا فقط بل كانت له أبعاد وآثار ذات طابع فكري عميق ترتب عنها بروز الاتجاه الخارجي المتميز بآرائه السياسية والعقائدية ومنهجه الفقهي التشريعي، الّذي حاول دومًا أن يتميز عن نهج كبار الصحابة والخلفاء الرّاشدين ومن نهج نهجهم من التابعين وتابعي التّابعين.

هكذا لم يكن خروج أهل النهروان خروجًا عن السلطة وقيادة علي بن أبي طالب فقط، وإنّما كان خروجًا عن التّيار العام الّذي سار فيه المجتمع الإسلامي الأول في عهد الخلفاء الرّاشدين خاصة أواخر عهد عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب بعد أن قبل بالتحكيم.

دفع هذا الأمر أمير المؤمنين علي إلى مواجهة الخارجين من أهل النهروان لخطورة موقفهم العقائدي، والّذي بلغ حدّ تكفير مخالفيهم من المسلمين وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان وحلفه وحتى علي بن أبي طالب ومن سانده في قبول التحكيم.

رغم الهزائم الّتي ألحقها علي بن أبي طالب بأهل النهروان من الخوارج إلّا أنّ أحدهم وهوّ عبد الرحمن بن ملجم تمكّن من الغدر به وقتله سنة 40هـ[3].

أدّى مقتل علي بن أبي طالب على يد الخوارج إلى أن آل أمر الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان خاصة بعد أن تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_ عن منازعة

---

1 _ الطبري، المصدر السابق،ج 5، ص،236 وما يليها.

2 – نفسه، ج6، ص ص36–37.

3 _ الطبري، المصدر السابق، ج6،ص 36.القطّان، منّاع، المرجع السابق، ص،188.

معاوية في أمر الخلافة[1]، وسمي هذا العام "بعام الجماعة"، فيه انتهت الفتنة الكبرى، لكن آثارها السياسية والاجتماعية والنفسية وحتّى الفكرية لم تهدأ، بل تركت أثرًا عميقًا في المجتمع الإسلامي الأول وأدت إلى بروز ثلاث اتّجاهات سياسية أساسية في المجتمع الإسلامي هيّ:

_ الاتّجاه الخارجي، الّذي يرفض إمامة علي ومعاوية معًا، وقد ذهب المتطرفون منهم إلى حدِّ تكفير مخالفيهم.

_ الاتّجاه الشيعي الّذي والى عليًّا ومن بعده ذرّيته ورفض إمامة معاوية بن أبي سفيان،بل أكثر من ذلك، ذهب بعضهم إلى القول بأنّ أمر الخلافة وراثة نبوية من حق علي بن أبي طالب ومن بعده ذرّيته[2].

_ اتّجاه جمهور المسلمين، وهوّ الاتّجاه العام لأغلبية المسلمين الّذي رفض تكفير أي طرف في الخلاف، كما قَبِل الإجماع الّذي توصّل إليه المسلمون حقنًا للدّماء، ورضي بخلافة معاوية بن أبي سفيان، بعد أن تنازل الحسن بن علي عن منازعته في أمر الخلافة سنة 41هـ، وسمي ذلك العام بعام الجماعة وفيه هدأت الفتنة الكبرى بين الصحابة.

واتّجاه الجمهور هوّ الموقف الوسط الّذي أقرّ أنّ أمر الخلافة في قريش،حسب ما روي عن الرّسول ﷺ حيث قال:«الأئمة في قريش»[3].

هذا الموقف الوسط هوّ الّذي أخذ به كبار فقهاء المسلمين، وهوّ يتّفق مع أخبار الصحابة وما كان العمل جاريًا به قبل الفتنة[4].

كما أنّ اتّجاه الجمهور كان ولا يزال يمثّل أغلبية المسلمين وهوّ الّذي تمسّك بالكتاب والسُنة النبوية الصحيحة وبرز فيه عبر التّاريخ الإسلامي كبار المحدّثين والفقهاء الّذين التزموا منهج الاجتهاد الّذي أقرّه الرّسولﷺ وسار عليه الخلفاء الرّاشدون على اختلافهم ومن بعدهم الصحابة

---

[1] – نفسه، ج6، ص ص95-97.

[2] _ أبو زهرة، محمد، المرجع السابق، ص78، سبق لنا معالجة هذه القضية في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[3] – رواه أحمد، وأصله في الصحيحين بغير هذا اللفظ، وهو ما استدل به أبو بكر رضي الله ، كما روى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول" : :إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم ".

[4] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص،78.

والتّابعين وتابعي التّابعين، ولم يتطرّفوا في مواقفهم السياسية والعقدية، سواء في أمر الخلافة أو في أمر الفتنة بين الصحابة.

حدث الانقسام الأكبر في تاريخ المجتمع الإسلامي في النصف الأول من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، لكن الفجوة بين الاتجاهات الإسلامية الرّئيسية الثلاث، خوارج وشيعة وجمهور اتّسعت باستمرار تغذيها الأحداث المؤلمة الّتي شهدها المجتمع الإسلامي خاصة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وفي القرن الثاني للهجرة على وجه الخصوص.

ومن الأحداث المؤلمة الّتي عمّقت الفجوة بين المسلمين بعد الفتنة الكبرى حادثة مقتل الحسين بن علي في كربلاء سنة63هـ وما ترتب عنها من ثورات بقيادة الطالبيين وتقتيل لهم في عهد الأمويين وحتّى في عهد بني عمومتهم من العباسيين، بعد سقوط دولة بني أمية سنة 132 هـ.

أدّت هذه الانشقاقات المتكرّرة في المجتمع الإسلامي إلى لجوء المتطرّفين من الاتّجاهات المذهبية من خوارج وشيعة وربّما حتّى من السنّة إلى محاولة دعم وتأييد مواقفهم بأحاديث وروايات موضوعة، ومنهم من لجأ إلى تأويل الأحاديث النبوية والآيات القرآنية لتأكيد أصالة موقفه وفساد الرأي الآخر[1].

كما لعبت الحركات المعادية للإسلام الّتي وجدت نفسها في دائرة المجتمع الإسلامي بحكم توسع الفتوحات دورا أساسيا في عمليات نشر الأحاديث الموضوعة وإدخال عقائد فاسدة كتلك الّتي ذهب إليها المتطرّفون من الشيعة وحتّى الخوارج[2].

لقد أفزع التّحدث الكاذب عن رسول اللهﷺ كبار فقهاء المسلمين فتجرّدوا لكشف الأحاديث الموضوعة وحماية السنّة النبوية الشريفة من كلّ تحريف، كما بادروا إلى تدوين الصحيح الثابت المعروف من السنّة[3].

وفي عهد عمر بن عبد العزيز(99-100هـ) عرف الاتّجاه المتمسك بالسنة والمعروف باتّجاه الجمهور أو الجماعة دعمًا معتبرًا من طرف السلطة السياسية لهذا الخليفة الرّاشد،حيث فكّر عمر بن عبد العزيز في تدوين السنّة الصحيحة بهدف حمايتها من عمليات التحديث

[1] _ نفسه، ص259، يراجع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[2] _ يراجع في هذا الشأن الفصل الأول والثاني من هذه الدراسة.

[3] _ أبو زهرة، المرجع السابق،ص259 .القطّان، المرجع السابق، ص،286_287.

الكاذب كما كان يهدف إلى أن يجعل منها(السنّة) مصدرًا أساسيًا في عملية التشريع وتطبيق الأحكام الشرعية وفق تعاليم الإسلام الصحيحة المستمدّة من القرآن الكريم والسنّة النبوية[1].

كما كانت لعمر بن عبد العزيز،مبادرة تاريخية أخرى لنصرة السنّة في بلاد الغرب الإسلامي ومواجهة الحركات المبتدعة، ويتعلّق الأمر بإرساله لبعثة علمية تتكون من عشر فقهاء من التّابعين إلى بلاد المغرب وذلك سنة 100هـ.

لقد كان هدف هذه البعثة تعليم البربر تعاليم الإسلام الصحيحة،على منهج الصحابة وجمهور المسلمين وحمايتهم من الحركات المبتدعة خاصة النحْلة الخارجية والشيعية، وفيما بعد الاعتزال.

لقد أدّى هذا التوجه القوي لفقهاء الجمهور أو الجماعة لحماية السنّة النبوية من عمليات الدّس والتحديث الكاذب إلى توسع دراسة الحديث النبوي وسيرة الرّسول عليه الصلاة والسّلام وبدأ يطغى مفهوم السنّة كاتجاه لهذه الدّراسات على حساب مفهوم الجمهور أو الجماعة.

وترتبط هذه المرحلة بعصر التّابعين كما سمّاهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله عزّ وجل:﴿والسّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والّذين اتّبعوهم بإحسان﴾[2].

بذل التّابعون جهدًا معتبرًا في جمع المروي من أحاديث رسول الله ﷺ، كما جمعوا أقوال الصحابة واجتهاداتهم وأقضية الخلفاء الرّاشدين خاصة أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب[3]، أمّا أخذهم عن علي بن أبي طالب فقد كان محدودًا، ويرجع ذلك إلى اعتقاد أهل السنّة أنّ الشيعة قد دسّوا في مروياته وعلومه وأقضيته من الكذب ما يدعوا إلى الشك في كثير من الأقوال والمواقف والفتاوى، ولم يأخذ أهل السنّة إلّا ما ورد عن علي بن أبي طالب عن طريق أهل بيته،وأصحاب عبد الله بن مسعود[4].

أخذ التّابعون عن عبد الله بن عمر بن الخطاب(ت73هـ) وزيد بن ثابت(ت45هـ) وفي هذا الصدد يذكر ابن القيم الجوزية قوله: «والدين والفقه انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود،

---

[1] _ نفسه، نفس الصفحة.

[2] – سورة التوبة، الآية 100.

[3] _ أبو زهرة، المرجع السابق،ص257.

[4] _ القطان، منّاع، المرجع السابق، ص247.

وأصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر،وأصحاب عبد الله ابن عبّاس،وأمّا أهل العراق فعلّمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود »[1].

تُوِّجَ جهد التّابعين الّذين أخذوا بالحديث والسنّة بظهور المدارس الفقهية السنية، وبرز كل عالم من علماء التّابعين بمذهبه المتميز، لكنّهم تركّزوا في الغالب في ثلاث مدن رئيسية وهيّ: المدينة ومكّة والكوفة.

برز في المدينة في جمع السنّة من التابعين سعيد بن المسيب(ت94هـ) الذي أبر الفقهاء وأكثرهم علما بقضايا الرسول . صلى الله عليه وسلم . وقضايا أبي بكر وقضايا عمر وعثمان، ومن فقهاء المدينة كذلك،سالم بن عبد الله بن عمر وخلفهم بن شهاب الزهري، ثم القاضي يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبد الرّحمن وفي مكة برز عطاء بن أبي رباح[2].

أمّا في العراق فقد ظهر إبراهيم النخعي(ت96هـ) والشبعي بالكوفة وفي البصرة الحسن البصري(ت110هـ)، وفي اليمن طاووس بن كيسان(ت106هـ)[3].

ونظرًا للاختلاف المنهجي بين فقهاء السنّة في الأمصار المختلفة ظهرت مدرستان فقهيتان أساسيتان وهما مدرسة الكوفة والّتي تميز علماؤها بفقه الرأي، ومدرسة المدينة المعروفة بفقه الأثر.

يكمن الاختلاف بين المدرستين في مقدار الأخذ بالرأي فمدرسة الكوفة عرف فقهاؤها بكثرة الإفتاء بالرأي، ما لم يصح لديهم حديث في موضوع اجتهادهم.

أمّا مدرسة الأثر فلا يأخذون بالرأي إلّا اضطرارًا، وهذا يعني أنّ الأخذ بالحديث والسنّة النبوية كان لدى الطرفين، وكذلك الأخذ بالرأي لكنهما يختلفان في مقدار الأخذ بالحديث والرأي[4].

ومن أبرز فقهاء الرأي علقمة بن قيس النخعي(ت162هـ)، إبراهيم النخعي(ت96هـ) والحسن البصري (ت110هـ)،محمد بن سيرين(ت110هـ)، وحمّاد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة

---

[1] _ ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، المجلد الأول، ج1،تحقيق، الألباني محمد ناصر الدين، طبعة، دار الإمام مالك، سنة2014،ص18.

[2] – نفسه، المجلد الأول، ج1، ص ص19–20.

[3] _ نفسه، المجلد الأول، ج1،ص ص20– 21.

[4] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص،260.

النعمان، وغيرهم كثير،وأكثر رواياتهم عن عبد الله بن مسعود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

أمّا في مدرسة المدينة فقد برز الفقهاء السبعة، وهم من التابعين يتقدمهم سعيد بن المسيب وهو قريشي(ت94هـ) وعن تلميذه بن شهاب الزهري أخذ الإمام مالك،ومنهم وعروة بن الزبير،وهوّ ابن أخت عائشة أم المؤمنين،وأبو بكر بن عبيد بن الحارث،أخذ الاثنان عن عائشة أم المؤمنين وتوفيا في نفس السنة 94هـ.

ومنهم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق(ت99هـ)، كان فقيها ناقلاً للحديث توفي سنة 108/7هـ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود(ت98هـ) وعنه أخذ الخليفة عمر بن عبد العزيز،وقد كان له تأثير قوي في اتجاهه الفكري، ومنهم كذلك سليمان بن يسار(ت107هـ) مولى السيدة ميمونة بنت الحارث الّتي أعتقته، روى عن زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وأمّهات المؤمنين، ميمونة وأم سلمة، توفي سنة100هـ، ومنهم خارجة بن زيد بن ثابت[1].

رغم الجهد الّذي بذله فقهاء الجماعة من أصحاب الرأي والأثر إلّا أنّ عمليات الكذب على الرّسولﷺ وصحابته استمرّت من طرف الزنادقة والمبتدعة وأصحاب الأهواء والمتطرّفين من الخوارج والشيعة، ممّا دفع فقهاء الجماعة والّذين سيعرفون في التّاريخ الإسلامي بعد ذلك بفقهاء "السنّة"إلى وضع ضوابط منهجية جديدة للعناية أكثر بدراسة الحديث وحمايته من عمليات الوضع.

اهتم الفقهاء من أهل والجماعة أو السنة، بتمحيص الرواية ودراسة الأحاديث، ووزنها بالمشهور منها والمعروف من الدين، كما اهتّم الفقهاء بتدوين الحديث النبوي الصحيح.

في مطلع القرن الثاني للهجرة الثامن ميلادي كان من بين كبار علماء السنة نافع مولى عبد الله بن عمر، وأصله من الديلم، وهوّ من كبار التابعين أخذ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعن أبا سعيد الخدري،رضي الله عنهما، روى عنه بن شهاب الزهري والإمام مالك بن أنس، ونافع وهو من الثقات اللذين جمعوا الحديث النبوي الشريف،توفي سنة117هـ[2].

---

[1] _الأشقر، عمر سليمان، تاريخ الفقه الإسلامي، طبعة، دار الفلاح، الكويت،1991، ص85.

القطان، مناع، المرجع السابق، ص295،294.

[2] _ ابن القيم، الجوزية، المصدر السابق، المجلد الأول، ج1، ص ص20- 21.

من علماء هذه المرحلة «ابن شهاب الزهري»توفي سنة 124هـ وهوّ أبو بكر محمد بن عبد الله القريشي من قبيلة بني زهرة أدرك عشرة من الصحابة، روى عنه الإمام مالك بن أنس وسفيان بن عينية وسفيان الثوري ويعتبر الزهري ناقل علم الفقهاء السبعة بالمدينة، وفي حقّه قال عمر بن عبد العزيز:«عليكم بابن شهاب، فإنّكم لا تجدون أحدًا ألم بالسنة الماضية منه»[1].

وفي عصر تابعي التابعين برز الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية، فبرز من مدرسة الرأي الإمام أبو حنيفة النعمان(ت150هـ)، ومن مدرسة الأثر بالمدينة الإمام مالك بن أنس (ت179هـ)،وفي الشام برز الإمام الأوزاعي وأصله من اليمن(ت157هـ)، وبمصر الليث بن سعد (ت175هـ)، كما عاصرهم سفيان الثوري بالكوفة (ت161هـ)، وفي منتصف القرن الثاني للهجرة ومطلع القرن الثالث الهجري برز الإمام الشافعي(150-204هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ)، ثم داوود بن علي الأصفهاني (202-270هـ)[2].

هذا التيار الفكري الإسلامي الّذي يصطلح على تسميته بأهل السنة أو الاتجاه السنيّ والّذي يرتكز على فقه الأثر وفقه الرأي ويشمل كلّ هذه السلسلة الطويلة من كبار فقهاء المسلمين من الصحابة والتّابعين وتابعي التّابعين إلى الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى، هوّ الّذي بنى آرائه الفقهية والسياسية على الإجماع الّذي ساد بين المسلمين في مرحلة الخلفاء الرّاشدين (11-40هـ)، وحتّى بعد عام الجماعة سنة 41هـ حيث تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة.

كما تبنّى هذا التّيار مبدأ الدّفاع عن السنّة النبوية وحمايتها من كلّ عمليات الوضع أو التّحديث الكاّذب، ومظاهر التأويل الفاسد واتّخذ من السنة النبوية مصدراً أساسيًا للتشريع بعد القرآن الكريم،وتوسع في دراستها.

ب- الأصول الفكرية للاتّجاه السّني:

نشأ الاتّجاه السني كموقف فكري ديني ذو أبعاد فقهية، عقائدية الهدف منها توجيه سلوك الإنسان المسلم بما يتّفق والأحكام الشرعية الّتي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهذا على خلاف نشأة الاتّجاه الخارجي والشّيعي المرتكز على مواقف سياسية بالدرجة الأولى[3].

---

[1] _ الأشقر، عمر سليمان، المرجع السابق، ص82.

[2] - للمزيد يراجع، أبو زهرة محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية.

[3] _ للمزيد،يراجع الفصل الثاني والثالث من هذه الدراسة.

هذه النشأة الّتي انفرد بها الاتجاه السني هي الّتي جعلت للجانب الفقهي دورًا أساسيًا في هذا التوجه من النّاحية النظرية والعملية في مجال التّشريع والعقيدة والسياسة.
توج جهد علماء الجماعة أو الجمهور وهم المعروفون بأهل السنة ـ كما مرّ بنا. بظهور المذاهب الفقهية الكبرى في القرن الثاني ومطلع القرن الثالث للهجرة، ومنذ ذلك العصر أصبحت المذاهب الفقهية تلعب دورًا أساسيًا في هذا التوجه.

1_ الأصول الفقهية:

مرّ بنا في مرحلة البحث عن الجذور التاريخية للتّوجه السني أنّه ارتبط منذ عصر الصحابة وبعد وفاة الرّسولﷺ بعلم وفهم الصحابة للنص القرآني والأحاديث النبوية وتطبيقها في حياة المسلمين،سواء في عهد الخلفاء الرّاشدين وكبار الصحابة، أو في عهد صغار الصحابة والتّابعين، الّذي يغطي مرحلة القرن الأول الهجري وحتّى مطلع القرن الثاني الهجري.
والعلم والفهم والتطبيق للنص الديني هوّ ما اصطلح عليه عند المسلمين في صدر الإسلام «بالفقه»أمّا الفقه في مفهوم المتأخرين فيعني:«العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلّتها التّفصيلية»وهذا يعني أنّ الفقه علم بالأحكام الشرعية المستمدة من مصادر الشرع الأساسية وهيّ القرآن الكريم والسنة النبوية[1]، أمّا الجانب العملي فيه فيعني أنّ الأحكام الفقهية تتعلّق بالمسائل العملية المرتبطة بأفعال النّاس من عبادات ومعاملات[2]، أوبتعبير آخر بالجانب السلوكي الإنساني اليومي، كما أنّها تهدف إلى تقويم وتوجيه سلوك الإنسان المسلم بما يتّفق والأحكام الشرعية الّتي نصت عليها مصادر الإسلام الأساسية، على هذا الأساس دوّن الفقهاء القانون الإسلامي في كتب الفقه وصنفوه إلى قسمين أساسيين وهما: قسم العبادات وقسم المعاملات.
ما يهمنا في هذه الدراسة هوّ ارتباط هذا الاتّجاه السني بحركة تطور الفقه الإسلامي سواء في مرحلة الخلفاء الرّاشدين أو في مرحلة الصّحابة والتابعين وتابعي التابعين.

---

[1] _ الأشقر،عمر سليمان،المرجع السابق،ص9_14.

[2] _ فقه العبادات من أهم فروع الفقه وأشهرها وأكثرها تناولا؛ يهدف هذا الفرع إلى تأصيل العبادات وترسيخها، كما يهدف إلى ربط العبادة وأحكامها بالكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة. ترجع مواضيع فقه العبادات إلى خمسة أقسام رئيسية هي :الطهارة، والصلاة، والزكاة،والصوم، والحج.أما فقه المعاملات فيتناول المعاملات مثل الوقف،الجنايات،أحكام الطلاق والمواريث... للمزيد يراجع الأشقر،عمر سليمان،المرجع السابق.

توجت هذه المرحلة بظهور المذاهب الفقهية السنية الكبرى وفي مقدمتها المذهب الحنفي والمذهب المالكي،هذين المذهبين وصلت تأثيراتهما إلى بلاد المغرب بقوّة وساهمت في توجيه الحياة الفكرية والسياسية وحتّى الاجتماعية وجعلت من الفقهاء سلطة فاعلة في التطور التاريخي لشعوب المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة،هذا التأثير الّذي شمل مرحلة هذه الدراسة الممتدة من القرن الثالث حتّى القرن السادس الهجريين،بل تعدّها.

شاركت هذه المذاهب الفقهية السنية في بلورة وتوجيه تطور الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي، بما أنتجه الفقهاء سواء في المشرق أو المغرب من مؤلّفات، وما صاغوه من مسائل فقهية وبما مارسوه من دور تعليمي مذهبي.

كما كان للفقهاء في كثير من المراحل التّاريخية ـ في فترة الدراسة ـ دور أساسي في توجيه الحياة السياسية أو التأثير عليها، ولا يخلو هذا الدور من التأثير على الجانب الاجتماعي لسكان بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة.

رغم التعدد المذهبي الفقهي الموجود داخل التيار أو التوجه السني العام والّذي ضمّ المذهب الحنفي والمالكي والأوزاعي والشافعي والظاهري، إلّا أنّ الفهم العام للقضايا المطروحة للنّقاش يبدو متقاربا وأحيانا متطابقا بين المذاهب الفقهية السنية، لكن هذا لا ينفي وجود بعض الاختلافات لكنّها ليست جوهرية، ورغم ذلك كانت تحدث بين هذه المذاهب السنية، خلافات وصراعات فكرية وأحيانا اجتماعية مثل ما كان يحدث بين الحنفية والمالكية في افريقية ببلاد المغرب، لكن تبقى الآراء العقدية المشتركة هيّ الأساس.

ولفهم أدق لدور الجانب الفقهي في توجيه الحياة الفكرية عند أهل السنّة جدير بنا العودة إلى الأسس المنهجية الّتي بني عليها هذا الاتجاه خاصة المذاهب الّتي وصلت واستقّرت ببلاد المغرب،ونقصد بذلك المذهب الحنفي والمالكي.

1 _1 :المذهب الحنفي

ينسب المذهب الحنفي إلى الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن روطي،وأصله فارسي ولد وعاش بالكوفة،وهوّ من تابعي التّابعين ولد سنة 80هـ وتوفي سنة150هـ،عاش أكثر حياته في الكوفة وامتهن تجارة الخز، لكنه مال إلى مجالس العلماء وأقبل على الفقه حتّى صار إماما لمدرسة أهل الرأي بالكوفة.

في الكوفة وامتهن تجارة الخز، لكنه مال إلى مجالس العلماء وأقبل على الفقه حتّى صار إماما لمدرسة أهل الرأي بالكوفة.

أخذ أبو حنيفة النعمان العلم على يد عدد كبير من علماء العراق، ومكة والمدينة، وأبرزهم شيخه حماد بن أبي سليمان(ت119/20هـ) الّذي لازمه حتّى وفاته، وعنه قال أبو حنيفة:«فآليت على نفسي ألّا أفارقه حتّى يموت، فلم أفارقه حتّى مات»[1]. كما أخذ أبو حنيفة عن عطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس ونافع مولى بن عمر من أهل السنّة، وأخذ عن فقهاء آل البيت وأبرزهم الإمام زيد بن علي، والإمام جعفر الصادق[2].

درس أبو حنيفة في بيئته الكوفة الزاخرة بالعلماء والفقهاء والمحدّثين من طوائف مختلفة من أهل السنة والشيعة وحتّى الخوارج،وقد جرّه هذا المناخ العلمي إلى علم الكلام والجدل، لكن شيخه حماد نهاه عن المجادلة وقال له:« من أراد أن يزّل صاحبه،فقد أراد أن يكفر صاحبه،فقد كفر قبل أن يُكَفِّر صاحبه...»[3].

أدرك أبو حنيفة أهمية هذا التوجيه فقال:«راجعت نفسي، وتدبرت،فقلت: إنّ المتقدمين من أصحاب النبي ﷺ والتّابعين، لم يكن ليفوتهم شيء مما ندركه نحن... ثمّ لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك، ونهو عنه أشدّ النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه...تركت المنازعة والمجادلة والخوض في الكلام... ورجعت إلى ما كان عليه السلف»[4].

رجع أبو حنيفة إلى منهج السلف الصالح وانصرف إلى الفقه واستخلاص الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، كما استفاد أبو حنيفة من الموروث الفقهي الّذي تركه الصحابة في الكوفة بعد تمصيرها، ومن أبرزهم علي بن أبي طالب وبن مسعود وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمامة، وأنس بن مالك غلام الرّسولﷺ.

---

[1] _ القطان، مناع، المرجع السابق، ص328-329.

[2] _ نفسه، ص329.

[3] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص348.

[4] _ نفسه، ص348.

وقد زاد عدد الصحابة في العراق والكوفة بعد أن أذن لهم عثمان بن عفّان بالخروج إلى الأمصار، كما جعل علي بن أبي طالب من الكوفة عاصمة لمقرّ الخلافة في عهده، وزاد عدد الصحابة فيها إلى أكثر من ثلاثمائة صحابي[1].

آل علم الصحابة في الكوفة إلى كل من إبراهيم بن يزيد النخعي(ت96هـ)، والشعبي وهوّ عامر بن شرحبيل الهمذاني(ت106هـ أو100هـ) وعنهما أخذ حمّاد بن أبي سليمان (ت120هـ) وعنه أخذ أبو حنيفة، وجلس في مجلسه بعد وفاته[2].

لخص أبو حنيفة منهجه الفقهي بقوله:«آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنّة رسول الله ﷺ فإن لم أجد في كتاب الله تعالى ولا سنّة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه...آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إل قول غيرهم، أمّا إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم النخعي أو الشعبي وبن سرين، والحسن البصري وعطاء (بن أبي رباح) وسعيد بن المسيب...فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا»[3].

ويستفاد من هذا النص أنّ منهج أبي حنيفة هوّ استمرار لمنهج الصحابة والتابعين، حيث يقوم على أساس الأخذ بالقرآن الكريم، ثمّ بالسنّة النبوية ثمّ بأقوال وأقضية الصحابة ثمّ الاجتهاد.

_ المنهج الفقهي عند الإمام أبو حنيفة

يقوم المنهج الفقهي لأبي حنيفة على سبعة أصول أو قواعد هيّ:

*_ **الأصل الأول:_ القرآن الكريم**:وهوّ المصدر الأول الأساسي للشريعة وإليه ترجع كلّ الأحكام ومنه تستمد أصالتها.

*_ **الاصل الثاني: وهوّ السنّة النبوية:** وهيّ ترجمان القرآن، جاءت لتبيان ما جاء في القرآن الكريم من أحكام شرعية، وتقريب النّاس إلى الفهم الصحيح للقرآن والأحكام الشرعية الّتي تضمنها، وتفصيل ما جاء مجملا في القرآن.

والسنّة هيّ كلّ ما أثر عن الرّسولﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ومنهج أبي حنيفة في هذا الباب يقوم على أساس التّحري عن رجال الحديث والتشدد في قبول الحديث بهدف التثبت من

---

[1] _ الأشقر، عمر سليمان، المرجع السابق، ص86.

[2] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص351.

[3] _ نفسه، ص370-371. القطان، المرجع السابق، ص331.

صحة الرواية، وعلى هذا الأساس فأبو حنيفة لا يقبل الخبر عن رسول اللهﷺ إلّا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو اتّفق على صحّته فقهاء الأمصار وهوّ "المشهور".

أدّى هذا الأصل أو المبدأ إلى تضييق دائر الأخذ بالحديث عند أبي حنيفة وأتباع مذهبه ودفعهم باستمرار إلى التوسع في القياس بالدرجة الأولى، ويمثل هذا الموقف من السُنة عند الأحناف نقطة اختلاف بينهم وبين المالكية على وجه الخصوص.

لكن أبو حنيفة ربّما يستند في موقفه هذا إلى الحديث النبوي الشريف الّذي قال فيه الرّسولﷺ:«إنّ الحديث سيفشو عنّي، فما أتاكم يوافق القرآن الكريم فهوّ منّي، وما أتاكم عنّي يخالف القرآن فليس منّي»[1]،كما أن أبا حنيفة عاش في بيئة انتشر فيها الفرق المبتدعة.

الأصل الثالث: الأخذ بقول الصحابة:فإن كان مالكًا يرفع مكانة قول الصحابي وفتواه إلى مرتبة الحديث ويجعل العمل واجباً بها، فإن أبا حنيفة كان يتخيّر بين أقوال الصحابة ويُعمل فيها رأيه فيختار القول الّذي يراه مناسبا أو الّذي يستحسنه، أمّا إذا تعلّق الأمر بقول وفتوى التّابعين فإنّ أبا حنيفة يفضل الاجتهاد كما اجتهدوا[2].

الأصل الرابع:القياس ويعني إلحاق أمر منصوص على حكمه بأمر آخر لعله تجمع بينهما، والقياس في هذه الحالة يتطلّب بذل الجهد العقلي الكافي لاستنباط الأحكام وفرض الفروض واختبارها للوصول إلى العلّة الّتي تربط أمرًا منصوصًا عليه بآخر لم يرد فيه نص.

وقد توّسع الإمام أبو حنيفة في هذا الأصل ليسد النقص الّذي ينشأ كنتيجة لموقفه الحذر من كثير من الأحاديث الّتي لم تبلغ لديه مرتبة الأخذ بها إلى جانب رفض الأخذ ببعض آراء الصحابة والتّابعين، ليس على أساس الطعن فيها، ولكن على أساس حقّه في الاجتهاد وإبداء الرأي[3].

يعبّر وأبو حنيفة في أمر القياس عن موقف مدرسة الرأي بالعراق والكوفة على وجه الخصوص، ويختلف عن مدرسة الأثر الّتي يمثّلها في وقته الإمام مالك في مقدار التوسع في

---

[1] _ حديث نبوي مرسل، رواه البهيقي، في كتاب معرفة السنين والآثار، والشافعي في كتاب "الأم". القطان، المرجع السابق، ص332.

[2] _ الاجتهاد معناه بذل غاية الجهد للوصول إلى أمر من الأمور، أو هوّ في اصطلاح الفقهاء، بذل الفقيه وسعه في استنباط الأحكام العملية من أدلّتها التفصيلية.

[3] _ أو زهرة، المرجع السابق، ص372.

القياس والأخذ بالرأي في المسائل الفقهية المطروحة للبحث، كما يتميز الفقه في مدرسة الرأي وعند أبي حنيفة بافتراض المسائل واقتراح الحلول الفقهية لها وهذا ما يصطلح عليه «بالفقه التقديري» وهوّ أمر ترفضه مدرسة الأثر خاصة المالكية منهم.

_ **الأصل الخامس الاستحسان:** عندما لا يفي القياس بالغرض الأساسي منه بسبب وجود نص صريح يخالفه أو أنّه تبين بعد الاختبار عدم صلاحية القياس لاختلاف بعض الجزيئات أو وجد أنّ القياس يخالف إجماع الصّحابة وحتّى العرف السائد، فإنّ القياس في هذه الحالة يترك ويؤخذ بالإستحسان[1].

الأصل السادس: الإجماع ويعني إجماع المجتهدين في عصر من العصور على حكم من الأحكام،وهذا الأصل متفق عليه بين العلماء خاصة في عصر الصحابة،وهذا ما أخذ به أبو حنيفة والإمام مالك لكن الإمام أحمد بن حنبل أنكره في غير عصر الصحابة[2].

كما يأخذ الإمام أبو حنيفة بالعرف الصالح أو الصحيح الّذي لا يخالف نصًا في القرآن ولا سنّة من سنن الرّسولﷺ أو عمل الصحابة، أمّا العرف الّذي يخالف ما جاء به الإسلام فإنّه فاسد ولا يؤخذ به.

وممّا تجدر الإشارة إليه هوّ أنّ بعض الفقهاء المنتسبين إلى مذهب أبي حنيفة قد أحدثوا بابًا في فقه المذهب الحنفي اصطلحوا عليه « بالحيل الشرعية » كما سمّوه « المخارج من المضايق » ويهدف إلى تقليب الفكر حتّى يهتدي على مخرج يتناسب مع الفتوى الّتي يرغبون فيها[3].

وباب الحيل هذا أنكر الإمام ابن القيم الجوزية نسبته إلى أحد من الأئمة الكبار وأصحاب المذاهب بل نسبه إلى المتأخرين بقوله:«إنّ المتأخرين أحدثوا حيلًا لم يصح القول بها عن أحد من الأئمة ونسبوها إلى الأئمة،وهم مخطئون في نسبتها إليهم»[4].

1 – 2 _المذهب المالكي:

---

[1] – الاستحسان أداة لاستنباط الأحكام الشرعية عند غياب النصوص وعجز ما يسبقها من أدوات وقد توسع فيه الأحناف وغيرهم وعدوه مصدراً من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

[2] _ اصطلاحاً يعني اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي. للمزيد يراجع ،أبو زهرة، المرجع السابق، ص، 372 وما يليها.

[3] _ القطّان، مناع، المرجع السابق، ص ص 332-333.

[4] _ ابن القيم الجوزية، المصدر السابق، ج3، ص192.

ينسب المذهب المالكي إلى مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي من أصول يمنية ولد سنة93هـ بالمدينة المنوّرة، وهوّ من تابعي التّابعين، توفي سنة179هـ، تربى الإمام مالك في بيت يتّجه إلى العلم ورواية الحديث ولم يمتهن مالك مهنة غير طلب العلم وتعليمه عاش معظم حياته في المدينة، وحضر مجالس العلماء فيها وأخذ عن عدد كبير من شيوخ العلم، منهم ربيعة بن عبد الرّحمن المعروف بربيعة الرأي، لأنّه عرف من فقهاء المدينة بالرأي القائم على أساس التوفيق بين النصوص والمصالح المختلفة[1].

كما أخذ الإمام مالك عن بن هرمز(ت117هـ)[2] وجلس إلى حلقته ثلاثة عشر سنة، وعنه يقول الإمام مالك:«جالست ابن هرمز ثلاثة عشر سنة في علم لم أبثه لأحد من الناس»،كما قال عنه:«وكان أعلم النّاس بالرّد على أهل الأهواء، وبما اختلف فيه الناس »[3].

أخذ الإمام مالك عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وناقل علمه وعلم عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ كما أخذ مالك عن ابن شهاب الزهري، هذا الأخير الّذي يعرف بأنّه حامل علم سعيد بن المسيب وكبار التّابعين.

_ **المنهج الفقهي عند الإمام مالك:**أخذ مالك برواية الحديث وفتاوى الصحابة ومنها استمدّ منهجه الفقهي الّذي يقوم على الأصول التالية:

الأصل الأول الكتاب:يرى مالك أنّ القرآن الكريم هوّ كلّي الشريعة وعمدة الدّين وسجل أحكامها الخالدة،يؤخذ بنصه الصريح دون تأويل، كما يأخذ الإمام مالك بكل ما يفهم من القرآن بالنص، أو الإشارة أو التنبيه أو مفهومه، ويعد القرآن الكريم المصدر الأساسي والأول وبهذا المفهوم لاستنباط الأحكام الشرعية هذا الموقف الّذي يشترك فيه أهل السنة.

_ **الأصل الثاني: السنّة:**هيّ الأصل الثاني بعد القرآن الكريم في منهج الإمام مالك،الّذي توسع في الأخذ بها والاستدلال بالأحاديث النبوية،فهو يأخذ بالحديث المتواتر الّذي ترويه جماعة عن جماعة حتّى وصلوا إلى النبيﷺ،كما أخذ الإمام مالك بالمشهور من الحديث كما يأخذ بخير الآحاد، لكن يشدد في قبول الرّواية،ولا يروي إلّا عن الثقات خاصة في كتابه الموطأ.

---

[1] – أبو زهرة، المرجع السابق، ص،383.

[2] _ ابن هرمز هوّ عبد الرّحمن بن هرمز، من موالي الهاشميين، مقرئ، وحدّث من التّابعين، روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، ومعاوية بن أبي سفيان، وروى عنه الزّهري وأبو زناد وغيرهم.

[3] _أبو زهرة، المرجع السابق، ص385.

_ **الأصل الثالث عمل أهل المدينة:** ينفرد الإمام مالك عن باقي الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية السنّية بهذا الأصل الّذي يقوم على أساس اعتقاد الإمام مالك بأنّ المدينة هيّ دار الهجرة، بها نزل الوحي، وفيها أقام الرّسولﷺ وصحابته الكرام، وبالمدينة نشأ المجتمع الإسلامي الأول، وعلى هذا الأساس يكون عمل أهل المدينة، هوّ استمرار لسيرة النبي وصحابته الكرام، وبذلك يقدّم الإمام مالك عمل أهل المدينة على خبر الآحاد والقياس.

رغم أنّ مالكًا ليس هوّ أوّل من أعطى عمل أهل المدينة هذه المكانة إلّا أنّه أوّل من جعل عمل أهل المدينة أصلًا من أصول المناهج الفقهية، كما كان الإمام مالك يأخذ بفتاوى التابعين لكن دون أن يجعلها في منزلة قول الصّحابة وقد واجه الإمام مالك عدة انتقادات بسبب تبني هذا الأصل، وقد برز ذلك في مراسلاته للإمام الليث بن سعد في مصر[1].

_ **الأصل الرّابع المصالح المرسلة:** وتعني جلب منفعة ودفع مضرّة في أمر لم يشهد له الشّرع بالإبطال ولا الاعتبار، وأنّ القياس والاستحسان يجب أن يكونا لمراعاة المصلحة.

_ **الأصل الخامس سد الذرائع:** والذرائع هيّ الوسيلة إلى فعل غير جائز بعمل جائز،يؤدي إلى فعل محظور، وسد الذرائع في هذه الحالة إيجاد الآليات والوسائل الّتي تمنع الذرائع وبالتّالي المفاسد وتؤدي إلى جلب المصالح وقد توسع الإمام مالك في هذا الأصل لدرجة المبالغة[2].

وبعد هذا العرض للأصول المذهبية لكلا المذهبين يتّضح لنا أصل الاختلاف بين المنهجين وحتّى وإن كان يمثلان اتّجاهًا مذهبيًا واحدًا هوّ الاتّجاه السني، إلّا أنّ المنهج في كلا المذهبين وحتّى وإن تقارب في بعض الأصول كالأخذ بالكتاب والسنّة النبوية وقول الصحابة، إلّا أنّ نقاط الاختلاف المنهجي كانت مؤثّرة وأبرز مظاهرها:

_ الاختلاف في الأخذ بالحديث والتحري عن رجاله(الرواة) والتشدد في قبول الحديث خاصة عند الإمام أبي حنيفة مقارنة بالإمام مالك، وربما يعود ذلك إلى خوف أبي حنيفة الشديد من ظاهرة الكذب على الرّسولﷺ والّتي فشت بين الفرق في العراق.

_ الاختلاف في مفهوم وتطبيق القياس، فإن كان القياس عند أبي حنيفة يخضع للرأي، فإنّ القياس عند الإمام مالك يخضع للمصلحة.

---

[1] _ ينظر: الملحق رقم 06 . أبوزهرة، لمرجع السابق، ص416-417، القطان، المرجع السابق، ص348_349.

[2] _القطان، المرجع السابق، ص ص355 - 356.

_ الاختلاف في الأخذ بقول الصحابة، فإن كان الإمام مالك يرفع قول الصحابي إلى مرتبة تلي الحديث النبوي الشريف فإنّ أبا حنيفة رغم إعطائه لقول الصحابة مكانة في منهجه إلّا أنّه كان يتخيّر في الأخذ بأقوالهم، فيأخذ ما يراه مناسبًا لرأيه ويدع مالا يناسبه في الرأي.

كما يتميّز مذهب الإمام مالك باعتبار عمل أهل المدينة أصلًا في منهجه وهذا ما يخالفه فيه أبي حنيفة وكثير من فقهاء عصره كالشّافعي واللّيث بن سعيد وأحمد بن حنبل وغيرهم[1].

هذا الاختلاف المنهجي بين كلا المذهبين السنيين الحنفي والمالكي انعكست آثاره على التّاريخ الثّقافي والسياسي لسكان بلاد المغرب الإسلامي،بحكم التّواجد المؤثر لكلا المذهبين في هذه المنطقة خاصة في المغرب الأدنى والأوسط،حيث أدّى هذا الاختلاف المنهجي إلى الاختلاف في الأحكام الفقهية وبعض المواقف العقدية والسياسية كما سنرى.

إنّ تراكم نقاط الاختلاف بين الطرفين كان سببًا في تفجير الخلاف بينهما على شكل صراع مذهبي خاصة في بداية القرن الثالث الهجري، كما أنّ ميل بعض فقهاء الحنفية إلى التّوسع في الحيل الشرعية قد جرّهم إلى مجاراة المعتزلة في بعض الآراء العقدية كقول بعضهم "بخلق القرآن" ومهادنة الشيعة الإسماعيلية وربّما الأخذ بمذهبهم أو بعض آرائهم.

ويضاف إلى ذلك التّنافس على مناصب القضاء وتوسيع السيطرة المذهبية على بلاد المغرب، كلّها عوامل باعدت بين الطرفين حتّى وان كانت محنة محاولة فرض التشيع قد قاربت المسافة بينهما.

لكن مهما يكن من نقاط الاختلاف والخلاف إلّا أنّ كلا المذهبين يمثلان اتّجاها فكريًا إسلاميًا واحدًا هوّ الاتجاه السني الرّافض للطرح الخارجي حتّى وإن كان في أقصى حالات الاعتدال كما هوّ الحال عند الاباضية،كما يرفض الاتجاه الشيعي المتطرف الّذي مثلته في بلاد المغرب الإسلامي العقيدة الإسماعيلية للفاطميين.

ب _ الأصول العقدية

أدّى توسع المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري إلى دخول شعوب كثيرة حظيرة الإسلام،لكنّها احتفظت بجانب مهم من تراثها الفكري سواء الدّيني أو الفلسفي والّذي أصبح مثار جدل ونقاش في الحياة الفكرية الإسلامية، كما شهد المجتمع الإسلامي بدوره تمزقًا فكريا

[1] _ ينظر: الملحق رقم6.

جراء الفتنة الكبرى بين الصحابة وما ترتب عنها من جدل فكري أدّى إلى ظهور الفرق الإسلامية، كالخوارج والشيعة بمختلف طوائفهم وغيرها من الفرق العقدية كالمرجئة والمعتزلة.

أدّى هذا الوضع إلى كثرة الجدل في المجتمع الإسلامي سواء في المجال السياسي أو العقائدي، وانتهى الأمر بظهور علم الكلام في الإسلام، هذا العلم الّذي يخوض بالدرجة الأولى في مسألة العقيدة[1].

إنّ الأصل في عقيدة أهل السنّة هوّ رفض الخوض في الجدل والعقائد كما هوّ معروف عند الصحابة والتّابعين وهذا ما أشار إليه أبو حنيفة عندما أشار إلى أنّ الصحابة والتّابعين لم ينتصبوا في هذا الدين منازعين ولا مجادلين وإنّما أمسكوا عن الخوض في الجدل حول العقائد ونهوا المسلمين عن ذلك[2].

وعلى نفس النهج سار الإمام مالك بن أنس في رفضه للخوض في الجدل وعلم الكلام والعقائد، وهوّ نفسه التوجه الّذي تبنّاه الإمام أبو حنيفة و الأوزاعي وسائر كبار علماء السنة في صدر الإسلام.

لكن رغم هذا الموقف السني الرّافض للخوض في الجدل وعلم العقائد إلّا أنّ ظروف الصراع المذهبي والعقائدي في هذه الفترة اقتضت تحديد آراء ومواقف علماء السنة من القضايا المطروحة للنّقاش حتّى لا تفسد الفرق الكلامية عقائد المسلمين.

فكان لفقهاء السنة _رغم الرّفض المبدئي_ مواقف واضحة من المسائل الّتي أثير حولها الجدل ومن أبرزها، مسألة الصفات،مسألة الإيمان،القضاء والقدر،مرتكب الكبيرة،مسألة خلق القرآن ورؤية الله تعالى يوم القيامة، وغيرها من المسائل الجدلية العقائدية.

التزم فقهاء السنة في القرن الثاني للهجرة(8م) يتقدّمتهم الإمام أبو حنيفة، ثمّ الإمام مالك، التزموا منهج الصحابة والتّابعين على أساس أخذ العقيدة من الكتاب وسنة رسول الله ﷺبدلا من تحكيم العقل المجرّد واستخدام التأويل الّذي مال إليه المعتزلة والشيعة وحتّى الخوارج في كثير من المسائل.

ورغم التعدد المذهبي الفقهي الموجود داخل التوجه السني العام إلّا أنّ الفهم العام للقضايا والمسائل العقدية المطروح للنقاش يبدو متقاربًا وأحيانا متطابقاً، لكن هذا لا ينفي وجود بعض

[1] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص410.

[2] _ نفسه، ص348.

الاختلافات لكنّها ليست جوهرية، إلّا في حالة ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة من قوله:«الإيمان لا يزيد ولا ينقص».

وقد خالفه في هذا الرأي كبار فقهاء السنة في عصره وأبرزهم الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل_بعد ذلك_ والإمام البخاري وغيرهم.

ومن المسائل الّتي حدد فيها علماء السنة مواقفهم المبدئية مسألة:

***الصفات:** فكان موقفهم هوّ إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسول الله ﷺمن غير تمثيل ولا تكليف وفي نفس الوقت،نفى ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسول الله ﷺمن غير تعطيل ولا تحريف[1].

***الإيمان:** قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص، كما يؤمن أهل السنة بالقضاء والقدر خيره وشرّه، وأنّ الإنسان مسؤول عن أفعاله خيرها وشرّها[2].

***مرتكب الكبيرة:** كان فيها موقف الإمام أبو حنيفة والإمام مالك هوّ أنّ مرتكب الكبيرة يعذب بمقدار معصيته، وإنشاء الله غفر له ولا يخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر، كما ذهب إلى ذلك المتطرّفون من الخوارج خاصة الأزارقة منهم[3].

وهذا هوّ موقف عامة أهل السنة المستند إلى قول الله عز وجل:﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[4].

***مسألة خلق القرآن:** أثيرت هذه المسألة في مطلع القرن الثاني للهجرة (8م) وأمسك أهل السنة عل الخوض فيها، واحتدم النّقاش بين أرباب الفرق الكلامية فيها وانقسم المسلمون في هذه السألة بين من يقول أنّ القرآن مخلوق وبين من يقول غير ذلك، فكان لزاما على أهل السنة تحديد موقفهم على أساس عقيدة الصحابة والتّابعين،فذهب أبو حنيفة إلى القول:« نقر بأنّ القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق»[5].

---

[1] _ العقل، ناصر بن عبد الكريم، مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة، طبعة، دار الوطن للنشر، الرياض، سنة1411هـ، ص10.

[2] _ أبو زهرة ، المرجع السابق، ص411.

[3] _ العقل، ناصر، المرجع السابق،ص ص18-19.

[4] – سورة النساء، الآية 116.

[5] _ الإمام أبو حنيفة،الفقه الأكبر،ص301

ونفس الرأي نستنتجه من قول الإمام مالك عن عبد الله ابن نافع قال:قال مالك:« من قال القرآن مخلوق، يوجع ضربًا، ويحبس حتّى يتوب»[1].

كما يذهب أهل السنة إلى أنّ من أنكر شيئًا من القرآن أو ادّعى فيه نقص أو زيادة أو تحريف فقد كفر.

وأنّ القرآن يفسر بما ورد في السنة النبوية وعلى منهج الصحابة والتابعين، ولا يفسّر على أساس الرأي المجرّد والتأويل الباطني البعيد عن جوهر وحقيقة النص القرآني[2].

*__مسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة:__ أثار هذه المسألة المعتزلة، فأنكروها من وجهة نظر عقلية، وهذا خلاف أهل السنة الّذين أقرّوا رؤية الله تعالى يوم القيامة متمسكين بظاهر النص القرآني غر مؤولين له،ولكن من غير أن يتعرّضوا لكيفية الرؤية[3]، ودليلهم في ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[4] وقوله:﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[5].

وهو نفس المنهج الّذي سار عليه السنة في مسألة الصفات، وهناك مسائل عقدية كثيرة أثيرت في الإسلام خاصة في قرونه الأولى وفي إطار الجدل العقائدي بين المسلمين وأصحاب العقائد المعادية للإسلام، وأحيانًا بين المسلمين أنفسهم خاصة الفرق العقائدية الإسلامية.

أوردنا هذا الجانب في هذه الدراسة التّاريخية الثقافية ليس بهدف الخوض في العقائد، ولكن بهدف الوقوف على المنطلقات الفكرية الأساسية والمنهجية الّتي توجه السلوك النظري والعملي لعلماء هذا التوجه السني بفرعيه الأساسيين في بلاد المغرب الإسلامي ونقصد بذلك الحنفية والمالكية، هذه السلوكيات والمواقف الّتي كان لها دور أساسي في التطور التّاريخي للمسلمين عامة وسكان المغرب الإسلامي خاصة، كما تسمح لنا هذه الخلفية المنهجية والعقائدية بتفسير كثير من المواقف الفكرية والسياسية لأي اتّجاه عقائدي أو مذهبي.

---

[1] _ابن عبد البر، يوسف الأندلسي، الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء، مالك بن أنس، الشافعي،أبي حنيفة، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، الناشر، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، السنة 1997، ص71.

[2] _ العقل، ناصر،المرجع السابق، ص20.

[3] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص411.

[4] – سورة القيامة، الآية 22-23.

[5] – سورة الشورى، الآية11.

جـ_ الأصول السياسية

لم يكن أهل السنة حتّى مطلع القرن الثاني الهجري يمثلون فرقة سياسية أو عقدية أو مذهبًا محدد المعالم، وإنّما كانوا فقهاء مجتهدين متفرقين لكل منهجه، يجمعهم انشغالهم بعلوم الحديث والفقه، عرف هؤلاء الفقهاء بأهل الحديث أو التابعين أو العلماء وأحيانا بالقرّاء، واعتنوا بدراسة الكتاب والسنة النبوية لاستخلاص الأحكام الفقهية ذات الطابع التّشريعي[1].

ورغم أنّ أهل السنة لم يكونوا فرقة سياسية أوعقدية إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه لم تكن لهؤلاء العلماء آراء ومواقف سياسية، خاصة الّذين سيبرزون كعلماء أصحاب مذاهب فقهية كأبي حنيفة والإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل.

ورغم محاولة علماء السنة "أهل الحديث" تجنب الخوض في المسائل السياسية إلّا أنّ ظروف التّطور التاريخي للمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام فرضت عليهم الخوض في بعض المسائل الّتي أثارتها الفرق السياسية والعقدية الّتي ظهرت في هذه الفترة، خاصة ما آثاره الخوارج والشيعة.

يعتبر الحسن البصري(ت110هـ/729م) من كبار أهل الحديث، والّذي أثيرت في مجلسه العلمي بالبصرة مسائل ذات طابع سياسي وعقائدي فكان لزامًا عليه الخوض فيها وتحديد موقفه على أساس الكتاب والسنة[2].

من بين هذه المسائل المرتبطة بالخلافات السياسية بين المسلمين مسألة الموقف من الصحابة الّذين شاركوا في حروب الفتنة الكبرى، وكذا مسألة اللعن والتكفير الّتي شاعت بين المسلمين خاصة أصحاب الفرق السياسية والعقدية.

فكان موقف الحسن البصري هوّ الإحجام عن تكفير الصحابة أو غيرهم من المسلمين ما لم يخالفوا أصلاً من أصول الدين، أو يعطلوا شعيرة من شعائر الإسلام.

هذا الموقف نفسه هوّ الّذي سار عليه سعيد بن المسيب (ت94هـ/713م)، وسعيد بن جبير(ت 95هـ)، وباقي أهل الحديث قبلهم وبعدهم.

---

[1] _الريس، محمد، ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، ط6، مكتبة دار التراث، القاهرة، سنة1976، ص81.

[2] _ بن حمدة، عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، ط1، دار العرب، تونس، ص26.

ولا يعني هذا الموقف سلبية أهل الحديث في المسائل السياسية أو موالاتهم للحكام الأمويين ومن بعدهم العباسيين، وإنّما يعني عدم جنوح أهل السنة للمواقف السياسية المتطرفة، وتميزهم بموقف سياسي وسط بين حكام بني أمية ومن بعدهم العباسيين من جهة ومن جهة ثانية الفرق السياسية المعادية لهم والخارجة عنهم كالشيعة والخوارج[1].

كما أنّ وسطية أهل الحديث في المسائل السياسية لا تعني أنّهم كانوا راضين عن الحكم الأموي أو العباسي، ولكنّهم وجدوا أنّ الخروج والثوراة ضد الحكام تؤدي إلى الفتن وكثرة القتل وتصدع وحدة الأمة، فآثروا الموقف الّذي يحفظ وحدة الأمة، ويحد من سفك الدّماء[2]، لكن هذا الموقف الوسط لم يكن ليخلو من المعارضة لمظاهر الاستبداد الّتي تميز بها بعض حكام بني أمية أو بني العباس، أو الإعراض عنهم برفض مجالستهم أو قبول عطاياهم أو قبول تولي المناصب الإدارية والقضائية في ظل حكمهم أو تسهيل الفتوى لهم.

وتحتفظ لنا كتب التاريخ والسير بالكثير من المواقف ذات الطابع السياسي المعارض لاستبداد بني أمية وبني العباس ولنا في سيرة الإمام أبي حنيفة ومالك بن أنس خير مثال.

يروى عن الإمام أبو حنيفة أنّه قال:« لا نذكر أحدًا من صحابة الرّسولﷺ إلّا بخير» كما قال:« ولا نتبرّأ من أحد من أصحاب الرسولﷺ ولا نوالي أحدًا دون أحد» ولهاتين المقولتين دلالة سياسية هامة خاصة إذا علمنا أنّ أبا حنيفة كانت لديه ميول سياسية مؤيدة للعلويين على حساب الأمويين والعباسيين ولكن من غير تشيع.

فبالرغم من ميوله العلوية الواضحة وسيرة حياته، إلّا أنّه لم يتبرأ من معاوية بن أبي سفيان والخارجين معه على خلافة علي بن أبي طالب_كرّم الله وجهه_كما فعل الشيعة خاصة المتطرّفون منهم.

نظر إلى الصحابة وفي نفس الوقت نظرة واحدة دون تميز لأحد على أحد إلّا بما فضلهم به الإسلام، وهذا يعني أنّه لم يذهب إلى ما ذهب إليه الشيعة من تفضيل علي _رضي الله عنه_ عن باقي الصحابة.

وبالرغم من تعاطف أبي حنيفة مع زيد بن علي عند خروجه على هشام بن عبد الملك سنة122هـ، إلّا أنّه لم يكن من الخارجين معه، وقد عرّضه هذا الموقف المناوئ للأمويين إلى

[1] _ بن حمدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص26.

[2] _ الريس، ضياء الدين، المرجع السابق، ص82.

الامتحان، خاصة لما رفض أن يلي لبني أميّة عملا وأصرّ على موقفه،فتعرّض للضرب والسجن حتّى أشرف على الهلاك[1].

ولمّا استقر الأمر لبني العباس أعلن أبو حنيفة بيعته لأبي العباس وخطب قائلاً:«الحمد لله الّذي بلّغ الحق من قرابة نبيه ﷺ وأمات عنّا جور الظلمة وبسط ألسنتنا بالحق...»[2]

لكن العلاقة ساءت بين أبي حنيفة والعباسيين إثر ثورة العلويين ضدّ أبناء عمومتهم من العباسيين وذلك بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، وخروجهما على أبي جعفر المنصور سنة145هـ.

أبدى أبو حنيفة رأيه المؤيد للعلويين والمنتقد للعباسيين في دروسه من دون أن يكون من الخارجين عنهم أي بني العباس وهذا ما دفع المنصور إلى تتبع دروسه وفتاويه حتّى امتحانه لمّا دعاه لمنصب القضاء، فأبى أبو حنيفة وأصرّ على ذلك كما فعل مع الأمويين من قبل وقال للمنصور:« لو هدّدتني أن تغرقني في الفرات أو أن ألي الحكم لاخترت أن أغرق...».

رد المنصور بأن عذّب أبي حنيفة حتّى أشرف على الهلاك ومنعه من الدرس والإفتاء، ومات أبو حنيفة بعد ذلك بقليل سنة150هـ، وآراء ومواقف الإمام مالك لا تختلف كثيراً عمّا ذهب إليه الإمام أبو حنيفة.

فالإمام مالك عاصر بدوره أواخر عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين وكان يرفض رفضا قاطعا الخروج عن الحاكم إلّا في حالة قصوى وهيّ معصية الله عزّ وجلّ[3]، ويستند هذا الموقف إلى الخلفية التاريخية للفتن الّتي كانت تعصف بالمسلمين، هذه الفتن الّتي فتحت المجال واسعاً للقتل والمظالم وكانت أشد على المسلمين من الحكام المستبدين لذا كان الإمام مالك يعتقد أنّ الحاكم العادل قد يصلح حتّى وإن كان اختياره لم يتم وفق مبدأ الشورى، وكثير ما كان يتمثّل ذلك في سيرة "عمر بن عبد العزيز" كرمز للحاكم العادل في ظلّ نظام بني على الاستبداد،هوّ ملك بني أمية.

---

[1] _ ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، (أحداث سنوات 122_130).

[2] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص266.

[3] _ الهنتاني، نجم الدين، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، طبعة، تبر الزمان، تونس، سنة،2004، ص35.

وقد سئل في بداية العصر العباسي عن الخروج مع الخارجين عليهم فقال:« إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم، وإلّا فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم»[1].

ورغم أنّ الإمام مالك كان يرفض الخروج عن الحاكم المستبد بفتنه إلّا أنّه لم يعطل السعي لتغييره وهذا واجب الأمّة كلّها وذلك من أجل مصلحة الأمة وتحقيق العدالة وحفظ الدّماء والأعراض والأموال.

وقد تعرض الإمام مالك للمحنة سنة 146هـ جرّاء موقفه المؤيد نظريًا لثورة العلويين بقيادة محمد النفس الزكية سنة 145هـ ضد أبي جعفر المنصور العباسي وسبب ذلك الحديث الّذي كان يردده في دروسه ومفاده:« ليس على مستكره يمين »[2].

وكان يقصد بذلك الطعن في خلافة المنصور العباسي وبالمقابل تأييد الخارجين عنه من العلويين، لأن بيعة المنصور أخذت كرهاً[3].

امتحن الإمام مالك وضرب بالسياط وعذب حتّى انخلعت يده من كتفه، لكنه لم يكن من الخارجين ولا الداعين إليه، ممّا دفع المنصور إلى الاعتذار إليه في أحد مواسم الحج.

أمّا فيما يتعلق بموقفه من الصحابة فإنّه سار على نفس النهج الّذي سبقه إليه الإمام أبو حنيفة وكبار فقهاء الحديث من الصحابة والتابعين، فكان الإمام مالك يقرّ عمل الخلفاء الرّاشدين أجمعين،ويرفض القدح في صحابة رسول الله ﷺ، كما كان يعتقد أنّ الخلافة يجب أن تكون في قريش وليس في البيت الهاشمي أو العلوي فقط[4].

كما كان الإمام مالك يعتقد أنّ الشورى والبيعة من الشروط الأساسية في بناء نظام حكم وفق تعاليم الإسلام وسيرة الخلفاء الراشدين_ رضي الله عنهم أجمعين_.

هذه بعض معالم الرؤية السياسية السنية الّتي عبّر عنها الإمام أبو حنيفة والإمام مالك في القرن الثاني الهجري وهذا قبل أن تتبلور النظرية السياسية السنية الّتي ستبرز بشكل واضح في القرن الثالث الهجري ويتخذ لها فقهاء السنة بابًا أو فصلا خاصًا بها.

---

1 _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص406.

2– كان العباسيون في بداية عهد المنصور يكرهون الناس على الحلف بالطلاق عند البيعة، فجاء ردّ الإمام مالك ليس على مستكره يمين.

3 _ أبو زهرة، المرجع السابق ، ص407.

4 _ أبو زهرة،المرجع السابق ،ص412.

ويعتبر القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة(ت182هـ)[1] أوّل من خصص جانبا في مقدمة كتاب "الخراج" ذكر فيه الأحاديث والمواعظ ذات الطابع السياسي الموجهة للخليفة هارون الرّشيد ولأي حاكم بعده.

وعلى النهج نفسه سار الإمام البخاري(ت256هـ) في صحيحه،حيث خصص فصلا منه بعنوان "كتاب الأحكام"ج4،أمّا الإمام مسلم (ت261هـ) فقد سماه "كتاب الإمارة"ج6.

ثمّ جاء الشافعي وأدرج هذا المبحث في باب الفقه في كتاب:"المبسوط" وسماه كتاب الإمامة.

وليس الهدف في هذا الفصل إبراز معالم النظرية السنية وإنّما هدفنا هوّ توضيح المبادئ السياسية للاتجاه السني في مراحله الأولى خاصة لدى فقهاء السنة أصحاب المذاهب الّتي وصلت إلى بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة،هذه المبادئ الّتي أصبحت جزءا من ثقافة وسلوك أتباع هذه المذاهب سواء الفقهاء منهم أو عامة الناس مما انعكس بدوره على التطور التاريخي لهذه المنطقة.

[1] – يعقوب بن ابراهيم الأنصاري، تفقه على أبي حنيفة ، وتولى القضاء في عصر هارون الرشيد، ويعد من أكبر فقهاء الحنفية بعد الإمام أبو حنيفة وناقل علمه.

ثانيًا:_ الاتجاه السني في بلاد المغرب الأوسط (ق3-6هـ).

أ_ الاتجاه السني في بلاد المغرب الإسلامي:

تعود الجذور التاريخية للمذاهب الفقهية السنية إلى مذهب الصحابة القائم على الأخذ بالكتاب والسنة وفقه وسيرة الصحابة_ رضوان الله عليهم_ ويعتبر منهج أومذهب الصحابة التوجه الفكري العام الّذي سارت عليه حركة الفتح الإسلامي في بلاد المغرب،هذا التوجه الّذي حمل لواءه عدد معتبر من الصحابة الّذين شاركوا في فتح بلاد المغرب والّذين ترجم المالكي لتسعة وعشرون منهم،عقبة بن نافع الفهري[1]_رضي الله عنه_، وأبو مهاجر دينار[2]،وحسان بن بن النعمان[3]،ثمّ موسى بن نصير[4].

لا يعني هذا القول أنّ جميع المسلمين الّذين وصلوا إلى بلاد المغرب كانوا على منهج الصحابة،بل كان منهم من تأثر بالنزعة الخارجية ومن مال إلى التشيع،لكن المؤكد هوّ أنّ القيادات الأساسية لحركة الفتح من النّاحية العسكرية والسياسية والفكرية ونقصد بذلك كبار القادة والفقهاء كان يتم اختيارهم بعناية من طرف الخلفاء أو الولاة في مصر، الّذين يشرفون على حركة الفتح.

ومن الشروط الأساسية لاختيار الولاة والفقهاء كان هوّ الولاء السياسي والمذهبي للخلافة، خاصة في عهد بني أمية، والولاء للخلافة الأموية في هذه الفترة كان يعني رفض النزعة الخارجية والشيعة ومعاداتهما سياسيًا وفكرياً.

---

[1] _ عقبة بن نافع الفهري، صحابي جليل ويعد أبرز رجالات الفتح الإسلامي في بلاد المغرب وشمال إفريقيا.

[2] _أبو المهاجر، من الموالي، تولى ولاية إفريقية ، وفتح بلاد المغرب الأوسط ودخل تلمسان سنة55هـ، ثمّ واصل الفتح المغرب الأدنى، استشهد في معركة تهودة بشرق المغرب الأوسط إلى جانب عقبة بن نافع، سنة65 هـ.

[3] _حسان بن النعمان بن عبد عدي بكر الغساني من قبيلة الأزد، ولي على إفريقية في الفترة ما بين (74_85هـ)، قضى في عهده على آخر معاقل المقاومة البربرية للإسلام خاصة بقيادة الكاهنة في منطقة الأوراس بالمغرب الأوسط.

[4] _ أبو عبد الرحمن موسى بن نصير (ت97 هـ/716 م) ولي على إفريقية من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، تمكن المسلمون في عهده من فتح الأندلس والقضاء على ثورات البربر على حكم الأمويين. للمزيد يراجع: المالكي، المصدر السابق، ج1، ص60_98.

كما أنّه من غير المعقول أن نتصور وجود الشيعة والخوارج في هذه الفترة في صفوف جنود وقيادات الفتح في ظل حدة العداء والصراع القائم.

ومهما يكن فإنّ هذا الكلام لا يعني أنّ النزعة الخارجية والشيعية لم تصل إلى بلاد المغرب في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، ذلك أنّها وصلت عن طريق التجار والمهاجرين وربما حتّى الفارين من ملاحقة سلطة الخلافة في المشرق، وربّما كان من عامة الجند من تأثر بالنزعة الخارجية أو الشيعية.

ومما يؤكد وصول النزعة الخارجية والشيعية إلى بلاد المغرب في هذه الفترة الدور الّذي ستلعبه هذه التوجهات في التطور السياسي والفكري والاجتماعي وحتّى العسكري في المنطقة في القرن الثاني الهجري(9م)، كما مرّ بنا في الفصل الأول والثاني من هذه الدراسة.

وتحت تأثير حاجة سكان بلاد المغرب – الّتي كانت تعرف بولاية إفريقية– إلى معرفة تعاليم دينهم الصحيحة على منهج الصحابة، وبهدف حمايتهم من النزعة الخارجية والشيعية، أوفد الخليفة الأموي الرّاشد عمر بن عبد العزيز(99_101هـ) بعثة الفقهاء العشر من التابعين سنة100هـ إلى بلاد المغرب،هذه البعثة الّتي أرست قواعد التوجه السني في بلاد المغرب.

1_ مذهب الصحابة والتابعين

الصحابة هم الجيل الأول الّذي اختاره الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه محمد ﷺ وإقامة دينه، ربّاهم الرّسول وفق تعاليم الإسلام الصحيحة، فكانوا أفضل هذه الأمة وأبرّها قلوبًا، وأعمقها علمًا بتعاليم الإسلام الصحيحة.

توفي الرّسولﷺ وسار الصحابة وفق المنهج الّذي رباهم عليه الرّسول الكريم، وأوصى المسلمين باقتفاء آثارهم بقولهﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدي،عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور"[1].

يقوم منهج أو مذهب الصحابة _رضوان الله عليهم _ على ما أقرّه الرّسولﷺ في قصة معاذ بن جبل رسول رسول الله إلى اليمن، كما سبق وأشرنا في بداية هذا الفصل، ومفاد هذا المذهب هوّ استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة النبوية ثمّ تأتي مرحلة الاجتهاد سواء على أساس الرأي أو المصلحة.

[1] _ رواه أبو داود والترميذي، وقال:حديث صحيح.

سار الخلفاء الراشدون، أبو بكر وعمر،وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين على هذا النهج الّذي زكّاه الصحابة بالأخذ بسيرة المتقدمين من الخلفاء ومشاورة أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ.

على نفس النهج سار التابعون من المحدثين والفقهاء ممن لم تستهويهم النزعات السياسية والعقائدية الخارجية عن إجماع الأمة في صدر الإسلام.

لم تهدأ الحركات البربرية المقاومة لانتشار الإسلام في إفريقية وباقي أرجاء هذا الإقليم إلّا في العقد التاسع من القرن الأول الهجري،والّذي يوافق أواخر ولاية حسان بن النعمان والّذي خلفه موسى بن نصير(86-92هـ).

في هذه الفترة المتأخرة من القرن الأول الهجري(7م) بدأت مرحلة ترسيخ تعاليم الإسلام بين البربر في بلاد المغرب،ببناء المساجد والكتاتيب وتعليم اللغة العربية وتفقيه أهل إفريقية في أمور دينهم.

ولحماية أهل إفريقية من النّزاعات الخارجية والشيعية وترسيخ تعاليم الإسلام الصحيحة في أنفسهم أوفد عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية سنة مئة للهجرة _كما سبق الذكر_ بعثة علمية تتكون من عشرة من فقهاء التابعين.

2_ بعثة الفقهاء العشر ودورها في ترسيخ الاتّجاه السني

وصل الفقهاء العشر وهم من التابعين إلى ولاية إفريقية الّتي كانت تشمل بلاد المغرب من الناحية الإدارية، واستقرّ معظم هؤلاء الفقهاء بالقيروان، وبها أسسوا المساجد وبجوارها أقاموا الكتاتيب، وامتهنوا تعليم النّاس قواعد الإسلام الصحيحة على أساس من الكتاب والسنة[1].

وأسندت ولاية إفريقية إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر القرشي بالولاء(ت132هـ)، وهوّ أحد الفقهاء العشر[2].

وقد ترجمت كتب الطبقات لهم ومنها كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي،وكتاب رياض النفوس للمالكي، وكتاب معالم الإيمان للدباغ وابن ناجي وغيرها.

---

[1] _ مقدمة كتاب، طبقات علماء إفريقية، للخشني، تحقيق، محمد، عزّت، محمد زينهم، طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، 1993، ص6.

[2] _ المالكي، أبي بكر عبد الله محمد، كتاب رياض النفوس، تحقيق، بشير بكوش، الجزء الأول، طبعة، دار العرب الإسلامي، بيروت، سنة،1994، ص116.

ومن خلال هذه التراجم يظهر لنا أنّ معظمهم استقرّ بالقيروان وبها أسسوا المساجد والكتاتيب ومارسوا التعليم بهدف تفقيه البربر بتعاليم دينهم الصحيح.

أبرز ما يميز هؤلاء الفقهاء، هوّ توجههم الفكري الوسطي القائم على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله الكريم وفق منهج الصحابة، ومما يؤكد ذلك انتقاء عمر بن عبد العزيز لهم، وهوّ من كبار فقهاء عصره إلى جانب مكانته السياسية كخليفة للمسلمين تميّز بالوسطية والاعتدال في الرأي وعنه يؤثر قوله في مسألة الخلاف بين الصحابة وفيه جاء:« تلك دماء طهّر الله منها أيدينا،فلا نلطخ بها ألسنتنا »[1].

واتّجاه عمر بن عبد العزيز الفكري سني في أساسه حتّى وإن لم يكن هذا المصطلح سائداً في عصره، وذلك واضح في آرائه الفقهية القائمة على الأخذ بالكتاب والسنّة وسيرة الخلفاء الرّاشدين وهذا ما جعله مثالا يحتذي به في نظر الأئمة الكبار، كأبي حنيفة والإمام مالك بن أنس وغيرهم، واعتباره من الخلفاء الراشدين بما تميز به من نصرة للسنة على حساب الحركات المبتدعة كالخوارج والشيعة خاصة المتطرفين منهم، كما تميز حكمه بالعدل والإحسان في نظر أهل الحديث، في ملك قام على الاستبداد، هو ملك بني أمية.

ومما يؤكد التوجه السني لبعثة الفقهاء العشر، ترجمة واهتمام علماء المالكية بالمغرب لهم، خاصة بعد أن اتّضحت الفروق المنهجية بين المسلمين وظهرت المذاهب الفقهية السنية الكبرى، فترجم لهم أبو العرب التميمي، والخشني والمالكي، والدباغ وبن ناجي وكلهم من المالكية، وهؤلاء لن يقبلوا بالترجمة إلّا كمن تأكدوا من توجهه السني.

وعن الفقهاء العشر ذكر أبو العرب قوله:« قال ابن تميم وكل هؤلاء ثقات عند المحدثين وقد روى عنهم كلهم عبد الرحمن بن زياد بن أنْعُم »[2].

ومن أبرز هؤلاء الفقهاء وهم من التابعين، أبو عبد الرحمن الجبلي واسمه عبد الله بن يزيد المعافري(ت100هـ)(توفي بتونس المدينة)،روى عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر[3]، ومنهم سعد بن مسعود التجيبي وحبّان بن أبي جبلة وطلْق بن حبان[4].

---

[1] _ الريس، محمد، ضياء الدين، المرجع السابق، ص81.

[2] _أبو العرب، المصدر السابق، ص21.

[3] _ نفسه، نفس الصفحة، المالكي، رياض النفوس، ج1، ص ص 99_100.

[4] _ نفسه، ج1، ص103.

ومنهم كذلك إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري الملقب "بتاجر الله" والّذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الّذي يعرف بمسجد الزيتونة توفي سنة 107هـ[1]، ومنهم أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي(ت113هـ)، الّذي تولى القضاء بالقيروان منذ عهد موسى بن نصير[2].

إنّ أبرز ما يميز هؤلاء الفقهاء هوّ أخذهم عن الصحابة مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، كما روى بعضهم عن سعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري وهم من فقهاء التابعين من أهل الحديث[3].

وهناك الكثير من الإشارات الّتي تؤكد توجههم السني في كتب الطبقات، وقد استقر معظمهم في القيروان وهذا يوحي بأنّ الهدف كان واحدًا وهوّ وضع الأسس لإقامة مركز إشعاع فكري إسلامي وسطي معتدل في بلاد المغرب، وهذا ما أكّده التطور التّاريخي والثقافي للمنطقة.

بدأ في القيروان ومع مطلع القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي وضع أسس مدرسة الاتجاه السني المغربية في القيروان وتوافد إليها طلبة العلم من جميع أرجاء إفريقية وبلاد المغرب وحتّى الأندلس في القرون التالية،مما أعطاها بعدًا تأثيرًا عميقا في التطور الثقافي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة،وهذا ما سنتناول في ما تبقى من هذا الفصل.

تخرج الجيل الأول من علماء بلاد المغرب خاصة في القيروان وتونس عن التابعين من الفقهاء العشر وغيرهم ممن زاروا إفريقية أو استقروا فيها ، ومن أبرز هذه الطبقة الثانية من علماء المغرب عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت161هـ) الّذي أخذ عن الفقهاء العشر من التابعين وروى عنهم، كما حضي بتقدير واحترام سفيان الثوري، وكان قاضيا للقيروان في أواخر عهد بني أمية وحتّى في عهد بني العباس بعد هزيمة الصفرية والإباضية في بلاد المغرب بقيادة ابن الأشعث[4].

---

[1] _ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص106.

[2] _ نفسه، ص ص110 – 114. ، ومن بين الفقهاء العشر موهب بن حي المعافري وبكر بن سوادة الجذامي وأبو سعيد جعثل بن هعان.

[3] _ نفسه، ج1، ص112.

[4] _ نفسه، ج1، ص152_160.

ومن طبقة زياد بن أنْعُم نذكر خالد بن أبي عمران التجيبي وهوّ من الموالي،سمع من التابعين ومنهم سالم بن عبد الله بن عمر،ونافع بن عمر،وسليمان بن يسار وغيرهم[1].

ومنهم أبو كريب جميل بن كريب المعافري(ت139هـ) سكن تونس وتولى قضاء القيروان في بداية العهد العباسي،قتله الخوارج الصفرية لما استولوا على القيروان.[2]

كما برز من علماء القيروان في هذه الفترة "أبو عمران موسى بن علي بن رباح اللخمي"، وأصله من القيروان (ت163هـ) روى عن الليث بن سعيد وابن المبارك وابن وهب[3].

ومنهم عبد الله بن فروخ الفارسي (ت176هـ)، كان حافظًا للحديث والفقه، مبايناً لأهل البدع ومعادياً لهم، أخذ عن مالك وسفيان الثوري، ورحل إلى العراق، ومال إلى طريقة أهل النظر والاستدلال، وبتعبير آخر مال إلى مدرسة الرأي الّتي كان يقودها أبا حنيفة[4]، ولما عاد بن فروخ إلى إفريقية انتفع به عدد كبير من طلاب العلم.

إنّ المتأمل في سيرة علماء الطبقة الأولى من التابعين العشر ومن عاصرهم من علماء إفريقية وكذا علماء الطبقة الثانية من علماء المغرب يلاحظ أنّ اتجاههم في طلب العلم كان ينصب على طلب الحديث والفقه، والأخذ من ثلاث مراكز علمية إسلامية هيّ المدينة، الكوفة ومصر.

هذه المراكز الثلاث الّتي عرفت بازدهارها في هذه الفترة، وبروز علماء السنة الكبار بها، كالإمام مالك في المدينة والإمام أبو حنيفة وسفيان الثوري بالكوفة، والإمام الليث بن سعيد، وابن القاسم بمصر.

أدّى تعدد المراكز والعلماء الّذين أخذ عنهم المغاربة إلى وصول تأثيرات المدارس والمناهج، الفقهية الإسلامية على اختلافها إلى بلاد المغرب بصفة عامة والقيروان وتونس بصفة خاصة، فوصل تأثير مدرسة الأثر بالمدينة وتأثير مدرسة الرأي بالعراق، كما وصلت المذاهب الفقهية

---

[1] _ المالكي، المصدر السابق، ص162_163.

[2] _ نفسه، ج1، ص168.

[3] _ نفسه، ج1، ص175.

[4] _ نفسه، ج1، ص177.

خاصة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب الإمام مالك بن أنس، وانتشرا في إفريقية وباقي بلاد المغرب الإسلامي حتّى الأندلس[1].

ب_ المذهب الحنفي في بلاد المغرب الأوسط:

وصل المذهب الحنفي إلى بلاد المغرب بصفة عامة وإفريقية بصفة خاصة منذ منتصف القرن الثاني الهجري،الثامن ميلادي،وربما يرجع ذلك إلى أسباب سياسية ويتعلق الأمر بأخذ العباسيين بالمذهب الحنفي وعلى خطاهم كان يسير ولا تهم في الأقاليم التابعة لهم خاصة الأغالبة حكام إفريقية وشرق المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين184هـ،حتّى سقوط إمارتهم أمام الزحف الشيعي الفاطمي سنة296هـ[2].

لعب طلاب العلم والفقهاء والتجار والمهاجرين الّذين لم تنقطع رحلاتهم بين بلاد المشرق المغرب دورًا أساسياً في انتشار المذهب الحنفي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة وفي المغرب الأوسط بصفة خاصة.

وقبل تفصيل ذلك لابد من التذكر بأن دولة الأغالبة الّتي استقر سلطانها بإفريقية بالدرجة الأولى،كان لها امتداد سياسي وثقافي مهم شمل الجزء الشرقي من بلاد المغرب الأوسط من باغية حتّى طبنة عاصمة الحضنة هذا جنوبياً، أمّا شمالاً فقد امتد هذا النفوذ من بونة على الساحل حتّى ميلة شرق قسنطينة،كما امتد هذا النفوذ الأغالبي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حتّى غرب مدينة سطيف،وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول و الثاني من الدراسة.

تذكر المصادر خاصة كتب الطبقات والتراجم من أمثال أبو العرب التميمي ومحمد بن الحارث الخشني والمالكي والقاضي عياض وابن ناجي وغيرهم، أوائل الفقهاء الّذين حملوا المذهب الحنفي أو بعض مسائله إلى بلاد المغرب وخاصة إفريقية الّتي أصبحت منذ القرن الثاني للهجرة الثامن ميلادي مركزاً ثقافيًا سنيا مؤثرا في توجهات سكان بلاد المغرب والأندلس.

ومن أوائل فقهاء المغرب الّذين يعتقد أنّهم ساهموا في انتشار المذهب الحنفي في إفريقية وبلاد المغرب،عبد الله بن فروخ (ت185هـ/801م)،وعبد الله بن غانم (ت190هـ/805م)[3].

---

[1] – الهنتاتي ،المرجع السابق، ص ص39 -40.

[2] _ حوالة، يوسف، المرجع السابق، ج2، ص311.

[3] _ الهنتاني، نجم الدين،المرجع السابق، ص20.

ذكر المالكي أن عبد الله بن فروخ ذو الأصول الفارسية، أنّه كان حافظًا للحديث والفقه، معاديًا لأهل البدع، سمع من مالك وسفيان الثوري، لكنّه عرف بميله إلى طريقة النظر والاستدلال[98]، ويعني هذا القول أنّ بن فروخ كان يميل لمدرسة الرأي الّتي كان يقودها أبو حنيفة، أمّا عبد الله بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني، فقد أخذ عن الإمام مالك وسفيان الثوري، لكنّه أخذ كذلك عن أبا يوسف[99]، صاحب أبي حنيفة سابق الذكر، وعن بن غانم قال سحنون:« قرأ علينا بن غانم كتابًا من الموطأ »[100].

رغم ميل هذين العالمين لمذهب أبي حنيفة إلّا أنّهما أخذا عن مالك وأصحابه وربما جمعا فقه المذهبين لذا يصعب تصنيفها لأي من المذهبين رغم مساهمتهما في نشر المذهب الحنفي وإدخال كثير من المسائل الفقهية الحنفية إلى إفريقية ثمّ باقي بلاد المغرب.

يُذكر أنّ بن فروخ جاء إلى بلاد المغرب بحوالي عشر آلاف مسألة غير مدونة رواها عن أبي حنيفة،وعلى يدي بن غانم تخرّج الجيل الأول من علماء الحنفية ببلاد المغرب[101].

ومن أبرز علماء بلاد المغرب الّذين تميزوا بميلهم لمدرسة الرأي وبالتالي لمذهب أبي حنيفة، نذكر أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أصله من خرسان، دخل القيروان مع والده في الجيش العباسي بقيادة بن الأشعث بعد القضاء عل ثورة الخوارج الاباضية والصفرية في المغرب الأدنى وإفريقية، وسكن تونس، رحل إلى المشرق وأخذ عن الإمام مالك بالمدينة، ثمّ رحل إلى الكوفة فأخذ عن أصحاب أبي حنيفة، ثمّ عاد إلى مصر ولزم بن القاسم وهوّ من كبار علماء الملكية آنذاك وعنه روى "الأسدية" الّتي جمع فيها بين الفقه المالكي والحنفي[102].

عاد أسد بن الفرات إلى بلاد المغرب فتخرّج على يديه جيل من الفقهاء، أبرزهم معمر بن منصور ومحمد بن وهب ومحمد قادم وسليمان بن عمران وغيرهم[103]، ويذكر المالكي أنّ أبا

---

98 _ المصدر السابق، ج1ص، 176_177.

99 _ أبو سفيان صاحب أبي حنيفة النعمان وأحد أكبر تلاميذه، ناقل علمه

100 _ المالكي، رياض النفوس، المصدر السابق، ج1ص 215 _217.

101 _ الهنتاتي، المرجع السابق، ص20_21.

102 _ المالكي، المصدر السابق، ج،1ص 254_255.

103 _ نفسه، ج1، ص266.

جعفر القصري قال:« كان أسد إمام العراقيين بالقيروان كافة...ودينه ومذهبه هوّ السنة »[1]، كما كما ذكر أبو جعفر أنّ أسدا كان يعتقد أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ وليس بمخلوق.

ونفوذ الحنفية لم يقتصر على القيروان وإفريقية فقط بل امتد وبقوّة منذ النصف الثاني إلى باقي بلاد المغرب خاصة المغرب الأوسط بحكم ارتباط هذا الأخير في قسمه الشرقي_كما سبقت الإشارة_ بالدولة الأغلبية الّتي سيطر على الحياة الفقهية فيها الأحناف في النصف الثاني من القرن الثاني وحتّى النصف الأول من القرن الثالث الهجري[2].

من أبرز مظاهر هيمنة الحنفية على الحياة الفكرية استئثارهم بمناصب القضاء في معظم أرجاء إفريقية وقدرتهم على التأليف والرّد على المخالفين، كما أنّ أكثر الفقهاء كانوا من الحنفية حتّى أواخر النصف الأول من القرن الثالث الهجري[3].

وصلت تأثيرات المذاهب الفقهية السنية إلى بلاد المغرب الأوسط بحكم ارتباط قسمه الشرقي بالدولة الأغلبية الّتي ورثت نفوذ الخلافة السنية سواء الأموية أو العباسية.

وجدت في شرق المغرب الأوسط مدن تاريخية هامة أبرزها طبنة[4]،ميلة، سطيف، قسنطينة قسنطينة وبسكرة،هذه المدن الّتي تركزت بها أكبر كثافة سكانية في بلاد المغرب الأوسط في مختلف العصور، وجدت بها فئات عريضة من أهل السنة سواء الحنفية أو المالكية،وهذا دون أن ننفي وجود اتجاهات مذهبية أخرى معارضة كالخوارج والشيعة الزيدية[5].

---

[1] _ نفسه، ج1، ص264.

[2] _ الهنتاني، المرجع السابق، ص21.

[3] _ تراجم أغلبية مستعربة من مدارك القاضي، عياض، تحقيق، محمد الطالبي، تونس،1986، ص،99. الهنتاني، المرجع السابق، ص21.

[4] _ طبنة:هي عاصمة إقليم الزاب، وتقع في وسط الحضنة على بعد أربعة كيلو متر من مدينة بريكة الحالية على الطريق المؤدية إلى بسكرة، وبلدية مدوكال تم فتح طبنة في عهد موسى بن نصير في أواخر ق1هـ.

[5] _ عمارة، علاوة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والمغرب الإسلامي، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008 ، ص128_130.

وفي هذا الصدد يذكر اليعقوبي في طريق رحلته إلى بلاد المغرب الأوسط قوله:« ومدينة الزاب العظمى طبنة،وهي الّتي ينزلها الولاة(الأغالبة) وبها أخلاط من قريش،والعرب،والجند،والعجم والأفارقة والروم والبربر...»[1].

يدل هذا النص على التنوع العرقي في إقليم الزاب وخاصة في مدينته الكبرى طبنة، ولهذا التنوع العرقي انعكاس مباشر على الجانب المذهبي، ذلك أنّ قريشا وكثير من العرب الفاتحين وحتّى الجند كانوا على مذهب أهل السنة سواء الحنفية أو المالكية ولم يميلوا إلى الاتجاهات المعارضة للسنة إلّا في حالات نادرة، أمّا العجم والبربر فكثيرا ما مالوا إلى النحلة الخارجية والشيعية، ولنا في تاريخ تاهرت في القرنين الثاني والثالث الهجريين أمثلة كثيرة، سنتناولها في هذا الفصل.

كما يشير اليعقوبي إلى منطقة في المغرب الأوسط يقال لها "حصن بن كرام" الّتي قال عن أهلها أنّهم ليسوا بشراة أي ليسوا إباضية وإنّما "جماعية" أي من أهل الجماعة ويقصد بهم أهل السنة والجماعة[2].

وقد ذكر اليعقوبي في وصفه لبلاد المغرب الأوسط والّتي كانت في عهده تسمّى ببلاد المغرب عدة إمارات علوية سواء من الفرع الحسني أو الحسيني،كانت تتوزع النفوذ في شمال وغرب المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري،هذه الإمارات وإن نسبت إلى الزيدية وهم أقرب الفرق الشيعية إلى السنة إلّا أنّ سكانها كانوا في أغلبهم سنة إمّا حنفية أو مالكية وتعد تلمسان أكبر حاضرة علوية سليمانية في غرب المغرب الأوسط سادتها المذاهب السنية حنفية ومالكية في القرن الثالث الهجري.

تلمسان التّي قال عنها البكري(487هـ):«تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع...ولم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس...»[3].

ومن المصادر السنية الّتي تعطينا فكرة واضحة عن الوجود السني في بلاد المغرب الأوسط بن الصغير صاحب كتاب"أخبار الأئمة الرستميين"،ورغم أنّ هذه السيرة الّتي كتبت في أواخر

---

[1] _ اليعقوبي،أحمد بن واضح، البلدان، ص68.

[2] _ البلدان، ص69.

[3] _ البكري، المصدر السابق، ص77.

القرن الثالث الهجري كان الهدف منها هوّ إبراز الدور التاريخي للأئمة الرستميين الإباضيين،إلاّ أنها حفلت بإشارات مهمة سنوظفها للتعرف على الوجود التاريخي والمتقدم للسنة حنفية ومالكية في المغرب الأوسط في عمق المجتمع التاهرتي الاباضي.

ومن أهم الإشارات الدّالة على الوجود السني قول بن الصغير في خضم حديثه عن سيرة الإمام الأول عبد الرحمن بن رستم(160_171هـ):«ليس أحد ينزل بهم(الاباضية في تاهرت) من الغرباء،إلّا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم ...حتّى لا ترى دارًا إلّا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين...»[1].

ولهذه التسميات أبعادها المذهبية المحددة في عرف الفقهاء في هذه الفترة،فالكوفيون كان يقصد بهم الحنفية،والقرويين كان يقصد بهم المالكية،أمّا البصريين فهم بين أهل الاعتزال والتشيع، حتى وإن كان فيهم من كان سنياً على منهج الحسن البصري(ت110هـ).

عاش السنّة في كنف الدولة الرستمية الاباضية في جو من السلام والتسامح الديني خاصة في تاهرت ولم تتغير الأمور إلّا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري،حيث اضطربت أحوال تاهرت السياسية والاجتماعية وحتّى الاقتصادية،مما انعكس على العلاقات الاجتماعية والفكرية المذهبية،فانتشرت الفتن والحروب،وبرزت النزاعات القبلية والمذهبية خاصة بعد حادثة مقتل شخصية مهمة من أصول عربية _على ما يعتقد_ وهوّ بن عرفة في فترة حكم الإمام"أبي بكر بن أفلح"(158_261هـ)[2].

ومما يؤشر على انتماء بن عرفة إلى العرب ما ذكره ابن الصغير عن موقف العجم[3]،الّذين استغلوا القتال بين الاباضية وحلفائهم الرستميين من جهة والعرب وحلفائهم من الجند ومواليهم وأتباعهم[4]،رغم الطابع العرقي للنّزاع بين الرستميين من جهة والعرب والجند من جهة ثانية إلّا أنّنا لا نستبعد وجود خلفيات مذهبية في هذا الصراع الّذي صوره لنا بن الصغير وكأنّه صراعاً عرقيا وربما يكون هذا الصراع يحمل كلا الوجهين العرقي والمذهبي.

---

[1] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص36

[2] _ نفسه، ص ص77 – 80 .

[3] _ العجم:يقصد بهم العناصر العرقية غير البربرية والعربية، ومنهم الفرس، بقايا الروم، الأفارقة.

[4] _ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص79_84.

ومن الإشارات الدالة على الوجود القوي للسنة داخل تاهرت خاصة الحنفية منهم ما ذكره بن الصغير عند ولاية أبا حاتم وهو يوسف بن محمد بن أبي اليقضان(281_294هـ)،الّذي قال عنه ابن الصغير:«وكانت مشايخ البلد من غير الاباضية قد استولوا عليه...»[1].

ومن أبرز هؤلاء المشايخ ذكر بن الصغير رجل يدعى بأبي مسعود،وكان كوفيا فقيها بمذاهب الكوفيين،ويقصد بهم الحنفية،كما كان من بين هؤلاء المشايخ رجل يدعى أبي دنون وكان من الفقهاء،ورجل من أهل الرياسة الجاه يسمى بعلوان بن علوان[2].

بلغ نفوذ السنة من الحنفية درجة فكّروا فيها في تحويل الإمارة إلى أهل السنة وذلك ما يستفاد من قول ابن الصغير:«...هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الاباضية ويطفرهم...»[3].

ويذكر بن الصغير أنّ عهد الإمام أبي حاتم، يوسف بن محمد شهد استمرار الفتن والصراع على المدينة بين الاباضية وجماعات لم يحددها وسماهم بأهل المدينة، لاشك أنّهم ليسوا من الاباضية وربما كانوا من السنة أو الواصلية، والدليل على ذلك قولهم (أهل المدينة) :«...الإباضية كلبت علينا وهم لا يَكُفون عن حربنا ما لم يكن عندنا رئيس من الرستميين ينحل مذاهب الاباضية...»[4].

وقع اختيار أهل المدينة _كما سماهم_ بن الصغير على يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب وانكسرت شوكة الاباضية، الّتي أعلنت الحرب ضد يعقوب بن أفلح معتبرة إياه مغتصبا للإمامة[5].

استطاع الإمام أبو حاتم العودة إلى تاهرت وإنهاء حكم يعقوب بن أفلح وشهد عهده ازدهارا معتبرا للحياة الفكرية_حسب رواية ابن الصغير _ وانتشر الفقه وعلم الكلام(المناظرات) بين الاباضية وغيرها من أهل السنة وربما حتّى المعتزلة لكن الوضع اهتزّ بعنف بعد مقتل الإمام أبا حاتم سنة294هـ، وتدهورت أحوال الإمامة حتّى انهيارها أمام الزحف الشيعي سنة 296هـ.

---

[1] _ نفسه، ص،105.

[2] _ نفسه، نفس الصفحة.

[3] _ نفسه، نفس الصفحة.

[4] _ نفسه، ص109.

[5] _ الاباضية لايعتبرون يعقوب بن أفلح من الأئمة الرستميين وكذا اليقضان بن أبي اليقضان، بل يعتبرون أنّ الإمامة سقطت بمقتل أبي حاتم سنة 294هـ. للمزيد يراجع، الدرجيني، طبقات ج1، ص94.

لكن وجود المذهب الحنفي تراجع وبشكل واضح في القرن الرابع الهجري(10م) في إفريقية وبلاد المغرب الأوسط بفعل الاضطهاد المسلط على أهل السنة في ظل الدولة الإسماعيلية الفاطمية، فتحول بعض الأحناف إلى المذهب الشيعي وبعضهم مال إلى المذهب المالكي ولم يبقى إلّا القلّة من الأحناف الأوفياء في منطقة تهودة (سيدي عقبة) بالمغرب الأوسط،حسب ما ذكره البكري في أواخر القرن الخامس الهجري[1].

جـ_ المذهب المالكي في بلاد المغرب الأوسط

وصلت تأثيرات المذاهب الفقهية السنية إلى بلاد المغرب الإسلامي في حدود منتصف القرن الثاني الهجري، وحتّى وإن كان المذهب الحنفي سباقا إلى إفريقية وبلاد المغرب الأوسط،إلّا أنّ المذهب المالكي لم يتأخر طويلا بحكم ارتباط بلاد المغرب _كباقي البلاد الإسلامية_ بالبقاع المقدسة في شبه الجزيرة العربية وبالتحديد بمكة والمدينة المنورة، هذه الأخيرة الّتي قضى فيها الإمام مالك بن أنس معظم حياته واتّخذها مركزاً أساسيًا لنشر مبادئ مذهبه الفقهي،اتّصل أهل المغرب بالإمام مالك بن أنس بحكم رحلة الحج وزيارة البقاع المقدسة، كما كان طلاب العلم يفدون إليه من بلاد المغرب، وكانوا يحضون بعنايته واهتمامه بهم خاصة النجباء منهم.

أدّى تواصل فقهاء المغرب الإسلامي بالإمام مالك في المدينة إلى تأثير منهجه الفقهي عليهم وبشكل قوي مما دفع بعض الفقهاء وأبرزهم الإمام سحنون إلى محاولة تقمص شخصية الإمام مالك والالتزام بأقواله وأفعاله وسلوكياته.

وقد كان لموقف سحنون وهوّ من كبار علماء إفريقية والمغرب في عصره دورًا أساسيا في نشر منهج الإمام مالك الفقهي،وهذا قبل أن يظهر مصطلح المذاهب الفقهية.

انتشر المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس بشكل واسع خاصة في أواخر القرن الثاني وعلى مدار القرن الثالث الهجري،واستطاع الصمود بألم أمام التوسع المذهبي الشيعي في القرن الرابع الهجري مما مكنه من أن يسود بلاد المغرب في القرون اللاحقة.

إن المتتبع لتاريخ المذهب المالكي في هذه المرحلة يستطيع أن يميز ثلاث مراحل أساسية مرّ بها المذهب المالكي في فترة الدراسة الّتي تشمل الفترة الممتدة من القرن الثالث حتّى

[1] _ البكري، المصدر السابق، ص73.

السادس الهجري، كما أنّ تواجد وسيادة المذهب المالكي ببلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة غطّي أكبر فترة زمنية من مجال الدراسة.

أدّى التواجد التّاريخي الطويل نسبيا للمذهب المالكي في بلاد المغرب بصفة عامة إلى مساهمته بعمق في الحياة الفكرية والاجتماعية وحتّى السياسية والاقتصادية،لدرجة أصبح المذهب المالكي أساس الحياة الثقافية في هذه البلاد ويمكننا تمييز ثلاث مراحل أساسية مرّ بها المذهب المالكي في انتشاره وتطوره في فترة الدراسة، وهي مرحلة الإنتشار، مرحلة مواجهة التشيع(مرحلة الاختبار)، مرحلة سيادة المذهب المالكي (ق5_6هـ).

1- مرحلة الانتشـار (ق 2_ 3 هـ)

1 _1: أثر الرحلة في نشر المذهب المالكي بالمغرب الأوسط

شهدت حركة الرحلة بين المشرق والمغرب الإسلاميين تطورا معتبرا خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بسبب تراجع الفتن والحروب،فرحل المغاربة إلى مصر،وبلاد الحجاز والعراق والشام لأغراض مختلفة منها للحج، طلب العلم أو كسب المال عن طريق التجارة،في الحجاز بالمدينة المنورة اتصل حجاج وطلاب العلم بكبار فقهاء المسلمين فشدّ انتباههم الإمام مالك،بعلمه ومنهجه الفقهي وحتى بشخصيته المؤثرة،فوصلت أخباره إلى بلاد المغرب من إفريقية حتّى الأندلس،فرحل إليه طلاب العلم من مختلف الأقطار المغربية.

لكن المصادر لا تذكر لنا المصادر إلّا عددا محدودًا منهم خاصة من أهل الأندلس وإفريقية،في حين يغيب ذكر طلاب العلم الّذين رحلوا من المغربين الأوسط والأقصى للأخذ عن الإمام مالك[1].

ذكر القاضي عياض في الأندلس أثنى عشرة رجلا من الّذين رحلوا إلى المشرق واتّصلوا بالإمام مالك، إمام دار الهجرة، أبرزهم الغازي بن قيس (ت199هـ)، وزياد بن عبد الرحمن الملقب "بشبطون"(ت193هـ)[2]، إلى الأندلس أدخلوا"موطأ"الإمام مالك، قبل يحيى بن يحيى

---

[1] _ الهنتاني، المرجع السابق، ص37.

[2] – أبو عبدالله، زياد بن عبدالرحمن بن زهير اللخمي الأندلسي المالكي المعروف بشبطون من الطبقة الأولى التي أخذت عن الإمام مالك.

الليثي (ت234هـ/848م)، لكن شهرة رواية هذا الأخير هي الّتي سادت في بلاد الأندلس وحتّى باقي بلاد المغرب[1].

أمّا في بلاد المغرب الأقصى والأوسط فلا تذكر كتب الطبقات من طلاب العلم من أخذ عن الإمام مالك، إلّا ما ذكره الكتاني في كتابه"الأزهار العاطر"وكذا السلاوي في كتاب الاستقصاء، من أنّ عامر بن محمد بن سعيد القيسي الّذي ولي القضاء لإدريس الثاني قد أخذ عن الإمام مالك بن أنس وسفيان الثوري[2].

أمّا في إفريقية فقد ارتفع عدد الّذين أخذوا عن الإمام مالك حسب ما ذكرته كتب الطبقات فقد جاوز الثلاثين،وأبرزهم عبد الله بن فروخ الفارسي(ت176هـ) _سابق الذكر_ والّذي رحل إلى المشرق وأخذ عن الإمام مالك بن أنس وسفيان الثوري وهوّ الّذي كان مالكاً يقول عنه:«هذا فقيه أهل المغرب»،لكن عبد الله بن فروخ كان يميل إلى منهج أبي حنيفة القائم على النظر والاستدلال، ويُذكر أنّه سمع من أبي حنيفة.

عاد عبد الله بن فروخ إلى بلاد المغرب ونزل بإفريقية وأقام يعلم الناس ويحدّثهم بسنّة رسول الله ﷺ فانتفع به كثير من أهل العلم[3]،ومنهم عبد الله بن غانم (ت190هـ)_سابق الذكر_ أخذ عن مالك بن أنس وروى عن سفيان الثوري،كما أخذ عن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة.[4]

ومنهم علي بن زياد التونسي(ت183هـ/799م) الّذي سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد ومن بن زياد سمع البهلول بن راشد (ت183هـ)، وشجرة بن عيسى وأسد الفرات (ت213هـ) و سحنون بن سعيد (ت240هـ) وغيرهم كثير.

يذكر أنّ علي بن زياد هوّ أول من أدخل "جامع سفيان الثوري" و"موطأ الإمام مالك" إلى بلاد المغرب،وفسّر لهم قول مالك[5].كما كانت للبهلول بن راشد وأسد بن الفرات رحلة إلى المشرق سمع فيها كل منهما الإمام مالك، كما سمع البهلول من سفيان الثوري واللّيث بن سعد،

---

[1] _ القاضي عياض، المدارك، ج1،ص347. ومن علماء الأندلس الّذين أخذوا عن الإمام مالك،عبد الرحمن بن عبيد الله، حسان وحفص أبناء عبد السلام، سعيد بن عبدوس ويحيى بن مضر وغيرهم.

[2] _ الكتاني، الأزهار العطرة، ط،فاس،1889، طبعة حجرية،ص ص129- 130. السلاوي، الاستقصاء، ج1، المصدر السابق، ص،163. الهنتاني، المرجع السابق، ص37.

[3] _ المالكي، المصدر السابق، ص176_181.

[4] _نفسه، ج1، ص115.

[5] _ عياض، المصدر السابق، ج1،ص234، أبو العرب، طبقات ، ص25.

أمّا أسد فرحل إلى العراق وسمع من أصحاب أبي حنيفة وهم أبا يوسف، وأسد بن عمرو، ومحمد بن الحسين، ثمّ عاد إلى مصر فلزم عبد الرحمن بن القاسم وهو من كبار أصحاب الإمام مالك فأخذ عنه "الأسدية"، الّتي جمع فيها بين فقه مالك وأبي حنيفة وسمعها منه أهل إفريقية إلى جانب "الموطأ"[1]، وقد عارضه الإمام سحنون في بعض مسائلها.

ساهم هؤلاء العلماء وبدرجات متفاوتة حسب علمهم وقوّة تأثيرهم في نشر المذهب المالكي في إفريقية وباقي بلاد المغرب الإسلامي بما في ذلك المغرب الأوسط بحكم ارتباطه الجغرافي والسياسي والثقافي بحاضرة المغرب الإسلامي "القيروان وحتى تونس".

ويذكر الخشني في كتابه "طبقات علماء إفريقية" أنّ إفريقية كان قد غمرها مذهب مالك بن أنس قبل رحلة سحنون إلى المشرق[2]، هذه الرحلة الّتي يعتقد أنّ سحنون قام بها في أواخر القرن الثاني الهجري، ودامت حوالي خمس سنوات، وعاد إلى إفريقية في مطلع العقد الأخير من القرن الثاني الهجري يحمل معه "المدونة الكبرى للفقه المالكي".

وسيكون لسحنون ومدونته دورًا أساسيا في توسيع وترسيخ نفوذ المذهب المالكي في إفريقية وباقي بلاد المغرب الإسلامي خاصة الأوسط منه،ولاشك أنّ هذا الدور الّذي لعبه سحنون ومدونته يدفعنا إلى التساؤل عن حقيقة الإمام سحنون ودوره في نشر وتثبيت المذهب المالكي في بلاد المغرب،وأهمية "المدونة" الّتي رواها عن بن القاسم والّتي تعكس حقيقة علم الإمام مالك كما كان يعتقد الإمام سحنون.

1 _2 : الإمام سحنون ودوره في نشر وترسيخ المذهب المالكي

وهو سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي،واسمه الأصلي عبد السلام،لكن غلب عليه اسم سحنون،وأصله عربي من حمص من بلاد الشام ولد سنة160هـ أو161هـ بإفريقية[3].

أخذ سحنون عن عدد معتبر من فقهاء عصره سواء في إفريقية أو المشرق ولعل أبرزهم بإفريقية، علي بن زياد التونسي(ت183هـ/799م)، والبهلول بن راشد(ت183هـ) وأبو مسعود

---

[1] _ عياض، المصدر السابق، ج1، ص354،200_255.

[2] _ الخشني، ،طبقات علماء إفريقية، تحقيق، محمد عزّت، زينهم، ط، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة،1993. ابن ناجي، معالم الإيمان، ج2، ص82.

[3] _ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص346. الهنتاني، المرجع السابق، ص45.

العباس بن أشرس وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني، وعبد الله بن أبي حسان اليحصُبي (ت227هـ،841م) وغيرهم كثير[1].

لما عاد أسد بن الفرات من رحلته إلى المشرق سمع منه الإمام بن سحنون الأسدية، وعارضه في بعض مسائلها فقرر سحنون الرحلة إلى المشرق والسماع مباشرة من تلاميذ الإمام مالك وتوسيع آفاقه الفكرية.

سمع سحنون في المشرق من عبد الله بن وهب(ت179هـ) في مصر، ومن عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز(ت204هـ) وعبد الله بن الحكم، وشعيب بن الليث بن سعد وغيرهم، وهم في هذه المرحلة، خاصة بعد وفاة الإمام مالك يمثلون أبرز تلاميذ الإمام مالك بن أنس وحاملي مذهبه الفقهي بجميع تفاصيله وفي مقدمتهم بن القاسم الّذي لزمه الإمام سحنون لمدة طويلة، وعلى يديه تفقّه سحنون وصحح الأسدية، وكتب مسائل المدونة الّتي قامت أساساً على تدوين آراء الإمام مالك الفقهية في مختلف المسائل[2].

نزل سحنون بالحجاز، فسمع في مكّة من عبد الرحمن بن مهدي، و وكيع بن الجراح الكوفي وحفص بن غياث الكوفي، أمّا في المدينة المنورة فقد سمع من عبد الله بن نافع الصائغ، وأبي سلمة الماجشون وأبي ضمرة أنس بن عياض وغيرهم كثير[3].

أما في الشام فقد سمع من الوليد بن مسلم، وأبي سعيد أيوب بن سويد الحميري، كما سمع من سفيان بن عينية الكوفي[4].

عاد سحنون إلى القيروان في حدود سنة191هـ، وهو على دراية بأصول مذهب الإمام مالك، وآرائه الفقهية، صافية كما عبّر عنها الإمام مالك، كما اطلع سحنون على حقيقة عمل أهل المدينة أو إجماع أهل المدينة، هذا الأمر الّذي جعل منه الإمام مالك أصلا من أصول مذهبه الفقهي، وتلقى من جرائه العديد من الانتقادات من فقهاء عصره الكبار من أمثال الليث

---

[1] _ نفسه، ص45.

[2] _ المالكي، رياض النفوس، المصدر السابق، ج1، ص347-348.

[3] _ نفسه، ج1، ص،348.

[4] _نفسه، نفس الصفحة.

بن سعد[1]، كما عارضه الشافعي في ميله إلى الاستحسان بدلا من القياس، وكذا تلاميذ أبي حنيفة.

تأدّب سحنون لما عاد إلى إفريقية بأدب أهل المدينة في جميع أحواله اقتداءً بالإمام مالك، التزاماً بالسنة النبوية الشريفة، في إفريقية سمع من سحنون بعد رحلته عدد كبير من طلاب العلم حتّى الّذين هم أكبر سنًا منه[2].

شاع ذكر الإمام سحنون ومدونته في باقي بلاد المغرب الإسلامي وحتّى الأندلس، بل أكثر من ذلك في كل منطقة ساد فيها المذهب المالكي في القرن الثالث الهجري والقرون الّتي تلته، ومن أبرز العوامل الّتي ساهمت في التعريف بالإمام سحنون وإشاعة ذكره في التاريخ الإسلامي مؤلفه المعروف "بالمدونة"، وهيّ ثاني كتاب في الفقه المالكي بعد موطأ الإمام مالك.

توافد طلاب العلم على مجلس الإمام سحنون من معظم أرجاء المغرب الإسلامي خاصة من إفريقية والأندلس وربما كان من بينهم من هم من بلاد المغرب الأوسط بحكم ارتباط قسمه الشرقي بالأغالبة وحتّى من الأدارسة في المغرب الأقصى الّذين مالوا في فترة حكم إدريس الثاني (177_213هـ) ومن بعده للمذهب المالكي.

نبغ على يد الإمام سحنون عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة من مختلف أقطار المغرب الإسلامي، كما تولوا مناصب هامة في مجتمعاتهم مثل القضاء، إمامة الصلاة، الفتوى وحتّى بعض المناصب الإدارية والسياسية، أدى تموقع طلبة الإمام سحنون إلى أن ذاع صيته، كما شهد المذهب المالكي انتشار واسعا في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة، سواء في إفريقية أو المغرب الأوسط أو الأقصى وحتّى الأندلس[3].

ومن بين طلاب سحنون،حزم بن غالب الرعيني، وأصله من طليطلة بالأندلس،أخذ عن سحنون وتولى عدّ مناصب في بلده منها الإفتاء، صاحب الخطبة والصلاة وكذا القضاء[4].

ومنهم كذلك حبيب بن نصير التميمي كان فقيها، ثقة له عدة مصنفات ولّاه سحنون منصب صاحب مظالم إفريقية[1].

---

1 _ الهنتاني، المرجع السابق نفسه، ص33.

2 _ نفسه، ص49.

3 _ محمد عزّت، محمد زينهم، الإمام سحنون، طبعة، دار الفرجاني، القاهرة، 1992، ص189.

4 _ نفسه، ص194.

ومنهم حماس بن مروان بن سماك الهمذاني، ولي قضاء القيروان سنة290هـ،ففرحت ورضيت الخاصة والعامة بتوليه القضاء، كما ولي القضاء من تلاميذ سحنون أبي العباس عبد الله بن طالب بن سفيان[2]،ومن أشهر طلبة سحنون في إفريقية نجد محمد بن عبدوس(ت260هـ)والّذي قال عنه الخشني:«كان حافظا لمذهب مالك والرواة من أصحابه،إماما مبرزا، فقيها في ذاته خاصة،غزير الاستنباط...»[3].

ومن تلاميذ سحنون المبرزين والّذين كان لهم دور أساسي في ترسخ المذهب المالكي في عقول وقلوب أهل المغرب الإسلامي نجد ابنه محمد بن سحنون(ت256هـ).

قال الخشني في تعريف محمد بن سحنون بأنّه كان من الحافظين لمذهب مالك،كما كان كثير الوضع للكتب غزير التأليف[4].

وللإمام سحنون في بلاد المغرب والأندلس عدد كبير من الطلبة يصعب إحصاؤهم وليس هذا مجال ذلك، لذا اكتفينا في هذا العنصر بذكر بعضهم وسنعود_بإذن الله_ للإشارة إليهم كلّما سمحت ظروف البحث.

ومن العوامل الأساسية الّتي ساهمت في بروز الإمام سحنون في الغرب الإسلامي، وسمحت له بنشر وترسيخ المذهب المالكي في هذه البلاد توليه القضاء لمدة ست سنوات أي من سنة 234هـ حتّى وفاته سنة240هـ[5].

لما ولي سحنون القضاء بإفريقية قام بجملة من الإجراءات والإصلاحات مسّت الجانب القضائي وحتّى الجانب الديني والثقافي وأصبحت سنة يحتذي بها قضاة وفقهاء بلاد المغرب الإسلامي خاصة المالكية منهم، ومن أبرز إصلاحاته نذكر:

_ النظر في الأسواق بمراقبة السلع الّتي تعرض فيها ومحاربة كل أشكال الغش في السلع والموازين وهوّ أول من نظر في الحسبة[6] من القضاة.

---

[1] _ القاضي، عياض، المصدر السابق، ج3، ص146.

[2] _الخشني، المصدر السابق،ص16.

[3] _نفسه،ص13.

[4] _ المصدر السابق،ص9.

[5] _الدباغ، بن ناجي، المصدر السابق، ج2، ص85.

[6] – ولاية دينية تقوم على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله، صيانة للمجتمع من الانحراف، وحماية للدين من الضياع، وتحقيقا لمصالح الناس الدينية والدنيوية وفقا لشرع الله تعالى.

_ كما قام الإمام سحنون بالتأسيس لمنصب إمام للصلاة في الجوامع بعد أن كانت هذه المهمة من صلاحيات الأمراء،و قدم على أهل البوادي الأمناء وكان يكتب إليهم[1].

_ كما بنى سحنون في المسجد الجامع دارًا يقضي فيها بين الناس، وكان أول من فرّق حلقات أهل البدع والأهواء من المساجد في بلاد المغرب،ومنعهم من أن يكونوا معلّمين للصبيان في الكُتّاب أو مدرسين ومؤذنين وأئمة في المساجد،وفرّق حلقاتهم وأدّب بعضهم[2].

وأهل البدع والأهواء في مفهوم سحنون كل من خالف الاتجاه السني ويشمل هذا المفهوم الخوارج باختلاف فرقهم وكذا الشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق السياسية والعقائدية وأصحاب النزعات الفلسفية.

وصلت إلى المغرب الأوسط تأثيرات التحول المذهبي الّذي كان يجري في القيروان وتونس وباقي أقاليم إفريقية وشرق المغرب الأوسط، ومن أهم المدن الّتي كانت تابعة لدولة الأغالبة السنية في المغرب الأوسط مدينة طبنة بإقليم الزاب، ميلة، سطيف و قسنطينة إلى جانب عدد كبير من المدن الصغيرة والقرى، هذه المنطقة الّتي تغطي جزءاً هاماً من بلاد المغرب الأوسط[3]، كانت تصل إليها تأثيرات المذاهب الفقهية السنية سواء الحنفية أو المالكية،كما كانت تحت سلطة الإمام والقاضي المالكي سحنون بن سعيد، وهوّ الّذي استقصى على أهل الزاب أحد طلبته الأوفياء من المالكية، وهوّ "أبو خالد يحيى السهمي"(ت245هـ/859م)[4].

كما ولى على بجاية والأربس سليمان بن عمران، شيخ الحنفية آنذاك، هكذا يكون الإمام سحنون قد بسط نفوذه القضائي والمذهبي على شرق المغرب الأوسط وساهم بفاعلية في نشر وترسيخ المذهب المالكي في هذا الإقليم.

ورغم الانتشار الواسع للنزعة الخارجية ببلاد المغرب الأوسط في القرن الثاني والثالث الهجريين إلّا أنّ هذا لا ينفي الوجود المعتبر للسنة في هذا الإقليم إلى جانب وجود الواصلية من المعتزلة وحتّى الشيعة الزيدية.

---

[1] _ محمد، عزت، المرجع السابق، ص153.

[2] _ القاضي،عياض، المصدر السابق، ج2، ص600. الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص87_88.

[4] _ الهنتاني،المرجع السابق،ص55.

لقد أدّى غياب سلطة قوية ذات توجه مذهبي محدد في أجزاء واسعة من بلاد المغرب الأوسط إلى انتشار واسع لمختلف الاتجاهات المذهبية حتّى غدا المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري يشبه الفسيفساء من حيث تعدد وتنوع المذاهب فيه[1].

ومن أولى الإشارات الواضحة على وجود المذهب المالكي في بلاد المغرب الأوسط، ما ذكره ابن الصغير في وصفه لتاهرت في عهد حكم عبد الرحمن بن رستم(160_171هـ)،حيث ساد الأمن والاستقرار والرّخاء وحلّ بها المهاجرون،وتنوعت فيها الأعراق والمذاهب،وتوسع فيها العمران إلى أن يقول:«حتّى لا ترى دارًا إلّا قيل هذه لفلان الكوفي،وهذه لفلان البصري،وهذه لفلان القروي،وهذا مسجد القرويين وهذا مسجد الكوفيين...»[2].

وما يهم في هذا المجال هوّ مصطلح القروي والقرويين وهوّ نسبة إلى القيروان، التي ساد فيهم المذهب المالكي لدرجة أنّ إسم القروي أو القيرواني أصبح في عرف الفقهاء يعني المالكية.

كما أشار بن الصغير إلى وجود المالكية بمصطلح "الحجازيين" والّذين كان يقصد بهم أتباع الإمام مالك الّذي كان يقيم في الحجاز بالمدينة المنورة، فكان أتباعه يلقبون أحيانا بالحجازيين، ورد ذكر هذا المصطلح في حوار بين بن الصغير ورجل من قبيلة هوارة يدعى سليمان ويكنّى بأبي الربيع الّذي قال لابن الصغير:«من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراق»[3]، جاء هذا الحديث في وصف بن الصغير للحياة الثقافية في أواخر عهد الدولة الرستمية وبالتحديد في فترة إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد(281_294هـ).

إنّ هذه الإشارات الّتي تركها لنا بن الصغير في روايته التاريخية دلّت على الوجود التاريخي للمذاهب السنية سواء الحنفية أو المالكية في عمق المجتمع التاهرتي ومنذ المراحل الأولى لتأسيس الدولة الرستمية وبالتحديد منذ عهد عبد الرحمن بن رستم(160_171هـ) حتّى أواخر عهدها في فترة إمامة أبي حاتم في أواخر القرن الثالث الهجري.

وبعيداً عن رواية بن الصغير، تذكر لنا كتب الطبقات المالكية شخصيات مهمة في الحياة الفكرية في تاهرت، ولعل أبرزها الشاعر والمحدث الفقيه بكر بن حماد الزناتي التاهرتي

---

[1] _ علاوة، عمارة، دراسات في التّاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008، ص127_139.

[2] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص36.

[3] _ ابن الصغير، المصدر السابق، ص118.

(200_296هـ)، ومن الّذين ترجموا لحياة بكر بن حماد، المالكي في كتابه رياض النفوس، وهوّ الّذي قال عنه أنّه سمع من سحنون[1]، أمّا صاحب معالم الإيمان فقد ذكر أنّ بكر بن حماد حماد سمع في إفريقية من سحنون وعون بن يوسف، كما رحل إلى المشرق فلقي مسد بن مسرهد وسمع منه مسنده في الحديث، كما سمع من عدد معتبر من علماء المشرق[2].

وقد ذكر صاحب معالم الإيمان أنّ بكر بن حماد كان ثقة عالماً بالحديث ورجاله،شاعراً فصيحاً،كما كان فقيها، والرّاجح أنّه كان مالكيًا.

ذكرت كتب الطبقات المالكية وحتّى بن عذارى المراكشي في كتاب "البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب"عددا معتبرا من قصائد بكر بن حماد وقد كان الهدف واضحا من هذه الأشعار، وهوّ إبراز الموهبة والمكانة الأدبية لهذا الشاعر الفقيه والمحدّث المالكي.

وقد جمع شاوش محمد بن رمضان أشعار بكر بن حماد من مختلف المصادر وشرح بعضها،في كتاب بعنوان "الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي"[3].

تعد هذه الأشعار مادة خصبة قابلة للدراسة من النّاحية الأدبية وحتّى التاريخية، لما تناولته من فنون الشعر من مدح، ووصف وهجاء ورثاء وزهد وغير ذلك من المواضيع، كما عبّرت عن مواقف فكرية وعقائدية مذهبية هامة، وذكرت شخصيات تاريخية مهمة.

ومن الّذين أشاروا إلى بكر بن حماد، الجغرافي البكري حيث قال:« بكر بن حماد، أبو عبد الرحمن، كان ثقة مأمونا حافظاً للحديث سمع بالمشرق من بن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشير بن حجر، وبإفريقية من سحنون وغيرهم...»[4].

توفي بكر بن حماد بتاهرت سنة 296هـ، وصلّى عليه فقيه يدعى "موسى بن باديسي"[5]، ولاشك في أنّ هذا الأخير كان مالكياً أو على الأقل سنياً ومن علماء المغرب المالكية في هذه

---

[1] _ الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، ج2، ص281_282.

[2] _ المالكي، رياض النفوس، ج2، ص21، الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص281_282.

[3] _ شاوش، محمد بن رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، المطبعة العلوية، مستغانم،1966 .

[4] _ أبو عبيدة، البكري، المصدر السابق، ص67.

[5] _ الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص282.

الفترة قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي والّذي روى عنه أبو عمر بن عبد البر الأندلسي المالكي[1].
المالكي[1].

ليست تاهرت هيّ المنطقة الوحيدة الّتي وجِد فيها السنة في المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري، بل هناك عدّة مناطق منها "حصن ابن كرام" الّذي ذكره اليعقوبي وقال عن أهله أنّهم "جماعية" أيّ سنة، لكنه لم يحدد إن كانوا من الحنفية أو المالكية.

1 _3: دور الأدارسة العلويين في انتشار المذهب المالكي بالمغرب الأوسط

كانت تلمسان في القسم الغربي من المغرب الأوسط حاضرة السُنّة المالكية، وهيّ الّتي قال عنها البكري:«...ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله...»[2].

والوجود السني في تلمسان تعود جذوره إلى القرن الثاني الهجري وبالتحديد منذ فشل تجربة الصفرية في إقامة دولتهم بغرب المغرب الأوسط بقيادة أبي قرّة[3].

كانت تلمسان موطناً لقبيلتين بربريتين أساسيتين هما بني يفرن ومغيلة، ويذكر بن خلدون أنّ بعض المؤرخين ينسبون أبا قرة إلى مغيلة، الّتي فشت فيها النحلة الخارجية الصفرية، أما بنو يفرن فيذكر أنّهم اشتهروا بأنّهم كانوا على مذهب أهل السنة وهذا ما ذهب إليه بن حزم[4].

وبنو يفرن إخوة لمغراوة، وهم فرع من زناتة، وهم الّذين قال عنهم جوتيه:«أنّ قلب بلاد مغراوة يجب البحث عنه في سهل شلف، غير أنهم كانوا ينتشرون في الهضاب العليا حتّى الصحراء»[5].

ومغراوة من موالي عثمان بن عفان _رضي الله عنه_ ومن بعده أهل بيته من بني أمية خاصة، من دون قريش، ولهذا كانت مواقفهم غالبا مؤيدة لدعوة المروانيون من بني أمية في الأندلس

---

[1] _ الحميدي، محمد، بن أبي نصر فتوح (ت488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق،صلاح الدين الهواري، ط،1 لمكتبة العصرية، بيروت، 2004 ،ص325.

[2] _ أبو عبيدة، البكري، المصدر السابق، ص70.

[3] _ ابن خلدون، العبر، ج7،ص،18. بن عميرة، محمد، المرجع السابق، ص86_87

[4] _ العبر، ج7، ص18.

[5]_ Gautier,le passe de l'Afrique du nord, op cit,1952,P383.

على حساب العباسيين ومن بعدهم الفاطميين وخلفائهم الصنهاجيين مراعاة لهذا الولاء التاريخي[1].

لما سقطت الخلافة الأموية بالمشرق سنة132هـ، استقلت مغراوة بتسيير شؤونها، وعظم ملكها، لكنه كان ذو طابع بدوي قبلي، ومن أبرز قادتهم خزر بن حفص بن صولات بن وِزْمَار[2].

ويعتقد أنّ محمد بن خرز المغراوي اليفريني هوّ الّذي قضى على دولة أبي قرة المغيلي الزناتي سنة170هـ[3]، ومما يؤكد ذلك أنّ إدريس بن عبد الله (إدريس الأكبر) لمّا زحف إلى بلاد المغرب الأوسط سنة 173هـ، تلّقاه "محمد بن خرز" وبايعه هوّ وقومه، ومكنوه من ملك تلمسان بعد أن أصبحت تحت نفوذ بني يفرن[4]، في هذه الفترة من أواخر القرن الثاني الهجري لحق بإدريس الأكبر(ت177هـ) أخاه سليمان بن عبد الله ونزل تلمسان.

خلف إدريس الأصغر أباه في الملك، ولمّا شبَّ استرجع نفوذ أبيه في المغرب الأوسط، فغزا تلمسان سنة197هـ، وجدد بناء مسجدها الجامع[5]، الّذي بناه إدريس الأكبر سنة 174هـ، وقام بنو خرز بدعوته كما كانوا لأبيه من قبل مما يؤكد ولاءهم المذهبي[6].

يدل موقف بني خزر وهم قادة بني يفرن على أنّ هؤلاء القوم قد ابتعدوا عن النحلة الخارجية سواء الصفرية أو الاباضية، كما لم يكونوا موالين لبني العباس، بل مالوا لإعلان الطاعة والولاء للأدارسة الّذين وإن مالوا للتشيع الزيدي فإنّهم الأقرب من أصحاب الفرق للسُنة، بل أكثر من ذلك كانت دولتهم في المغرب الأقصى مركزاً أساسياً لنشر المذهب المالكي خاصة في عهد إدريس الثاني وأحفاده.

يذكر ابن خلدون في هذا الصدد قوله:«...وانتظمت كلمة البرابرة و زناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيين عن دعوة العباسيين من لدن الشموس الأقصى إلى شلف»[7].

---

[1] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ط،2010، ص34.

[2] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ص34.

[3] _ بن عميرة، محمد، المرجع السالبق، ص90، بوخالفة نور الهدى، المرجع السابق، ص429.

[4] _ ابن خلدون، العبر، ج7، ص34.

[5] _ نفسه، ج4، ص18.

[6] _ نفسه، ج7، ص34.

[7] _ نفسه، ج4، ص18.

ولهذا النص دلالة مزدوجة، فهو يعني من الناحية المذهبية تخلي زناتة في غرب المغرب الأوسط، أي من شلف حتّى المغرب الأقصى عن المذهب الخارجي سواء كان إباضيا أو صفريًا، أمّا من الناحية السياسية فيعني تحول الولاء لهذه القبائل في غرب المغرب الأوسط إلى الأدارسة وحتّى الأمويين في الأندلس،ومما يؤكد ذلك بقاء هذه المناطق خارج إطار نفوذ الدولة الرستمية سواء في القرن الثاني أو الثالث الهجريين.

مكث إدريس الأصغر(الثاني) في تلمسان ثلاث سنوات، ثمّ غادرها بعد أن ولّى عليها بن عمّه محمد بن سليمان، وقد كان لهذا الأمر أثر بالغ الأهمية في التحول المذهبي في غرب وشمال المغرب الأوسط، حيث أدّى توسع الأدارسة في غرب المغرب الأوسط واتّخاذهم لتلمسان كقاعدة ثانية لملكهم إلى تراجع واضح للمذاهب الخارجية سواء الصفرية أو الاباضية من جهة، أما من جهة ثانية فإنّ هذا التوسع قد فتح المجال في المغرب الأوسط لتوسع نفوذ العلويين وإقامة عدّة إمارات علوية غطت مساحات واسعة من شمال وغرب المغرب الأوسط،هذه الإمارات الّتي وإن تميزت بنزعتها الزيدية إلّا أنّها كانت في الأساس سُنية خاصة من الناحية الفقهية[1]، أمّا من الناحية السياسية فقد كانت علوية زيدية، وقد سبق لنا مناقشة هذه المفاهيم في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

هناك عدّة شواهد تاريخية تؤكد التّوجه السني عند الأدارسة ومن ورائهم الإمارات العلوية الّتي حكمت مناطق واسعة من المغرب الأوسط خاصة الإمارات العلوية من الفرع السليماني، وأهم مدنها تلمسان، لكن في نفس الوقت هذه الشواهد التاريخية لا تنفي إيمان العلويين بحقهم في الخلافة والملك، وهذا ما ذهب إليه الزيدية الّذين أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل، لكنهم لم يذهبوا مذاهب غلاة الشيعة من الإمامية الإسماعيلية.

أمّا من الناحية الفقهية فإنّهم كانوا من أهل السُنّة والجماعة وهذا ما صرّح به إدريس الأصغر في خطبته عندما استحدث مدينة فاس فقال:«اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها»[2].

---

[1] _ بن معمر، محمد ، العلاقات السياسية و الروابط الثقافية، ص 321.

[2] _ السنوسي،علي الخطابي الإدريسي، الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية،طبعة،مطبعة الشباب،مصر،1349هـ، ص73. السلاوي، المصدر السابق، ج1، ص167.

يدل هذا النص بوضوح على التوجه السني لدي الأدارسة خاصة في عهد إدريس الثاني الّذي يعدّ المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، ومن أقوى المفاهيم الّتي تؤكد التوجه السني ذكره مصطلح "الجماعة" هذه المسألة الّتي سبق نقاشها في بداية الفصل والّتي تعني الموقف الوسط الّذي أنهى الفتنة الكبرى بين المسلمين وهذا ما رفضه الخوارج وكذا الشيعة خاصة المتطرفين منهم، وهذا يعني أنّ ملك الأدارسة ومن ورائهم العلويين في المغرب الأوسط خاصة السليمانيين منهم كان سُنيا بعيدا عن المذاهب والفرق الإسلامية المبتدعة[1].

كما أنّ إماراتهم قامت على أساس الأخذ بالكتاب والسنة من غير تبديل ولا تغيير ولا اعتزال كما قال الكتاني،محمد بن جعفر[2].

لا تذكر المصادر أنّ الأدارسة مارسوا نشاطًا دعوياً مذهبيًا سواء في بلاد المغرب الأقصى أو الأوسط وكذا الإمارات العلوية خاصة السليمانية ببلاد المغرب الأوسط، بل كل ما قاموا به هوّ نشاط سياسي يستهدف نشر فكرة حق العلويين في الملك دون أن يتطلّع الأدارسة لاسترجاع الخلافة في المشرق، أو إقامة خلافة موازية لبني العباس كما فعل الفاطميون.

ومن المراكز الثقافية الأساسية الّتي أثرت في التوجه المذهبي لدولة الأدارسة والإمارات العلوية في بلاد المغرب الأوسط، نجد القيروان والأندلس في بلاد المغرب، إلى جانب المراكز الكبرى في المشرق الإسلامي.

ومن العوامل الّتي ساعدت القيروان والأندلس على التأثير في التوجه المذهبي للإمارات العلوية، انتقال أعداد معتبرة من المهاجرين من إفريقية والأندلس إلى فاس المغربية وبعض الإمارات العلوية في المغرب الأوسط واستقرارهم بها، وتعود أسباب هذه الهجرات إلى الاضطهاد الّذي كانت تعانيه بعض الفئات في المجتمع الأغلبي والأندلسي خاصة بعد فشل الثورات ضد الأنظمة الحاكمة.

وفي هذا السياق شهدت إفريقية عدّة ثورات وحركات تمرد قام بها الجند ضدّ الأغالبة في فترات مختلفة، كان من نتائجها تشريد الثوار وعائلاتهم، فلم يجدوا ملجأ إلّا في النزوح إلى بلاد المغرب الأوسط في ظل الدولة الرستمية والإمارات العلوية حيث يضعف قهر السلطان ويقوم الحكم على الولاء بالدرجة الأولى، كما لجأت فئات معتبر منهم إلي دولة الأدارسة في فاس.

[1] _ بوخالفة، المرجع السابق، ص440.

[2] _ الكتاني، محمد بن جعفر، امصدر السابق، ص71.

في إفريقية في عهد "زيادة الله بن الأغلب(201_223هـ)" ثار الجند ولحقت بهم العامة لما أساء السيرة في الجند وسفك الدماء بدون رحمة وفي هذا المجال يذكر بن عذارى سبب ثورة الجند فيقول:«أن زيادة الله كان أغلظ على الجند،وأمعن في سفك دمائهم والاستخفاف بهم...»[1]

فشهدت إفريقية في عهد الأغالبة عدّة ثورات للجند منها ثورة "عمر بن معاوية القيسي سنة208هـ"، وثورة منصور الطنبذي بتونس سنة 209هـ[2]،كما استمرت ثورات الجند تؤازرهم العامة أحيانا خاصة في مدينة تونس حتّى سنة218هـ/836م.

أدّى فشل هذه الثورات، وقسوة زيادة الله بن الأغلب إلى تشريد الجند وعائلاتهم وكل من ولاهم إلى بلاد المغرب الأوسط، وقد أشار بن الصغير لوجودهم بتاهرت في ظل الدولة الرستمية عدّة مرّات[3]، كما وصلت جاليات معتبرة منهم إلى فاس.

أبرز ما يميز المهاجرين من إفريقية من الناحية المذهبية هوّ تمسكهم بالاتجاه السني خاصة المالكي في فترة القرن الثالث الهجري، هذا التوجه الّذي سيجد في فاس مجالا خصبا للانتشار والتوسع، كما سيغزو الإمارات العلوية السليمانية التابعة للأدارسة في المغرب الأوسط.

نزل المهاجرون من إفريقية بمدينة فاس، في ضيافة إدريس الثاني وفيها اختطوا عدوة القرويين، وكان من بينهم العلماء والفقهاء والمحدثين من أهل السنة، خاصة المالكية منهم، حدث هذا سنة 210هـ، وهيّ السنة الّتي وصلت فيها أكبر الهجرات العربية من القيروان إلى فاس[4].

كما كانت قد وصلت إلى فاس سنة 202هـ هجرة معتبرة من أهل الأندلس، الّذين ثاروا ضد الحكم بن هشام الأموي(180_206هـ)وكانوا من أهل الربض إحدى ضواحي قرطبة والّذين آزرهم الفقهاء خاصة المالكية منهم، ومن أمثال الفقيه والمحدث يحيى بن مضر القيسي ومالك بن يزيد التجيبي وأبو كعب بن عبد البّر[5].

---

[1] _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص57.

[2] _نفسه، ص 58_59.

[3] _ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص 81 – 83.

[4] _ بوخالفة، نور الهدى، المرجع السابق، ص436.

[5] _ طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، طبعة، دار النفائس، بيروت،189،2005.

قدر عدد المهاجرين من الربض إلى فاس الإدريسية بحوالي أربعة آلاف أسرة[1]، كان من بينهم الفقهاء والمحدثون وأصحاب الحرف من كل الفنون مما أفاد في بناء حاضرة إسلامية مزدهرة.

احتضن إدريس الثاني المهاجرين من العرب من إفريقية والأندلس وقربهم إليه، وأجزل لهم العطاء[2]، فاستوزر"عمر بن مصعب الأزدي"الملقب بالملحوم وهوّ من أشراف العرب،كما استقضى "عامر بن سعيد القيسي" وهوّ من أهل الأندلس ومن الّذين سمعوا من الإمام مالك بن أنس وسفيان الثوري[3].

وقد ذهب الكتاني في كتابه"الأزهار العاطرة"إلى التأكيد أنّ إدريس الأصغر كان على مذهب الإمام مالك وفي هذا قال:«وعلى مذهبه كان إدريس وجميع العلماء من أهل الغرب الأقصى بسبب تقليد إدريس لمالك، وتحصيل كتابه الموطأ وحفظه له»[4].

كما كان للجالية العربية المالكية دور أساسي في بناء أهم مركز علمي سني في فاس ألا وهوّ مسجد القرويين، الّذي كان يعرف بمسجد الشرفاء، الّذي جددته أم البنين فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري سنة 245هـ[5]، وأصبح منذ ذلك الحين أهم مركز علمي وإشعاع فكري سنّي مالكي في المغرب الأقصى وإليه رحل طلاب العلم من مختلف بلاد المغرب الإسلامي، وفيه تشبعوا بالفكر السني.

تضافرت عدّة عوامل في القرن الثالث الهجري(9 م) ساعدت على الانتشار الواسع للاتجاه السني في بلاد المغرب الأوسط، ومن أبرزها انتشارا وسيادة المذهب المالكي والحنفي في إفريقية في هذه الفترة في ظل الدولة الأغلبية الّتي كان نفوذها يشمل مناطق واسعة من شرق المغرب الأوسط، ومن أهم مدنه طبنة، قسنطينة، ميلة، سطيف و بلزمة وغيرها من حواضر شرق المغرب الأوسط.

---

1 _ السلاوي، الإستقصاء، ج1،ص167.

2 _ نفسه، ص163.

3 _نفسه، نفس الصفحة. عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط، 1993،ص19.

4 – الكتاني، المصدر السابق، (طبعة حجرية بدون تاريخ)،ص 136 –137.

5 _ ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص55_56.

أمّا في غرب المغرب الأوسط فإنّ تأثيرات التوجه السني كانت تفد بقوّة من فاس عاصمة الأدارسة، ورغم نزعتهم العلوية إلّا أنّهم ساهموا بفاعلية في نشر المذهب المالكي في المغرب الأقصى وغرب وشمال المغرب الأوسط، وقد كانت تلمسان في المغرب الأوسط عاصمتهم الثقافية الثانية بعد فاس، ومن تلمسان توسع نفوذ العلويين وساد توجههم السني جزءاً مهماً من المغرب الأوسط.

كما كان للمهاجرين والتجار وطلاب العلم دورا أساسيا في انتشار السنة في بلاد المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري، ولكن هذا لا ينف الوجود المعتبر اللاإباضية وحتّى المعتزلة في المنطقة، استمر هذا الوضع حتّى ظهور الشيعة ببلاد المغرب الإسلامي، وامتحان الاباضية والسنة معاً.

2. مرحلة التشيع وصمود المالكية في المغرب الأوسط (296_405هـ).

رغم الانتشار المعتبر للسُنة في بلاد المغرب الأوسط وباقي بلدان الغرب الإسلامي في القرن الثالث الهجري(9م)، إلّا أنّ هذا لا ينفي استمرار وجود ونشاط اتّجاهات مذهبية مخالفة للسنة، ونقصد بها الوجود الخارجي الاباضي والصفري، وكذا وجود المعتزلة والشيعة.

أدّى التنافس المذهبي والسياسي للسيطرة على بلاد المغرب الإسلامي إلى بروز الدعوة الشيعية الإسماعيلية باسم الفاطميين، واتّخاذها من بلاد المغرب الأوسط نقطة انطلاق لنشاطها الدعوي السياسي ثمّ العسكري الّذي انتهى بسحق دويلات المغرب الإسلامي في أواخر القرن الثالث الهجري، فأنهى الزحف الشيعي الإسماعيلي وجود الدولة الأغلبية في إفريقية وشرق المغرب الأوسط.

كما أنهى وبشكل مأساوي حكم بني رستم الاباضي في تاهرت بالمغرب الأوسط، وكذا الصفرية في سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى سنة 296هـ، أمّا نهاية الأدارسة فقد كانت سنة 305هـ(917م) على يد مصالة بن حبوس المكناسي[1].

أدى الانتصار العسكري والسياسي للتشيع الإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي في أواخر القرن الثالث الهجري إلى تحول عميق على المستوى المذهبي والعقدي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة.

---

[1] _ بن عميرة، المرجع السابق، ص147.

مثلت إفريقية والمغرب الأوسط والأقصى المجال الحقيقي لهذه التحولات والّتي كانت مؤلمة بالنسبة لمختلف للطوائف خاصة أهل السنة والإباضية بحكم استضعافها من طرف الشيعة الإسماعليين أصحاب السلطة السياسية والعسكرية في القرن الرابع الهجري(10م).

لقد تعددت أوجه المحنة الّتي واجهها السنة خاصة المالكية منهم في القرن الرابع الهجري ومن أبرز مظاهر ذلك، القهر السياسي والعسكري وحتّى الفكري، ومحاولات فرض التحول المذهبي على السنة إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي بالقوة، إلى جانب امتحان الفقهاء وحتى العامة.

من الطبيعي أن يكون لأهل السنة رد فعل على هذا التوجه المذهبي المفروض، وقد تجسد ذالك في المقاومة العسكرية والسياسية كأولى الوسائل والأدوات، ثمّ جاءت مرحلة الصمود ورفض التحول المذهبي المفروض، هذا الرفض الّذي عبّرت عنه العامة بالثورات، وصمد فيه الفقهاء بشكل بطولي ومثالي لدرجة المبالغة.

كما تصورهم كتب الطبقات المالكية، وحتّى وإن رضخ بعض الأحناف للتشيع الإسماعيلي، فإنّ المالكية اختاروا التعذيب والشهادة على أن يتحولوا عن منهج أهل السنة وهذا ما أعطاهم صفة الزعماء التاريخين في مسيرة المالكية في بلاد المغرب الإسلامي.

ويمكننا تمييز ثلاث فترات أساسية مرّت بها محنة المالكية في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي ولعل أشدها قسوة على المالكية هيّ الفترة الأولى والتي تبدأ منذ دخول الشيعة الفاطميين عاصمة الدولة الأغلبية "رقاده" بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ، هذه الفترة الّتي استمرت حتّى انتهاء ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الاباضي النكاري ضد الفاطميين سنة336هـ.

أمّا الفترة الثانية فهي الّتي تمتد من سنة336هـ حتّى رحيل الفاطميين إلى مصر سنة361هـ، في حين تبدأ الفترة الثالثة والأخيرة من تولي الزيرين خلفاء الفاطميين حكم بلاد المغرب الأدنى والأوسط حتّى تحولهم (بني زيري) عن المذهب الشيعي الإسماعيلي وإقبالهم على المذهب المالكي، وهذا ماحدث مبكرا في المغرب الأوسط منذ 419هـ،أما بالنسبة لإفريقية فقد حدث هذا التحول متأخرا مقارنة بما حدث في المغرب الأوسط وذلك في عهد المعز بن باديس الصنهاجي سنة 440هـ[1].

---

[1] – Galvin,lucien, Le Maghreb Central ,op.cit,p 97.

2_ 1 : الفترة الأولى(296هـ_336هـ):

رغم الخلاف القائم بين فقهاء المالكية وأواخر أمراء بني الأغلب بسبب استبدادهم على الرعية وإفراطهم في سفك دماء مخالفيهم من المسلمين، إلّا أنّ الفقهاء وقفوا إلى جانب مقاومة الزحف الشيعي وهذا منذ البداية، لكنهم وأمام انهيار قوات "زيادة الله الثالث" في الأربس يوم 22جمادى الثانية296هـ/18مارس909م، لم يجدوا بُدًا من مسالمة أبي عبد الله الشيعي وتجنيب مدينتهم القيروان خطر الاستباحة من طرف الجند وتعريض أنفسهم وأهاليهم للقتل والتشريد فبادر الفقهاء بإعلان الطاعة والتأييد لأبي عبد الله الشيعي، وفي المقابل منحهم الداعي الأمان ومنع الجند من استباحة المدينة[1]،وفي هذا الصدد يذكر ابن الأثير قوله:«ولما كان أبو عبد الله حريصاً على إتباع سياسية معتدلة في تلك الظروف،فقد استقبلهم بودٍ ظاهر وأعطاهم الأمان»[2].

لم يحاول أبو عبد الله فرض التشيع بالقوة، بل أنزل الناس على مذاهبهم ،وكان هذا شأنه في باقي مدن إفريقية الّتي فتحها[3]، ولمّا همّ أخاه أبو العباس بطرد الفقهاء من القيروان أثناه على ذلك.

بعد أن استتب الأمر للشيعة في إفريقية قرر أبو عبد الله الزحف إلى سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى لتخليص المهدي من الأسر، وفي طريقه قضى على آخر معاقل الرستميين الاباضية في تاهرت(296/297هـ)[4].

وقبل الرحيل استخلف أبو عبد الله على إفريقية أخاه"أبا العباس" بصفة نائب له،و"محمد بن عمر المروذي" قاضيًا، ولكن يبدو أنّ هذه القيادة الجديدة كانت أقل حكمة وحنكة سياسية من أبي عبد الله، فأفرطوا في فرض المغارم، وامتحان الفقهاء وحتّى العامة وأظهروا الوجه الحقيقي للتشيع الإسماعيلي.

---

[1] _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، تحقيق، ج،س، كولان وليفي بروفنسال، ط3، 8، دار الثقافة، بيروت، ص159. الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية، ترجمة، المنجي الصيادي، ص774.

[2] _ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص17.

[3] _ أبو العرب، المصدر السابق، ص270. ابن عذارى، المصدر السابق، ص ص150_151.

[4] _نفسه، ص153.

يذكر بن عذارى أنّ الشيعة في هذه الفترة أعلنوا عقيدتهم في الإمامة القائمة على تفضيل علي وآله والبراءة ممّا سواه[1]،كما أنّ القاضي المروذي كان يرغم النّاس على التشيع، وحتّى أبي العباس كان يمتحن الفقهاء محاولا إرغامهم على التشيع.

أدّت سياسة أبي العباس الشيعي والقاضي المروذي إلى كشف الوجه الحقيقي للتشيع الإسماعيلي الباطني أمام فقهاء المالكية وكذا عامتهم فكان الموقف في نظرهم خيار بين الثبات على السنة وتعاليم الإسلام الصحيحة وهذا سيكلفهم شتّى أنواع الامتحان، أمّا الخضوع فكان يعني الانسلاخ عن السنة وبالتالي الخروج من دائرة الإسلام، لا شك أنّ كلا الخيارين كان قاسياً، مما يعبر عن قسوة المحنة الّتي وجد فيها المالكية أنفسهم.

اختار المالكية يتقدمهم الفقهاء وأبرزهم كانوا من طلبة الإمام سحنون الصمود والتّصدي لهذا التحول المذهبي الخطير، وتحريض العامة على مقاومة التشيع مهما كان الثمن.

وفي المقابل أسرف أبو العباس وقاضيه المروذي في امتحان الفقهاء من المالكية بشتّى أنواع التعذيب، والقتل والتمثيل[2].

ولما بلغ هذا الأمر "أبا عبد الله" وهوّ في رحلته إلى سجلماسة كتب إلى أخيه "أبي العباس" يعنّفه ويلومه فقال له:«قد أفسدت، علينا من أمر هذه البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى إصلاحه!»[3].

ومن أبرز فقهاء المالكية الّذين امتحنوا في هذه الفترة "إبراهيم بن محمد الضبي"، الملقب بابن البرذون و"أبو بكر هذيل" والّذين قتلا في عهد ولاية أبي العباس لعدم مسايرتها مقولات التشيع الإسماعيلي وثباتهما على السنة[4].

بعد تخليص "عبيد الله" وابنه أبو القاسم من السجن عند بني مدرار في سجلماسة سنة 297هـ، عاد عبد الله الشيعي ومعه مولاه عبيد الله المهدي الذي دخل رقاده في نفس السنة[5].

---

1 _ ابن عذارى، المصدر السابق،ج1،ص153.

2 _ نفسه، ص155.

3 _ نفسه، ص155.

4 _ المالكي، المصدر السابق، ج2،ص47_51. الدباغ، المصدر السابق ، ج2، ص268 .

5 _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص158.

أمِل الفقهاء ووجوه القيروان في عدل وإحسان عبيد الله فخرجوا لاستقباله،وأظهروا له السرور، وسألوه الأمان، فقال لهم:«أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم» ولم يعطيهم الأمان على أموالهم، بل أعرض عنهم لمّا ألحوا في الطلب[1].

يذكر بن عذارى المراكشي أنّ عبيد الله لمّا استقر له الأمر بإفريقية:«أظهر التشيع القبيح، فسبّ أصحاب النبيﷺ وأزواجه، حاشى عليّ بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري»[2]،ومنع الفقهاء من الإفتاء بمذهب مالك وفرض المذهب الشيعي الّذي ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق[3].

وأحدث في أمور الدين قضايا كثيرة مست فقه الصلاة والآذان والميراث والعلاقات الزوجية (الطلاق)والصوم وغيرها،كما ادعى المهدوية وبالغ الشعراء والخطباء من الشيعة في تعظيمه لدرجة التأليه كما رأينا في الفصل الثاني[4].

ومن الشعراء الّذين مدحوه وبالغوا في مدحه الشاعر "محمد البديل" الّذي قال فيه:

حـلّ برقـاده المسيـــح ... حـلّ بهـا آدم ونـــوح

حلّ بها أحمد المصطفى ... حلّ بها الكبش والذبيح

حلّ بها الله ذو المعالـي ... وكلّ شـيء سواه ريـح [5]

إن كان أهل السنة لم يتحملوا حتّى الاختلافات الفقهية بينهم والّتي كانت في الأساس بسيطة ولا تمس إلّا الفروع، كما أنّ اختلافهم مع المعتزلة والإباضية لم يكن في أصل العقائد وإنّما كان في الفروع، فكيف سيكون موقفهم من تأليه الحاكم، وسبّ أصحاب الرّسول□.

لقد اعتبر السنة وفي مقدمتهم المالكية أن ما انطوت عليه نظرة الشيعة للإمامة وتأليه الحاكم، كفر بواح وأنّ قائله والآخذ به كافر، خارج من ملّة الإسلام.

وفي هذا قال أحد الشعراء في أبيات أرسلوها لعبيد الله المهدي:

---

1 _ ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،ص158.

2 _ نفسه، ص159.

3 _جعفر الصادق(80-148هـ) بن محمد الباقر بن علي زين العابدين من كبار علماء البيت العلوي في القرن الثاني الهجري، يدعي الشيعة الإسماعلية انتسابهم إليه. للمزيد يراجع: الإمام أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص669 ومايليها.

4 – ينظر: الملحق رقم3.

5 _ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص160.

الجور قد رضينا لا الكفر والحماقة!

يا مدّعي الغيوب من كاتب البطاقة؟

وبقدر ما كانت تتكشف حقيقة التشيع الإسماعيلي الباطني بقدر ما كان يزيد إصرار المالكية الرافض لعقائد الشيعة وفي نفس الوقت تعظم محنتهم وشدّة السلطان عليهم.

ألمت هذه المحنة بأبرز فقهاء السنة خاصة المالكية منهم ولم ينجوا حتّى الأحناف من ذلك، ولم يسلم إلّا من قبل بمقولات الشيعة وتمذهب بمذهبهم، أي تشرّق،ومن الّذين امتحنوا في عهد عبيد الله المهدي(297_322هـ)عدد كبير من الفقهاء والوجهاء وحتّى العامة أبرزهم من الفقهاء:

_ أحمد بن يحيى بن طيّبَ، الفقيه وهوّ حنفي المذهب[1].

_ جبلة بن حمود بن عبد الرحمن الصدفي،وهو من صغار تلاميذ سحنون،وهو القائل عن الشيعة «كنّا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حلّ هذا العدو بساحتنا»،قتله عبيد الله

_ محمد بن محمد خيرون المعافري الأندلسي،قتله الشيعة سنة 301هـ[2] بأمر من عبيد الله، فداسه السودان بأرجلهم حتّى الموت[3].

_ سعيد بن محمد الحداد، قتله الشيعة سنة 302هـ، بعد تصديه لدحض مقولاتهم بواسطة المناظرات، وكان على دراية بمقولات الفرق الإسلامية وعلم الكلام[4].

ومن الفقهاء من لم يجد غضاضة في اعتناق مذهب الشيعة لذا وصفهم المالكية بأنّهم تشرّقوا، ومنهم:_علي بن منصور الصفّار،والّذي كافأه الشيعة بمنصب قضاء ميله بالمغرب الأوسط، ومحمد بن حيان وأبو بكر القمودي، وابن الصباغ، وربيع بن سليمان، وكانوا في الأساس من المالكية وقد بالغوا في الاستتار[5].

ويعتقد المالكية أنّ هؤلاء الفقهاء الّذين تشرّقوا إنّما كانوا مدفوعين بالخوف من الامتحان، أو الطمع في المال والمناصب.

---

1 – ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص261.

2 _ الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص ص272_280.

3 _المالكي أبو بكر، المصدر السابق، ج2،ص ص135_136.

_ الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص ص288_290.

4 _نفسه،ص295.

5 _الخشني، المصدر السابق ،ص ص283_291،292.

أمّا الأحناف والشافعية الّذين مالوا إلى مذهب الشيعة فإنّ عددهم كان أكبر، ولم يخفوا تحولهم المذهبي هذا، ومن أبرزهم أبو بكر بن سليمان الشافعي، وعبد المالك بن محمد الضبي الشافعي[1].

أما من الأحناف فنذكر خلف بن معمر بن منصور وغيره كثير[2]، وقد تمكن الأحناف من أن يصبحوا جزءاً من جهاز الدولة فأصبح منهم القضاة، وأصحاب المظالم والكتاب[3].

ولكن مهما يكن من أمر هذا التحول المذهبي المفروض، فإنّ المؤكد هو أن أغلبية فقهاء السنة خاصة المالكية منهم ثبتوا على موقفهم المذهبي وتحملوا شتّى أنواع التعذيب والإرهاب والقتل، وقد اتّخذت العامة من الفقهاء مثلا يُحتذى به، واعتبرتهم شهداء وزعماء تاريخيين، وربما رفعت بعضهم إلى مستوى أسطوري، وأصبحوا في غياب سلطة سياسية سنية هم القادة الفعليين للعامة وكثيرًا ما دفع هؤلاء الفقهاء بالعامة إلى الثورة وكانوا في مقدمة الصفوف كما حدث في عهد حكم عبيد الله المهدي سنة(297-322هـ) وكذا عند مشاركة المالكية في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد خاصة سنة333هـ.

رغم المأساة الّتي حلّت بالمالكية جراء خديعة أبي يزيد النكاري، إلّا أنّ الفقهاء لم يفقدوا مكانتهم في المجتمع المالكي في إفريقية والمغرب الإسلامي بصفة هامة، أو حتّى في المغرب الأوسط، الّذي كان مرتبطا بهذه الأحداث بحكم ارتباطه بإفريقية والدولة الفاطمية.

لقد اندفع الفقهاء بحكم حماسهم الديني و قلّة تجربتهم السياسية وخبرتهم العسكرية إلى حرب لا يملكون مقاليدها وإلى جانب شخصية غامضة هيّ شخصية أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري ودافعهم الأساسي هوّ التخلص من حكم بني عبيد الّذين اعتبرتهم المالكية كفّارًا خرجوا من الملّة، لكن النتيجة كانت عكسية، حيث تنكر أبو يزيد أثناء المعركة للمالكية وتركهم لسيوف الشيعة المتمرسة في الحرب تحصدهم[4].

[1] _نفسه،284.

[2] _ ابن عذارى، المصدر السابق ،ج1،ص241.

[3] _الخشني، المصدر السابق، ص ص 292_295.

[4] _ ابن عذارى، البيان، ج1، ص ص217– 218.

مات في هذه الحرب عدد كبير من علماء وفقهاء المالكية ورجال العبادة والصلاح إلى جانب العامة، وكشفت الحرب المذهبية عن وجهها القبيح[1].

لم يسلم المغرب الأوسط من هذه الصراعات المذهبية سواء على مستوى اضطهاد الفقهاء وتقتيلهم، أو بفرض التشيع الإسماعيلي الباطني،كما أنّ السنة في المغرب الأوسط كانوا على صلة وثيقة بما يحدث في إفريقية، ويتفاعلون بشكل إيجابي مع فقهاء القيروان، بحكم تأثير هذه الأخيرة على شرق المغرب الأوسط، كمدينة ميلة، طبنة، بلزمة، وبسكرة وغيرها من مدن شرق المغرب الأوسط.

كانت في وسط المغرب الأوسط تاهرت الرستمية محورا أساسيا للصراع بين الشيعة الفاطميين و زناتة الخارجية، واتخذ الصراع طابعا عسكريا بالدرجة الأولى برزت فيه النزعة القبلية بقوة، وأصبح الصراع يتخذ طابع الدفاع عن القبيلة ومناطق نفوذها ومجال تحركاتها.

ولتوضيح الصورة أكثر فإنّ الصراع في تاهرت وما حولها في وسط المغرب الأوسط، إلى جانب دافع الاختلاف المذهبي لدرجة التناقض في المفاهيم بين الاباضية والشيعة، كان دفاعا عن أهم القواعد الاقتصادية والطرق التجارية الّتي تملكها زناتة أمام توسع نفوذ الشيعة المذهبي والاقتصادي والعسكري.

انخرط السُنة في هذا الصراع ومنذ البداية في موقف معادٍ للشيعة الإسماعيلية،وقد مثل بنو يفرن وفي مقدمتهم مغراوة بقيادة "محمد بن خرز" القيادة السياسية والعسكرية الأساسية للمقاومة السنية، وبنو يفرن فرع من زناتة لكنهم اشتهروا بأنّهم كانوا سنة[2].

ومن أهم فروع بني يفرن مغراوة والّتي كانت لها القيادة وإليها ينتمي محمد بن خرز الّذي قاد مقاومة النفوذ المذهبي والسياسي والعسكري ضد الفاطميين ولمدة ربع قرن من الزمن،أمّا مضاربهم فقد كانت تشمل المنطقة الممتدة ما بين وادي شلف ووادي ملوية،ولكن انتشارهم وصل حتى منطقة جبل راشد بالهضاب العلي بالمغرب الأوسط.

[1] _ ومن علماء المالكية الّذين قتلوا سنة 333هـ، نذكر أبو الفضل عباس بن عيسى المسمى، ربيع بن سليمان بن عطاء الله القطان، أبو إسحاق ابراهيم بن محمد القصري المؤدب الزاهد الّذي مات في سجن بني عبيد وغيرهم كثير، ذكر ابن ناجي في كتاب معالم الإيمان ،ج3،ص ص 38،36،30،12.

[2] _ابن خلدون، العبر، ج7، ص18.

أمّا أهم مدنهم فقد كانت تلمسان وتيميطلاس بغرب المغرب الأوسط، وموقف مغراوة بدا معاديا للدعوة الإسماعيلية منذ نشأتها، ومن أبرز الأحداث الّتي تؤشر على ذلك مقتل رسل أبي عبد الله الشيعي الأربعة عشر في ضواحي طبنة في منطقة الزاب بالمغرب الأوسط والّذين كانوا في مهمة إلى صاحب الدعوة "المهدي" المسجون في سجلماسة، وقد وقعت هذه الحادثة في منطقة زناتة وأميرها يومئذ محمد بن خرز[1].

وجه الفاطميون عدّة حملات عسكرية لفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية وحتّى المذهبية على بلاد المغرب الأوسط، خاصة محور تاهرت تلمسان كانت أولاها حملة أبي عبد الله الشيعي سنة 298هـ/911م، وثانيها حملة عبيد الله المهدي الّتي قادها هارون بن يونس المسالتي سنة 299هـ/913م،ثم حملة مصالة بن حبوس المكناسي سنة304هـ/918م،هذه الأخيرة الّتي اجتاحت فيها القوات الشيعية تلمسان وقضت على إمارة "نكور"السُنية سنة305هـ.استمر الصراع ضدّ زناتة حتّى مقتل القائد الفاطمي مصالة بن حبوس سنة312هـ/925م/926م،على يد المقاومة الزناتية بقيادة محمد بن خرز المغراوي[2].

بعد مقتل القائد الفاطمي مصالة بن حبوس وجه عبيد الله المهدي حملة عسكرية ضد زناتة قادها ابنه محمد القاسم وذلك سنة 315هـ(928هـ) جاءت هذه الحملة في فترة توسع فيها نفوذ محمد بن خزر في المغرب الأوسط وحصل على دعم وتأييد الأمويين بالأندلس في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر(30هـ_350هـ)[3]،وفي كل مرّة كانت قوات محمد بن خزر تتفادى المواجهة المباشرة مع الحملات الكبرى للفاطميين ربّما لإدراك محمد بن خزر حقيقة عدم تكافؤ القوة العسكرية مما يدل على مهارته في هذا الميدان.

توجت حملة "القائم" بن عبيد الله المهدي بتأسيس الفاطميين لمدينة "المسيلة" والّتي كانت تسمى "بالمحمدية" سنة315هـ كقاعدة متقدمة للفاطميين في مواجهة زناتة بفرعيها الخارجي والسني وهذا يدل على أنّ أمر الدفاع عن تاهرت أصبح مكلفا للفاطميين رغم تمسكهم به.

---

[1] – ابن عذارى،المصدر السابق،ص155.القاضي النعمان،افتتاح الدعوة،ص222.

[2] _ابن عذارى،المصدر السابق،ج1،ص165_166،البكري،إفريقية والمغرب،ص96،

[3] _بالهواري،فاطمة،معارضة محمد بن خرز للوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط، **مجلة عصور**،العدد3جوان2003، ص117_118.

استمرّ الصراع في المغرب الأوسط حتّى نهاية ثورة أبي يزيد النكاري سنة 336هـ، وطغى عليه الجانب العسكري أكثر من النشاط المذهبي، لكن هذا لا ينفي سعي الشيعة إلى نشر مذهبهم في تاهرت وغرب المغرب الأوسط، كما لا ينفي روح الرفض الذي واجه به سكان المغرب هذا التحول المذهبي المفروض، سواء الاباضية الّذين كان يمتد نفوذهم من غرب طبنة وحتّى غرب تاهرت، أو السنة وهم بنو يفرن خاصة مغراوة بقيادة محمد بن خرز وقاعدتهم تلمسان ومدن الإمارات السليمانية في غرب المغرب الأوسط.

وتكاد تخلوا المصادر من الإشارات إلى الجانب المذهبي، ولا تركز إلا على الجانب العسكري والسياسي لهذا الصراع الّذي يبرز فيه العنصر القبلي بقوة خاصة عند زناتة المغرب الأوسط كما سيتخذ هذا الصراع طابعا قبليا عنصريا لما تتولى صنهاجة قيادة الجيوش الفاطمية، وهذا ما يجعل الباحث في مجال الحركة المذهبية يعاني مصاعب جمّة للحصول ولو على إشارة بسيطة، علمًا أنّ الصراع العسكري قضى على معالم الحضارة والفكر بشكل خطير من تاهرت الرستمية، ولم يسمح لتلمسان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أن تستقر وتدخل مرحلة الإنتاج الفكري.

2 _ 2 : الفترة الثانية(336_361هـ):

تبدأ هذه الفترة بانتهاء آخر ثورات الاباضية الكبرى ضد الوجود الفاطمي ونفوذهم المذهبي، هذه الثورة الّتي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الأصل، الاباضي النكاري المذهب، الّذي تحالف معه حتّى أهل السنة سواء في المغرب الأوسط أو إفريقية، وتنتهي برحيل الفاطميين عن بلاد المغرب باتجاه المشرق سنة 361هـ، واستخلافهم للزيريين كولاة تابعين لهم[1].

خرجت جميع الأطراف من إباضية وشيعة وسُنة منهكة من ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد وبالتالي انعكست نتائج هذه الثورة على الجميع من الناحية السياسية والاجتماعية وحتّى المذهبية.

وقد تناولنا نتائج هذه الثورة في الفصل الأول بالسنة للإباضية، وفي الفصل الثاني بالسنة للشيعية، وهذا ما يدفعنا إلى ابراز بعض تأثيراتها على السنة في هذا الفصل.

---

[1] _تناولت الدراسة هذه الثورة في الفصل الأول والثاني.

لاشك أنّ التناقض الحاد على مستوى المبادئ بين الشيعة الإسماعيلية والسُنة خاصة المالكية منهم، كان هوّ الدفع الحقيقي الّذي أذكى روح الرفض والمقاومة لدى المالكية في مواجهة التشيع الاسماعيلي الباطني، ومنذ البداية انخرط السنة المالكية في مواجهة التشيع الاسماعيلي وبأساليب مختلفة، كانت نتائجها قاسية على الجميع،ولا شك كذلك أنّ النتائج الاجتماعية والسياسية لفشل ثورة أبي يزيد كانت وخيمة على المالكية مثلها مثل باقي الاتجاهات المذهبية الأخرى، وذلك بما خلفته من قتل طال العلماء وعامة الناس وتشريد للأسر في مختلف أرجاء المغربين الأدنى والأوسط.

أذكت هذه الحرب روح العصبية القبلية بين زناتة بفرعيها الاباضي والسني من جهة في مواجهة صنهاجة بفرعيها كتامة وبني زيري الذين تبنّوا التشيع وتعصبوا للدولة الفاطمية.
لكن في المقابل أحدثت هذه الثورة تحولا مهما في السياسة المذهبية للدولة الفاطمية، خاصة في عهد "المنصور بن القائم" (334-341هـ)، الّذي أحسّ بخطورة سياسة فرض العقيدة الشيعية، واكتفى بالولاء السياسي لمواطنيه، ودعوتهم إلى التشيع بطرق سلمية، وتركهم أحرار في حالة الرفض وعلى نفس النهج سار ابنه و خليفته المعز لدين الله الفاطمي(341_365هـ)[1].
أدّت الحرب إلى تراجع حقيقي للوجود المذهبي الاباضي بفرعيه، الوهبي والنكاري، هذا التراجع الّذي أفاد منه السُنة خاصة في بلاد المغرب الأوسط وذلك لقربهم المذهبي من الاباضية،وتباعد المسافة بينهم وبين الشيعة الإسماعليين،إلى جانب رواسب العداء السياسي والقبلي بين صنهاجة وكتامة.

وفي هذا الصدد يرى"جوتيه" أنّ الخارجية انهارت إثر هزيمة أبي يزيد[2]، ويشاطره في الرأي المؤرخ الفرنسي "أندري جوليان" الّذي يرى أنّ هذه الهزيمة قضت نهائيا على مذهب الخوارج[3]، قد يكون هذا الرأي مبالغا فيه، لكنه يعبر عن حقيقة تاريخية تعكس واقع انحصار الإباضية في بلاد المغرب.

[1] _ إسماعيل،محمود،الخوارج في بلاد المغرب،ص ص252-254.

[2] _ Gautier(E,F),Le Passé de L'Afrique du Nord,op.cit,1952 ,P369.

[3]_ Julier(ch ,A),Histoire de L'Afrique du Nord,T.II.ed.Paris1966.P64.

بن عميرة،المرجع السابق،ص217_218.

ومن المناطق الّتي استمرّ فيها الوجود الخارجي الاباضي منطقة الزاب بضواحي المسيلة حيث بني برزال، الّذين أشار البكري إلى وجود الخارجية فيهم وهذا في القرن الخامس الهجري[1].

كما استمرّ وجود الاباضية في ورجلان ووادي أريغ بصحراء المغرب الأوسط وكذا بلاد الجريد بالمغرب الأدنى،ومنطقة جبل نفوسة بإقليم طرابلس كما رأينا في الفصل الأول.

لكننا لاحظنا أنّ الوجود الاباضي قد تقلّص على مستوى جغرافية المغرب الأوسط،وبات منحصرًا في مناطق محدودة منها جنوب المسيلة ومنطقة جبال أوراس،وكذا في إقليم أريغ وورجلان، هذا في المغرب الأوسط، هذه الصورة تظهر جلية خاصة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ويتقلّص التوسع الأفقي للاباضية أكثر في القرن الخامس الهجري خاصة بعد حلول القبائل العربية الهلالية ببلاد المغرب وانتشارها في منطقة الهضاب،وشمال الصحراء بالمغرب الأوسط.

وبالعودة إلى العلاقات الفاطمية الإسماعيلية بفقهاء المالكية،فإنّ حدّة الخلاف لم تهدأ بين الطرفين،وحتّى وإن خففت الدولة الفاطمية من سياستها المذهبية الرّامية إلى فرض المذهب الشيعي على مواطنيها، فإنّها في الأساس لم تتخلّى عن فكرة نشر التشيع في الوسط الملكي الرّافض لها.

ومن أبرز مظاهر استمرار السياسة المذهبية استمرار نشاط الدعاة، وعقد مجالس للدعوة بشكل منتظم ودعوة العامة لحضورها وبإشراف الخلفاء سواء المنصور(334_341هـ) أو ابنه الملقب "بالمعز لدين الله الفاطمي"(341_365هـ).

وقد تكفل القاضي النعمان بالإشراف على مجالس الدعوة والدعاة،كما سبق الذكر في الفصل الثاني عند الحديث عن مجالس الدعوة أو ما يسمّى بمجالس الحكمة.

ذكر صاحب معالم الإيمان جانبًا من هذا النشاط الدعوي في حديثه عن بن التبّان (ت371هـ)، حيث قال:« كان عبد الله المعروف بالمختال صاحب القيروان شدد في طلب العلماء ليشرقهم ...»[2]،وبين الّذين استهدفتهم هذه العملية على حسب ما ذكره صاحب معالم الإيمان،الشيخ أبا سعيد،و بن التبان،وأبا القاسم بن شبلون وأبا الحسن القابسي[3].

---

1 _ البكري، أبو عبيدة، المصدر السابق، ص73.

2 _الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، ج3، ص91.

3 _ نفسه، نفس الصفحة.

استمر الوضع على حاله فيما يتعلق بالنشاط الدعوي للشيعة واتخذ طابعا فكريا محضا في الفترة التي حكم فيها المعز الفاطمي بلاد المغرب(341-361هـ)،فهدأت الأوضاع السياسية والاجتماعية وانتعشت الحياة الثقافية، ويعكس كتاب مجالس الدعوة للقاضي النعمان جانبا مهما من الحياة الثقافية في هذه المرحلة، وإن كان من منظور شيعي إسماعيلي استمر هذا الوضع حتى رحيل الفاطميين إلى المشرق سنة361هـ واستخلافهم للزيريين على بلاد المغرب.

2 _ 3 : الفترة الثالثة(361- 440هـ).

سمحت الظروف المستجدة للمالكية باستعادة نشاطهم الفكري واتخذ الصراع المذهبي طابعا فكريا أغنى الحياة الثقافية بانتشار مجالس التعليم،المناظرات وحركة التأليف فبرز من المالكية علماء سيكون لهم بالغ الأثر في تطور الحياة الثقافية في بلاد المغرب بصفة عامة،ولعل أبرزهم في إفريقية "أبو الحسن علي بن محمد بن يخلف المعافري القروي المالكي،الملقب بالقابسي"(ت403هـ) الذي عرف بكثرة طلبته وتآليفه الّتي كانت تقرأ في مجالس العلم في بلاد المغرب، ومن أشهر طلبته،أبو عَمران الفاسي[1].

ثم بن أبي زيد القيرواني "(ت386هـ)، أما في المغرب الأوسط فقد برز في تلمسان في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري الشيخ "الداودي"(ت402هـ)[2].

كما أدت هذه الظروف بالمالكية إلى استعادة نشاطهم المذهبي في مواجهة التشيع، وربما وجد الزيريون في هذا النشاط المعادي للتشيع الإسماعيلي أداتهم الأساسية والفعّالة للتخلص التدريجي من التبعية للفاطميين،لم يظهر هذا الموقف طفرة واحدة ،وإنما ظهر بشكل تدريجي خاصة في أواخر القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس.

من أبرز مظاهر هذا التحول المذهبي تغاضي أمرائها عن بعض المضايقات الّتي بدأت تطال الشيعة منذ مطلع القرن الخامس الهجري، ففي سنة حمّاد 405هـ تغاضى عن اضطهاد الشيعة (الرافضة) في دولته من قبل المالكية،ويبدو أن حمّادا استهدف من وراء ذلك قطع روابط التبعية للزيريين في القيروان ومن ورائهم الفاطميون في مصر،وبالمقابل أراد أن يبني دولته الجديدة على أساس الانسجام مع قاعدتها الشعبية ذات التوجه السني المالكي.

---

[1] _ أبو عمران موسى بن عيسى، الملقب بالفاسي ولد سنة 356هـ بفاس توفي بالقيروان سنة 430هـ، فقيه ومحدث مالكي أسهم بدور فعّال في ظهور حركة المرابطين في بلاد المغرب في القرن 5هـ.

[2] _شحادة، رضا محمد سالم، مقدمة كتاب"الأموال" للإمام الداودي، ص6.

وقد أشار بن خلدون إلى أن حمّادا خرج عن طاعة باديس في إفريقية، وقتل الرافضة وأظهر السنة،ترضى عن الشيخين سنة 405هـ[1].

لكن الظروف السياسية في بلاد المغرب لم تكن تسمح بهذا التحول المذهبي إلاّ سنة419هـ، في عهد القائد بن حمّاد، حيث ساد المذهب المالكي المغرب الأوسط وانتقلت المحنة المذهبية إلى الشيعة الإسماعيلية الذين تعرضوا لكثير من مظاهر الاضطهاد والتقتيل على أيدي المالكية من السنة سواء في المغرب الأوسط الحمادي،أو إفريقية الزيرية خاصة في عهد المعز بن باديس الصنهاجي، وقد بلغت محنة الشيعة أوجها بإعلان القطيعة بين المعز بن باديس والفاطميين سنة 440هـ[2].

إن المتأمل في ظاهرة الفتن والمحن التي دارت على مختلف الطوائف المذهبية يدرك عمق الأزمة الثقافية التي يعانيها المجتمع المسلم في ظل التشتت الفكري والصراع المذهبي.

ثالثا:دور الاتجاه السني في تطور الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط

أ ـ العلماء وحركة التأليف في بلاد المغرب الأوسط

اعتمدت الحياة الفكرية لدى المسلمين في القرن الأول الهجري وحتّى النصف الأول من القرن الثاني على الذاكرة والمعرفة الشفوية،ولكن توسع العالم الإسلامي وتراكم المعرفة جعل من اللّازم على مفكري الإسلام اللجوء إلى التدوين، وحتّى وإن بدأت هذه العملية بشكل فردي إلّا أنّها توسعت تدريجيًا في منتصف القرن الثاني الهجري، وانتشرت بشكل واسع بعد ذلك ويعد مؤلّف الإمام مالك المعروف "بالموطأ" أولى المؤلّفات الفقهية السنية، ذلك أنّ الإمام أبب حنيفة النعمان ورغم تقدمه في السن عن الإمام مالك بن أنس إلّا أنّه لم يترك مؤلّفًا متكاملاً، وإن ترك بعض الرّسائل الفقهية، كرسالته المسماة بالفقه الأكبر ورسالة العالم والمتعلم ورسالة في الرّد على القدرية[3].

لكن تلاميذ الإمام أبا حنيفة دوّنوا آراءه، وجعلوا منها مؤلّفات أساسية في الفقه الحنفي ونقلوها إلى بلاد المغرب الإسلامي بما فيها المغرب الأوسط ومن أبرز طلبة الإمام أبو حنيفة الّذين

---

[1] – العبر،ج6، ص228.

[2] – نفسه، ص ص17–19.

[3] _أبو زهرة، محمد،المذاهب الإسلامية، ص379.

دوّنوا آراءه الفقهية وحتّى العقدية والسياسية نذكر يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسباً ويكنّى بأبي يوسف،وأهم مؤلّفاته:

_"كتاب الآثار" تناول فيه مجموعة من فتاوي التابعين الّذين عاشوا في العراق،كما دوّن آراء واجتهادات الإمام أبي حنيفة.

_"كتاب الرّد على سير الأوزاعي" يبين فيه الاختلاف بين الأوزاعي وآراء العراقيين في الجهاد والعلاقات مع غير المسلمين في حالة الحرب.

-"كتاب الخراج" رغم الطابع الفقهي لهذا الكتاب إلّا أنّ أهميته تكمن في جانبه الاقتصادي والمالي، وهوّ يعكس الرؤية الحنفية للحياة الاقتصادية وهيّ من جوانب القوّة الأساسية في فقه الإمام أبي حنيفة، كما تضمن هذا المؤلف مجموعة من النّصائح ذات الطابع السياسي للحكام في الدولة الإسلامية،هذه النصائح الّتي تعد جزءاً من النظرية السياسية السنية[1].

أمّا تلميذ أبي حنيفة الثاني فهوّ "محمد بن الحسن الشيباني(132_189هـ)" درس عند أبي حنيفة، لكنّه أكمل مساره التعليمي عند أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم _سابق الذكر_ويعد محمد بن الحسن المرجع الرّئيسي في الفقه الحنفي ومن مؤلّفاته:"كتاب الأصل أو المبسوط"،ثمّ كتاب الزيادات، كتاب الجامع الصغير وكتاب الجامع الكبير، وكتاب الرّد على أهل المدينة، وغيرها من المؤلّفات[2].

رحل من بلاد المغرب الإسلامي إلى المشرق عدد معتبر من طلاب العلم الّذين أخذوا عن علماء الحجاز "مكّة والمدينة المنورة" ومنهم من رحل إلى العراق ونزل الكوفة فأخذ عن الإمام أبي حنيفة ومن بعده تلامذته الكبار كأبي يوسف ومحمد بن الحسين الشيباني ويذكر في هذا المجال ثلاث شخصيات علمية مغربية كان لها بالغ الأثر في الحياة الفكرية في بلاد المغرب ونقصد بذلك عبد الله بن فروخ(ت185هـ) وعبد الله بن غانم(ت190هـ)، ثمّ جاء دور أسد بن الفرات(ت213هـ).

ومما يذكر أنّ عبد الله بن فروخ جاء إلى إفريقية بحوالي عشرة آلاف مسألة غير مدونة رواها عن أبي حنيفة، أمّا أسد بن الفرات فقد جمع في "الأسدية" بين الفقه المالكي والحنفي[3].

---

[1] _نفسه، ص380.

[2] _نفسه،نفس الصفحة.

[3] _سبق وأن تناولنا هذه المسألة في بداية هذا الفصل.

لا شكّ أنّ انتشار المذاهب، الحنفي في إفريقية والمغرب الأوسط كما مرّ بنا في بداية هذا الفصل كان يتم بتوظيف منهج وفتاوي أبي حنيفة وكبار علماء هذا المذهب سواء بالمشرق أو المغرب وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أنّ هذه الأفكار والمناهج شكلت عنصرا أساسياً في تطور الحياة الفكرية والثقافية في بلاد المغرب الأوسط خاصة في المناطق الّتي وجدت بها السنّة خاصة الحنفية منهم.

ومماّ يجب الإشارة إليه هوّ أنّ علماء المذهب الحنفي كان لهم دور أساسي مهيمن على الحياة الفكرية في إفريقية وبلاد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وحتّى النصف الأول من القرن الثالث الهجري، هذا وإلى جانب هيمنتهم على مناصب القضاء والإفتاء في ظل الدولة الأغلبية(184_296هـ).

أمّا المالكية فقد اتخذوا من كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس(ت179هـ) مصدراً أساسياً في حياتهم الفكرية، ومن أبرز العلماء الّذين رسّخوا هذا المفهوم في عقول وسلوك أهل المغرب بصفة عامة، الإمام سحنون بن سعيد(ت240هـ)، خاصة بعد رحلته إلى المشرق وتصحيحه للأسدية، وجمعه لفتاوي وآراء الإمام مالك في كتابه "المدونة" والّتي رواها عن بن القاسم بمصر، بعد وفاة الإمام مالك.

يعد الإمام مالك وكتابه "الموطأ" ،ثمّ الإمام "سحنون بن سعيد" ومدونته الكبرى في الفقه المالكي، المرجعيات الأساسية الّتي قامت على أساسها الحياة الفكرية عند المالكية من أهل السنة خاصة في بلاد المغرب.

ولتوضيح الصورة أكثر يجدر بنا التّعريف "بالموطأ" وإبراز مكانته كمصدر أساسي في الحياة الفكرية لدى المالكية، كما تعد مدونة الإمام سحنون عنصراً فعّالا في مسار التطور الفكري لأهل السنّة خاصة المالكية منهم في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة وبلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة.

1_الموطأ:

كتاب فقه وحديث ألّفه الإمام مالك في أربعين سنة حسبما ذكر القاضي عياض، وكان يدخل عليه التّغييرات باستمرار ويسقط منه بعض الأحاديث لضعفها، حتّى تراجع عدد الأحاديث فيه إلى ما دون الألفي حديث، بعد أن كان يحوي عشر آلاف حديث[1].

[1] _القاضي، عياض،المدارك،ج1.ص193. الهنتاني،المرجع السابق، ص191.

أدّت هذه المراجعات للموطأ من قبيل الإمام مالك إلى اختلاف رواياته وتعددها حيث ذكر القاضي عياض أنّها بلغت العشرين رواية وربما الثلاثين،ومن أبرز وأهم الروايات الّتي وصلت إلى بلاد المغرب نذكر رواية علي بن زياد التونسي(ت183هـ/799م)،ورواية بن القاسم(ت191هـ/806م) ورواية محمد بن الحسين الشيباني(ت189هـ/804م) وهوّ حنفي،ثمّ رواية يحيى بن يحيى اللّيثي(ت234هـ/804م).

تعتبر رواية يحيى بن يحيى اللّيثي للموطأ الأشهر والأكثر انتشارا خاصة في بلاد المغرب الإسلامي، لقد جاءت هذه الرواية مرتبة على حسب أبواب الفقه،من طهارة وصلاة وصيام وجهاد وغيرها من أبواب الفقه[1].

لقد اتّخذ المالكية في بلاد المغرب والأندلس من موطأ الإمام مصدرا أساسيا لاستنباط الأحكام الفقهية واعتبروه من الصحاح الّتي لا يمكن أن يتسرب الشك إلى الأحاديث الواردة فيها، ومنه استمدوا أحكامهم الفقهية وتأكدت حقيقة الاعتماد المفرط على الموطأ وآراء الإمام مالك خاصة بعد عودة الإمام سحنون من رحلته في أواخر القرن الثاني الهجري، فأخذ أهل إفريقية والمغرب "بمدونته" الّتي حاول فيها الالتزام الشديد بفقه ومنهج الإمام مالك، كما جاء في الموطأ وكما أخذه عن ابن القاسم(عبد الرحمن ت191هـ) في مصر، وهو آنذاك أبرز تلاميذ الإمام مالك.

رغم أنّ الإمام مالك دوّن الموطأ في فترة متقدمة من تاريخ دراسة الحديث وقبل أن توضع قواعد ضبط علم الحديث وشروط الصحة فيه، إلّا أنّ الإمام مالك سلك منهج التحري والتوخي وانتقاء الصحيح من الحديث وهذا ما أدّى إلى تراجع عدد الأحاديث المروية في الموطأ من عشرة آلاف حديث إلى أقل من ألفي حديث،كما هوّ الأمر في رواية يحيى بن يحيى اللّيثي.

ولا شكّ أنّ هذه الدّقة هيّ الّتي أعطت تلك المصداقية والقيمة العلمية للموطأ في نظر أهل المغرب وحتّى عند الإمام الشافعي الّذي قال عنه:"ما في الأرض بعد كتاب الله أكثر صوابا من

[1] _مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى اللّيثي، طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص193، ص ص627_638.

موطأ مالك بن أنس"[1]، كما أنّ الإمام البخاري ومسلم أخذا بمعظم الأحاديث الّتي جاءت في الموطأ[2].

2_مدونة الإمام سحنون:

المدونة هيّ ثاني مصدر أساسي في الفقه المالكي،رواها الإمام سحنون(ت240هـ) عن الإمام عبد الرحمن بن القاسم(ت191هـ) الّذي كان يعد أبرز تلاميذ مالك بعد وفاة هذا الأخير، قال بن خلدون:"ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثمّ انتقل إلى مذهب مالك،وكتب عن بن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه، وسمي الأسدية فقرأ بها سحنون على أسد، ثمّ ارتحل سحنون إلى المشرق ولقي بن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها ودونها، وأثبت ما رجع عنه، واتّبعوا مدونة سحنون".رحل سحنون إلى المشرق واستقرّ به المقام عند بن القاسم بمصر ليأخذ عنه فقه الإمام مالك، صافيا كما كان يعتقد الإمام سحنون جمع ذالك في المدونة.

والمدونة عبارة عن أسئلة كان يطرحها سحنون على بن القاسم في شتى فروع الفقه المالكي، وقد دون الإمام سحنون هذه الأسئلة والإجابات والّتي من المفترض أن تعبر عن حقيقة علم الإمام مالك كما خرج من عقله،حسبما كان يعتقد الإمام سحنون.

عاد سحنون إلى إفريقية وحاز على كرسي الرئاسة بين علماء السنة خاصة مع مطلع القرن الثالث الهجري، فشهد المذهب المالكي انتشارا واسعا في بلاد المغرب الإسلامي،سواء افريقية أو المغرب الأوسط وحتّى الأقصى وبلاد الأندلس،وبانتشار المذهب المالكي انتشر الموطأ وكذا مدونة الإمام سحنون، وأصبحت هذه المؤلّفات مصادر أساسية في ثقافة وفكر المالكية في بلاد المغرب بصفة عامة، وأصبحت المدونة تدرّس وتشرح وتلخص في كل إقليم وفي كل مجلس علمي، ولا شك أنّ المكانة الأولى كانت "للموطأ" وانحصر الجهد الفكري عند علماء المالكية وبشكل كبير في الفروع[3].

كما كان لتلاميذ الإمام سحنون بالغ الأثر في الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة وإفريقية وشرق المغرب الأوسط بصفة خاصة،ولعل أبرزهم إبنه محمد بن

[1] _همام، سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين، ط2، قطر، 1408هـ، 1987م، ص ص،111_118.

[2] _الشمالي، ياسر، مناهج المحدثين، ص285.

[3] _ابن خلدون، المقدمة، ص395.

سحنون(ت256هـ) والّذي خلفه في كرسي رئاسة العلم، كما كان مؤلفا مجيدا ترك لنا عدّة مؤلّفات منها كتابه:"آداب المعلمين الّذي رواه عن والده وهو كتاب يجمع بين التربية والتعليم في إطار فقهي إسلامي.

عرف محمد بن سحنون بكثرة التأليف منها كتاب "الجامع"، "الرد على الفكرية"، آداب القاضي"، "أحكام القرآن" وغيرها[1].

رغم الوجود المعتبر للسنة في بلاد المغرب الأوسط، خاصة في إطار الدولة الرستمية والإمارات العلوية خاصة السليمانية منها _كما مرّ بنا في هذا الفصل_ فإنّ مساهمة أهل السنة في حركة التأليف كانت محدودة ولم ترقى إلى مستوى التأليف حسب ما وصلنا من أخبار، باستثناء مؤلّف "ابن الصغير" والّذي روى قصة أخبار الأئمة الرستميين وهم من الاباضية.

لم يعبر مؤلف بن الصغير عن توجه مذهبي محدد إلّا في إشارات بسيطة، أمّا الإمارات العلوية ورغم دورها الإيجابي في نشر اللغة العربية وترسيخ الثقافة الإسلامية خاصة التوجه السني،فإنّ الحياة الثقافية فيها لم ترقى إلى مرحلة التأليف،لكن هذا لا يعني أنّ بلاد المغرب الأوسط لم تعرف الفقهاء والعلماء في مرحلة القرن الثالث الهجري، وإنّما يعني أنّ اهتمام المثقفين في هذه المرحلة كان مركزا على ترسيخ مبادئ الثقافة الإسلامية خاصة السنة منها في عقول وقلوب السكان لحمايتهم من النزاعات المذهبية المتطرفة خاصة النحْلة الخارجية بفرعيها الصفري والإباضي، أمّا التشيع الزيدي القريب من السنّة فلم يكن يمثّل تهديداً لأهل السنة عند السليمانيين أو حتّى الأدارسة الّذين صرّحوا في عدّة مواقف بتوجههم السني المعتدل ولم يظهر خطر التطرف الشيعي إلّا بوصول الشيعة الاسماعيلية في أواخر ق3هـ ومطلع ق4هـ.

ومن علماء المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري الشاعر والمحدث بكر بن حماد التاهرتي وقاسم بن عبد الرحمن التاهرتي وقد أشرنا لهم في بداية هذا الفصل.

أمّا القرن الرابع الهجري، فقد كان قرن اضطهاد للسنة من طرف الشيعة الفاطميين الاسماعليين وبدرجة أقل في عهد خلفائهم من بني زيري الصنهاجيين،مما دفع السنة خاصة المالكية منهم إلى التستر ومواجهة التشيع بشيء من الكتمان واكتفوا بتثبيت العامة على مذهب أهل السنة والجماعة، ولم تنتعش الحياة الفكرية إلّا بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة361هـ.

---

[1] _محمود عبد المولى، مقدمة كتاب آداب المعلمين، سحنون، ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص49_50.

ورغم استمرار مضايقة أهل السنة من طرف الزيريين إلّا أنّ وطأة التشيع خفت مما فتح المجال لبروز علماء جدد من المالكية في إفريقية والمغرب الأوسط،ومن أبرزهم في إفريقية "أبو الحسن علي بن محمد بن يخلف المعافري القروي المالكي،الملقب بالقابسي" ولد سنة 324هـ،عرف بالقابسي بكثرة طلبته وتأليفه الّتي كانت تقرأ في مجالس العلم في بلاد المغرب، ومن أشهر طلبته، أبو عَمران الفاسي، وله تآليف كثيرة منها:"المهذب في الفقه"، "المنقد من شبه التأويل"، "أحكام المتعلمين والمعلمين" وغيرها[1]، توفي سنة 403هـ، كما كانت له رسالة في "أبي الحسن الأشعري" ذكر فيها فضله وأثنى عليه، مما يدل على تأثره المبكر بالمذهب الأشعري.

كما ولد في القرن الرابع فقيه مالكي ذائع الصيت والتأثير في بلاد المغرب وهوّ "ابن أبي زيد القيرواني" واسمه الأصلي "أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن" ولد في القيروان سنة310هـ، أخذ أبي زيد على يد الفقيه ابن اللباد القيرواني(ت333هـ) كما أخذ عن أبي العرب محمد بن تميم(ت333هـ)، من مؤلّفاته "شرح الموطأ"، كانبن أبي زيد إماماً للمالكية في عصره وله تأثير قوي في تحديد توجهاتهم في بلاد المغرب بما كان له من طلبة ومكانة وسمعة علمية، فكان جامع مذهب مالك وشارح أقواله، بلغت مؤلّفاته حوالي الأربعين مؤلّفا أكثرها في الفقه، كما ألّف في أصول التوحيد والرّد على المخالفين للسنة[2].

ومن أشهر مؤلّفاته "الرسالة" الّتي حازت على المكانة الثالثة لدى فقهاء المالكية من حيث الأهمية كمصدر أساسي في الفكر المذهبي المالكي،بعد "الموطأ" و"المدونة" والرّسالة تتناول مسائل التوحيد والعقيدة على طريقة مذهب أهل السلف، كما تناولت جانبا من أصول الفقه، بشكل واضح ومختصر[3].

أدت ظروف القرن الرابع الهجري المضطربة إلى تدمير الكثير من مظاهر الحضارة في بلاد المغرب الأوسط، كنتيجة للصراع بين الشيعة الإسماعليين من جهة والاباضية وكذا السنة من جهة ثانية.انعكس هذا الوضع على الظروف الاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية لسكان المغرب الأوسط وبشكل سلبي، فدمرت الحواضر العلمية وفي مقدمتها تاهرت الرستمية، وهجّرها

---

[1] _عياض،المصدر السابق،ج2 ،ص224.

[2] _العابدين، بن حنيفة، العُجالة في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ص ص17-19.

[3] _ نفسه، ص29.

السكان وكان من بينهم عائلات ذات سمعة علمية،برز أبناؤها في الحواضر الّتي نزلوا بها، ومن أبرز هذه العائلات نذكر:

– عائلة بن الأشج،ومن أبرز علمائها "زكرياء بن بكر بن أحمد الغساني" والّذي ترجم له بن الفرضي في مؤلّفه، تاريخ علماء الأندلس، وقال عنه أنّه من أهل تيهرت، دخل الأندلس مع أبيه سنة ست وعشرين وثلاث مائة، أخذ عن علماء قرطبة، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من أبي محمد بن الورد، وكذا أبي قتيبة مسلم بن الفضل وغيرهم حدّث بكتاب البخاري، ولد بتاهرت سنة310هـ، وتوفي بقرطبة سنة393هـ[1].

_ عائلة البزاز:نزلت بالأندلس سنة318هـ،ومن أبرز علمائها،قاسم بن عبد الرحمن بن محمد،المكنى بابي الفضل، من مواليد تاهرت،توفي بقرطبة سنة396هـ[2].

_ ابن الربيب، من علماء تاهرت، أديب وعالم أنساب وشاعر (ت420هـ)، واسمه الحقيقي "الحسن بن محمد التميمي القاضي"، طلب العلم بالقيروان، ترجم له ابن رشيق[3].

ب ـ الحواضر العلمية في المغرب الأوسط(ق5–6هـ).

1 ـ تلمسان:

رحل الفاطميون عن بلاد المغرب سنة361هـ، لكنهم استخلفوا عليها الزيريين وهم فرع من صنهاجة، لكن الصراع العسكري والمذهبي استمر في بلاد المغرب الأوسط واتّخذ طابعاً عرقياً بين صنهاجة والشيعية وزناتة السنية وفي هذه الأثناء، نزل بتلمسان عاصمة المغراويين من زناتة أحد كبار علماء المغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري، ألا وهوّ الشيخ "الداودي"(ت402هـ) واسمه الحقيقي أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي، أصيل المسيلة وقيل أنّه من بسكرة، نزل تلمسان في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري[4].

---

[1] _ابن الفرضي، أبي الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، تحقيق، صلاح الدين، الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط2006، ص147.

[2] _ الحميدي، محمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس، في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق، الهواري ، صلاح الدين، ط،المكتبة العصرية، بيروت،2004ص120.

[3] _ بن معمر، العلاقات السياسية والروابط الثقافية، ص317.

[4] _شحادة، رضا محمد سالم، مقدمة كتاب"الأموال" للإمام الداودي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008ص ص7–8.

مثّل استقرار الداودي بتلمسان بداية لحياة علمية تميّزت بانتشار العلم والتعليم وظهور فئة معتبرة من الفقهاء في تلمسان الّتي تحوّلت مع مطلع القرن الخامس الهجري إلى حاضرة علمية سنّية مالكية هامة ومؤثّرة في بلاد المغرب الأوسط، كما شارك الداودي علماء القيروان في حملتهم ضد الشيعة الإسماعيلية في بلاد المغرب.

تميّز الداودي بغزارة إنتاجه الفكري،فألّف كتاب "النصيحة" في شرح صحيح البخاري، وكتاب "الأموال" الّذي حققه شحادة،رضا محمد سالم،وكتاب النامي في شرح موطأ مالك، وله عدّة مؤلّفات أخرى هيّ في عداد المفقود من تراثنا منها:الواعي،الإيضاح،الأصول والبيان، وغيرها[1].

أخذ العلم عن الداودي خلق كثير، برز منهم علماء ومحدثون أبرزهم الشيخ المحدّث:أبو عبد الملك، مروان بن علي الأسدي القطان البوني المتوفي سنة440هـ.

_في أواخر القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس أصبحت تلمسان عاصمة لإمارة مغراوة سنية وسادها المذهب المالكي،ذكرها ابن خلدون وكذا أبو عبيدة البكري، وقال عنها:"أنّ تلمسان... قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع... وأنها لم تزل داراً للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك"[2].

في القرن الخامس الهجري برزت في المغرب الأوسط ثلاث حواضر علمية أساسية هيّ قلعة بني حماد، وبجاية الحمّادية في شرق المغرب الأوسط ووسطه، أمّا في غرب المغرب الأوسط فقد برزت تلمسان كعاصمة سياسية وحاضرة علمية سنية مالكية سواء في عهد أمراء مغراوة من بني يعلى، ثمّ كحاضرة مرابطة بعد سنة(473هـ)[3].

أسس المرابطون بتلمسان المسجد الأعظم في عهد يوسف بن تاشفين، وازدهرت الحياة الثقافية بها، فتوافد عليها طلاب العلم والفقهاء كان من بينهم:

_أبو جعفر أحمد بن علي بن غزلون الأندلسي(ت524هـ).

_كما أنجبت تلمسان في العهد المرابطي العديد من العلماء والفقهاء من بينهم علي بن أبي القاسم الملّقب بأبي الحسن والمعروف بابن أبي جنون، وهوّ صاحب مؤلّف "المقتضب الأشفى

---

1 _القاضي، عياض، المدارك، ج7، ص102_104. بن معمر، المرجع السابق، ص323.

2 _البكري، المصدر السابق، ص 70.

3 _بن معمر، المرجع السابق، ص327.

في اختصار المستصفى".أمّا في أواخر القرن الخامس الهجري فقد حلّ بتلمسان "مرزوق العجسي" وأصله من القيروان، وإليه تنتسب أسرة المرازقة العلمية[1].

_ ومن فقهاء هذه الفترة نذكر "أبو محمد عبد السلام التونسي" والّذي تتلمذ على يديه "عبد المؤمن بن علي الكومي"[2] المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين في القرن السادس الهجري والّتي امتد نفوذها من جنوب المغرب الأقصى غربًا مروراً بالأندلس وحتّى طرابلس شرقًا.

_ ومن علمائها في العهد الموحدي كذلك "أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرّحمن بن أبي قنون التلمساني(ت557هـ)" كما نزل بها في العهد الموحدي من أهل الأندلسي من"اشبيلية" المحدث "أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التيجيبي (ت610هـ)"، حدث بفاس ثم سبتة واستقرّ به المقام في تلمسان حتّى وفاته[3].

2 ـ قلعة بني حمّاد.

تأسست في أواخر القرن الرّابع الهجري في شرق المغرب الأوسط قلعة بني حمّاد كعاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين خلفاء القائد "حمّاد بن بلكين بن زيري"وذلك في حدود سنة395هـ/1004م.

وضعت أسس القلعة بالقرب من المسيلة "المحمدية" إلى الشمال الغربي منها في منطقة حصينة،مما أدى إلى تراجع الأهمية الحضارية والاقتصادية لعاصمة الفاطميين المسيلة في المغرب الأوسط، وبروز حاضرة جديدة منذ مطلع القرن الخامس الهجري هيّ قلعة بني حمّاد.

وقد تعزّزت مكانة القلعة كحاضرة علمية واقتصادية في شرق المغرب الأوسط بعد أن تأكدت استقلالية حمّاد بن بلكين في تسيير مناطق النفوذ التابعة له،في إطار دولة جديدة بدأت تظهر في شرق المغرب الأوسط منذ 408هـ/1018م، هيّ الدولة الّتي سعت إلى بكل ما تملك لتأكيد استقلالها السياسي وحتّى المذهبي عن أبناء عمومتهم الزيريين في إفريقية، وكذا الفاطميين الشيعة.

---

[1] _ نفسه ، نفس الصفحة.

[2] _ابن القطان، حسن بن علي،نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق، علي مكي محمود، ط،دار الغرب الإسلامي، سنة 1990، ص176.

[3] _حاجيات عبد الحميد، ملاحظات حول الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين، **مجلة كلية الآداب**، العدد الأول، المجلد الثاني، نوفمبر، 2000، ص105.

من أبرز مظاهر استقلاليتها المذهبية انفتاحها المبكر على المذهب المالكي وتغاضي أمرائها عن بعض المضايقات الّتي بدأت تطال الشيعة منذ مطلع القرن الخامس الهجري،ويشير بن خلدون في هذا الصدد إلى أن حمّاداً خرج عن طاعة باديس في إفريقية،كما قتل الرافضة وأظهر السنة،ترضى عن الشيخين،وبالتالي خرج عن طاعة العُبيديين،وأعلن طاعة العباسيين حدث هذا التحول سنة 405هـ[1].

ويبدو أن الحمّاديين قد حسموا موقفهم المذهبي من التشيع والتبعية للفاطميين من عهد مبكر، لكن الظروف السياسية بلاد لم تكن تسمح لهم باتّخاذ قراراهم هذا إلاّ سنة419هـ، في عهد القائد بن حمّاد، وبعد أن استندوا إلى قاعدة شبعية متماسكة قوامها أهل السنة من المالكية، كما أنّ الدولة الحمادية كانت قد امتلكت في هذه الفترة أسباب الدّفاع عن وجودها من النّاحية السياسية العسكرية وحتىّ الاقتصادية.

أدّى التوجه الجديد لحكام القلعة الحماديين إلى نشأة حاضرة علمية واقتصادية هامة في المغرب الأوسط منذ مطلع القرن الخامس الهجري، كما توسعت في القلعة حركة التعليم وبنيت بها المساجد وأصبحت داراً للفقهاء والمحدّثين من المالكية،وقد استفادت القلعة من حركة الرّحلة الّتي كانت تعبر بلاد المغرب الأوسط، فوفد عليها العلماء والمحدّثون والفقهاء من مختلف بلاد المغرب وحتّى الأندلس، وفي هذا الصدد يصفها بن خلدون بقوله:" فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن، ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع..."[2].

من أبرز المناطق الّتي هاجر علماؤها إلى القلعة، القيروان خاصة بعد تراجع مكانة دولة المعز بن باديس الصنهاجي إثر هزيمته في مواجهة عرب بني هلال سنة442هـ في معركة حيدران الشهيرة[3]، وقد ذكر ذلك البكري القلعة بقوله:"هيّ قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة،تمصرت عند خراب القيروان..."[4].

---

[1] – العبر،ج6، ص228.

[2] – نفسه ، ص226.

[3] _ نفسه، ج6، ص21.

[4] _البكري، المصدر السابق، ج2، ص710.

ذكرت كتب الطبقات وكتب التاريخ وحتّى تراجم الأدباء عدداً معتبراً من فقهاء،وعلماء وأدباء وشعراء القلعة مما يدل على الازدهار الثقافي الّذي حققته هذه الحاضرة في المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري[1]، وقد أسهمت الدولة الحمادية في أواخر القرن الخامس في تأسيس حاضرة جديدة في المغرب الأوسط والّتي تعد امتدادا للنشاط الفكري الّذي بدأ في القلعة، أمّا الحاضرة الثانية فيها بجاية الحمّادية الّتي استمرّ إشعاعها الفكري حتّى عصر الموحدين وربّما تجاوز ذلك حتّى خلفاء الموحدين من الحفصيين الّذين حكموا بعدهم شرق المغرب الأوسط.

أمّا فيما يتعلّق بالنخبة المثقفة من العلماء والفقهاء والأدباء في القلعة فعددهم كبير، ولكننا سنكتفي بذكر بعضهم للدلالة على مدى مساهمة علماء وفقهاء المغرب الأوسط في تطور الحياة الفكرية – خاصة السنة منهم – في هذه المرحلة ومن أبرزهم نذكر "أبو عثمان بن أبي سوار"،و أبو حفص عمر بن أبي الحسن بن الصابوني وأبو القاسم بن أبي مالك[2].

ومن علماء القلعة كذلك الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود القلعي والّذي رحل في أواخر عهده إلى المشرق[3]. كما برز من علماء القلعة كذلك "علي بن طاهر بن محشوة" المكنّى بأبي الحسن عاش في القلعة في النصف الثاني من القرن الخامس[4].

ومنهم كذلك الفقيه والعالم اللّغوي أبو الفضل يوسف بن محمد الملقب بابن النحوي (ت513هـ) تجوّل في بلاد المغرب واستقرّ به المقام في القلعة ممتهنا التّدريس[5].

كما تعود أصول ابراهيم بن حماد إلى القلعة، لكنّه رحل إلى الأندلس، ثمّ عاد إلى القلعة وبها توفي في حدود سنة 514هـ.

أمّا الّذين نزلوا بالقلعة من العلماء فعددهم معتبر وشهرتهم بلغ صداها حتّى الحواضر الكبرى في بلاد المغرب والأندلس، فترجم لهم أصحاب الطبقات من الفقهاء والأدباء ومنهم نذكر:

_ أحمد بن خصيب بن أحمد الأنصاري، ويعود أصله إلى أهل قرطبة، نزل القلعة وبها توفي في حدود سنة450هـ[1].

---

[1] – للمزيد يراجع: بورويبة، رشيد، الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1977،ص191 وما يليها.

[2] _ نفسه، ص191 وما يليها.

[3] _الدّباغ، معالم الإيمان، ج3، ص203.

[4] _ابن الزبير، صلة الصلة، قسم 4، ص155.

[5] _ بورويبة، رشيد، المرجع السابق، ص ص170_171.

_ أبو القاسم عبد الجليل بن أبي بكر المعروف بالديباجي،والّذي كان يدرس في القلعة أصول الفقه، توفي سنة449هـ.

_ أبو علي عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري وأصله من صقلية (ت462هـ) عرف بالتدريس والتأليف ومن أهم مؤلّفاته كتاب"الاستيلاء" وهوّ في علوم الدين، كان مالكي المذهب وكان يلقّب "بالذكي".[2]

كما برز في القلعة من أهل الطب "أبو جعفر أبو حفص بن عمر بن علي البذوخ" من أهل القلعة توفي سنة 576هـ،من مؤلّفاته:"شرح كاب الفصول" لابقراط، حواشي كتاب "القانون"لابن سينا[3].

وفي الرياضيات برز علي بن معصوم بن أبي ذر من مواليد القلعة سنة489هـ، رحل إلى المشرق،كان على مذهب الشافعي، وفيه قال العماد الحنبلي صاحب "شذرات الذهب":"كان إماماً فاضلاً عالما بالمذهب بحراً في الحساب"[4]، توفي سنة551هـ.

كما عرفت القلعة عددا معتبرا من الشعراء من بينهم،النهشلي عبد الكريم(ت405هـ)،ابن أبي سهل الخشني الضرير(406هـ)،إبن رشيق(ت450)ولد في المحمدية(المسيلة) وبرز في الكتابة والشعر والأدب،انتقل إلى القيروان وخدم المعز بن باديس[5].

3 ـ حاضرة بجاية.

وصلت طلائع عرب بني هلال إلى المغرب الأوسط مع منتصف القرن الخامس الهجري،وقد أحدث دخول بني هلال إلى بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة تغيرا بنيويا وهيكليا مسّ جميع جوانب الحياة الاجتماعية، الاقتصادية وحتّى الثقافية في بلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة.

ألقت هذه التحولات بظلالها على الحياة السياسية خاصة في دولة بني حماد وبالذات بعد هزيمة "الناصر الحمادي" في مواجهة العرب الهلالية في معركة "سبيبة" سنة457هـ[1]، مما دفعه

---

[1] _ابن بشكوال، الصلة، ج2،تحقيق، إبراهيم الأبياري، طبعة، دار الكتاب(القاهرة، بيروت)، السنة، 1989، ص105.

[2] _ القاضي، عياض، المدارك، ج8، ص420.

[3] _ابن أبي أصبعية، عيون الأنباء، ص628_630

[4] _العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص158_159.

[5] – للمزيد يراجع: بورويبة، رشيد، المرجع السابق، ص167 ومايليها.

إلى التفكير بجدية في نقل عاصمته إلى منطقة حصينة، بعيدا عن الغزو الهلالي، فوقع اختياره على بجاية كميناء حصين،ومنذ ذلك الحين بدأ الإعداد لنقل العاصمة الحمادية، حتى وإن لم يتحقق ذلك نهائيا إلّا في عهد المنصور (481_498هـ/1010_1104م)،الّذي نقل عاصمة الدولة الحمادية إلى بجاية سنة483هـ.

تمثل مرحلة بجاية الطور الثاني من أطوار الدولة الحمادية، ويتميز هذا الطور بالاستقرار النسبي، والثراء الفكري، بلغت فيه الحياة الثقافية أوج تطورها في بلاد المغرب الأوسط منذ الفتح حتّى قيام الدولة الزيانية في تلمسان بغرب المغرب الأوسط في حدود القرن السابع الهجري.

في مرحلة بروز بجاية كحاضرة حمّادية شهدت الحياة الثقافية مرحلة متميزة من العطاء الفكري برز فيها العلماء والأدباء والشعراء، وتحولت بجاية مع مطلع القرن السادس الهجري إلى حاضرة علمية هامة فنزل بها الفقيه الأندلسي أبو عبد الله محمد بن بن موسى بن عمار الكلاعي(ت543هـ)،وامتهن التدريس،كان يميل إلى علم التوحيد والكلام وألّف كتاب"الأعلام"[2]، ويروى أنّ من أشهر تلاميذه العالم الأندلسي الشهير "أبو بكر بن عبد الله بن العربي المعافري". كما نزل بها، القاضي والمحدث "أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري" المعروف "بالتامغلتي" وهوّ من أهل القلعة رحل إلى الأندلس ثمّ استقر به المقام في بجاية، كان يحدث بالموطأ،عاش حتّى سنة513هـ.

_ ومن علماء المغرب الأوسط في القرن السادس، القاضي الشهير: أبو عبد الله بن علي بن الرمامة وهوّ من أهل القلعة(ت567هـ).

في مطلع القرن السادس الهجري نزل ببجاية "المهدي بن تومرت" سنة511هـ قادما من المشرق متشبعا بفكر تجديدي يجمع بين الأشعرية، والتصوف الباطني وداعيًا لحركة اصلاحية تجديدية متميزة، نزل ببجاية وجلس للتدريس في جامع الريحانة، لكن نهجه الاصلاحي وأفكاره المناوئة لفقهاء المالكية دفعت الأمير الحمّادي العزيز بن المنصور(498-515هـ/1105-1121م) إلى دفعه إلى الرحيل نحو تلمسان ثم المغرب الأقصى[3].

---

[1] _ابن خلدون،العبر،ج6،ص24.

[2] _عياض،المصدر السابق،ج8،ض159._ابن الآبار،التكملة،ج1،ص326.

[3] _ أبو بكر بن علي الصنهاجي(البيدق)، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق، حاجيات عبد الحميد، طبعة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974 ،ص ص،36 ،46-47.

كما نزل ببجاية "أبو محمد عبد الله بن فرج" الزهري العبدري(ت540هـ) قادماً من القلعة،ونشأ في بجاية "أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي"(ت582هـ) وهو الّذي لُقب "بأبي حامد الغزالي"، كما كان من رفاق الشيخ أبي مدين شعيب الإشبيلي.

_ كما برز في بجاية من علماء القرن السادس الهجري"أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي"(ت594هـ) وهو من كبار المتصوفة، كان يدرس الرسالة القشرية، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشري النيسابوري[1].

وفي العهد الموحدي عرفت بجاية عددًا معتبرا من العلماء منهم "أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البجائي الأصولي"(ت610هـ).

ومن مؤرخيها "حماد بن إبراهيم بن أبي يوسف المخزومي"[2]،والمؤرّخ "أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي"، صاحب كتاب"النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة"[3].

كما عرفت الدولة الحمادية في طور القلعة وبجاية عددا معتبرا من الشعراء نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله زكريا القلعي الأصم، والّذي رحل إلى مصر.

والشاعر "علي بن الزيتوني"، إبراهيم بن الهازي صاحب التوشيح المليح ويوسف بن المبارك وحماد بن علي "البين".

ويعد ابن حميدس الصقلي وهو أبو محمد عبد الجبار بن حميدس الأزدي، من أهل صقلية من أشهر شعراء الدولة الحمادية في بجاية وهو شاعر المنصور بن الناصر، ولد بصقلية سنة447هـ،وتوفي سنة527هـ وله ديوان شعر خلّد فيه كثير من مآثر الحضارة الحمادية في بجاية[4].

إنّنا ومهما حاولنا الإشارة إلى جوانب الحياة الفكرية في المغرب الأوسط في هذه المرحلة الثرية لن نستطيع الإلمام بها، لتشعب اتّجاهاتها وغنى تراثها بالعلم والعلماء والمؤلّفات،وتنوع القضايا الفكرية التي تتناولها، وإنّما هدفنا في هذه الدراسة هوّ رسم معالم الطريق للبحث في موضوع

[1] – يتناول كتاب الرسالة القشيرية في علم التصوف، لمؤلفه أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسوري، التعريف بكبار المتصوفة مثل أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم، وأبو الفيض ذو النون المصري، كما تناولت تفسير الألفاظ و المصطلحات التي يتم تداولها بين المتصوفة.

[2] _ ابن الآبار، التكملة، ج1، ص111.

[3] _عويس، المرجع السابق، ص ص،259–260.

[4] – بورويبة، رشيد، المرجع السابق، ص ص،184،182،176.

التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، هذا الجانب من التاريخ الّذي يسمح لنا بتحديد معالم هويتنا الثقافية، وإثرائها بالدراسات العلمية الهادفة.

وفي الختام فإن التوجه السني يمثل عاملا ثقافيا مهما ومؤثرا في تاريخ وهوية مجتمع المغرب الأوسط سواء في مرحلة الدراسة أو ما بعدها، هذا العامل الذي يتميز بشكل واضح عن باقي الاتجاهات المذهبي التي وصلت إلى بلاد المغرب ببعده التربوي والتشريعي بسبب ارتباطه واعتماده الكبير على السنة النبوية الشريفة، واهتمامه بالفقة، كما يتميز هذا التوجه المذهبي بعدم رغبة اتباعه في الخوض في المسائل العقدية وحتى السياسية، لكن ظروف التطور التاريخي الثقافي والسياسي جرته إلى الخوض في هذه المسائل بهدف الدفاع عن مبادئه الفكرية، ومصالح أتباعه، وسعيا وراء هذه الأهداف وجد السنة أنفسهم ينفتحون على مفاهيم ومدارس فكرية جديدة، كالخوض في علم الكلام، تبني الأشعرية، والانفتاح على التصوف.

الفصل الرابع

دور الاتجاهات المذهبية في التطور الفكري بالمغرب الأوسط(ق3-6ه)

تمهيد

أولا: دور الاتجاهات المذهبية في تطور الفكر السياسي في بلاد المغرب الأوسط

أ_ دور الإباضية في تطور الفكر السياسي ببلاد المغرب الأوسط

ب_ دور التشيع في تطور الفكر السياسي ببلاد المغرب الأوسط

ج _ دور السنة في تطور الفكر السياسي في بلاد المغرب الأوسط

ثانياً_ دور الاتجاهات المذهبية في تطور الفكر العقدي ببلاد المغرب الأوسط

أ_ المعتزلة ودورها في تطور الفكر العقدي في بلاد المغرب الأوسط

ب_ تطور الفكر العقدي عند الاباضية في المغرب الأوسط

ج _ تطور الفكر العقدي عند السنّة في المغرب الأوسط

ثالثا: دور الاتجاهات المذهبية في تطور التشريع الإسلامي في المغرب الأوسط

أ- المفهوم

ب _ دور الاباضية في تطور التشريع الاسلامي ببلاد المغرب الاوسط

ج _ دور الشيعة الاسماعيلية في تطور التشريع الاسلامي في بلاد المغرب الاوسط

د _ دور السنة في التطور التشريعي

تمهيد:

نشأت الاتجاهات المذهبية في المشرق الإسلامي منذ صدر الإسلام، وتوسعت بتوسع حركات الفتوحات الإسلاميين، كما استغلت حركة الرحلة بمختلف أشكالها، وكذا حركات الهجرة لتوسيع مجال انتشارها، بهدف بث مقولاتها السياسية والعقدية بين المسلمين لإثبات وجودها ومواجهة الخلافة المركزية سواء في عهد بني أمية أو بني العباس.

ولقد تمكن الخوارج بفرعيهم الصفري والاباضي من إقامة أول تجربة سياسية في بلاد المغرب الأوسط في القرن الثاني وحتّى الثالث الهجريين، ويبدو أنّ التجربة الشيعية الزيدية ثمّ الاسماعيلية لم تتأخر كثيرا،حيث وصل الزيدية إلى غرب المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

أمّا الاسماعيلية من الشيعة فبالرغم من وصول دعاتهم منذ القرن الثاني والثالث الهجريين فإنّ تجربتهم لم تتضح معالمها إلّا بقيام الدولة الفاطمية الّتي سادت بلاد المغرب الإسلامي في القرن الرابع الهجري.

أمّا فيما يتعلّق بأهل السنة، فإنّ هذا التوجه ورغم خلفيته السياسية الموالية للخلافة سواء في عهد بني أمية أو بني العباس فإنّ هذا التوجه لم يقم على أساس الفكرة السياسية، كما هوّ الحال عند الخوارج والشيعة وإنّما ظهر كموقف فكري تشريعي، لذا لم يسعى أصحابه إلى إقامة نظام سياسي غير نظام الخلافة إلّا في حالات نادرة، لكن هذا لا يعني أنّه لم يحاول المساهمة في الحياة السياسية أو التأثير عليها خاصة في بلاد المغرب الأوسط.

وسنحاول في هذا الفصل الكشف عن بعض جوانب مساهمة هذه الاتجاهات المذهبية في تطور الفكر السياسي والعقدي وحتى التشريعي في بلاد المغرب الأوسط، كما سنحاول عرض هذه التجارب عل أصولها الفكرية لنرى مدى انسجام التجارب الواقعية مع الأصول النظرية، كما سنحاول فهم العلاقة الجدلية القائمة بين البعد السياسي والعقدي عند الاتجاهات المذهبية في الإسلام.

أولا: دور الاتجاهات المذهبية في تطور الفكر السياسي في بلاد المغرب الأوسط.

أ_ دور الإباضية في تطور الفكر السياسي ببلاد المغرب الأوسط:

مرت التجربة السياسية الإباضية في المغرب الأوسط بمرحلتين أساسيتين مختلفتين، ألا وهما مرحلة بناء الدولة الرستمية(160-296هـ)، ثم مرحلة ما بعد الدولة الرستمية وتشمل هذه الأخيرة الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى نهاية القرن الخامس الهجري.

1 _ التجربة الاباضية الأولى:

رغم أنّ التجربة الصفرية كانت هيّ السبّاقة إلى بلاد المغرب الأوسط وذلك بتأسيس أول إمارة خارجية في المغرب الأوسط بضواحي تلمسان وهيّ إمارة "أبي قرة اليفريني أو المغيلي" سنة148هـ، إلّا أنّ هذه التجربة سرعان ما اندثرت بفعل موقف بني يفرن السنيين المعادي لها، وكذا توسع الأدارسة منذ 173هـ على حساب غرب المغرب الأوسط واستيلائهم على تلمسان في عهد إدريس الأول، كما مرّ بنا في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

أمّا التجربة الاباضية فقد استطاعت إثبات وجودها في مناطق واسعة من المغرب الأوسط والتأسيس لدولة مستقلّة عن الخلافة العباسية وذلك في الفترة مابين(160هـ/ 777م 296هـ/909م)، سمحت هذه الفترة المعتبرة من الزمن للرستميين الإباضية من أن يمارسوا نشاطهم السياسي محاولين بناء الدولة وفق المفاهيم الاباضية الّتي كثيرا ما استمدت مبادئها من المفاهيم الأساسية الخارجية خاصة المعتدلة منها[1].

وسنحاول في هذا الشأن قراءة التجربة السياسية الرستمية في المغرب الأوسط عبر مختلف مراحلها، واستخلاص الإضافات الفكرية السياسية لهذه التجربة ودورها في إثراء الثقافة السياسية في المغرب الأوسط بالتحديد، ولفهم هذه التجربة واستخلاص أهم إضافاتها الفكرية سنعود لتتبع تطورها وقراءتها قراءة تحليلية تركيبية.

---

[1] – نستطيع الوقوف على العلاقة الوثيقة للإباضية بالتيار الخارجي المعتدل، خاصة في القرن الأول الهجري من خلال المصادر الإباضية نفسها،ويبدو ذالك جليا في كتب الطبقات الإباضية،مثل الدرجيني الذي استهل طبقاته بالترجمة لعبد الله بن وهب الراسبي،حرقوص بن زهير السعدي وعبد الله بن إباض،وهولاء من زعماء الخارجية البارزين منذ القرن الأول الهجري،للمزيد يراجع:الدرجيني،طبقات المشايخ،ج2.

تقوم النظرية السياسية عند الخوارج بصفة عامة والاباضية بصفة خاصة على القول بضرورة نصب الإمامة، وهذا ما ذهب إليه السنة وكذا الشيعة ولم تخرج عن إطار هذا الموقف إلّا بعض الآراء المتطرفة[1].

أمّا المبدأ الثاني في نظر الاباضية والخوارج بصفة عامة يتمثل في أنّ منصب الإمامة يمكن إسناده إلى أي مسلم توفرت فيه شروطها وأبرزها، الإسلام، العلم بالكتاب والسنة، إلى جانب الاستطاعة[2].

بهذا الموقف فإنّ الاباضية وباقي الخوارج لم يحصروا الخلافة في قريش كما ذهب إلى ذلك أهل السنة، كما لم يحصروها في آل البيت وهذا ما ذهب إليه الشيعة، بل جعلوا الأمر شورى بين المسلمين، ووسعوا دائرة اختيار الإمام، وبالتالي استحق موقفهم هذا أن يوصف من طرف بعض الدارسين بأنه الموقف الديمقراطي في الإسلام[3].

وبالعودة إلى ظروف ظهور الدولة الرستمية الاباضية في المغرب الأوسط فإنّنا نرى أنّهم حاولوا جاهدين في البداية الالتزام بمبادئهم النظرية في السياسة والعقائد.

وفي هذا الصدد يذكر بن الصغير أنّ الاباضية لمّا نزلوا موضع تاهرت وأرادوا عمارتها قال رؤساؤهم:"قد علمتم أنّه لا يقيم أمرنا إلّا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا"[4].

تشاور الاباضية في هذا الشأن وفق المبدأ النظري، فوقع اختيارهم على عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل وبهذا الموقف يكون الاباضية قد جسّدوا ثلاث مبادئ أساسية في نظريتهم السياسية، ألا وهيّ إقرار الإمامة، الشورى في اختيار الحاكم، حق المسلم في منصب الإمامة متى توفرت فيه شروطها، وإن لم يكن قرشياً أو من أهل البيت العلوي.

بايع الاباضية إمامهم عبد الرحمن بن رستم، واشترط عليهم السمع والطاعة ما لزم الحق والعدل، فكان له ذلك[5].

---

[1] – الريس، محمد ضياء الدين، المرجع السابق، ص129.

[2] _اسماعيل، محمود، الخوارج في بلاد المغرب، ص257.

[3] – Gurner,Eugène,La Berbérie,op.cit,P,256.

[4] _ابن الصغير، المصدر السابق، ط، دار الغرب،1986 ،ص29.

[5] _نفسه، ص31.

لمّا ولي عبد الرحمن الإمامة سار فيهم سيرة حميدة ولم ينكروا عليه أي أمر من أمور حكمه، واتّخذ بن رستم المسجد الجامع مقرا لإدارة دولته الفتية ومجلسًا لقضائه، ولمشاورة أهل الرأي في دولته[1]،كما يبدو أنّ الاباضية في هذا العهد باشروا وضع أسس دولتهم من الناحية الاقتصادية والعسكرية، وتوفير حاجاتهم الأساسية وحماية المكتسبات الّتي حقّقوها في تاهرت وضواحيها، يظهر هذا الأمر جليًا خاصة بعد وصول المساعدات المالية لهم من طرف إخوانهم في المذهب من أهل المشرق، فجعلوها ثلاث حصص، فثلثا في المواشي والخيل، وثلثا في السلاح، أمّا الباقي فكان من حق الفقراء والمستضعفين[2].

أدى هذا التوجه في بناء الدولة والمجتمع إلى انتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه الدولة الفتية في المغرب الأوسط، واستقرّ نظامها السياسي وقوي جيشها وأمن سكانها على أنفسهم وأرزاقهم[3].

رغم قصر مدّة حكم عبد الرحمن بن رستم(161_171هـ) إلّا أنّ بن الصغير وهو مصدرنا الأساسي الأول والوحيد في هذا الشأن يوضح لنا أنّ معالم التجربة السياسية الاباضية باتت واضحة، كما استطاعت أن تبني كيانها في فترة وجيزة.

فأصبح لهذه الدولة نظامها السياسي والقضائي، وجهازها العسكري، كما وضعت أسس حياة اقتصادية واجتماعية متماسكة ومتجانسة.

شرعت الدولة الرستمية في بناء علاقات خارجية قوية مع جيرانها من الصفرية في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى وكذا الأمويين في الأندلس، كما وسّع الرستميون من علاقاتهم التجارية وحتى السياسية مع شعوب ودول السودان الغربي، وعبرت قوافل الرستميين الصحراء تحمل البضائع كما تحمل دعوة الإسلام إلى بلاد السودان الغربي[4].

لقد كانت مرحلة حكم عبد الرحمن بن رستم، مرحلة مثالية سيطرت علىها المفاهيم والقيم النظرية الّتي آمن بها الاباضية، واحتُرمت فيها تعاليم المذهب إلى حدّ كبير.

---

[1] _ابن الصغير ، المصدر السابق،34،32.

[2] _نفسه، ص35.

[3] _نفسه، ص35_38.

[4] – Tadeuz, Lewicky, L'état nord –afrcain de Tahert ,op.cit, pp, 513-535.

لكن هذه المرحلة لم تكن مثالية في نهايتها، بل يبدو أنّها كانت أكثر واقعية، و يبدو ذلك جليا عندما يتظاهر عبد الرحمن بن رستم باقتفاء سيرة عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ في اختيار مجلس للشورى يختار من بينهم الخليفة.

فكان من أبرز رجالات مجلس الشورى الّذي اختاره عبد الرحمن بن رستم _لمّا أحسّ بدنو أجله_ إبنه عبد الوهاب، هذا الأخير الّذي لاشك أنّه سيوظف مجد أبيه ونفوذه السياسي والاجتماعي وربّما حتّى ثروته لاستخلاف أبيه وهذا ما حدث بالفعل.

لكن رغم ما كان يتوفر عليه عبد الوهاب من امتيازات داخل المجتمع الاباضي الفتي، إلّا أنّ الأغلبية مالت لشخص يدعى مسعود الأندلسي[1].

تحاول المصادر وحتّى المراجع الاباضية تبرير هذا الانتقال على أنّه أمر طبيعي لم يخرج عن إطار مبدأ الشورى، لكن الحقائق التاريخية تنفي ذلك، ولنا في موقف أحد الشخصيات الاباضية البارزة خير دليل، ونقصد بذلك موقف يزيد بن فندين الّذي تزعم الفئة المعارضة لفكرة توريث الإمامة[2].

أدّى هذا الحدث إلى بداية حدوث الانفصام لدى الاباضية بين المبدأ النظري والواقع السياسي المفروض، وانشقت الجماعة السياسية الاباضية إلى "نكّار" وهم أتباع يزيد بن فندين، متمسكين برفض توريث الإمامة وحق الجماعة الاباضية في ممارسة الشورى، كما أنكروا احتكار فئات معينة للقرار السياسي الّذي استأثر به الرستميون وحلفائهم التاريخيين من قبيلة نفوسة[3].

أمّا أنصار "توريث الإمامة" فسيعرفون "بالوهبية" نسبة إلى عبد الوهاب بن رستم، رغم أنّ هناك من كتّاب الاباضية من يحاول ربط هذه التسمية بعبد الله بن وهب الرّاسبي الزّعيم التاريخي للاباضية بالمشرق في القرن الأول الهجري[4]، إلاّ أن هذا الربط ليس واقعيا.

رغم ما حققته الدولة الرستمية من قوّة وتوسع في عهد عبد الوهاب بن رستم(171_208هـ) وكذا في عهد ابنه أفلح بن عبد الوهاب(208_258هـ)، إلّا أنّ أسباب التفكك السياسي

[1] _أبو زكرياء، المصدر السابق، ص86.

[2] _إسماعيل، محمود، المرجع السابق، ص265.

[3] _نفسه، نفس الصفحة.

[4] _ابن الصغير، المصدر السابق، ص43.

والمذهبي سرت في المجتمع الاباضي الّذي أصبح منقسماً إلى فئتين أساسيتين هما أنصار الرستمية وتوريث الحكم، في مواجهة النكار أنصار العودة إلى مبدأ الشورى في اختيار الحاكم. ويبدو أنّ الإقصاء الّذي تعرّض له النكّار في النصف الأول من القرن الثالث الهجري قد دفعهم إلى المزيد من التشدد في مواقفهم السياسية والمذهبية، ويظهر ذلك جليًّا في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد الفاطميين في القرن الرابع الهجري.

إنّ الخيار السياسي الّذي تبناه الرستميون في إمامتهم جعلهم ينفتحون على فيئات مذهبية أخرى، كان في مقدمتها أهل السنّة سواء من الأحناف أو المالكية، وقد حضيت هذه الفيئات حتّى مطلع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمكانة محترمة في المجتمع التاهرتي، كما أمنت على أرواح أهاليها وأرزاقهم حتّى أصبح المجتمع التاهرتي نموذجاً للتّسامح المذهبي والتّعايش الطائفي[1].

تحول نظام الحكم في الدولة الاباضية الرستمية إلى النمط الملكي الوراثي، فخلف أفلح أباه في الحكم، وسار على نهج أبيه وجده، ولم تذكره المصادر إلّا بالعدل والصلاح والصرامة ولما توفي أفلح بن عبد الوهاب يبدو أنّ نفوسة لعبت دورا أساسيا في تولية ابنه "أبا بكر"(258–261هـ) وهذا ما دفع أحد علماء الاباضية إلى المجاهرة برفضه مستنكرا تعطيل حق الأمة في اختيار إمامها.

لقد كان ذلك الصوت الرافض هو صوت عبد العزيز بن الأوز أحد فقهاء الاباضية ممن عرفوا بالفقه والذكاء، كما كانت له رحلة إلى المشرق طلباً للعلم[2].

لم يعمر حكم أبي بكر طويلا فسرعان ما ثارت ضدّه أزمة مقتل ابن عرفة، هذا الأخير الّذي تعود أصوله العرقية إلى العرب، وقد كان شخصية هامة في المجتمع التاهرتي حسبما يصفها لنا بن الصغير[3].

اتهم الإمام أبا بكر بمقتله، فكان ذلك بداية لعهد طويل من الصراع العرقي والمذهبي بين القبائل والطوائف في تاهرت وضواحيها، هذا الصراع الّذي يبدو أنّه أنهك الدولة الرستمية سياسيا وعسكريا ومزّقها اجتماعياً ومذهبياً[1].

---

[1] _نفسه، ص ص61_62.

[2] _ابن الصغير، المصدر السابق، ص70.

[3] _نفسه، ص72.

حاول الإمام أبا اليقضان محمد بن أفلح(261-281هـ)، إعادة ترميم ما هدّمته الفتن والانحرافات السياسية، إلّا أنّ الأمور عادت إلى الفوضى والصراعات ذات الأوجه المختلفة مما سهل نهاية الدولة الرستمية على أيدي العبديين سنة296هـ.

رغم ما لحق بالتجربة الاباضية من الناحية السياسية من مظاهر الفشل والانحراف عن المبدأ النظري، إلّا أنّها كانت تجربة سياسية أولى، بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط والاباضية فيها، ساهمت هذه التجربة في نشأة و تبلور نوع من الوعي الذاتي بالكيان المتميز لبلاد المغرب الأوسط، رغم أنّ هذه الصورة لم تكتمل في هذه الفترة المبكرة من التّاريخ الإسلامي، إلّا أنّ هذا التوجه تدعم بتجارب لاحقة عززته ومهدت لظهور الدولة الحمادية، فالزيانية.

كما لا يفوتنا أنّ نشير إلى أن التجربة الاباضية في المغرب الأوسط كانت تستلهم كثيراً من الأفكار السياسية والتنظيمات الإدارية من الأمويين السُنة وحتّى أعدائهم التقليديين من العباسيين وذلك لأنّ الرستميين دائماً كانوا يدركون أنّهم جزءاً من الدولة الإسلامية حتّى وإن خالفوها في المبدأ السياسي.

لكن مهما يكن فإنّ التجربة السياسية للدولة الرستمية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كانت مؤلمة وفاشلة ويعبر عن ذلك قول أحد أبرز رجالاتها عند انهيارها وهوّ "يعقوب بن أفلح"(ت310هـ)، مخاطباً إخوانه في المذهب حيث قال:"افترقوا، فقد انقضت أيامكم وزال ملككم ولا يعود إلى يوم القيامة"[2]. يبدو أنّ هذا الحكم كان متشائما وقاسياً، ولكن سير الأحداث التاريخية في بلاد المغرب أكّد ذلك حتّى الآن.

2 _ التجربة الإباضية الثانية.

لم يتوقف مسار التجربة السياسية عند الاباضية بسقوط الدولة الرستمية، بل تجدد من خلال تجربتين أساسيتين نشأتا في بلاد المغرب الأوسط، خاصة في القرن الرابع والخامس الهجريين فالتجربة الأولى، هيّ تجربة أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفريني النكاري الّذي ثار ضد الدولة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية فيما بين (316-336هـ).

---

[1] _احسان، عباس، المجتمع التاهرتي، في عهد الرستميين، محاضرات ومناقشات الملتقى الدولي الحادي عشر للفكر الإسلامي،ورجلان،فبراير 1977،المجلد الأول،منشورات وزارة الشؤون الدينية،الجزائر،ص ص134-136.

[2] _أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، المصدر السابق، ص189.

أمّا التجربة الثانية فقد قام بها الاباضية الوهبية الّذين نزحوا إلى إقليم أريغ وورجلان بالجنوب الشرقي للمغرب الأوسط، ووضعوا مع بداية القرن الخامس الهجري نظاما تربويا اجتماعيا، ذو خلفية مذهبية وحتّى سياسية لحماية مذهبهم من الزوال وطائفتهم من التفكك، هذا المسلك هوّ الّذي عرف بنظام العزابة الّذي وضع أسسه الأولى أحد أبرز علماء الاباضية آنذاك وهوّ الشيخ "أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي"(345-440هـ)[1].

بالعودة إلى تجربة النّكار في القرن الرابع الهجري بقيادة أبا يزيد مخلد بن كيداد فإننا نرى أنّ هذه التجربة تندرج في إطار موقف زناتة بفرعيها الاباضي والسني في المغرب الأوسط من توسع الدولة الفاطمية الشيعية والّتي تؤازرها قبائل صنهاجة المزاحمة لزناتة في بلاد المغرب الأوسط، وبهذا المفهوم فإنّ ثورة أبي يزيد في المغرب الأوسط لها أوجه مختلفة، منها ما هوّ سياسي نابع من روح الرفض للتوسع الفاطمي الصنهاجي في بلاد المغرب الأوسط خاصة في منطقة الهضاب العليا وغرب المغرب الأوسط وحتّى الحواف الشمالية للصحراء في المغرب الأوسط، وهذا المجال الّذي اعتبرته زناتة موطنها الأصلي[2].

أماّ الوجه الآخر للصراع فهو مذهبي بالدرجة الأولى ويتمثل في رفض الاباضية وحتّى السُنة للمفاهيم العقدية الّتي عبّر عنها الشيعة الاسماعيلين في بلاد المغرب، وحاولوا فرضها على السكان بالقوة.

وثورة أبي يزيد الّتي اتّسعت دائرتها في الفترة الممتدة ما بين(331-336هـ) تجربة سياسية قاسية فجّرها الاباضية من الاتجاه النكاري، وجروا إليها إخوانهم من الوهبية، ثمّ السنة خاصة فقهاء المالكية وحتّى بنو يفرن بقيادة بني خرز وهم سنّة زناتة في غرب المغرب الأوسط.

أبرز ما يستوقفنا في هذه التجربة من النّاحية السياسية، أنّها تجربة استطاعت أن تقيم تحالفاً سياسياً بين طوائف مذهبية مختلفة كانت متصارعة لمدّة زمنية طويلة، فقد تمكنت الثورة في بدايتها من التقريب بين النكار والوهبية من الاباضية من جهة، كما قرّبت المسافة بين الاباضية والسنة، وأكدت أنّ أمر التقارب السياسي وحتّى المذهبي بين هذه الطوائف ممكن، لكن يحتاج إلى بعض المراجعات الفكرية، وبقدر ما تكون عميقة تكون مثمرة وقابلة للاستمرارية وقادرة على خلق جو من التعايش والتقارب المذهبي.

---

[1] _الدرجيني، طبقات المشايخ، ج1، ص168وما يليها.

[2] _ابن خلدون، العبر،ج4، ص52-56.

أمّا الملاحظة الثانية، فتتمثل في طابع العنف والقسوة الّذي تميزت به حرب النكار ضد خصومهم وحتّى حلفائهم أحيانا عند الاختلاف مما يذكرنا بنزعة العنف عند أوائل الخوارج[1].

لكن فشل ثورة أبي يزيد النكاري سنة336هـ أدّى إلى نتائج خطيرة مسّت جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية وحتّى الحضارية في بلاد المغرب الأدنى والأوسط بالدرجة الأولى، وذلك لطابع القسوة والدّمار الّذي تميّز به هذا الصراع.

كما أدّت سياسة أبي يزيد إلى انهيار الحلف السياسي بينه وبين أهل السنة وعمّقت الخلاف بين النكار والاباضية، وأدّت في النهاية إلى تراجع واضح للمذهب الاباضي بفرعيه في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة[2].

أحسّ الاباضية في المغرب الأوسط وحتّى جنوب المغرب الأدنى بخطورة الموقف على استمرارية المذهب خاصة في النصف الثاني من القرن الرّابع الهجري، وهذا ما دفع فقهائهم إلى التفكير في بدائل جديدة لحماية المذهب من الاندثار، ولاشك في أنّ هذا السلوك يعبّر عن تدبير سياسي ولو بدافع مذهبي، فظهر لديهم نظام العزابة _سابق الذكر_ الّذي حاول بالدرجة الأولى تكوين جيل من المتعلمين المتمسكين بمبادئ المذهب الاباضي والقادرين على حمايته من الزوال، وحمل رسالته إلى أجيال أخرى وذلك بحفظ تراثه[3].

تحملت ورجلان ومنطقة وادي أريغ عبء هذه المهمة واحتضنت حلقات العزابة وأقامت مجتمعًا إباضياً متماسكاً، في وسط بدأ يغلب عليه الطابع العربي السني خاصة بعد وصول بني هلال إلى المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وانتشار قبائل المعقل العربية في شمال الصحراء وتوسع المرابطين في غرب ووسط المغرب الأوسط[4].

لم يتطلّع الاباضية في هذه الظروف إلى إقامة دولة ولكنّهم أسّسوا لنظام تربوي واجتماعي كفل استمرار المذهب ووحدة الجماعة وهذه غاية السياسية عندهم في هذه الظروف، كما أنّ نظام العزابة كان يملك ولا يزال يملك الكثير من وسائل التحكم والضغط على أفراد المجتمع الاباضي

---

[1] _اسماعيل، محمود، الخوارج في بلاد المغرب، ص246-247.

[2] – الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص100.

[3] – جهلان ، عدون، المرجع السابق، 168 وما يليها.

[4] – Golven, (L), Le Maghreb Central, op.cit,PP, 112-114.

مماّ جعله بمثابة حكومة خفية في ظل أنظمة حكم مختلفة تعاقبت على حكم الاباضية بعد ذلك، هذه التجربة الّتي لازالت مؤثرة في المجتمع الاباضي في الجزائر حتّى الآن.

ب_دور التشيع في تطور الفكر السياسي ببلاد المغرب الأوسط

استأثر العباسيون بالخلافة بعد سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ في الوقت الّذي كان أبناء عمومتهم من العلويين يرغبون في مشاركتهم الحكم، كما شاركوهم في الثورة ضد الأمويين، وقد دفع هذا الأمر العلويين إلى الثورة مجدّدا ضد العباسيين.

بالمدينة المنورة ثار "محمد النفس الزكية" سنة145هـ، ورغم فشل ثورته إلّا أنّ العلويين ثاروا مجددا ضد الخلافة العباسية بقيادة "الحسين بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي" وذلك بمنطقة الحجاز سنة169هـ، لكن قوات الخلافة في عهد موسى الهادي تمكنت من القضاء على الثورة بسهولة في معركة "فخ" قرب مكة[1].

اثر هذه الهزائم تشتت العلويون في أرجاء الدولة الإسلامية مطاردين وطامعين في الملك، فوصل إلى بلاد المغرب الأوسط "إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي" وهوّ عم الحسين بن علي قائد الثورة سنة 169هـ وشريكه فيها.

في بلاد المغرب نزل إدريس برفقة مولاه راشد بمدينة وَليلي بالمغرب الأقصى سنة172هـ، في ضيافة إسحق بن محمد بن عبد الحميد الأربي البربري، فاجتمعت عليه قبائل البربر في المغرب الأقصى وبايعته أميراً عليها[2].

تطلّع إدريس بن عبد الله إلى توسيع نفوذ إمارته في بلاد المغرب فزحف على تلمسان سنة 173هـ، وهيّ يومئذ تحت سلطة مغراوة من بني يفرن فدخلها صلحاً، ولقيه أميرها "محمد بن خرز بن جزلان" طائعاً فولّاه عليها (تلمسان)، وأعطى إدريس الأمان لأهله من زناتة[3].

---

1 _ابن خلدون، العبر، ج4، ط2010، ص16-17.

2 – A.Beaumier, Histoire du souverains du Maghreb et annals de la ville de fez,edition ,L' imprimerie Imperial, Paris,P11

3 _ ابن خلدون، العبر، ج4 نفسه، ص17.

منذ هذه الفترة بدأت التجربة السياسية الشيعية الزيدية تعرف طريقها إلى بلاد المغرب الأوسط خاصة في قسمه الغربي الشمالي الّذي نشأت فيه _كما مرّ بنا في الفصل الثاني_ عدّة إمارات علوية.

1_ التجربة السياسية الزيدية(ق2-3هـ).

ارتبطت هذه التجربة بقيام دولة الأدارسة العلويين والمنتسبين سياسياً إلى الزيدية، أمّا عقائدياً فكانوا أقرب أهل السنة إلى الاعتزال.

بدأت التجربة السياسية الشيعية الزيدية في بلاد المغرب الأوسط بعد ضم تلمسان إلى الأدارسة سنة173هـ، كما قام إدريس الأول ببناء مسجد تلمسان الجامع، وخطّ على منبره اسمه "إدريس" ولاشك أنّ لهذه الخطوة دلالتها من الناحية الفكرية والسياسية.

مهما يكن من بعد ديني تربوي لهذا المسجد، إلّا أنّه ولاشك سيتّخذ منبراً لكسب التأييد السياسي للأدارسة العلويين في بلاد المغرب، والترويج لمقولاتهم السياسية القائمة على حق العلويين في الحكم، كما تدل هذه الإشارة على أنّ غرب المغرب الأوسط وأهم حواضره تلمسان بات جزءًا من دولة الأدارسة العلوية.

بعد مقتل إدريس بن عبد الله (الأول)، ولى البربر إبنه إدريس الثاني وهوّ في المهد، ثمّ صبياً، ولمّا شبّ إدريس الثاني وكان ذا شخصية قوية منذ صباه، وفدت إليه القبائل العربية كما وفد إليه المهاجرون من الأندلس والقيروان[1].

وقد كان لهذه الهجرات دورها الفعّال في السياسة الّتي سينتهجها إدريس الثاني في دولته، وستترك آثارها السياسية والفكرية العميقة في الدولة والمجتمع.

لمّا شبّ إدريس الأصغر(الثاني) يبدو أنّه مال إلى العنصر العربي بعد توالي الهجرات إلى دولته الجديدة، فمنح الوزارة " لمصعب بن عيسى الأزدي" الملّقب بالملجوم، وتخلّص تدريجيًا من قادة البربر، وتطلّع إلى بناء عاصمة جديدة هيّ فاس اختطها سنة192هـ، فاختط بها عدوه الأندلس، ثمّ عدة القرويين سنة193هـ، ثمّ انتقل إلى عاصمته الجديدة وأسس بها جامع الشرفاء[2].

---

[1] _ نفسه، ج4، ص18.

[2] _ ابن خلدون، العبر، ج4 نفسه، ص17.

إنّ هذه الخطوات المتتالية الّتي أقدم عليها إدريس الثاني كانت ذات أبعاد سياسية وحتّى مذهبية هامة ومؤثّرة في مسار دولته والأقاليم التابعة لها حتّى في المغرب الأوسط خاصة في قسمه الغربي وعاصمته تلمسان، هذه الأخيرة الّتي يذكر بن خلدون أنّ إدريس الثاني غزاها سنة197هـ وجدد بناء مسجدها وإصلاح منبره، كما أقام بها هذه المرّة ثلاث سنين[1].

وفي هذه الفترة يبدو أنّ سليمان أخو إدريس الأكبر، كان قد نزل بتلمسان، فارًا على آثار أخيه إدريس الأكبر من مطاردة العباسيين وطامعاً في الملك إلى جانب أخيه، لكنّه بدلاً من اللحاق بوليلي أو فاس في المغرب الأقصى آثر الاستقرار بتلمسان.

يدل هذا السلوك على نوايا سليمان بن عبد الله كانت تتجه إلى إقامة إمارة علوية جديدة بالمغرب الأوسط على شاكلة أخيه، وربّما كان هذا الأمر وغيره من الأسباب الّتي جعلت إدريس الثاني يعود إلى تلمسان غازياً في أواخر القرن الثاني الهجري.

كما تدل إقامة إدريس الثاني لمدة ثلاث سنوات بتلمسان على رسالة سياسية مفادها أنّ تلمسان جزءاً من دولته وأنّ أبناء عمومتهم حتّى وإن كانت لهم حضوة في هذه الدولة فإنّها لن تتعدى الولاية في ظل دولة الأدارسة في المغرب الأقصى بفاس.

يبدو أنّ الأدارسة وإن استقرّوا بالدرجة الأولى في المغرب الأقصى إلّا أنّهم اتّخذوا من تلمسان في غرب المغرب الأوسط مرتكزاً أساسياً في دولتهم، ونشروا بها نفوذهم ومفاهيمهم السياسية والعقدية الّتي تستمد جذورها من التشيع الزيدي القريب من أهل السنة.

وعلى نفس النهج سارت الإمارات العلوية السليمانية الّتي نشأت في المغرب الأوسط مع مطلع القرن الثالث الهجري بعد أن بدأت دولة الأدارسة تتفكك بتقسيم الملك بين أبناء إدريس الثاني[2].

ومن المفاهيم السياسية الأساسية الّتي سعى العلويون إلى ترسيخها في مناطق نفوذهم، نذكر حق العلويين في الحكم، هذا الحق الّذي يعتقدون أنهم أولى به من غيرهم من المسلمين على اختلاف أصولهم العرقية، كما أنّهم أولى من قريش بهذا الحق، لأنّ علياً كان في اعتقادهم الأولى بالخلافة من غيره من الصحابة.

والعلويون بهذا الموقف لا يطعنون في خلافة الشيخين أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولكنهم يأخذون بقول إمامهم زيد بن علي الّذي كان يرى أنّ علياً كان الأفضل لتولي

---

[1] _نفسه، نفس الصفحة.

[2] _نفسه، ص109.

خلافة المسلمين بعد وفاة الرّسول ﷺ، لكن الصحابة رأوا تولية أبا بكر ثمّ عمر بن الخطاب،وقد حكموا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة[1].

وبهذا الموقف فالزيدية لا يطعنون في خلافة الشيخين ولم يؤثر عن الأدارسة وحتّى أبناء عمومتهم من السليمانيين في المغرب الأوسط أن خرجوا عن هذا المفهوم.

كما يتميز موقفهم من مسألة "التعيين أو الوصية" بالاعتدال، ولا يعطلون دور أهل الحل والعقد في اختيار الحاكم أو الإمام[2].

وإذا ما أردنا تأمل التجربة العلوية الزيدية في المغرب الأوسط، فإننا نجد أنّها بدأت بشكل عملي منذ منتصف القرن الثاني واستمرت حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، وبالتالي فهذه التجربة ارتبطت بقيام دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وتوسعت نحو المغرب الأوسط باتّجاه تلمسان ثمّ باقي حواضر القسم الشمالي الغربي من المغرب الأوسط، كما أنّها غطت فترة تاريخية معتبرة من تاريخ بلاد المغرب الأوسط، وتركت أثراً عميقاً في ثقافة المجتمع، هذا الأخير الّذي تعاطف مع قضية العلويين، ونزل عند طاعتهم، كما ساعدهم على إقامة عدّة إمارات علوية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأوسط من شرقها إلى غربها وقد أشرنا إلى ذلك في بداية هذه الدراسة.

إنّ موقف البربر وهم أهل بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة كان متعاطفاً مع حق العلويين في الحكم من غير تشيع، وهذا الأمر يؤكد أنّ ثورات البربر في شمال إفريقيا ليست موجهة ضد العنصر العربي، بقدر ما هي موجهة ضد الاستبداد في الحكم، وحتّى الّذين قادوا حركات الخوارج ونشروا تعاليمهم كان أبرزهم من العرب ولنا في دولة أبي الخطاب المعافري الاباضي بالمغرب الأدنى في القرن الثاني الهجري خير مثال[3].

وبالعودة إلى الإمارات العلوية في المغرب الأوسط، فإننا رأينا في الفصل الثاني أنّ أهم هذه الإمارات وأقواها كانت الإمارة السليمانية في تلمسان والّتي استطاعت توسيع نفوذها في القرن

[1] _أبو زهرة، إمام، المرجع السابق، ص641.

[2] _ تناولنا هذه المسألة في الفصل الثاني.

[3] _ يراجع الفصل الثاني.

الثالث الهجري في المغرب الأوسط حتّى نهر شلف، لكن يبدو أنّ السليمانيين تأثروا بالعرف البربري الّذي استجاب له الأدارسة والقائم على أساس تقسيم الملك بين الورثة[1].

ويذكر ابن خلدون أنّ أبناء محمد بن سليمان أخو إدريس الأكبر، ورث محمد ملك أبيه، ولكن الأدق أنّه ورث الإمارة الّتي ولاّه إياها بن عمّه إدريس الثاني، لكن أبناء محمد بن سليمان تفرّقوا في المغرب الأوسط، وقسّموا الملك بينهم.

وفي هذا الصدد يقول بن خلدون متحدثا عن أبناء محمد بن سليمان الّذين ملكوا المغرب الأوسط: " ثمّ افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكّه ونواحيه، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم...وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان..."[2].

سار العلويون على اختلاف نسبهم الحسني أو الحسيني _على نهج أبناء عمومتهم الأدارسة، وفتتوا مفهوم الدولة إلى إمارات مدن تشبه الإقطاعيات، ولم تكن طموحاتهم في مستوى ما كان يتطلع له الأمويون في الأندلس أو العباسيين في المشرق، أو حتّى الفاطميين بعدهم في بلاد المغرب الإسلامي.

لا يعني هذا الموقف أنّهم لم يسهموا في تطور بلاد المغرب الأوسط من الناحية الحضارية أو السياسية، وإنّما يعني أنّهم لم يسعوا إلى بناء الدولة القوية المتماسكة القابلة للتطور والقادرة على حماية مجالها السياسي والجغرافي.

وبالتالي فإنّ تجربة الإمارات العلوية السليمانية في المغرب الأوسط وإن كانت قد رسّخت من النّاحية السياسية حق آل البيت في الحكم، فإنّها بالمقابل قنعت بأقل من مفهوم الدولة لذا انهارت أو كأنها تبخرت أمام الزحف الشيعي الفاطمي الاسماعيلي في أواخر القرن الثالث الهجري، وحتّى وإن برزت المقاومة القبلية لزناتة في مواجهة التشيع وصمدت لمدة قرن من الزمن بقيادة بني خزر المغاوريين فإن تأثير العلويين عليها كان محدودا.

2_ التجربة الشيعية الاسماعيلية(280-440هـ).

ترتبط هذه التجربة بالاتجاه الشيعي الإمامي المنشق عن زيد بن علي زين العابدين(ت122هـ) ورافضي إمامتة بعد أن وقفوا على رأيه المعتدل في الشيخين، وبرفضهم لإمامة زيد بن علي سموا "بالرّافضة"، كما لقّبوا بالاسماعيلية، لأنّهم قالوا بأنّ الإمام بعد جعفر

---

[1] _ابن خلدون، العبر، ج4، ص19.

[2] _العبر، ج4، ص23.

الصادق ابنه اسماعيل(ت143هـ)[1]، كما لقّبو بالباطنية لقولهم أنّ لكل ظاهر باطن وقد تناولنا هذه المسألة في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

بدأت التجربة السياسية لهذا الاتجاه _حسب ما ذكر القاضي النعمان_ منذ سنة145هـ، حيث حلّ ببلاد البربر أول دعاة التشيع الاسماعيلي الباطني، وهما أبا سفيان والحلواني[2].

وقد أوكلت لهذين الداعيين مهمة نشر الأفكار الّتي تدور حول حب آل البيت وذكر فضائلهم، وربّما حتّى نقل مآسيهم إلى نفوس البربر بهدف تأجيج نقمتهم ضد العباسيين وحلفائهم من الأغالبة في إفريقية وشرق المغرب الأوسط.

لاشك أن نشاطًا سياسيًا مثل هذا كان عاملاً مساعدًا لتوسع الإمارات العلوية في المغرب الأوسط من شرقه إلى غربه، كما أنّ منهج أو أسلوب إعداد الرسل وافادهم إلى بلاد المغرب كان أسلوبًا سياسيا فعّالا، ومما يؤكد ذلك هوّ إيفاد بن حوشب الملقب بمنصور اليمن إلى بلاد المغرب الداعي "أبو عبد الله الشيعي" بعد أكثر من قرن من الزمن لإكمال المهمة الّتي بدأت بأبي سفيان والحلواني.

اعتمد الدعاة على النشاط السري الّذي جمع بين السياسة ونشر المعتقدات الشيعية الإسماعيلية، واستخدمها كأدوات فعّالة في توجيه المجتمع البربري ضد السلطة حكامه.

وصل أبو عبد الله إلى بلاد المغرب الأوسط في حدود سنة280هـ، ونزل بأرض كتامة، واستغل سعة معارفه ومهاراته الفكرية والخطابية للتأثير على مجتمع بربري بسيط، مدّعيًا أنّ دعوته جاءت لنصرة حق آل البيت[3].

وقد تميّزت الدعوة الشيعية الاسماعيلية منذ الفترة السرية، بأن جمعت بين العقيدة والسياسة، جاعلة من حق آل البيت في الحكم أمرًا إلاهيًا، وواجبا دينيا، فكانت الحركة السياسية الأكثر إقحاما للدين في السياسة.

لجأت الاسماعيلية منذ مرحلة الدعاة إلى إضفاء طابع الغموض والتعقيد، على أطروحتها السياسية والعقدية باستخدام بعض المفاهيم الفلسفية اليونانية، والدينية العبرانية وحتّى المسيحية.

---

[1] _الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص135.

[2] _ افتتاح الدعوة، ص18.

[3] _العبر، ج4، ص42.

ومن أبرز هذه المفاهيم ما تناولناه في الفصل الخاص بالتشيع في بلاد المغرب الأوسط، ومن أبرز هذه المفاهيم الحق الإلهي في الحكم، التأويل بالباطن، الوصي، عصمة الأئمة، فكرة المهدي المنتظر وغيرها من المفاهيم الغامضة.

لاشك أنّ هذا الغموض والتعقيد يجعل الإنسان البسيط غير قادر على مواجهة هذه المفاهيم، كما تدفعه إلى الإحساس بالعجز الّذي يجره تدريجيا إلى تسليم أمره للدعاة، الّذين أعدّوا لأن يسلبوه قدرته على التفكير وتوجيهه بعد ذلك وفق الأهداف السياسية والعقدية الّتي ينشدونها.

استطاعت الدعوة الشيعية الاسماعيلية وفي أقل من عشرين سنة أن تطيح بأهم الكيانات السياسة في بلاد المغرب الإسلامي حيث أطاحت بالدولة الأغلبية سنة 296هـ، ثمّ زحف أبو عبد الله الشيعي على تاهرت الرستمية وأنهى وجود الدولة فيها بسهولة[1]، كما قضى على دولة بني مدرار في سجلماسة، وفك أسر المهدي المنتظر الّذي كان يدعوا إليه والملقب بعبيد الله المهدي.

حاول الفاطميون كسب تأييد مواطنيهم من السنّة في البداية عن طريق الدعوة الدينية والسياسية، كما فتحوا مجالسهم للمناظرات الفكرية، الّتي كان يشرف عليها في البداية " أبا عبد الله الشيعي" وأخاه " أبا العباس" ثمّ تولّى بعد ذلك هذه المهمة عبيد الله ودعاته، وكان يدعى لهذه المجالس علماء السنة من الأحناف والمالكية، وغالبا ما يدور النقاش فيها حول مسألة أحقية آل البيت بالخلافة، وتفضيل علي _كرّم الله وجهه_ عن باقي الصحابة.

بواسطة المناظرات وأحيانا الإغراء والتهديد تمكن الفاطميون من كسب عدد معتبر من فقهاء الأحناف إلى جانب الدولة الفاطمية الشيعية، لكنهم بالمقابل فشلوا في كسب المالكية منهم، وكثيراً ما تصدى فقهاء المالكية للسياسة المذهبية للدولة الفاطمية، إما بالمناظر أو إلقاء الدروس أو التأليف وقد كان من أبرزهم في مجال المناظرة الفقهية " أبو سعيد بن الحداد"(ت302هـ)[2].

سنّ الفاطميون في بلاد المغرب سياسة مذهبية ضيّقة أدّت إلى قهر واستضعاف الطوائف والمذاهب المخالفة لهم، كما أنّ هذا المسلك جرّ فقهاء المالكية على وجه الخصوص إلى الصراعات السياسية، ودفع أهل المغرب إلى أن يدمجوا بين توجهاتهم السياسية والمذهبية حتّى

[1] _البكري، المصدر السابق، ص68. ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص ص209-210.

[2] _ الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص288_290.

بعد رحيل الفاطميين وتبرز هذه الصورة بجلاء مع مطلع القرن الخامس الهجري، وكيف أنّ فقهاء المالكية لعبوا دوراً خطيراً في الصراع المذهبي، وتصفية الوجود الشيعي عن طريق عمليات التقتيل الّتي باشرها العامة بدعم من بعض الفقهاء سواء في إفريقية أو المغرب الأوسط منذ 405هـ[1].

إنّ السياسة المذهبية الّتي انتهجها الفاطميون في بلاد المغرب وصلت تأثيراتها إلى مختلف الأقاليم التابعة لهم، وفي مقدمتها بلاد المغرب الأوسط الّذي كان ساحة للصراع العسكري والسياسي والمذهبي طيلة الوجود الفاطمي في بلاد المغرب، بل استمرت محنة أهل المغرب الأوسط بعد رحيل الفاطميين إلى المشرق، ولم تهدأ الأوضاع حتّى قيام الدولة الحمادية الزيرية في شرق المغرب الأوسط مع مطلع القرن الخامس الهجري وتخليها عن التشيع.

أدّت السياسة الفاطمية بمختلف أوجهها إلى جعل المغرب الأوسط ساحة للصراع العسكري الدامي والمدمر، سواء في مواجهة ثورة الخوارج بزعامة " أبي يزيد مخلّد بن كيداد الاباضي النكاري "(331–336هـ) أو في مواجهة بني يفرن من زناتة بقيادة بني خرز المغراويين طيلة القرن الرابع الهجري.

لكن رغم ما يمكن أن يؤخذ عن السياسة الفاطمية إلّا أنّها نقلت مفاهيم فكرية جديدة إلى المنطقة، حتّى وإن رفض أهل المغرب جانبًا منها، إلّا أنّهم تأثروا بها سلبا وإيجابيا، وأبرز مزايا السياسة الفاطمية أنّها قامت على أساس بناء الدولة القوية المنظمة والمتماسكة، الّتي استطاعت وبامكانيات محدودة فرض سيطرتها على بلاد المغرب، ثمّ الزحف على مصر وجعلها مجالا لنفوذها، ثمّ التطلع لاسترجاع الخلافة من العباسيين في المشرق.

لقد كانت همة حكام الدولة الفاطمية كبيرة، كما كانت أهدافهم أكبر وليس كما كان الحال بالنسبة لدويلات المغرب الإسلامي وإماراته من الأغالبة حتّى الأدارسة مروراً بالاباضية في تاهرت الرستمية أو الصفرية في سجلماسة أو الإمارات العلوية بالمغرب الأوسط.

أمّا أهم إضافة حضارية جاء بها الفاطميون إلى بلاد المغرب فهيّ تأسيس مدينة المحمدية سنة313هـ، وهيّ التي ستعرف بالمسيلة في منطقة الحضنة في شرق المغرب الأوسط.

المسيلة الّتي أضحت في القرن الرابع الهجري حاضرة إسلامية مهمة في بلاد المغرب الأوسط، ونشأ بها بلاط بني حمدون الّذي اتّسعت مجالسه للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، ولعل

---

[1] _ من أبرز الفقهاء المالكية الذين لعبو دورا في هذه الأحداث "محرز بن خلف بن أبي رزين التونسي".

أشهرهم الشاعر بن هان الأندلسي _سابق الذكر_ والّذي اتّخذه الفاطميون في افريقية شاعرهم و به أمل المعز أن يفاخر شعراء المشرق[1].

جـ_ دور السنة في تطور الفكر السياسي في بلاد المغرب الأوسط.

إنّ أبرزما يميز الإتّجاه السني _بمختلف مذاهبه_ هوّ ارتباط أصوله الفكرية بالجانب الفقهي التّشريعي، على خلاف نشأة الاتجاه الخارجي أو التشيعي اللّذان يرتبطان بالدرجة الأولى بمواقف سياسية مبدئية تعود جذورها _كما مرّ بنا في هذه الدراسة_ إلى مرحلة الفتنة الكبرى بين الصحابة.

فإذا كان الخوارج هم التيار المنشق عن جيش علي بن أبي طالب، لمّا قبل التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، فإنّ الشيعة هم التيار الّذي غالى في الولاء لعلي بن أبي طالب وادعى أنّ الخلافة حق إلهي لعلي ومن بعده ذريته.

في حين ذهب أغلب المسلمين وهم المعروفون في التاريخ الإسلامي الأول " بالجمهور" إلى التمسك بمبدأ ضرورة حقن دماء المسلمين، وأنّ أمر الخلافة أدنى من أن تراق من أجله دماء المسلمين[2].

ويبرز هذا الموقف بجلاء عندما يتخلّى الحسن بن علي _رضي الله عنهما_ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة41هـ، هذا الحدث الهام وضع حدًا للفتنة الكبرى بين الصحابة، وأعاد السلام بين الجماعة الإسلامية، وسمي ذلك العام بعام " الجماعة ".

إنّ قبول اتّجاه " الجمهور" أو ما سيعرف في المستقبل باتّجاه السنة، تولّى معاوية بن أبي سفيان أمر الخلافة جاء بدافع شرعي فقهي بالدرجة الأولى، وسياسي بالدرجة الثانية[3].

أمّا الجانب الفقهي فيه فيتمثل في حقن دماء المسلمين وصيانة وحدة الجماعة الإسلامية، كما أنّ الخلافة ما دامت في قريش فهي لم تخرج عن الإطار الّذي سار عليه صحابة رسول الله ☐ في إختيار الخلفاء الراشدين، رغم أنّ هذا الموقف لا يخلو من خلفية سياسية إلاّ أنّ الضوابط الأساسية المتحكمة فيه فقهية بالدرجة الأولى.

---

[1] _ شوقي، ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص419، إحسان، عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص43

[2] – الريس، محمد ضياء الدين، المرجع السابق، ص 82 .

[3] – نفسه، ص186.

هذا الموقف المبدئي لفقهاء "الجمهور" هوّ الّذي دفعهم إلى الاتجاه إلى المجال العلمي، الفقهي بالدرجة الأولى، وزهدهم في الخوض في مسائل الخلاف السياسي وحتى العقدي وأدّى إلى عدم وضوح آرائهم في مسائل السياسة، خاصة في القرن الأول والثاني الهجريين، كما أدّى هذا الموقف إلى تأخر ظهور نظرية سياسية سنية، حتى مطلع القرن الثالث الهجري، في حين كانت النظريات السياسية لفرق الخوارج والشيعة قد انتشرت بشكل واسع في العالم الإسلامي، ولم تحد من سطوتها إلّا قوة سلطة الخلافة الأموية ثمّ العباسية.

لم يكن أهل السنة فرقة سياسية أو عقدية، لكن هذا لا يعني أنّه لم تكن لهم آراء سياسية فيما كان يواجه المسلمون من خلافات وصراعات سياسية، ذلك أنّه مرّ بنا في الفصل السابق أنّ كبار فقهاء المذاهب السنية وفي مقدمتهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك كانت لهم مواقف سياسية واضحة خاصة فيما يتعلق بأحقية العلويين في الخلافة، حيث عُرِف الإمام أبو حنيفة بتأييده لثورة زيد بن علي عند خروجه على هشام بن عبد الملك الأموي سنة122هـ[1].

كما عرف الإمام مالك بتأييده لمحمد النفس الزكية سنة145هـ والّذي ثار ضد أبو جعفر المنصور العباسي[2].

هذه المواقف المؤيدة للعلويين من طرف كبار فقهاء السنة لا يعني بأي حال من الأحوال تشيع هؤلاء العلماء، بقدر ما يعبر عن موقف سياسي متعاطف مع قضية العلويين في الحكم، هذا الأخير الّذي يعتبر في رأي فقهاء السنة أمرًا ثانويًا في الدين وليس أصلاً من أصول الشريعة.

هذه النظرة هيّ الّتي تبرر عزوف فقهاء السنة حتّى القرن الثاني الهجري عن الخوض في السياسة والخلافات السياسية، ولاشك أنّ هذا المفهوم قد انتقل إلى بلاد المغرب الإسلامي بانتقال هذين المذهبين إلى هذه المنطقة.

ومن الآثار البارزة لهذا التوجه زهد فقهاء بلاد المغرب بصفة عامة وحتّى المغرب الأوسط في أمور السياسة وعدم منازعتهم للحكام على المناصب ذات الطابع السياسي، بل إننا نجد أنّ فقهاء السنة اكتفوا بالسيطرة على الساحة الفكرية ذات الطابع التشريعي الفقهي، وحتّى ثوراتهم أو مشاركتهم في الثورات الشعبية كان لرد مظالم الحكام، أو دفاعاً عن مبدأ فقهي، أو عقدي كما كان الشأن في مواجهة الشيعة الفاطميين في القرن الرابع الهجري.

---

1 _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص265.

2 _ نفسه، ص407.

لكن رغم هذا كله، فقد حدد فقهاء السنة على اختلاف مذاهبهم بعض القواعد الأساسية للحكم في الإسلام والشروط الواجب توفرها في اختيار الخليفة، إلى جانب طبيعة العلاقة الّتي تربط الحاكم بالمحكوم.

لكن يجب أن ننبه إلى أنّ هذه الآراء السياسية في الإسلام أساسها وضعي، ولم يؤسس لها نص متكامل من القرآن والسنة النبوية، ولا شك أنّ هذا الأمر كان واضحاً بالنسبة للفقهاء من أهل السنة.

بالعودة إلى آراء علماء السنة في أمر الخلافة أو السياسة فإننا نجد أنّها بنيت بالدرجة الأولى على أساس التجربة التاريخية الّتي مرّ بها المجتمع الإسلامي خاصة في عهد الخلفاء الراشدين.

وفي هذا الصدد فإنّ "الإجماع" الّذي تحقق بين الصحابة في هذا العصر حلّ عند أهل السنة محل الأصل ومنه استمدّ فقهاء السنة مواقفهم وآرائهم السياسية الّتي ستؤسس لما سيعرف بالنظرية السياسية عند الشافعي أو عند الماوردي، ثمّ بن خلدون وغيرهم[1].

وما يهمنا في هذا البحث ليس النظرية السياسية عند أهل السنة، وإنّما يهمنا التعرف على القواعد الأساسية ذات الطابع السياسي الّتي تأثر بها السنة من أهل المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، سواء المالكية منهم أو الأحناف، هذه المعطيات الّتي تفسر لنا كثيراً من المواقف الفقهية والسياسية وحتّى الاجتماعية التي أبداها أهل السنة من بلاد المغرب، وكانت عوامل مؤثرة في توجيه سلوك أتباع هذه المذاهب، وبالتالي التأثير على التطور التاريخي لمجتمعاتها.

ومن خلال ما مرّ بنا في الفصل الثالث من هذه الدراسة فإننا نستطيع استحلاص المبادئ الأساسية لهذا التوجه، خاصة في مرحلة الأئمة الكبار كالحسن البصري، أبو حنيفة ومالك بن أنس وغيرهم، ومن أبرز المبادئ السياسية لهذا التوجه نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

_ الأخذ بالإجماع الذي تحقق بين الصحابة منذ حادثة السقيفة في السنة الحادي عشر للهجرة يوم وفاة الرّسولﷺ.

---

[1] _ للمزيد يراجع:الماوردي، المصدر السابق، ص ص15-22. المقدمة، ج1، ص244 ومايليها.

_ ومن المبادئ الأساسية لهذا الإجماع أن يكون الخليفة من قريش، دون ربط ذلك بشخص معين أو عشيرة محددة[1].

_ كما يعتبر أهل السنة أنّ السيرة التاريخية للخلفاء الراشدين جزء من هذه التجربة وبالتالي يعتبرون أنّ ما سار عليه الخلفاء الراشدون من عهد أبي بكر حتّى عهد علي بن أبي طالب سنة يجب الإقرار بها وإتباعها.

_ كما يبدو أنّ موقف علماء السنة قد تأثر بشكل كبير بحادثة الفتنة الكبرى بين الصحابة، هذه الحادثة التاريخية الّتي تركت آثارها العميقة في كل الاتجاهات الإسلامية، وعلى أساسها تبني السنة الموقف الرافض للخروج عن الحاكم ما لم يعطل حدًا شرعيًا أو يمنع الناس من أداء عباداتهم، وحتّى وإن تميّز حكمه بالاستبداد وشخصه بالفساد، كما كان الحال عند الأمويين والعباسيين[2].

وأهل السنة يحرّمون الخروج على الحاكم العادل، حتّى وإن كان في نظام حكم بني علي الاستبداد، كما كان الحال في عهد "عمر بن عبد العزيز" الّذي قال عنه الإمام مالك:"إنّ خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم..."[3]

ومن بين المواقف الّتي تميز بها علماء السنة الكبار وتأثر بها الأتباع في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة، رفض مولاه الحكام المستبدين، كتعبير عن المعارضة، ورفض تولي المناصب لصالحهم، وقد كان فقهاء المالكية أشد تشبثاً بهذا الموقف في عهد الأغالبة أو الشيعة الفاطميين وربما حتى في عهد الحماديين ولكن بدرجة أقل.

لكن الأحناف خالفوا هذه القاعدة في بلاد المغرب، ربما لأن حكام الأغالبة كانوا على مذهب الخلافة العباسية الّتي تبنت المذهب الحنفي، كما أنّهم لم يجدوا حرجاً من تولي المناصب في الدولة الفاطمية وفي عهد خلفائهم الزيريين.

أمّا المالكية سواء في افريقية أو المغرب الأوسط فقد تمسكوا بهذا الموقف الحذر وأحيانا الرافض لموالاة الحكام، لكن هذا لا ينفي توليهم بعض مناصب إمامة الصلاة، وأحيانا القضاء، كما كان

---

[1] – الماوردي، المصدر السابق، ص15.

[2] – ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص ص244-245.

[3] _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص406.

الحال بالنسبة للإمام سحنون (ت240هـ) الّذي قبل القضاء في عهد الأغالبة، لكن رفض الأجر والهدية وكل ما يجعله تابعاً لهم مرتبطًا بهم.

إنّ المتأمل في موقف أهل السنّة خاصة في إفريقية وبلاد المغرب الأوسط يلاحظ أنّهم قضوا عدّة قرون بعيدين أو مبعدين عن دواليب السياسة في الدول الّتي عاشوا فيها، سواء دولة اللأغالبة السنية في القرن الثالث الهجري أو دولة الفاطميين الشيعة وخلفائهم الزيريين في القرن الرابع الهجري وحتّى النصف الأول من القرن الخامس.

لكن مع تحول الزيريين من بني حماد في المغرب الأوسط وأبناء عمومتهم في افريقية إلى المذهب المالكي يبدو أنّ فقهاء السنة خاصة المالكية منهم قد انجرّوا إلى السياسة بدافع الصراع المذهبي، وأقبلوا على المناصب في الدولة الحمادية في القرن الخامس الهجري، كما أصبحوا طرفاً أساسيا في إدارة دواليب الحكم في دولة المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس وحتّى النصف الأول من القرن السادس الهجري.

لاشك أنّ تجربة المالكية مع الممارسة السياسية كانت محدودة، ودرايتهم بأساليبها كذلك، وهذا ما يفسر لنا جانبا من الأخطاء الّتي تميز بها حكمهم في عهد المرابطين على وجه الخصوص. كما تميز الفقهاء بالتشبث الصارم بالمبدأ الفقهي في حدود الرؤية المذهبية الضيقة الّتي لا تتجاوز بأي حال من الأحوال ما أثر عن الإمام مالك أو فقهاء المذهب السابقين، ورفض كل ما عدا ذلك حتّى وإن صدر من علماء كبار من أهل السنة من الأحناف أو الشافعية وغيرهم.

إنّ المرونة السياسية وحتّى الفكرية الّتي افتقدها فقهاء المالكية سادة دولة المرابطين هيّ الّتي جعلتهم يقعون في كثير من الأخطاء السياسية، الّتي استفاد منها المهدي بن تومرت ووظفها للإطاحة بدولة الفقهاء في بلاد المغرب[1].

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أنّ انخراط فقهاء المالكية في السياسة قد جرّهم إلى المكاسب الدنيوية الّتي زادت من سطوتهم في المجتمع، كما فتحت شهيتهم للمناصب والمال والجاه وهذا ما أساء إلى تجربتهم التاريخية في القرون الأولى وسهل للموحدين تشويه صورتهم، لكن دون أن يفقدوا تأثيرهم على العامة لكن بدرجة أقل مما كان عليه الحال في عهد الحماديين وحتّى الفاطميين والأغالبة[2].

---

[1] – النجار، عبد المجيد، المرجع السابق، ص45.

[2] – نفسه، نفس الصفحة.

ثانياً:دور الاتجاهات المذهبية في تطور الفكر العقدي ببلاد المغرب الأوسط.

يصعب فهم وتحليل تطور الفكر العقدي في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط بحصره في حدود مجاله الجغرافي الضيق، أو من منظور اتجاه مذهبي محدد، ذلك لأنّه جزء من نشاط فكري تمتد جذوره إلى المجتمع الإسلامي الأول في المشرق العربي، كما أنّ الفكر العقدي هوّ نتاج تفاعل أفكار واتّجاهات مختلفة، ساهمت في التأسيس له.

ومن أبرز هذه المدارس والاتجاهات، المعتزلة والخوارج ثمّ الشيعة على اختلاف توجهاتهم، ثمّ جاء دور السنة وأبرز مدارسهم مدرسة الحنابلة ثمّ الأشعرية[1].

أسهمت هذه المدارس على اختلاف توجهاتها عبر قرون من الزمن في نشأة وتطور الفكر العقدي عند المسلمين عامة وفي بلاد المغرب الإسلامي خاصة، وما المغرب الأوسط إلّا حلقة محدودة التأثير في هذا المجال الواسع، لكن هذا لا ينفي مساهمتها وتأثرها بهذا الاتجاه الفكري الهام في حياة المسلمين.

ويعتبر المعتزلة أولى الاتجاهات العقدية الّتي سجلت حضورها ببلاد المغرب الأوسط، وذلك منذ القرن الثاني والثالث الهجريين، كما تزامن هذا الحضور مع انتشار الاباضية في إطار الدولة الرستمية، أمّا القرن الرابع الهجري فقد سادت فيه المفاهيم الشيعية الاسماعيلية الباطنية، في حين تمّ التحول في القرن الخامس والسادس الهجريين لصالح المدرسة السنية خاصة بعد تبنيها لمبادئ الأشعرية.

وفي كل هذا المسار تعتبر المعتزلة المدرسة الإسلامية الأكثر تأثيراً على الاتجاهات المذهبية والعقدية في بلاد المغرب خاصة.

أ_ المعتزلة ودورها في تطور الفكر العقدي في بلاد المغرب الأوسط.

تعتبر المعتزلة أهم مدرسة عقدية عرفها الإسلام وهي تنتسب إلى "واصل بن عطاء الغزّال" (80-171هـ) أحد تلاميذ الحسن البصري، لكنه انشق عنه لما اختلفا في مسألة الحكم على "مرتكب الكبيرة " الّتي أثارها الخوارج[2].

---

[1] _ من المؤلفات الإسلامية الّتي اهتمت بالتعريف بهذه المدارس العقدية، مؤلفات "الملل والنحل" أو كتب المقالات، ومنها ما كتبه الشهرستاني، البغدادي، والأشعري...

[2] _ أثار الخوارج مسألة تكفير مرتكب الكبائر بعد انشقاقهم عن علي بن أبي طالب، وقد جرهم هذا النقاش إلى تكفير المؤمنين في حالة ارتكاب الكبائر، وأنهم مخلدون في النار إلى يوم القيامة.

ذهب واصل بن عطاء إلى القول بأنّ مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، وإنّما هوّ في منزلة بين المنزلتين، وبهذا الموقف يكون واصل قد خالف شيخه الحسن البصري الذي لم ينفي الإيمان عن مرتكب الكبائر، والحسن البصري آنذاك من كبار علماء الجمهور _قبل ظهور مصطلح السنة_ كما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري، فسمي أتباعه بالمعتزلة[1].

في حين لقب أتباعه في بعض المناطق منها بلاد المغرب الإسلامي "بالواصلية" وفي هذا الصدد ذكر الشهرستاني قوله: " وبالمغرب الآن منهم شرّذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني الّذي خرج في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية "[2].

ويؤكد وجود الواصلية في بلاد المغرب حديث بن خلدون عن إدريس الأول الّذي نزل بوليلي بالمغرب الأقصى في ضيافة قبيلة أروبة البربرية الّتي يتزعمها " إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأورربي المعتزلي المذهب"[3].

كما يدل قول بن خلدون على أن الاعتزال كان موجوداً في بلاد المغرب منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، هذا بدوره يؤكد ما ذهب إليه كتاب المعتزلة من أنّ واصل بن عطاء (80–180هـ):" أنفذ إلى المغرب عبد الله بن الحارث فأجابه الخلق "[4].

وقد أشرنا إلى ذلك التحالف السياسي والعقدي الّذي قام بين إدريس الأول والواصلية من البربر في المغرب الأقصى كما أشرنا إلى تأثير دولة الأدارسة القوي على المغرب الأوسط خاصة في قسمه الغربي وأهم عاصمة فيه تلمسان.

أمّا في المغرب الأوسط فقد ذكر أبو زكريا الورجلاني (ت470هـ) أنّ الواصلية كانوا بالقرب من تاهرت الرستمية، وهم قوم من البربر وافق وجودهم عهد الإمام عبد الوهاب بن

---

[1] _ البغدادي، عبد القادر ، بن طاهرين محمد(ت429هـ)، لبفرق بين الفرق، تحقيق، رمضان، ابراهم، طبعة، دار المعرفة، بيروت، 2008، ص ص112-116.

[2]– الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن بد الكريم(ت548هـ)، الملل والنحل، طبعة، المكتبة العصرية،2005، بيروت، ص ص 40-41.

[3] _ العبر، ج4، ص17.

[4] _ من أبرز كتاب الاعتزال، البلخي، صاحب مقالات الإسلاميين في كتاب فضل الاعتزال، والقاضي عبد الجبار، صاحب كتاب طبقات المعتزلة.

رستم(171–208هـ)، كما جرت بينهم وبين الإمام الرستمي عدّة مناظرات فكرية استعان فيها بفقهاء من المتكلمين من نفوسة بالمغرب الأدنى[1].

وقد أشار البكري(ت487هـ) إلى وجود الواصلية بالقرب من تاهرت ووصف تجمعهم بالبدوي، وقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً[2].

كان للمعتزلة وجود قوي في دولة الأغالبة في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري لأنّ أمراء بني الأغلب مالوا إلى الاعتزال اقتداءً بالخلفاء العباسيين التابعين لهم، فبرز من المعتزلة رجال الدولة والقضاة وكبار المثقفين، كما كانت للمعتزلة مكانة معتبرة في أجهزة الخلافة العباسية في عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، وخليفته المعتصم والواثق.

ومن أبرز رجال الاعتزال في دولة الأغالبة القاضي " ابن أبي جواد" وأبو إسحاق المعروف بالعمشاء، وهذا الأخير الّذي يذكر أنّه كان يناظر في مسألة خلق القرآن[3].

كما عرف من كبار علماء المعتزلة القاضي أبو محرز الّذي كانت له حلقة يدرس فيها تعاليم الاعتزال، ومنهم كذلك في إفريقية سليمان بن أبي حفص الفراء(ت269هـ)[4].

بناء على تقدم فإننا نلاحظ أنّ وجود الاعتزال كان حاضراً في بلاد المغرب الإسلامي، سواء في المغرب الأقصى، أو الأوسط و كذا إفريقية، كما لا يخفى التأثير الفكري القوي لعاصمة الأدارسة والأغالبة على المغرب الأوسط.

إن الوجود المبكر والمؤثر للاعتزال في بلاد المغرب الإسلامي هوّ الّذي أعطى هذه المدرسة العقدية قوّة تأثيرية على مختلف الاتجاهات المذهبية كالاباضية والشيعة بفرعيها الزيدي والاسماعيلي، وأخيرًا جاء دور أهل السنة لما مالوا للأشعرية.

والاعتزال يقوم على خس قواعد أساسية يسمونها أصول الاعتزال وهي:

_التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، ثمّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[5].

---

[1] _أبو زكريا، المصدر السابق، ص102.

[2] _ البكري، عبد الله، المصدر السابق، ص67.

[3] _ بن حمدة، عبد المجيد،المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الأشعرية، طبعة، دار العرب، تونس،1968، ص167.

[4] _ نفسه، ص168. المجدوب، عبد العزيز، المرجع السابق، ص102.

[5] – الشهرستاني، المصدر السابق، ص ص39–43.

يتميز المعتزلة بهذه المبادئ الأساسية عن الفرق الإسلامية، كما قد يتقاطعون معها فيؤثرون فيها وكثيرا ما كان تأثير المعتزلة واضحاً في عقائد الاباضية والشيعة وبدرجات أقل في أهل السنة.

ولتحقيق فهم واضح لعقيدة المعتزلة لابد من توضيح مدلول مبادئ الاعتزال ولو بشكل مختصر ومقارنتها بعقائد الفرق الإسلامية الأخرى، والوقوف على مدى تأثير هذا الاتجاه العقدي في ثقافة بلاد المغرب.

فالتوحيد يعني التنزيه المطلق للذات الإلهية، وهذا يقتضي _في نظرهم_ نفي الصفات، واعتبارها عين الذات، وقد دفعهم هذا الرأي إلى تأويل الآيات القرآنية الّتي تفيد التشبه كاليد، والوجه، وأعطوها معاني مجازية[1]، وهم بهذا المسلك أخذوا بمذهب التأويل الّذي عرفناه عند الشيعة الباطنية وأصوله تعود للفلسفة اليونانية _كما مرّ بنا في الفصل الثاني_ كما جرّهم هذا الموقف إلى نفي رؤية الله تعالى في الآخرة، والقول بخلق القرآن.

أمّا الأصل الثاني فهو العدل، وهذا يقتضي أنّ العباد خالقون لأفعالهم بقدرة استودعها الله فيهم، وبالتالي فهم مسؤولون عن أفعالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشرًا، والعدل الإلهي يقتضي ألاّ يتدخل الله في أفعال عباده لأنه سيحاسبهم.

أمّا الأصل الثالث فهو الوعد والوعيد، يرتبط هذا المبدأ بالعدل الإلهي الّذي يقتضي أن يثاب المطيع ويعاقب العاصي.

أمّا الأصل الّذي يميز المعتزلة عن غيرهم من الفرق الإسلامية خاصة السنة والخوارج، فهو قولهم "بالمنزلة بين المنزلتين"، هذه المسألة الّتي طرحها الخوارج في حق مرتكب الكبيرة، حيث ذهب الخوارج والشيعة إلى تكفيره، لكن بدرجات، في حين ذهب أهل السنة (الجمهور) إلى اعتباره مؤمناً عاصيًا، وانفرد المعتزلة بالقول بأنّه ليس بمؤمن ولا بعاص بل هوّ في منزلة بين المنزلتين.

أمّا الأصل الخامس فهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" هذا المبدأ الّذي يشترك فيه عامة المسلمين.

وفي الأخير فإنّ وصول الاعتزال إلى بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة أدّى إلى تنشيط الحياة الفكرية عند أصحاب الاتجاهات المذهبية المختلفة، وكثيرا ما

---

[1] – بن حمدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص170.

وجدوا أنفسهم في مواجهة القضايا الفكرية الّتي كان يثيرها المعتزلة وهي في الأساس ذات طابع كلامي، جرت إليها الاباضية _كما مرّ بنا_ كما جرت إليها الشيعة وحتّى أهل السنة.

ب_ تطور الفكر العقدي عند الاباضية في المغرب الأوسط.

يتجه الفكر العقدي عند الاباضية إلى المسائل ذات الطابع السياسي والاجتماعي وحتّى الأخلاقي بالدرجة الأولى، أمّا المسائل الميتافيزيقية بالنسبة لهم فهي مسائل ثانوية[1].

ومن المسائل الّتي اهتم الخوارج بمناقشتها، مسألة مرتكب الكبيرة، الّتي تتناول السلوك الإنساني، كما تحمل في طياتها بعدا سياسيا، يستهدف مخالفهم في الحكم، خاصة بني أمية ثمّ بني العباس الّذين عطلوا مبدأ الشورى، وصادروا إرادة الأمة، كما يمس هذا المبدأ من يساندهم من أهل السنّة والشيعة، لهذا حكموا عليهم بالكفر، لكنه كفر نعمة لا يستلزم إخراجهم من الملّة، وهذا هو الموقف المعتدل الّذي أخذ به الاباضية، في حين ذهب المتطرفون إلى إخراج مرتكب الكبيرة من الملّة، ممّا يبيح قتله[2].

ورغم الصراع الّذي كان قائما في بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة بين الاباضية والمعتزلة من الواصلية في القرن الثاني والثالث الهجريين، إلّا أنّ الاباضية أخذوا بكثير من الآراء والمعتقدات الّتي قال بها المعتزلة.

ومن الأصول الّتي اشترك فيها الاباضية مع المعتزلة، مفهوم التوحيد ونفي الصفات، وتأويل الآيات الّتي تفيد التشبيه.

كما ذهب الاباضية إلى نفي الرؤية والقول بخلق القرآن، وانقسموا حول مسألة الجبر والاختيار، فمنهم من مال إلى المعتزلة ومنهم من أخذ برأي الأشاعرة[3].

والمتأمل في المعتقد الاباضي يلاحظ التقارب الفكري بينه وبين الاعتزال، لكن يبدو أنّ هذا التقارب لم يكن في القرن الثاني أو حتّى مطلع القرن الثالث، وإنّما تحقق في القرن الرابع وما تلاه، ويظهر ذلك جليا في مؤلّفات الاباضية الكلامية، خاصة في آراء العالم المتكلم أبو يعقوب

---

[1] – بن حمدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص72.

[2] _ طالبي، عمار، آراء الخوارج المالكية، ج1، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، الجزائر، ص ص129–132.

[3] _ بن حدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص84 وما يليها.

الورجلاني (ت570هـ)، وأبو عمار عبد الكافي المتوفي في القرن السادس الهجري، وقد عاش هذا الأخير في ورجلان مدّة من الدهر[1].

ومن أبرز الدلائل على هذا التقارب المذهبي بين المعتزلة والإباضية هو تحول المعتزلة في وادي ميزاب بالمغرب الأوسط إلى المذهب الإباضي في مطلع القرن الخامس الهجري، أي حوالي سنة 422هـ/1031م، على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطائي[2].

رغم أنّ الاباضية فرقة سياسية بالدرجة الأولى، إلّا أنّها كانت في حاجة ماسة لتبرير مواقفها السياسية من الناحية الدينية، وهذا ما جرّهم إلى الخوض في العقائد منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي.

كما أنّ اهتمامهم بالعقائد كان بدافع الحفاظ على تماسك طائفتهم وحمايتها من الذوبان في غياب أسس عقائدية واضحة تميزهم عن غيرهم، لذا وجد الاباضية وحتّى بعض فرق الخوارج الأخرى في المعتزلة أقرب الاتجاهات العقدية الّتي تتماشى مع أطروحاتهم الفكرية لأنّ المعتزلة وقفوا موقفا وسطا بين الخوارج والسنة، وكذا بين الشيعة والسنّة، لكن هذا لا ينفي انفراد كل فرقة ببعض الآراء الخاصة بها.

ومن أبرز الآراء ذات الطابع السياسي والعقدي الّتي تميز بها الاباضية عن المعتزلة وأهل السنّة وحتّى الشيعة، ربطهم بين الإيمان والعمل وبالتالي فمن خالف عمله إيمانه فقد كفر.

أدّى توجه الاباضية في بلاد المغرب الأوسط، وحتّى الأدنى إلى الخوض في علم الكلام، والمساهمة بشكل فعّال في تطور الفكر العقدي وإثرائه بعدّة مؤلّفات، أشرنا إلى بعضها في الفصل الخاص بالاباضية، وللتذكير فإنّ أوائل الّذين خاضوا في علم الكلام من الاباضية في المغرب الأوسط، الإمام عبد الوهاب بن رستم(171-208هـ)، الّذي كان يناظر الواصلية، كما نشأ بينه وبين النكار من الاباضية جدل حول الإمامة وبحكم تعدد الطوائف في تاهرت الرستمية فقد كانت مسرحاً للمناظرات في العقائد والسياسة لدرجة أنّ الحياة الثّقافية فيها اصطبغت بصبغة جدلية.

---

1 _ عبد الكافي، أبو عمار الاباضي، الموجز، ج1، تحقيق، عمار، طالبي، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص ص255-256.

2 – بحاز، إبراهيم بكير،الميزابيون المعتزلة، **مجلة الحياة**، العدد الأول، السنة1998، المطبعة العربية، القرارة، الجزائر ،ص127.

انتقل الاباضية خاصة الوهبية منهم إلى ورجلان بعد سقوط الدولة الرستمية، وأسسوا لحياة علمية ثرية خاصة منذ مطلع القرن الخامس الهجري في أريغ وورجلان، بعد أن بدأت مدرسة العزابة تؤتي ثمارها، فازدهرت الحياة العلمية ونشطت حركة التأليف وبرز العلماء والمتكلمون من الاباضية، وقد بلغت هذه الحياة الفكرية أوجها بما خلفه أبو العباس أحمد بن بكر الفرسطائي (ت504هـ)، الّذي أخذ العلم عن أبيه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ومن مؤلّفاته في علم الكلام كتاب في" مسائل التوحيد" وكتاب "تبيين أفعال العباد"[1].

أمّا القرن السادس فقد برز "أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التنوتي الورجلاني، وهوّ الّذي قال عنه المستشرق لويتسكي أنّه أكثر مؤلّفي الاباضية علمًا[2].

كما عاصر أبو عمار عبد الكافي، العالم أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي الورجلاني (ت570هـ)، ومن أشهر مؤلفاته "لدليل والبرهان"، يُعبر الكتاب عن نزعة عقدية فلسفية من وجهة نظر إباضية، كما يدل على المستوى الفكري الذي وصلت إليه الدراسات الإباضية في هذه المرحلة في المغرب الأوسط، وهي تضاهي مثيلاتها من الدراسات السنية.

ج _ تطور الفكر العقدي عند السنّة في المغرب الأوسط.

يمكننا تمييز مرحلتين أساسيتين في تطور الفكر العقدي عند أهل السنة بصفة عامة وبصفة خاصة في بلاد المغرب الإسلامي، فأما المرحلة الأولى فهي مرحلة سيطرة آراء السلف من الصحابة، والتابعين والأئمة أصحاب المذاهب الفقهية السنية الكبرى حتى ظهور الأشعرية في القرن الرابع الهجري، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التحولات العقدية وتتمثل في انتشار الرؤية العقدية الأشعرية، ووصول تأثير المدارس الصوفية إلى بلاد المغرب.

1 _ مرحلة الأئمة الكبار والرؤية السلفية.

سبق وأن تناولنا هذا الجانب بإسهاب في الفصل الثالث من هذه الدراسة،وسوف نكتفي بالإشارة إلى الأفكار الأساسية المميزة لهذه المرحلة، بهدف الانتقال إلى مرحلة التحولات العقدية الكبرى بعد القرن الرابع الهجري.

---

[1] _ بوعصبانة، المرجع السابق، ص ص132-133. الطالبي، عمّار، المرجع السابق، ص209.

[2] _ Lewiki ,T, Mélanges, Berbéres – Ibadites, Revue des études Islamiques, Anné1936, cahier3, Paris, P278.

ومن يتميز الموقف المبدئي لأهل السنّة على اختلاف مذاهبهم، برفض الخوض في المسائل العقدية، وقد مرّ بنا في الفصل الثالث كيف أنّ أبا حنيفة النعمان، نهاه شيخه حمّاد عن الاشتغال بالجدل والخوض في العقائد، فقال أبو حنيفة:"راجعت نفسي، وتدبرت، فقلت: إنّ المتقدمين من أصحاب النبي ﷺ، والتابعين، لم يكن ليفوتهم شيئ مما ندركه نحن ... ثمّ لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين،... بل أمسكوا عن ذلك ونهو عنه أشدّ النهي..."[1].

سار الإمام مالك وباقي فقهاء الجمهور على نفس في رفض الخوض في الجدال المثار حول العقائد وحتّى حول الفتنة الكبرى بين الصحابة، الّتي قال عنها عمر بن عبد العزيز:"تلك دماء طهّر الله منها أيدينا، فلا نلطخ بها ألسنتنا"[2].

كما رفض فقهاء الجمهور تكفير مخالفيهم من المسلمين ما لم يعطلوا شعيرة من شعائر الإسلام، لكن موقف أهل السنّة "الجمهور" الرافض للجدل لا يعني أنّه لم تكن لهم آراء عقدية، بل يعني أنّهم رأوا أن الجدل يضر بسلامة العقائد أكثر مما يفيدها.

ومن بين آرائهم قول الإمام مالك لمّا سئل عن "كيفية الاستواء" فقال:"الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، ولمّا سئل عن الصفات قال:"أمرها كما جاءت بلا كيف"[3].

ومن بين المواقف العقدية الّتي تميز بها أهل السنّة سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي قولهم بتوحيد الخالق، وقدمه وقدم صفاته وكذا جواز رؤيته يوم القيامة من غير تشبيه ولا تعطيل[4].

لكن انتشار مقولات الفرق من خوارج وشيعة ومعتزلة بين المسلمين قد دفعت أهل السنّة مكرهين للخوض في هذا الباب، للدفاع عن عقيدتهم المستمدة من الكتاب والسنّة من غير تشبيه ولا تأويل، وربّما كان الحسن البصري أول من خاض في هذا الميدان بحكم وجوده في بيئة ساد فيها الخروج والتشيع، كما وجد الإمام أبوحنيفة نفسه مكرها على الرّد على مقولات الفرق في الكوفة التي بدأ الجدل فيها مبكرا مقارنة مع باقي أقاليم الدولة الإسلامية.

---

1 _ أبو زهرة، المرجع السابق، ص23.

2 _ الريس، محمد ضياء، المرجع السابق، ص81.

3 _ نفسه، نفس الصفحة.

4 _ابن حمدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص23.

أمّا في بلاد المغرب فإنّ المشتغلين من السنّة بعلم الكلام كانوا قلّة، ولا يقبلون على الخوض فيه إلاّ للرّد على مخالفيهم من أصحاب المذاهب السياسية أو العقدية، مثل الخوارج، المعتزلة والشيعة[1].

ومن أبرز فقهاء المالكية الّذين كتبوا في الرّد على أصحاب الفرق نجد محمد بن سحنون(ت256هـ)، كما برز في مواجهة الشيعة سعيد بن الحداد(ت302هـ) وكذا ابن أبي زيد القيرواني(386هـ)[2].

ومن أهم المؤلفات الّتي تركها لنا محمد بن سحنون في علم الكلام كتاب الحجة على القدرية، و"كتاب الحجة على النصارى، وكتاب الإيمان والرّد على أهل الشرك، وكتاب الرّد على أهل البدع[3].

أمّا أبو عثمان سعيد الحداد، فقد عُرف بقدرته الفائقة على مناظرة الشيعة خاصة في العهد الأول من ظهور دولتهم، ودحضه لمقولاتهم، وقد تخرّج على يديه عدد معتبر من العلماء منهم أبو بكر بن اللباد، وأبو العرب محمد بن أحمد التميمي (ت333هـ).

أمّا النصف الثاني من القرن الثالث الهجري فقد برز الإمام "أبو محمد عبد الله بن أبي يزيد القيرواني"، وإليه انتهت رئاسة العلم المالكية في بلاد المغرب الإسلامي، كما رحل إليه طلاب العلم من مختلف أقطار المغرب.ترك بن أبي يزيد عدداً معتبر من المؤلّفات والّتي تناولت في جانب منها أو كلّها قضايا في العقيدة منها مؤلفه المعروف بكتاب الإقتداء بأهل السنّة، ورسالة في الرّد على القدرية ومن أشهر مؤلّفاته كتاب "الرّسالة"، رغم طابعه الفقهي المختصر إلّا أنّه تناول في بدايتها عقيدة أهل السنّة[4].

ويعتبر كتاب "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني من أهم مصادر الفقه المالكي بعد الموطأ والمدونة، حوى هذا المؤلف الصغير حوالي أربعة آلاف مسألة في الفقه المالكي[5].

---

[1] _ نفسه، ص26.

[2] _ بن حمدة، عبد المجيد، المرجع السابق، ص42.

[3] _ عياض، ترتيب المدارك، ج3، ص ص106–107.المالكي، رياض النفوس، ج1، ص443وما يليها.

[4] _العابدين، بن حنيفة، العجالة في شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ج1، طبعة، دار الإمام مالك، 2006 ، ص ص29–35.

[5] _القيرواني، بن أبي زيد، الرسالة في فقه الإمام مالك،مراجعة،عبد الوارث محمد علي، طبعة،دار الكتب العلمية، بيروت، د .ت، ص ص 5–7.

تميزت الرّسالة بالاختصار والدّقة وبساطة الأسلوب مع سلامته، مما ساعد على انتشارها بشكل واسع في بلاد المغرب الإسلامي سواء في افريقية أو المغرب الأوسط وما عداه.
حاول ابن أبي زيد في مقدمة الرسالة توضيح عقيدة أهل السنّة من منظور مالكي، لكنّه تناولها بأسلوب أو منهج ذو طابع جدلي، مماّ دفع بعض الدّارسين إلى اعتباره أشعري العقيدة والمنهج.

2 . مرحلة التحولات العقدية.

وجد المذهب المالكي طريقه لأن يسود في بلاد المغرب بصفة عامة وافريقية والمغرب الأوسط بصفة خاصة، هذا مع مطلع القرن الخامس الهجري(11م) حيث تحول الزيريون سواء بنو حماد في المغرب الأوسط، أو أبناء عمومتهم في إفريقية إلى المذهب المالكي، لكن بعد المرور بعدة محطات بدأت بعمليات الاضطهاد أو حتى المجازر في حق الشيعة الروافض، كما كانوا يلقبونهم، منذ سنوات 405 و407 للهجرة حتى سنة 419 هـ، وأخيرا بلغت محنة الشيعة أوجها عند حدوث القطيعة النهائية بين المعز بن باديس الصنهاجي والخلفاء الفاطمين سنة 440 هـ[1].

سمح هذا التحول المذهبي والسياسي للمالكية بأن تسود مفاهيمهم العقدية، وقد تدعم هذا التوجه السني للزيريين، بنجاح المرابطين في الاستيلاء على المغرب الأقصى، وزحفهم نحو المغرب الاوسط، حيث تمكنت قواتهم من دخول تلمسان سنة 472 هـ، استطاعوا توسيع نفوذهم في غرب ووسط المغرب الاوسط حتى جزائر بني مزغنة.

تبنى منذ البداية المرابطون المذهب المالكي بشكل رسمي، وجعلوه مذهب الدولة، كما التزموا المنهج العقدي السني السلفي، ونقصد بذلك معتقد أهل الحديث، وفي مقدمتهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وهو نفس النهج الذي سار عليه علماء القيروان حتى أبي زيد القيرواني[2].

أدى الموقف المذهبي للحماديين والمرابطين في المغرب الأوسط خلال القرن الخامس الهجري وحتى مطلع القرن السادس الى تراجع واضح لتأثير النزاعات الشيعية الباطنية، كما

---

[1] – ابن خلدون ، العبر،ج6 ، ص ص 228 ، 17– 19 . للمزيد يراجع: ابن عذارى ، المصدر السابق، ج1 – ، ص ص 273– 278.

1 – مغزاوي، مصطفى، التحولات المذهبية في المغرب الاسلامي والأندلس خلال العصر الموحدي(6 –8 هـ / 11 – 13 م) اطروحة دكتوراه ،مرقونة ، بإشراف خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة ، الجزائر ، 2011 .– 2012 ، ص 21 .

تراجعت النزعة الخارجية سواء في المغرب الأدنى أو المغرب الأوسط خاصة في جنوبه الشرقي، وقد مرّ بنا ذلك في الفصل الأول من هذه الدراسة.

فتح المجال لسيادة معتقد أهل الحديث من منظور مالكي[1]، وتدعم بظهور قوة جديدة في أقصى الغرب تحاكي الفاطميين في تمذهبها، وتعاكسهم في توجهها، ومن أقوى الدلائل على التزام المرابطين الحرفي بالتوجه السني، سواء في المجال السياسي أو العقدي، ما ذهبوا إليه وبدعم من فقهاء المالكية من إعلان الولاء والطاعة للخلافة القرشية السنية المتمثلة في العباسيين، رغم أن هؤلاء كانوا في أقصى مراحل ضعفهم [2].

منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى ظهور الموحدين بالمغرب الأقصى وزحفهم على المغرب الاوسط في منتصف القرن السادس الهجري، ساد في هذه الفترة بلاد المغرب الأوسط معتقد أهل السنة برؤية مذهبية مالكية، سواء في دولة بني حماد شرق المغرب الأوسط، أو منطقة نفوذ المرابطين في غرب ووسط المغرب الأوسط[3].

وقد تميز موقف علماء المالكية بأمرين أساسيين، هما رفض الخوض في علم الكلام والفلسفة، وفي نفس الوقت رفض كل اتجاه فكري يحمل نزعة باطنية تأويلية، وفي مقدمة ذلك التصوف الذي بدأت تأثيراته تفد الى بلاد المغرب بقوة في القرنيين الخامس والسادس الهجريين.

كما يبدو أن المنهج السلفي الذي سار عليه المرابطون في المغرب الاسلامي يصطدم والمنهج الأشعري، الذي وإن كانت عقيدته سنية إلا أن منهجه كان عقليا جدليا بالدرجة الأولى، وهذا ربما ما جرّ الأشاعرة إلى مخالفة أهل السنة في العديد من الآراء العقدية[4].

لكن رغم هذا الموقف المبدئي لفقهاء المالكية المعادي لكل نزعة تجديدية فلسفية أو روحانية كانت، إلا أن المذهب الأشعري، ونزعة التصوف الباطني بدأت تسري في المجتمع بالمغرب

---

[1]– نفسه، ص 22. ابراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، طبعة، دارالرسالة ، الجزائر، 2006، ص ص 436 –439 .

[2] – ابن الأثير، المصدر السابق، ج9 ،ص 99 .

[3] – التهامي، ابراهيم، المرجع السابق، طبعة، دار قرطبة، الجزائر، 2006، ص 6.

[4] – مغزاوي، مصطفى، البعد السياسي في انشار المذهب الأشعري في المشرق الاسلامي ومغربه، طبعة، كنوز الحكمة ن الجزائر ، 2011 ص ص، 22 – 23 .

الاسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، مما مهد لانتقال المغرب الاسلامي الى مرحلة جديدة من الناحية العقدية، بدأت تنتشر فيها المفاهيم العقدية الأشعرية، كما انتشر فيها التصوف الاسلامي بمختلف اتجاهاته.

رغم هيمنة فقهاء المالكية على الحياة الفكرية في القرن الخامس الهجري إلا أن التحولات العقدية بدأت تسري في مجتمعات المغرب متأثر بما كان يحدث من تطور فكري في المشرق الاسلامي خاصة في العراق والشام وحتى مصر، حيث انتشرت الرؤية العقدية الأشعرية وهي في الأساس رؤية سنية، لكن بمنهج جدلي، يختلف عن المنهج السلفي.

أما التحول الثاني فكان يتمثل في انشار التصوف بمفاهيمه المختلفة في العالم الاسلامي، وقبل الخوض في هذه التحولات لابد من تحديد هذين المفهومين وإبراز أثرهما في التطور العقدي ببلاد المغرب.

2-1 :المذهب الأشعري

ينسب المذهب الأشعري الى الإمام أبي الحسن الأشعري (ت 936/324 م) الذي عاش في بغداد، وكان معتزليا في بداية حياته ومنهج المعتزلة – كما مر بنا – يقوم على أساس تحكيم العقل في النص، واستخدام التأويل للخروج باستنتاجات توافق العقل دون أن تنكر النقل(النص)، لكن الأشعري رجع عن منهج المعتزلة العقلي وتبني منهج أهل الحديث، أو ما اصطلحنا عليه بمنهج أهل السنة خاصة في تفسير القضايا ذات البعد العقدي كالصفات والاستواء، ورؤية الله عز وجل يوم القيامة وغيرها من القضايا العقدية، كما قرر التخلي عن منهج التأويل[1].

تبنى الأشعري منذ تخليه عن الاعتزال مبدأ الدفاع عن عقيدة أهل السنة ضد آراء المعتزلة والفرق المختلفة مما أكسبه مكانة كبيرة في نظر بعض علماء السنة وربما حتى العامة، لم تتوقف شهرة الأشعري على المشرق بل وصلت تأثيراتها بقوة الى بلاد المغرب، فبدأ يُعرف بعض العلماء في القرن الرابع الهجري بتأثرهم بهذا المذهب الذي كان في طور النشأة والتكوين ومن بين هؤلاء العلماء إبراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي(ت 359 هـ)[2]،كما رحل

---

[1]– مغزاوي، مصطفى، البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري، ص ص 3 -5.

[2]– التهامي، ابراهيم، المرجع السابق، ص12 .

من المغرب أبو ميمونة دارس بن اسماعيل الفاسي(ت 357 هـ) الذي أخذ عنه القابسي وابن زيد القيروان، ومن الاشارات الدَّالة على هذه الصلة تلك المواقف التي عرف بها بن أبي زيد والدالة على تقديره، وتأثره بالحسن الأشعري.

لكن مهما يكن فهذه إشارات بسيطة لا تدل على انتشار المذهب الأشعري في بلاد المغرب، وفي نفس الوقت لا يمكن أن ننفي أن المذهب الأشعري بدأت تصل بوادره الى بلاد المغرب منذ أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري[1]، وربما سيعرف طريقه إلى بلاد المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة في القرن السادس، بعد عودة المهدي بن تومرت من رحلته الى المشرق واستقراره فترة من الزمن ببلاد المغرب الأوسط في حوالي سنة 511 أو 512 هـ، في عاصمة الحماديين بجاية، وامتهانه للتدريس والوعظ والإرشاد، كان منهج بن تومرت العقدي كلامي ذو نزعة الأشعرية، أمّا منهجه الإصلاحي فكان عنيفا وصادما، مما دفع فقهاء المالكية الى إثارة الأمير الحمادي ضده[2].

وجد بن تومرت من يحميه ويدافع عنه في المغرب الأوسط، ومن يتتلمذ على يديه، مؤمنا بعلمه و حركته الإصلاحية ومنهجه العقدي التجديدي، وفي مقدمة هؤلاء عبد المؤمن بن علي الكومي تلميذه وخليفته في الدعوة والدولة[3].

نزل بن تومرت في طريق رحلته الى المغرب الأقصى بتلمسان، وهي آنذاك عاصمة المرابطين في المغرب الأوسط، ويبدو أنه كان يجد من يقبل على أفكاره في كل مكان يحل به في بلاد المغرب مما يدل على أن إرادة التحول المذهبي كانت موجودة ومؤثرة، علما أنها كانت تقترن بالتصوف وتاريخ علماء كبار من امثال أبي حامد الغزالي الذي وصلت أفكاره من خلال كتاب " الإحياء " منذ أواخر القرن الخامس الهجري، هذه الأفكار التي عبر عنها أبي حامد كانت تجمع بين النزعة الأشعرية والتصوف السني، كما كانت تحمل نقدا قويا لفقهاء السلطان وهم آنذاك بالمغرب فقهاء المالكية من المرابطين[4].

---

1 – مغزاوي، مصطفى، التحولات العقدية، ص 38 .

2 – النجار، عبد المجيد، المرجع السابق، ص ص 89 – 91 .

3 – نفسه، ص ص 92 – 93.

4 – الغزالي ، أبي حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ضبط وتدقيق أحمد عناية وأحمد زهوة ، طبعة ، دار الأصالة ، الجزائر ، 2005ص 77 وما يليها .

مثّلت ثورة المهدي بن تومرت الفكرية التجديدية مرحلة متقدمة في تطور الفكر العقدي عند أهل السنة في بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة، لكن هذا لا ينفي نزعة الابتداع في مواقف ومنهج المهدي بن تومرت، الذي حاول أن يجمع بين كثير الأفكار العقدية المتناقضة ويعطيها ثوبا سنيا أشعريا، ونقصد بذلك جمعه بين السنة والنظريات الباطنية الشيعية، وحتى انفتاحه على الاباضية، وربما هذا ما يفسر لنا ذلك التوافق الذي ساد بين إباضية ورجلان والموحدين إقبال الإباضية على خدمة دولة الموحدين من دون الأخذ بمذهبها، كما مر بنا في الفصل الأول من هذه الدراسة .

إن أحسن وصف تركته لنا المصادر لثورة المهدي بن تومرت ما جاء على لسان بن خلدون بقوله: " وانطوى هذا الامام راجعا الى المغرب بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن إتباعهم"[1].

إن الظروف التي مرّ بها المهدي في بلاد المغرب بعد عودته لم تكن لتسمح له بنشر مذهبه العقدي على نطاق واسع في بلاد المغرب، ذلك لأنه قضى معظم حياته بعد العودة في صراع عسكري بالدرجة الاولى ضد المرابطين في ضواحي مراكش، مما دفعه إلى أن يتحصن بجبال الأطلس الجنوبي وفي منطقة نائية معزولة [2].

لكن دعوته وجدت طريقها الى محيطها المغاربي بعد أن فك الحصار العسكري عن خلفائه الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي الذي أولى اهتماما خاصاً بالتوجه نحو المغرب الأوسط، ربما لإشراك أبناء قبيلته في أمر الدعوة والدولة، كما أولى اهتماما خاصا لمؤلفات الإمام المهدي، فرتبها في كتاب " أعز ما يطلب " وكان عبد المؤمن حريصا على شرح تعاليم دعوة المهدي لدرجة أنه كان يتولى تدريسها بنفسه ويصدر المراسيم يأمر فيها عامة الناس بقراءة مؤلفات المهدي في العقيدة[3].

---

[1]– العبر، ج6 ، ص 302 .

[2] – النجار، عبد المحيد، المرجع السابق، ص ص 112 ، 128.

[3]– نفسه ، ص 443 .

أدى هذا التوجه الدعوي الرسمي للموحدين خلفاء المهدي بن تومرت الى انتشار واسع لأفكاره سواء العقدية الأشعرية، أو حتى الصوفية الباطنية، كإدعائه المهدوية والكشف والعصمة[1].

وفي الأخير فإن التحول العقدي وجد طريقه الى بلاد الغرب الاسلامي بطرق شتى سواء عن طريق رحلة طلاب العلم و حركة التأليف، وأخيرا جاء دور دعوة المهدي بن تومرت في القرن السادس الهجري ليفتح المجال واسعا أمام انتشار الأشعرية، وانفتاح أهل المغرب على علم الكلام، وحتى التصوف بمختلف اتجاهاته.

2 -2 : التصوف

لم تعرف بلاد المغرب الاسلامي التصوف كمنظومة فكرية مذهبية إلا مع أواخر عهد المرابطين خاصة مع مطلع القرن السادس الهجري، هذا ما ذهب إليه عدد من الباحثين، وحتى وإن وجد بعض المتصوفة فإن وجودهم ومذهبهم كان أمراً شخصياً وليس ظاهرة اجتماعية سائدة في بلاد المغرب قبل هذه الفترة [2].

لكن هذا الرأي لا ينفي وجود وانتشار تيار الزهد في المجتمع المغربي، كما كان الحال في باقي البلاد الاسلامية، والزهد هو الاتجاه والمفهوم الحقيقي المعبِر عن نزعة بعض المسلمين في عدم الاقبال على متاع الحياة الدنيا، من مال وجاه وملذات ، وقد يذهب بعض الدارسين الى اعتبار الزهد في حياة المسلمين على أنه ظاهرة تصوف، ويصطلحون عليها بتسمية التصوف السني[3]، ويحاول البعض الخلط بين المفهومين بهدف أن يعطي مصداقية تاريخية لوجود وتجذر التصوف في الثقافة الاسلامية، قد لا تسمح لنا ظروف هذه الدراسة بمناقشة هذا الرأي، لكننا بالعودة الى المفاهيم الفكرية التي عبر عنها الزهاد ومواقفهم السلوكية التي لم تخرج عن إطار العقيدة السلفية لأهل السنة القائمة على الأخذ بظاهرة النصوص والشريعة ورفض التأويل و القول بعلم الباطن ندرك الفارق بين المفهومين.

---

[1]– نفسه، ص 363 .

[2] – مغزاوي، مصطفى، التحولات العقدية، ص 83 .

[3]– بونابي، الطاهر، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الاوسط ، حوليات التراث، العدد 2004/02، ص 11 .

أما التصوف الذي بدأ ينتشر في القرن الخامس والسادس الهجريين، فهو ذلك التيار الذي تأثر بكثير من المفاهيم الشيعية الباطنية التي تمتد جذورها في ثقافات وحضارات سبقت الاسلام كما أشرنا الى ذلك في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

ومن بين هذه المفاهيم تصنيف المعرفة الى ظاهر وباطن، والعلم الى شريعة وحقيقة، والاعتماد على التأويل في تفسير كثير من الآيات والأحاديث وحتى أقوال الصلحاء.

وقد عبّر لنا الغبريني عن هذا المفهوم عند ترجمته لأبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي المتوفي حوالي سنة 580 هـ، بقوله:" الامام أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي كان يسمى أبا حامد الصغير، جمع بين العلم والعمل والورع، وبين علم الظاهر والباطن وله المصنفات الحسنة "[1].

إن عبارة كهذه تدل دلالة واضحة على الأثر الشيعي الباطن في في التوجه الصوفي الذي بدأ ينتشر في بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة مع أواخر عهد المرابطين وبداية عهد الموحدين، الذين ربما وجدوا في هذا التوجه الصوفي سندا رئيسيا لمواجهة الفقهاء،

ومما يؤكد انفصام العلاقة بين المتصوفة وفقهاء المرابطين السلفية ذلك الصراع والعداء بينهما خاصة في القرن الخامس الهجري .

لم يصطدم المرابطون بالزهاد، ولكنهم رفضوا التوجه الصوفي الفلسفي خاصة القادم من الأندلس وكذا العراق، لآن هذا التوجه عبّر عن نزعتين منبوذتين في مجتمع العلمي المرابطي، فأما النزعة الأولى فهي الميل الى الفلسفة ومفاهيمها المعرفية التي تعود جذورها إلى معتقدات وحضارات قبل الاسلام، أما النزعة الثانية فهي النزعة الباطنية الشيعية.

لكن يبدو أن موقف الحماديين في شرق المغرب الاوسط، كان أقل عداءً للتوجه الصوفي من فقهاء المرابطين ذلك أن بجاية عاصمة الحماديين كثيراً ما استقبلت أو أنجبت علماء من المتصوفة، مما يدل على أن الوسط الفكري عند الحماديين كان منفتحا على اتجاهات مختلفة في الثقافة الاسلامية، وأن سلطة الفقهاء كانت لها حدودها بخلاف ما كان عليه الحال عند المرابطين.

[1] – الغبريني، ابو العباس، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق، عادل نوهيض، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت، 1979، ص 33 .

لكن يبدو أن موقف الحماديين في شرق المغرب الاوسط، كان أقل عداءً للتوجه الصوفي من فقهاء المرابطين ذلك أن بجاية عاصمة الحماديين كثيراً ما استقبلت أو أنجبت علماء من المتصوفة، مما يدل على أن الوسط الفكري عند الحماديين كان منفتحا على اتجاهات مختلفة في الثقافة الاسلامية، وأن سلطة الفقهاء كانت لها حدودها بخلاف ما كان عليه الحال عند المرابطين.

ثالثا: دور الاتجاهات المذهبية في تطور التشريع الإسلامي في المغرب الأوسط

أ –المفهوم :

الشريعة في الاسلام ما سنّه الله تعالى لعباده من أحكام وقواعد في مجال العبادات والمعاملات، وبهذا المفهوم فالشريعة هي القانون الأساسي الذي يحكم سير الحياة في المجتمع الاسلامي، ينظم شعائره الدينية وسلوكياته الاجتماعية ويضبط العلاقات بين الأفراد والجماعات وبين الأفراد ومؤسسات الدولة الاسلامية، كما يتعدى التشريع هذا المجال للنظر في العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات المخالفة والدول الأخرى[1].

أما التشريع الاسلامي فيقصد به استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنّة على أساس الاجتهاد، المبني على النص والفهم والقياس، وهذا ما يصطلح عليه في التاريخ الاسلامي بالفقه وبهذا المفهوم يكون المقصود بالتشريع الاسلامي الفقه، الذي يعني بدوره الفهم والمعرفة بالأحكام الشرعية[2].

وللفقه أقسام وموضوعات أساسية حددها الفقهاء(العلماء) وهي قسم العبادات ويتناول الطهارة، الصلاة، الصيام، الزكاة، والحج وغيرها من العبادات، وقسم المعاملات ويشمل الجانب الاجتماعي والاقتصادي وربما حتى بعض القضايا السياسية، ومن بين مباحث هذا القسم الزواج، الطلاق، الحدود،(العقوبات) المواريث، البيع، الأوقاف وغيرها من القضايا ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي[3].

بالعودة الى التاريخ فإننا نجد أن المسلمين ومنذ الصدر الأول للإسلام اختلفوا في فهم النصوص واستنباط الأحكام منها، فكان هذا الاختلاف عاملا أساسيا في ازدهار الحياة الثقافية

---

1 – القطان، مناع، المرجع السابق، ص ص 13 -14 .

2 – الأشقر، عمر سليمان، المرجع السابق، ص ص 18 – 20.

3 – نفســه، ص ص 20 -21.

الاسلامية وتعدد المذاهب الفقهية، أما الوجه الاخر للاختلاف فهو الاختلاف السياسي الذي أدى الى ظهور الأحزاب والفرق الاسلامية، فظهر الخوارج، ثم الشيعة بمختلف فرقهم، أما التيار العام لأغلبية المسلمين فقد عُرف بالجمهور ثم أهل السنة والحديث، منذ الوهلة الأولى حاول كل فريق من هذه الاتجاهات المختلفة أن يفهم النص القرآني والسنّة النبوية بحسب منطلقاته الفكرية، وخلفيته السياسية، وأن يوجه أتباعه وفق ذلك.

أدت هذه الظاهرة الى نشأة اتجاهات ومدارس في التشريع الاسلامي تنطلق في فهم النص من خلفياتها الفكرية السياسية والعقدية، وتتبع منهجاً متميزاً خاصاً بها، فنشأت المدرسة التشريعية الخارجية وعنها انفصلت الاباضية، فكان لها دورها التاريخي والتشريعي الهام في بلاد المغرب الاوسط.

كما نشأت المدرسة التشريعية الشيعية خاصة الاسماعيلية على يد القاضي النعمان المغربي في ظل الدولة الفاطمية، في حين شق فقهاء السنة من الأحناف والمالكية طريقهم لإنشاء مدرسة تشريعية سنية كان لها دورا فعال في التطور التاريخي لشعوب المنطقة، وعلى هذا الأساس فقد أسهمت هذه الاتجاهات الثلاث على اختلافها في تطوير الفكر التشريعي على مستوى العبادات والمعاملات في بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، هذه التجارب التي كثير ما حددت السلوك العام والفردي لأتباعها، وبالتالي ساهمت في صنع الكثير من الأحداث والمواقف والتأثير عليها كما مرّ بنا في الفصول السابقة، وسنحاول في هذا العنصر تناول هذه المسألة في حدود ما تسمح به طبيعة البحث.

ب . دور الاباضية في تطور التشريع الاسلامي ببلاد المغرب الاوسط.

أدت ثورات البربر الصفرية والاباضية منذ مطلع القرن الثاني الهجري إلى تمكينهم من إقامة أول كيانات سياسية إسلامية مستقلة ببلاد المغرب الأوسط، وحتى وإن قضى على إمارة أبي قرة بضواحي تلمسان في المهد في حدود سنة 170 هـ، فإن الاباضية النازحين من المغرب الأدنى تمكنوا من إقامة أول دولة لهم بالمغرب الاوسط في منذ سنة 160هـ بزعامة عبد الرحمن بن رستم.

تولى بن رستم إمارة الدولة الجديد، وأسس هو ورفاقه العاصمة تاهرت التي يبدو أن مسجدها كان هو المؤسسة الأولى في الدولة، تؤدى فيه الصلاة، وينشر فيه العلم، ويجلس فيه الامام للقضاء، والقضاء هو أول المؤسسات التشريعية[1].

لاشك أن التشريع الاسلامي في هذه المرحلة كان لا يزال في مرحلته الاولى خاصة بالنسبة للاباضية، ومما يعكس هذا الواقع تلك الجوابات التي بعث بها أو ردّ بها الإمام عبد الوهاب بن رستم على أسئلة طرحتها نفوسة الجيل على الامام في تاهرت .

ولا زال الاباضية يحتفظون بنسخة منها طبعت تحت عنوان " كتاب مسائل نفوسة " للإمام عبد الوهاب بن رستم (ت 208هـ)، وربما هي أقدم الوثائق الاباضية في هذا الشأن[2].

تناولت هذه الإجابات جانب المعاملات خاصة مفهومي الولاية والبراءة وما يترتب عنهما من مواقف عقدية وسياسية وحتى اجتماعية، وهذه المسألة من أهم المسائل في الفكر الاباضي، وهي مرتبطة بالعقيدة ولها أثر بالغ في صياغة وتوجيه المجتمع الاباضي، وتحديد مواقفه وسلوكيات أفراده، كما تناولت في جزئها الثاني العبادات من طهارة، وصلاة، وزكاة وصيام و غيرها من العبادات.

أمّا قسمها الأخير فيناول الجانب الاجتماعي، كالنكاح والطلاق والعدة ، وفي قسمها السادس تناول الجانب الاقتصادي، كالبيع والشراء وغيره من مسائل المعاملات المختلفة، ولا ندري أهذا الترتيب للمؤلف أم للمحقق، ولكن ما يهمنا هو أن هذه الرسالة على بساطة معارفها، واختصارها تناولت قضايا هامة في التشريع الاسلامي من منظور إباضي، وهي في عمومها لا تخرج عن الإطار العام للفقه الإسلامي إلا في بعض الآراء العقدية والسياسية الخاصة بالاباضية، لذا يبدو أنها كثيرا ما استمدت أحكامها من مسائل الفقه الاسلامي خاصة من فقهاء السنة[3].

---

[1] – بحاز، ابراهيم، القضاء في المغرب الاسلامي، ج2، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر، سنة 2006، ص 430.

[2] – بن رستم، عبد الوهاب، كتاب مسائل نفوسة، تحقيق، طلاي، ابراهيم محمد، المطبعة العربية غرداية، 1991 ، ص 10 – 14 .

[3] – بالعودة الى كثير من الآراء الفقهية الواردة فيها نرى مدى التشابه بين ماجاء في الرسالة وماكان يطرح من قضايا فقهية وآراء عند السنة سواء في المشرق والمغرب.

وبالعودة الى مصادر التشريع عند الاباضية فإننا نجدها تقوم أساسا على القرآن والسنة النبوية والرأي والعرف.

فأما القرآن فهو المصدر التشريعي الأول الذي تستنبط منه الأحكام الشرعية، وهذا الأمر يتطلب اللجوء الى التفسير، والاباضية في هذا الشأن لم يكن لهم مفسرون في صدر الاسلام، وإن كان جابر بن زيد الذي ينتسبون إليه قد أخذ هذا العلم من عبد الله بن عباس وعن مجاهد وقتادة، كما تذكر الرواية الاباضية[1].

في المغرب الأوسط، في ظل الدولة الرستمية، كان المجتمع البربري في حاجة ماسة الى من يقرب إليه معاني القرآن الكريم، مما يساعده على فهم تعاليم الإسلام والالتزام بأوامره ونواهيه، دفع هذا الوضع الفقهاء والعلماء إلى الانصراف الى التفسير والفقه، ويذهب الاعتقاد في هذا الشأن إلى أن التفسير كان يعتمد بالدرجة الأولى على شرح الألفاظ باللغة البربرية، وتقريب معانيها للفهم، وفي هذا الشأن برز عبد الرحمن بن رستم، الذي تذكر الاباضية أنه ترك تفسيراً للقرآن لكنه فُقِدَ وهناك من يعتقد أنه كان تفسيرا شفوياً وليس مكتوباً [2].

أما أهم تفسير وصل إلينا في هذا الشأن فهو تفسير هود بن محكم الهواري بعنوان " تفسير كتاب الله العزيز" وقد أشرنا له في بداية هذه الدراسة في الفصل الأول.

ويعكس هذا التفسير الكثير من الآراء السياسية والعقدية التي تتميز بها الاباضية عن باقي الاتجاهات المذهبية الاسلامية الأخرى[3].

أما المصدر التشريعي الثاني فهو السنة النبوية، والاباضية لا يأخذون بالأحاديث التي يرويها علماء السنة، وإنما يكتفون بما روى عن شيوخهم وفي مقدمتهم جابر بن زيد(ت 96 هـ) الملقب بأبي الشعثاء، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، ثم الربيع بن حبيب الفراهيدي، هذا الأخير الذي ترك مؤلفاً في الحديث يعتبر الثروة الأساسية في مجال الحديث الذي يعتمد عليه الاباضية، رتبه أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني وتوجد من هذا المسند نسخة بعنوان:"الجامع الصحيح(مسند الإمام الربيع بن حبيب) برواية بن عمر الأزدي البصري ، لكن عدد الأحاديث الوارة فيه محدوداً جداً، مقارنة بثروة الحديث المتوفرة لدى السّنة، وهذا ما أدى

---

1 – الوهيبي، مسلم بن سالم، المرجع السابق، ص ص،90 . 91 .

2 – بحاز ابراهيم، الدولة الرستمية، ص 298 وما يليها .

3 – نفســه، ص 303 .

بالفقه عند الاباضية الى ضعف رصيده المعرفي في هذا الشأن، ولم يسمح بظهور علماء في دراسة الحديث عند الاباضية مقارنة باهل السنة، كما أدى هذا الأمر الى ضعف اهتمام الاباضية بدراسة الحديث، ويعكس ذلك رأي أحد المختصين الأكاديميين في دراسة الاباضية، ألا وهو بحاز إبراهيم بكير حيث صرح في إحدى دراساته :" لا تذكر المصادر التي بين أيدينا، عناية الاباضية في المغرب العربي بالحديث وتدوينه، أو رجاله ودرجات الثقة فيهم "[1].

أما الاصل الثالث فهو الرأي، ولاباضية يدخلون في هذا الأصل القياس والاستدلال والاستحسان وحتى الاجماع والمصالح المرسلة، ولكن يجب أن ندرك أن بعض المفاهيم في هذا الشأن تختلف عمّا يذهب إليه السنة وحتى الشيعة خاصة في ما يتعلق بالإجماع والمصالح المرسلة[2]، فهم لا يأخذون إلا بآراء الصحابة الذين يتولونهم، ولم تكن لهم مواقف تاريخية معادية لتيار الخوارج الأول.

أما الأصل الرابع فهو العرف، الذي يمثل عند الاباضية أحد المصادر الأساسية للتشريع والذي لا يمكن الاستغناء عنه حتى في صياغة وضبط الأحكام الفقهية، شريطة ألا يكون العرف مخالفاً للشرع .

إن التوسع في استخدام العرف في التشريع عند الاباضية قد أعطى للحياة الدينية والثقافية عندهم الطابع القبلي البربري، لدرجة أن الدارس قد يجد نفسه في حيرة أمام بعض التنظيمات الاجتماعية والدينية، أهي من أصل المذهب الديني؟ أم من العرف البربري الزناتي؟ ويظهر ذلك جلياً في نظام العزابة[3].

كان للإباضية في الميدان الفقهي التشريعي مساهمات ثرية بدأت تظهر ثمارها منذ إقامة أول مجتمع إباضي في تاهرت بالمغرب الأوسط في منتصف القرن الثاني الهجري، هذه التجربة التي تعززت بانتشار التعليم، ظهور المفسرين والفقهاء، وقد كان عددهم معتبرا في الدولة الرستمية، منهم من ذكرنا منهم من لم نذكر في الفصل الخاص بالإباضية.

---

1 – نفسه، ص 304 .

2 – معمر ، علي يحى، الاباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم المطبعة العربية، غرداية، 1985، ص 60 .

3 – خليفات، عوض، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في افريقية في مرحلة الكتمان، طبعة مجدلاوي، عمان، 1982 ، ص 31 وما يليها.

لم تتوقف التجربة التشريعية عند سقوط الدولة، وإنما تجددت بأكثر فاعلية في صحراء المغرب الأوسط، في ورجلان وقرى وادي أريغ في فترة مابين القرنين الرابع والسادس الهجريين، وأنجبت لنا علماء وفقهاء أثروا الحياة التشريعة كما مرّ بنا.

إن الدور الأساسي الذي يؤديه التشريع في حياة المجتمع يتمثل في وضع القوانين والضوابط الشرعية والتنظيمية للمجتمع، وبالتالي فإن التشريع في هذه الحالة يحدد القواعد الأساسية التي يقوم عليها المجتمع وتحكم قواعد السلوك فيه وبتعبير آخر فإن التشريع هو الذي يحدد الاطار العام الذي تنشأ فيه أي ثقافة وتتطور، كما أن فهم الجانب التشريعي لأي مجتمع أو اتجاه مذهبي يسمح لنا بتفسير الكثير من السلوكيات والمواقف التي تصدر عن هذه الأطراف.

ومن المسائل التشريعية الحساسة والمؤثرة في التوجه التاريخي للاباضية مسألة " الولاية والبراءة " التي سبق الحديث عنها[1].

ج ـ دور الشيعة الإسماعليية في تطور التشريع الإسلامي في المغرب الأوسط.

ترتبط الحياة العلمية للدولة الفاطمية في طورها المغربي بشخصية الفقيه الاسماعيلي القاضي النعمان بن حيون المغربي (ت 363 هـ) الذي يعد المرجعية الرئيسية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب.

خدم النعمان جميع أئمة الدولة حتى رحيلهم، كما كان من المقربين منهم، وإليه أسندت بالدرجة الأولى مهمة التنظير لمستقبل الدعوة والتشريع لها، فخلف لنا تراثا فكرياً معتبر في علم الظاهر كما في علم الباطن، والتشريع والفقه من علم الظاهر[2]، وهذا هو الجانب الذي يهمنا في هذا الباب .

ومن أهم مؤلفت القاضي النعمان في الجانب التشريعي الفقهي كتاب" دعائم الاسلام" وهو في جزئين، كتاب الإيضاح، وكتاب الاخبار في الفقه وغيرها من المؤلفات ذات الطابع التشريعي الفقهي، كما لا تخلوا مؤلفاته الأخرى من الاشارات ذات الطابع التشريعي.

---

[1] – الوهيبي، مسلم بن سالم، المرجع السابق، ص 418 وما يليها .

1– . عارف، ثامر، تاريخ الاسماعلية من المغرب الى المشرق، ج2، ص ص 191–192.

ساهم هذا النوع من المؤلفات بفاعلية في توجيه المجتمع ووضع القواعد والقوانين التي تضبط السلوك الاجتماعي والفردي وتوجهه لخدمة الدعوة، ومنها الكتب ذات الطابع التربوي والعقدي مثل كتاب " الهمة في آداب اتباع الأئمة " وكتاب المجالس والمسايرات "[1].

وعن النعمان قال عارف تامر وهو من المرجعيات الفكرية الاسماعلية المعاصرة: " هو أشهر فقهاء عصره (النعمان) وأكثرهم إنتاجا وأغزرهم مادة وأخصبهم قريحة "[2].

وسنكتفي في هذا الشأن بمؤلفين أساسين للنعمان، يبدو أن ما فيهما من مادة علمية تفي بالغرض الذي نأمل في تحقيقه، وهو إبراز مساهمة مفكري الاتجاه الشيعي في تطور الفكر التشريعي، ألا وهما كتاب " دعائم الاسلام" [3]، وكتاب " المجالس والمسايرات"[4].

بالعودة الى كتاب دعائم الاسلام فإننا نجد أن النعمان صنف كتابه هذا في جزئين، فأما الجزء الاول فيتناول العبادات، وهو مقسم بدوره الى سبعة أبواب وللرقم سبعة دلالته عند الشيعة الاسماعلية، كما أشرنا الى ذلك في الفصل الخاص بالتشريع .

أما الجزء الثاني من كتاب الدعائم فيتناول المعاملات، والكتاب بجزئيه ثري من الناحية الفقهية التشريعية، لكنه متميز في طرحه ومفاهيمه، إذا ما قُرن بمؤلفات الاباضية والسنة سواء من أهل المغرب أو أهل المشرق، وهذا التميز مرده الى التباين في الخلفية السياسية والعقدية وحتى المنهج الذي يستند إليه كل مجتهد أو فقيه، إن الاختلاف في الأسس الفكرية والمنهجية سيترتب عنه اختلاف في الاجتهاد الفقهي التشريعي، وسينعكس بشكل مباشر على الحياة التنظيمية اليومية للمجتمع وعن هذا الكتاب قال المحقق:" وكتاب الدعائم للقاضي النعمان ... أقدم مصدر لدراسة القانون عند الفاطميين"[5].

ويتناول كتاب الدعائم في قسم العبادات مسألة الولاية أو الإمامة ويربطها بالإيمان، وهذه المسألة عقدية في أساسها وذات أبعاد سياسية، كما مرّ بنا في الفصل الخاص بالتشريع الاسماعيلي، لكن إدارجها في بداية هذا الكتاب يدل على أن مسألة التشريع عند الباطنية و

---

2 – بدوي، عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ص 947 – 950 .

[2] – تاريخ الاسماعلية، ص 192 .

[3] – حقق الجزء الأول منه آصف بن علي أصغر فيضي .

[4] – حققه الحبيب الفقي وإبراهيم شيوخ ومحمد اليعلاوي، وهو كتاب غني بالإشارات ذات الطابع الثقافي والاجتماعي وحتى الاقتصادي .

[5] – آصف، بن علي أصغر فيضي، مقدمة، دعائم الاسلام للقاضي النعمان، ص9 .

الشيعة بصفة عامة هي مسألة أساسية وترتبط بحق آل البيت في حكم المسلمين، ولتأكيد ذلك أعطوا لهذه المسألة صبغة الأمر الإلهي، وبالتالي أصبحت في مستوى الشريعة، وفي هذه الحالة يصبح دور الفقهاء والمشرعين يتمثل في فهم هذا الأمر الإلهي، ووضع القواعد والأسس الفقهية التشريعية التي تساعد الأتباع على أداء هذا الواجب الديني.

كما تدل هذه الاشكالية القائمة على أساس الربط بين الايمان بالله والإيمان بحق آل البيت في الحكم، على ذلك الارتباط بين الدين والتشريع (الفقه) والسياسة عند الاسماعليين.

أما باقي الدعائم الستة فتتناول الجانب الفقهي التشريعي للعبادات وهي: الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الجهاد.

والنعمان في تناوله لفقه العبادات من الناحية الشكلية لا يختلف كثيراً عن فقهاء السنة، إلا في ربطه للإيمان بولاية آل البيت وتلك المفاهيم التي وظفها للتشريع لهذا الحق، كما يختلف النعمان عن فقهاء السنّة وحتى الاباضية في حجم الأخذ بالسيرة النبوية وأسانيدها و رواتها، ذلك أنه لا يأخذ الحديث إلا برواية منسوبة الى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أو الى الامام جعفر الصادق (80 – 148هـ) الذي ينتسبون إليه والى مذهبه[1].

كما أن المنهج الفقهي عند الإسماعلية من خلال هذا المؤلف يرفض الأخذ بالرأي والقياس وحتى الاجماع على خلاف ما وجدناه عند السنة وبدرجة أقل عند الاباضية .

وفي هذا الصدد يذكر النعمان، قول جعفر بن محمد: "نهي رسول الله (صلع) عن الحكم بالرأي والقياس وقال (الرسول) أن أول من قاس إبليس، ومن حَكَمَ في شيء من دين الله (ع.ج) برأيه خرج من دينه"[2].

ثم يذكر النعمان قول جعفر بن محمد : " لايجوز لأحد أن يقول في دين الله برأيه، أو يأخذ فيه بقياسه، ويح أصحاب الكلام"[3].

---

[1] – بإمكان الباحث أن يرجع الى أي مؤلف للقاضي النعمان وسيقف على هذه الظاهرة عند رواية أي حديث نبوي .

[2] – القاضي النعمان، دعائم الاسلام، ج2، تحقيق، آصف بن علي ، طبعة، دار الأضواء، لبنان، 1991 ص 335 .

[3] – نفسه، ص 536 .

لاشك أن المنهج التشريعي عند الشيعة الاسماعلية يضييق من دائرة الأخذ بالسنة النبوية، وربما هذا ما جرّهم الى التأويل والتوسع فيه، كمخرج منهجي لمواجهة مشاكل التشريع سواء في العبادات أو المعاملات، وهذه المشكلة التشريعية وجدناها عند الاباضية.

وبالعودة الى الجزء الثاني من كتاب دعائم الاسلام، الذي يتناول جانب المعاملات، والذي رتبه النعمان في حوالي ست وعشرون كتاباً أو فصلاً، فإن هذا الجزء غني بالأحكام الفقهية ذات الطابع التشريعي التي تمس قضايا اقتصادية واجتماعية هامة، وتُمثل إضافات فكرية في الحقل التشريعي الإسلامي، ذلك أن مشكلة التشيع بالدرجة الأولى هي مشكلة سياسية.

أما إذا تعلق الأمر بالحياة الاقتصادية والاجتماعية فإن مساهماتهم الفكرية تكون الى حد ما مقبولة من كثير من المسلمين، وعنصراً فعّالا في اثراء وتطويرا الثقافة الإسلامية خاصة في بلاد المغرب في القرن الرابع الهجري.

ويختم النعمان مؤلفه دعائم الاسلام في جزئه الخاص بالمعاملات بالحديث عن " آداب القضاء"، وفيه الكثير من الأحكام والتوجيهات التي تساعد على تنظيم مهنة القضاء بهدف تحقيق الكفاءة والعدالة، هذه التوجيهات التي صدرت عن الامام برواية من القاضي النعمان، أو وجدت منسوبة مباشرة الى الرسول ﷺ تمثل الاطار التشريعي لتنظيم مهنة القضاء، وبالتالي تطبيق القانون في المجتمع[1].

أما إذا انتقلنا الى كتاب "المجالس والمسايرات " فإننا نجده عبارة عن موسوعة تتناول قضايا متعددة في المجال الدعوي، وهذا هو الهدف الأساسي من المجالس، كما تتناول قضايا في المجال التشريعي، كما أن هذا المؤلف غني بالمعلومات ذات الطابع التاريخي، الاقتصادي والاجتماعي،خاصة فيما يتعلق بظروف وأحداث بلاد المغرب الإسلامي بما فيها قضايا وأحداث دارت في بلاد المغرب الأوسط كثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ودور كتامة في الدولة الفاطمية و الصراع الفاطمي الزناتي[2].

والكتاب غني بتوجيهات المعز لدين الله الفاطمي آخر الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب وأولهم في المشرق (341 . 365 هـ)، هذه التوجيهات التي تحمل الطابع التشريعي الإلزامي وتعكس في نفس الوقت نمط التفكير الديني عند الشيعة الإسماعلية.

---

1 – القاضي النعمان، دعائم الاسلام، ج2، ص 527 وما يليها .

2 – النعمان، المجالس والمسايرات ص ص 73، 97 ، 551، 555 .

وخلاصة القول أن انتشار التشيع وقيام الدولة الفاطمية وتوسعها في بلاد المغرب الاسلامي وتعدد أدواتها ووسائل التشريعية قد ساهم في اثراء الحياة الثقافية في جانب مهم من حياة الأمم ألا وهو الجانب التنظيمي للدول والمجتمعات.

د- دور السنة في تطور التشريع.

مرّ بنا في بداية الفصل الثالث من هذه الدراسة، أن من المميزات الأساسية للاتجاه السني ارتباطه منذ النشأة بالجانب الفقهي التشريعي، وأن بحث باب العقائد والسياسة إنما فرضته التطورات التاريخية والاجتماعية والفكرية التي نشأت في المجتمع الاسلامي، وأملت على الفقهاء من أهل السنة تحديد مواقفهم من القضايا المطروحة ولو مكرهين .

وبالتالي فإن الأساس في نشأة هذه الاتجاه هو أساس فقهي تشريعي بالدرجة الأولى، هذه النشأة أعطت البحوث التشريعية زخماً معتبراً عند أهل السنة، وتوجت في القرن الثاني الهجري بظهور المذاهب الفقهية السنية المتعددة [1].

وبتعدد العلماء والمذاهب السنية توسعت دائرة البحث العلمي الفقهي التشريعي من منظور سني، فظهرت المؤلفات الفقهية في مختلف الأقطار الإسلامية بما فيها بلاد المغرب الإسلامي وتعدد المدارس الفقهية السنية، وقد تناولنا هذا الجانب بإسهاب في الفصل الثالث، لذا سنكتفي في هذا العنصر الأخير بالإشارة الى مميزات المدرسة التشريعية السنية مقارنة بمن خالفها من الاباضية والشيعية.

إن أبرز ما يميز الإتجاه السني في هذا الشأن هو حجم أخذه بالسنة النبوية مقارنة بالاباضية والشيعة الباطنية، ذلك أن أهل السنة يأخذون بكل رواية صحت عن الرسول . صلى الله عليه وسلم . ومن أي صحابي توفرت فيه شروط أخذ العلم عنه، وهذا خلاف الاباضية أو الشيعة الذين لا يأخذون إلا عن أئمتهم المنتسبين الى مذهبهم، أو عن علي بن أبي طالب كما هو الحال عند الشيعة .

كما أن المنهج الفقهي عند السنة يتميز بتعدد الأصول والقواعد التي ساعدت على توسع دائرة البحث الفقهي التشريع، فإلى جانب الكتاب والسنّة يأخذ هذا الاتجاه بالإجماع والقياس والمصالح المرسلة والاستحسان والعرف، وحتى وإن وجدت بعض الاختلافات بين فقهاء السنّة فإنها محدودة .

---

[1] – الأشقر، عمر سليمان، المرجع السابق،ص ص 92 . 93 .

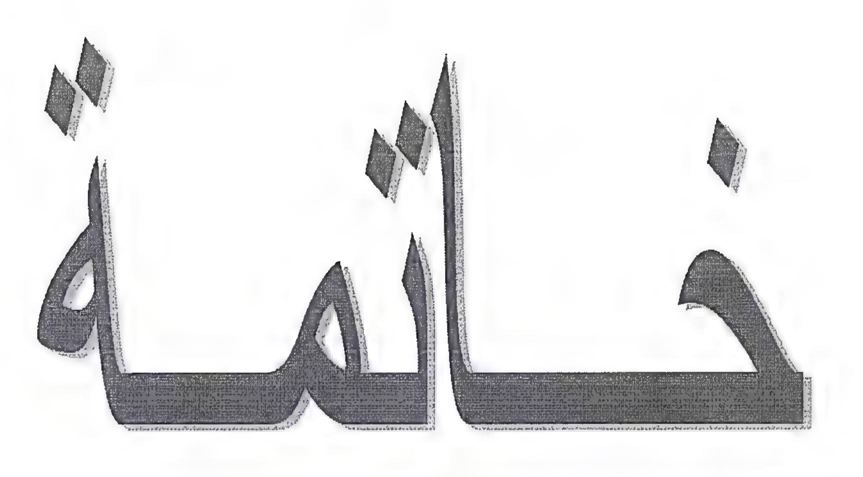
سمح المنهج الذي سار عليه علماء السنة بتوسع دائرة البحث والأخذ بالسنة مما أثرى الفقه السني وجعله في غنى عن مذهب التأويل الذي مال إليه الشيعة والمعتزلة، والاباضية، كما تعدد المدارس الفقهية السنّية بتعدد الأقطار والمراكز الثقافية الاسلامية وظهر الفقهاء والمحدثون، وتوسعت دائرة التشريع الاسلامي من منظور سني، فأصبحت القيروان وقرطبة وفاس أهم المراكز العلمية في بلاد الغرب الاسلامي.

لم يكن المغرب الاوسط بعيداً عن حركة التشريع الإسلامي حيث ظهر فيه عدد معتبر من الفقهاء والمحدثين من المالكية والحنفية أشرنا الى بعضهم في مراحل مختلفة من هذا البحث ولعل الكتاب الأكثر أهمية وتميزاً في مجال التشريع بالمغرب الأوسط هو" كتاب الأموال" للشيخ الداودي، أحمد بن نصر(ت 402) الذي حققه شحادة رضا محمد سالم، وقد ذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه المؤلف الوحيد في الغرب الاسلامي الذي تناول مسألة فقهية تشريعية ذات طابع اقتصادي مالي في الأربعة قرون الأولى من الإسلام كما تناول قضايا اقتصادية مختلفة[1].

كما عرف المغرب الاوسط في فترة الدراسة انتاج عدة مؤلفات ذات طابع فقهي أشرنا الى بعضها وهي لا تخرج عن إطار التشريع الاسلامي لسنة .

وفي الختام فإن الحركة المذهبية بمختلف اتجاهاتها ساهمت بقسط وافر في تنمية وتطوير الحياة الثقافية، سواء على مستوى الفكر السياسي، أو العقدي وحتى الجانب التشريعي الفقهي، بما أنتجته من أفكار ومؤلفات، وما أنجبته من علماء وفقهاء، وما أسسته من مراكز علمية خاصة في المغرب الأوسط وبالتالي فقد أسهمت بشكل فعّال في نشأة وتطور مناخ ثقافي إسلامي بالمغرب الأوسط .

[1] – شحادة رضا، محمد سالم، مقدمة التحقيق، ص 7 .


خاتمة

خـــــاتمـة

من خلال دراستنا لموضوع الاتجاهات المذهبية ودورها في التطور الثقافي في بلاد المغرب الأوسط من القرن الثالث الى القرن السادس الهجري توصلنا الى جملة من النتائج أبرزها :

_ أن بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة والمغرب الاوسط بصفة خاصة لم تكن ولودا لهذه الاتجاهات المذهبية التي تعود جذورها التاريخية والفكرية إلى صدر الإسلام بالمشرق.

_ وجدت الحركة المذهبية بمختلف اتجاهات طريقها الى بلاد المغرب الاوسط منذ مطلع القرن الثاني الهجري، وفي هذا الصدد كانت الحركات الخارجية خاصة الصفرية والإباضية هي السباقة لنشر مفاهيمها السياسية، ومحاولة تغيير الواقع السياسي من خلال الثورات، ثم محاولة بناءا لدولة المستقلة عن الخلافة الاموية ثم العباسية.

أمّا فيما يتعلق بالاتجاه الاباضي فإن هذا التيار تمكن من بناء أول وأهم تجربة سياسية له ببلاد المغرب الاوسط من خلال إقامة الدولة الرستمية وبناء مجتمع إسلامي وفق مفاهيم الحركة في تاهرت، رغم ما حققته هذه التجربة من نتائج إيجابية إلا أنها فشلت في أن تضمن الاستمرارية للدول، لكنها استطاعت أن تضمن استمرار المذ هب ولو في مجال جغرافي محدود يشمل ورجلان ووادي أريغ ثم وادي ميزاب بصحراء المغرب الاوسط.

_ تمكنت الحركة الاباضية في المغرب الاوسط من أن تحافظ على جانب مهم من الرصيد الفكري والثقافي للاباضية، الذي يعتبر مادة علمية خام في حاجة الى المزيد من الدراسة المنهجية والموضوعية كرصيد ثقافي بالنسبة للمنطقة وجزء هام من تاريخنا الثقافي .

أما في ما يتعلق بحركة التشيع لآل البيت في بلاد المغرب الأوسط فإن هذا الاتجاه وجد طريقة الى أهل المغرب بصفة عامة، والمغرب الاوسط بصفة خاصة كنتيجة لذلك المصير التاريخي المأساوي للعلويين في المشرق منذ مقتل الامام علي _ كرم الله وجهه _ مما جعل كثيرا من المسلمين يتعاطفون مع قضية العلويين ويناصرونهم أينما حلوا وارتحلوا، سمح هذه المشاعر لإدريس الأول لأن يؤسس إمارة علوية ببلاد المغرب، كان لها بالغ الأثر في التطور الثقافي بالمغرب الأقصى والأوسط.

توسع العلويون نحو المغرب الأوسط، وبه أسسوا الإمارات في القرن الثالث الهجري، وساهمو بفاعلية في تطوير الحياة الثقافية،من خلال نشر اللغة العربية، وترسيخ تعاليم الإسلام في نفوس السكان، إقامة الحواضر الإسلامية.

استغلت الحركات الشعبية الباطنية المتطرفة المكاسب التي حققها العلويون في بلاد المغرب وتمكنت من بناء الدولة الفاطمية الشيعية الاسماعلية، لكن تطرف سياستها المذهبية وطروحاتها الفكرية أدى الى انهيار تجربة العلويين ببلاد المغرب، هذه التجربة التي تركت آثاراً عميقة في الثقافة المغربية، وأدخلت إليها عناصر فكرية جديدة، كتلك النظريات الدينية والفلسفية التي جاء بها الشيعة الاسماعلية، لكنها في نفس الوقت أسهمت في إثراء وانفتاح ثقافة أهل المغرب على علوم ومعارف كانت منبوذة أو مجهولة بالنسبة لهم، كما ورفعت حدة التنافس الفكري بين المذاهب.

لكن تطرف التجربة الفاطمية من الناحية السياسية والمذهبية دفع الى تأزم المشهد الثقافي السياسي وحتى الاجتماعي ببلاد المغرب، وأدى إلى تصاعد حدَّة الصراع المذهبي بين الطوائف المختلفة، كما تراجع مؤشر التسامح والروح العلمية الموضوعية بشكل حادٍ.

أما الاتجاه السني الذي يمثل خط رجال الفتح الاسلامي الاول من الصحابة والتابعيين، فلم يكن ميالا للصراع السياسي والجدل العقائدي بل ركز جهوده في القرون الاولى للإسلام على الجانب العلمي التشريعي، فاهتم رجاله بعلوم القرآن والحديث والفقه، فأثرت تجربته الحياة الفكرية بشكل كبير لدرجة أنها صاغت المشهد الثقافي والاجتماعي برؤية سنية، تأكدت هذه الحقيقة بعد ظهور المذاهب الفقهية الكبرى ووصولها إلى بلاد المغرب، هذا التوسع الفكري والاجتماعي هو الذي منحها القدرة على مواجهة النزاعات الخارجية، والصمود أمام موجة التشيع الإسماعيلى، كما ضمن هذا الإطار الثقافي والاجتماعي سيادة واستمرار المذهب المالكي حتى غدا عنصراً جوهريا في ثقافة أهل المغرب بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة، ولم يكن ارتباطه بالسياسة إلا في ظروف استثنائية.

وبالجملة فإن الحركة المذهبية في الثقافة الاسلامية، هي في جانب مهم منها نتاج أزمة سياسية في مسار تطور الدولة الإسلامية تمخض عنها ظهور حركة الخوارج، ثم حركة التشيع لآل البيت بمختلف فرقها، هذه الحركة المذهبية التي نقلت نشاطها السياسي بقوة الى بلاد

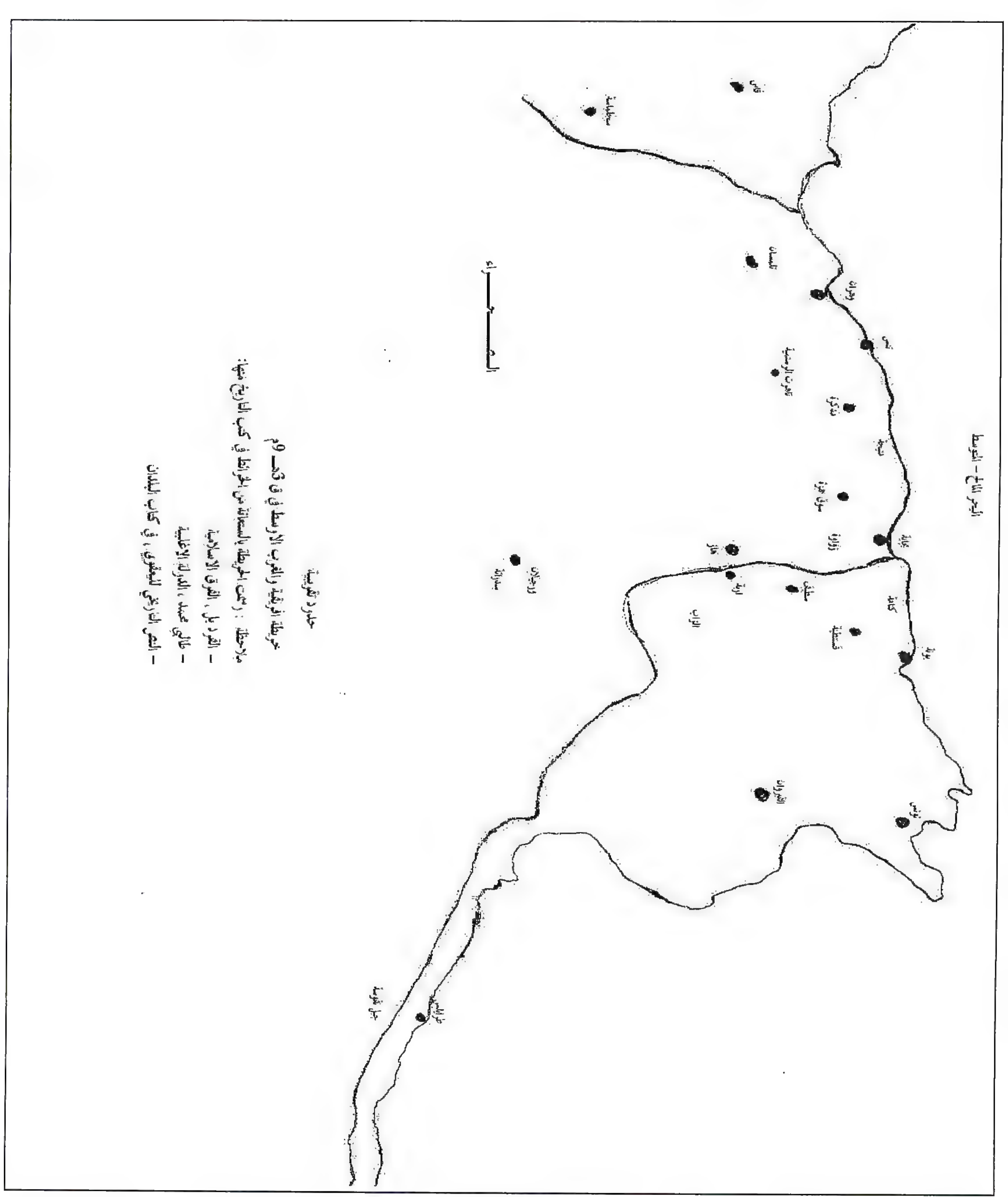
المغرب الاسلامي منذ مطلع القرن الثاني الهجري، وأسهمت بقوة في صياغة المشهد الثقافي للمنقطة، كما أنها جرّت التوجه السني الى ساحة النزاع السياسي والمذهبي مما ادى الى تصعيد حِّدة الصراع المذهبي خاصة في فترة القرن الثالث وحتى أواسط القرن الخامس الهجريين.

كما أدى الصراع المذهبي إلى نشأة ظاهرة محن الطوائف المذهبية، التي دارت رحاها على جميع الاتجاهات السياسية والعقدية ودلّت على عمق الأزمة الفكرية والاجتماعية التي نتجت عن هذا المناخ الثقافي المتأزم والذي لا زالت تطل علينا من خلاله الفتن من حين الى آخر.

والله ولي التوفيق

ملاحق

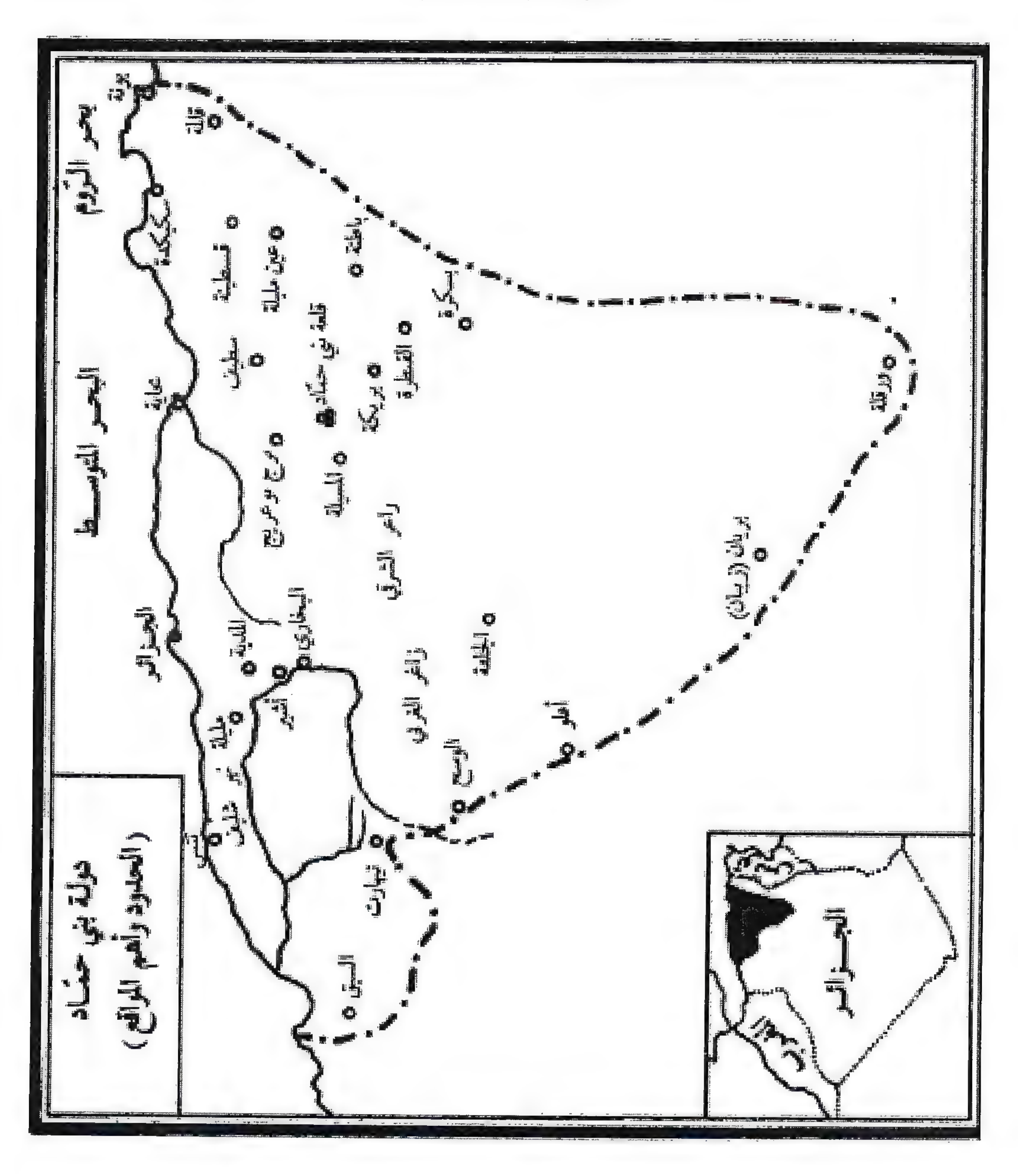
ملحق رقم:01



حدود تقريبية للدولة الرستمية

ملحق رقم: 02

حدود الدولة الحمّادية[1]



---

[1] – عويس، عبد الحليم، الدولة الحمّادية، ص 99.

ملحق رقم: 03

كتاب عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان (بتصرف) [1]

بسم الله الرّحمن الرّحيم، من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان، أمّا بعد: سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو، وأوصيك بتقوى الله، فإنّ العاقبة للتقوى والمراد إلى الله واعلم أنّه إنّما يتقبل الله من المتّقين.

وقد جاءني كتابك مع سنان بن عاصم، وإنّك كتبت إليّ أن أكتب إليك بكتاب فكتبته إليك، فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر، ولكن الّذي تنكره ليس عند الله بمنكر.

لقد كان عثمان كما ذكرت من قدمه في الإسلام، ولكنّ الله لم يجز العباد من الفتنة،وذلك أنّ الله بعث محمداً ﷺ، وأنزل عليه الكتاب وبين فيه كلّ أمر، وفصّل فيه كلّ حكم، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه،...

ثمّ قام من بعده أبو بكر على الناس، فأخذ كتاب الله وعمل بسنة نبيه، فلم يفارقه أحد من المسلمين ولم يعيبوا عليه في حكم حكمه، ولا قسم قسمه، حتّى فارق الدنيا وأهل الإسلام عنه راضون وله جامعون.

ثمّ قام من بعده عمر فكان قوياً على الأمر، شديداً على أهل النفاق، يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين ويعمل بكتاب الله،...

وممّا نقمنا عليه وفارقناه (**عثمان**) أنّ الله عزّ جلّ قال: ﴿**ولا تطرد الّذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾سورة الحشر:7

فكان خيار هذه الأمة قد طردهم ونفاهم، فكان من نفى من أهل المدينة أبا ذر الغفاري ومسلم الجهني ونافع بن الحطام، ونفى من أهل الكوفة كعبا وجندب بن زهير قاتل الساحر،...

---

[1] _ صالح ناصر، محمد، منهج الدعوة عند الاباضية، مكتبة الاستقامة، مسقط سلطنة عمان،2002، (بتصرف)، ص ص324 – 333.

ومما نقمنا عليه أنّه أمّر أخاه الوليد بن عقبة على الناس، فكان يلعب بالسحر ويصلي بالناس سكران، فسق في دين الله، وإنّما أمّره من أجل قرابته.

ومما نقمنا عليه جعل المال دولة بين الأغنياء، وقد قال الله عزّ وجلّ:﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء**﴾ سورة النساء:59. فبدل فيه كلام الله واتبع هواه.

وكان من عمل عثمان أنّه يحكم بغير ما أنزل الله، وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه...

وعلم المسلمون أنّ طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس،... فلمّا ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله،...

واعلم أنّ علامة كفر هذه الأمّة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله،...

ولا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيري، لأنّي قد أدركته ورأيت عمله وسيرته، ولا أعلم من الناس أحداً أترك للقسمة الّتي قسمها الله ولا لحكم حكمه الله ولا أسفك لدم حرّمه الله منه، فلو لم يصب من البلاء إلّا دم ابن سمية لكان فيه ما يكفروه، ثمّ استخلف ابنه يزيد، فاسقا لعيناً كافراً شارباً للخمر.

فاتّق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك في معاوية، فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيراً فيما يصنعون، فمن يتولّ عثمان ومن معه فإنّي أشهد الله وملائكته أنّي منهم بريء، أعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا ونحاسب بذلك عند الله.

الملحق رقم:4

ذكر ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده الطاهرين[1]

" قال الله عز وجل : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (سورة المائدة،الآية 55)، وروينا عن أبي جعفر محمد بن علي صلوات الله عليه أن رجلا قال له يابن رسول الله، إن الحسن البصري حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله أرسلني برسالة فضاق بها صدري وخشيت أن يكذبني الناس، فتوعدني إن لم أبلغها أن يعذبني، قال له أبو جعفر: فهل حدثكم بالرسالة، قال: لا، قال: أما والله إنه ليعلم ماهي ولكنه كتمها متعمداً، قال الرجل، يابن رسول الله، جعلني الله فداك، وماهي، فقال: إن الله تبارك وتعالى أمر المؤمنين بالصلاة في كتابه فلم يدروا ما الصلاة ولا كيف يصلون، فأمر الله عز وجل محمدا نبيه (صلع) أن يبين لهم كيف يصلون فأخبرهم بكل ما افترض الله عليهم من الصلاة مفسرا وفرض الصلاة في القرآن جملة ففسرها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله في سنته، وأعلمهم بالذي أمرهم به من الصلاة التي فرض الله عليهم ... .

... ففرض الله ولاية ولاة الامر فلم يدروا ما هي فأمر الله نبيه عليه السلام أن يفسِّر لهم ما الولاية مثل ما فسَّر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، فلما أتاه ذلك من الله عز وجل ضاق به رسول الله (صلع) ذرعا وتخوف أن يرتدوا عن دينه وأن يكذبوه، فضاق صدره وراجع ربه فأوحى إليه: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (سورة المائدة،الآية 67).

فصدع بأمر الله وقام بولاية أمير المؤمنين على ابن أبي طالب صلوات الله عليه يوم غدير خم ونادى لذلك: الصلاة جامعة وأمر أن يبلغ الشاهد الغائب وكانت الفرائض ينزل منها شيء بعد شيء، تنزل الفريضة ثم تنزل الفريضة الأخرى وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (سورة المائدة،الآية 3).

---

[1] – القاضي النعمان المغربي، دعائم الإسلام الجزء الأول، تحقيق، آصف بن علي أصغر فيضي، طبعة، دار المعارف، القاهرة، سنة 1963، ص ص14-16(بتصرف).

قال أبو جعفر : يقول الله عز وجل : لا أنزل عليكم بعد هذه الفريضة فريضة قد أكملت لكم هذه الفرائض، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : أوصى من آمن بالله وبي وصدقني بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فإن ولاءه ولائي، أمر أمرني به ربي وعهد عهده إلي وأمرني أن أبلغكموه عنه.

... وقد روى كثير من العامة عن أسلافهم في تأويل قول الله عز وجل :{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (سورة المائدة،الآية 55)، أنها أنزلت في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وذلك أن سائلا وقف به وهو راكع فرمى إليه بخاتمه، والآية فيه، وفي الأئمة من ولده صلوات الله عليه وعليهم أجمعين. وأمر غدير خم ومقام رسول الله (صلع) فيه بولاية علي بن أبي طالب صلوات الله عليه معروف ومشهور، لا يدفعه ولي ولا عدو وأنه صلى الله عليه وعلى آله لما صدر عن حجة الوداع وصار بغدير خم أمر بدوحات فقممن له ونادى ب(الصلاة جامعة) فاجتمع الناس وأخذ بيد علي فأقامه إلى جانبه وقال: أيها الناس، اعلموا أن عليا مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، وهو وليكم بعدي، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه، فقال اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. فأي بيعة تكون آكد من هذه البيعة والولاية ؟."

الملحق رقم:05

تعظيم الأئمة[1]

« تعظيم الأئمة صلوات الله عليهم من تعظيم الله عز وجل، إنه إن ما يراد من تعظيم طاعته، ويبتغي مرضاته لا شريك له، وقد رأينا أوصياءهم وولاة عهودهم يقبلون الأرض في سلامهم عليهم بين أيديهم إجلالا لهم وعلما بقدرهم ومعرفة بما أوجب الله لهم، فأتباعهم أحق من اقتدى في ذلك بهم ويتقرب الى الله بتعظيم أوليائه غير مستنكفين ولا مستكبرين عنه، والرعاع وأوباش الناس والعوام ينكرون ذلك ويرونه سجودا من دون الله لهم تعالى، عن قولهم ونزه أولياءه عن افترائهم عليهم، وللسجود حقيقة هي غير تقبيل الأرض عند كل من نظرهم شيء من العلم من مؤالف أو مخالف، لا يرون من قبل الأرض في صلواته ساجدا حتى يأتي بحقيقة السجود على جبهته وأنفه ويتويه نية سجوده على أنه لو سجد ساجد لولي من أولياء الله إعظاما لله لم يكن ذلك بمنكر ... فينبغي لمن واجه الإمام عليه السلام أن يبدأ بالسلام عليه، ثم يقبل الأرض بين يديه، ويعتقد ذلك تعظيما له وتقربا الى الله عز وجل و به ويقول في السلام عليه قبل انحطاطه لتقبيل الأرض :

((السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته)) ويكون ذلك بحيث يراه الإمام وإن كان المسلم بحيث يسمع رد الإمام عليه السلام لم ينحط الى الأرض لتقبيلها إلا بعد فراغ رد الإمام عليه عليه السلام، ثم إذا قبل الأرض قام فإن حضر لأمر يريد الكلام فيه مما يجب وينبغي لمثله أن يتكلم به، وكان ممن ينبغي لمثله الكلام بين يدي الأئمة تكلم إلا استأذن في الكلام، فإن أذن له الإمام تكلم، وإن لم يأذن له انصرف ».

---

[1] – النعمان، القاضي، كتاب الهة في آداب اتباع الأئمة ، تحقيق مصطفى غالب، طبعة،منشورات دار مكتبة الهلال، 1985،ص ص 148- 149 .

الملحق رقم :06

رسالة من الليث بن سعد الى مالك بن أنس[1]

« سلام عليكم فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو، أما بعد. عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والأخرة قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك الى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا إلا أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتب به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أعدّ أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذِّ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيها أتقوا عليه منِّي والحمد لله رب العالمين لا شريك له، وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعا لهم فيه فكما ذكرت، وأما ما ذكرت من قول الله تعالى: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) } (سورة التوبة 100) فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا الى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه.

---

[1] - إبن القيم، الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، المجلد الثاني، ج3،طبعة، دار الإمام مالك، الجزائر،2014 ، ص ص68-69.

وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون لله كتاب الله وسنة نبيه ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، ويقوّمَهُمْ عليه أبو بكر وعمر وعثمان والذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون لأجنادهم في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبيُّ ﷺ أو ائتمروا فيه بعده إلا أعلموهموه، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يُجَوزُ لأجناد المسلمين أن يحْدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم».

قائمة المصادر و المراجع

قــائمــة المصـادر المــراجــع

أولا: المصادر.

القرآن الكريم، المصحف الشريف، برواية ورش عن نافع.

- ابن أبي الزرع، الفاسي(ق8هـ)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، طبعة، الرباط 1972.
- ابن الأثير، أبي الحسن علي(630هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق، الدقاق محمد يوسف، طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- ابن الخطيب، لسان الدين(776)، **كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق، ليفي بروفنسال،طبعة،دار المكشوف،1956.
- ابن الصغير(ق3هـ)، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق محمد ناصر، إبراهيم بحاز،ط، دار العرب الإسلامي، لبنان،1986.
- ابن الفرضي، أبي الوليد عبد الله (403هـ)، **تاريخ علماء الأندلس، ج1**، تحقيق، صلاح الدين، الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط2006.
- ابن القطان، حسن بن علي(، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق، علي مكي محمود، ط، دار الغرب الإسلامي، سنة 1990.
- ابن القيم الجوزية(ت751هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، المجلد الأول، ج1، تحقيق، الألباني محمد ناصر الدين، طبعة، دار الإمام مالك، سنة2014
- ابن بشكوال(ت578هـ)، **الصلة،ج2**، بتحقيق، إبراهيم الأبياري، طبعة، دار الكتاب(القاهرة، بيروت)، السنة، 1989.
- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي(450هـ)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة دار المعارف، مصر 1962.
- ابن حماد، أبي عبد الله محمد بن علي(ت628هـ)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق، التهامي النقرة، عويس عبد الحليم، ط، دار الصحوة، القاهرة، د ت.
- ابن حوقل،(ت368هـ) **كتاب صورة الأرض**، طبعة مكتبة الحياة، بيروت، 1992.

❖ ابن حيان، بن خلف بن حسين(469هـ)، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، عبد الرحمن الحجي، بيروت، 1956.

❖ ابن خلدون، عبد الرحمن808هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(العبر)**، طبعة، دار الفكر، بيروت، تحقيق، خليل، شحادة، السنة2010.

❖ ابن رستم، عبد الوهاب(208هـ)، **كتاب مسائل نفوسة**، تحقيق، ابراهيم، محمد طلاي، المطبعة العربية، غرداية،1991.

❖ ابن عبد البر، يوسف الأندلسي(ت463هـ)، **الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء، مالك بن أنس، الشافعي،أبي حنيفة**، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، الناشر، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، السنة 1997.

❖ ابن عذارى، المراكشي(ق7هـ) **البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، تحقيق، ج،س، كولان وليفي بروفنسال، ط3، 1983، دار الثقافة، بيروت.

❖ أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم(333هـ)، **طبقات علماء إفريقية**، دت، دون سنة طبع.

❖ أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق)(ت555هـ) **كتاب أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق، حاجيات عبد الحميد، طبعة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1974

❖ أبو زكريا، يحي بن أبي بكر الورجلاني(470هـ)، **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق، إسماعيل العربي، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1984.

❖ الإدريسي، أبو عبد الله محمد(ت564هـ)، **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في افتراق الآفاق**، تحقيق، محمد صادق، طبعة الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر،1983.

❖ البرادي، أبو القاسم بن إبراهيم(ق8هـ)، **الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني**، طبعة حجرية، القاهرة 1880.

❖ البغدادي، عبد القادر، بن طاهر بن محمد (ت429هـ) **الفرق بين الفرق**، تحقيق، رمضان، إبراهيم، طبعة، دار المعرفة، بيروت2008.

❖ البكري، أبو عبد الله(487هـ)، **المغرب في ذكر افريقية والمغرب**، جزء مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، العراق، طبعة جديدة، د، ت.

❖ بن حيان بن خلف بن حسين(469هـ)،**المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق، عبد الرحمن الحجي، بيروت، 1956.
❖ الحميدي، محمد بن أبي نصر(ت488هـ)، **جذوة المقتبس، في ذكر ولاة الأندلس**، تحقيق، الهواري ، صلاح الدين، ط، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.
❖ الخشني(363هـ)، **طبقات علماء إفريقية**، تحقيق، محمد عزّت، زينهم، ط، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة،1993.
❖ الدّاعي إدريس عماد الدين(ت872هـ)،**تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**،قسم خاص من عيون الأخبار، تحقيق، محمد اليعلاوي، طبعة دار الغرب الإسلامي، لبنان 1985.
❖ الداودي،أحمد بن نصر(402هـ) **كتاب الأموال**، تحقيق، شحادة، رضا محمد سالم، ط، دار الكتب العلمية، بيروت 2008.
❖ الدباغ، بن ناجي(ت696هـ)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق، محمد الأحمدي، محمد ماضوى، طبعة القاهرة،1972.
❖ الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد(ق7هـ)، **كتاب طبقات المشايخ بالمغرب**، تحقيق، طلاي، ابراهيم محمد، دون تاريخ طبع.
❖ الديلمي، محمد بن الحسن (ت711هـ)، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه**، صححه، شتروطمان، طبة، مكتبة المعارف، الرياض، دت.
❖ الرقيق، القيرواني(ت ق5هـ)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكعبي، تونس، 1974 .
❖ الزبيدي، أبي بكر محمد بن الحسن الأندلس(ت379هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة،دت.
❖ سحنون، محمد، (ت256هـ)، **كتاب آداب المعلمين**، تحقيق محمود عبد المولى، ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
❖ السلاوي، الناصري(ت1319هـ)، **الإستقصا لدول المغرب الأقصى**، تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، ج1، طبعة، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1955.
❖ السنوسي، علي الخطابي الإدريسي، **الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية**، طبعة، مطبعة الشباب، مصر،1349هـ.

- ❖ الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد(ت928هـ)، **كتاب السير**، تحقيق، محمد حسن، دار طبع، 1995 تونس.
- ❖ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم(ت548هـ) **الملل والنحل**، تحقيق، محمد عبد القادر، الفاضلي، ط، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.
- ❖ الصنهاجي، أبوبكر بن علي(البيدق)(ت555هـ)، **أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق، حاجيات عبد الحميد، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- ❖ الطبري، محمد بن جرير(ت310هـ)، **تاريخ الأمم والملوك**، طبعة، دار الفكر، سنة1979.
- ❖ الغبريني، ابو العباس، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق، عادل نوهيض، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت، 1979.
- ❖ الغزالي ، أبي حامد محمد بن محمد(ت505هـ) ، **إحياء علوم الدين**، ضبط وتدقيق أحمد عناية وأحمد زهوة ، طبعة ، دار الأصالة ، الجزائر ، 2005 .
- ❖ الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية**، تحقيق، عبد الرحمن بدوي، طبعة المكتبة العربية، القاهرة، 1964.
- ❖ القاضي النعمان(ت363هـ)، **افتتاح الدعوة**، تحقيق، فرحات، الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،الطبعة الثانية، سنة1986.
- ❖ القاضي النعمان، المغربي، **دعائم الإسلام**، تحقيق، آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، 1963.
- ❖ القاضي عياض(ت544هـ)، **تراجم أغلبية مستعربة من مدارك القاضي عياض** ،تحقيق، محمد الطالبي، تونس1986.
- ❖ القاضي، النعمان ،**الهمة في آداب إتّباع الأئمة**، نشره، محمد كامل حسن، القاهرة، 1985.
- ❖ القاضي، النعمان المغربي، (ت 363هـ)،"كتاب أساس التأويل" تحقيق، عارف تامر، ط، بيروت،دت.
- ❖ القاضي، النعمان، **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق، الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، ط، دار المنتظر، لبنان، 1996.

❖ القاضي، عياض، الطالبي، محمد، **تراجم أغلبية مستعربة من مدارك** ، تحقيق، محمد الطالبي، تونس،1986.
❖ القاضي،النعمان، **كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة**،تحقيق غالب مصطفى،منشورات دار مكتبة الهلال،سنة1985،بيروت
❖ القيرواني، بن أبي زيد(ت386ه)، **الرسالة في فقه الإمام مالك**، مراجعة، عبد الوارث محمد علي، طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، د .ت.
❖ الكتاني، **الأزهار العطرة**، ط، فاس، طبعة حجرية 1889
❖ مالك بن أنس(ت179ه)، **موطأ الإمام مالك**، رواية يحيى بن يحيى اللّيثي، طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت 2009.
❖ المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد(ت474ه)، **كتاب رياض النفوس**، تحقيق، بشير البكوش، المطوي محمد العروسي، ج2، طبعة دار الغرب الإسلامي1994، بيروت.
❖ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت450ه)، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق، عصام فارس الحرستاني والزغلي محمد ابراهيم، طبعة، المكتب الأسلامي، بيروت، 1996.
❖ مجهول(ق6ه)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق، سعد زغلول، عبد الحميد، ط، دار الشؤون الثقافية، العراق، 1989.
❖ مجهول، **مفاخر البربر**، تحقيق، بوباية عبد القادر، طبعة، دار أبي الرقراق، الرباط، 2005.
❖ المراكشي، عبد الواحد، بن علي(ت669ه)، **المعجب في تلخيص أخبارالمغرب**، تحقيق، صلاح الدين، الهواري، المكتبة العصرية، بتروت،2006.
❖ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت845ه)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج1، ط، القاهرة، 1996.
❖ المقريزي، تقي الدين، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثر الجزء الثاني**، تحقيق، محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، سنة1997،.
❖ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب، ج4**، طبعة، دار الكتب المصرية، 1925.

- اليعقوبي، أحمد بن واضح(284هـ) ، كتاب، البلدان، ط، دار إحياء التراث العربي، 1988
- اليعقوبي، أحمد بن واضح، **تاريخ اليعقوبي، ج2**، طبعة دار صادر، بيروت، دت.

ثانيا : المراجع العربية.

- أبو زهرة ،محمد، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة سنة 1996.
- إحسان إلهي، **ظهير، الإسماعيلية، تاريخ وعقائد**، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، دت.
- إسماعيل محمود، **الأدارسة حقائق جديدة**، طبعة، مكتبة دمبولي، القاهرة،1991.
- إسماعيل محمود، **الحركات السرية في الإسلام**، ط فاس1977.
- إسماعيل، محمود، **الأدارسة**:(172-375هـ)، حقائجديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى،1991.
- الأشقر، عمر سليمان، **تاريخ الفقه الإسلامي**، طبعة، دار الفلاح، الكويت،1991
- ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة، بدوي عبد الرحمن، طبعة دار ليبيا للنشر والتوزيع، سنة، ليبيا1969.

1. باجية صالح، **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى**، طبعة دار بوسلامة، تونس، الطبعة الأولى، سنة1976. البكري، أبو عبد الله، **المغرب في ذكر افريقية والمغرب**، جزء مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، العراق، طبعة جديدة، د، ت

- الباروني، سليمان بن عبد الله، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، القسم2، تحقيق، أحمد كرم وآخرون، طبعة، دار البعث، 2002.
- بحاز، ابراهيم بكير، **الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، طبعة، جمعية التراث، القرارة، 1993.
- بحاز، ابراهيم بكير، **الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، طبعة، جمعية التراث، القرارة،1993.

❖ بحاز، إبراهيم بكير، **القضاء في المغرب الإسلامي**، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر،2006.
❖ بحاز، ابراهيم وآخرون، **معجم أعلام الإباضية**، جمعية التراث، غرداية، المطبعة العربية، غرداية، سنة 1999.
❖ بحاز، ابراهيم، **عبد الرحمن بن رستم**، مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر، ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1990.
❖ بحاز، إبراهيم، بكير،**الدولة الرستمية**، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والفكرية، الطبعة الثانية، نشر جمعية التراث، لقرارة، سنة1993.
❖ بربر محسن،**الإباضية**، طبعة المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، سنة،2004.
❖ بروبية، رشيد، **الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها**، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
❖ بن حمدة، عبد المجيد، **المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الأشعرية**، طبعة، دار العرب، تونس1968.
❖ بن عميرة محمد، **دور زناتة في الحركات المذهبية**، طبعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984.
❖ بورويبة، رشيد، **الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها**، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
❖ التليسي، بشير رمضان، **الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي**، ق4ه/10م، طبعة، دار المدار الإسلامي، ليبيا،2003 .
❖ التهامي، ابراهيم ، **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة**، طبعة، دارالرسالة الجزائر، 2006.
❖ جب، هاملتون، **دراسات في حضارة الإسلام**، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، ترجمة، إحسان عباس، محمد يوسف نجم، محمود زايد،سنة،1971.
❖ الجنحاني، الحبيب، المغرب **الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية ق3-4ه/ 9-10م**، طبعة الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1978.
❖ جهلان، عدون، **الفكر السياسي عند الاباضية**، من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، د، ت.

❖ جودت عبد الكريم، يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)** ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة1992.

❖ جودت عبد الكريم، يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1984.

❖ الحاجري، محمد طه، **مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية**، ط ،1983 دار النهظة بيروت.

❖ حجازي، عبد الرحمن عثمان، **تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول إلى القرن العاشر هجري**، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000.

❖ حسان، عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين، طبعة، دار الشروق،عمان،1997.

❖ حمدي، عبد المنعم، **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ط 1997، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

❖ خضير، بن بكير بابا وأعمر، **الإمام إسماعيل الجيطالي وفكره العقدي**، المطبعة العربية، غرداية 2003.

❖ خليفات، عوض ، **نشأة الحركة الإباضية**، طبعة، عمان، سنة،1978.

❖ خليفات، عوض، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في افريقية في مرحلة الكتمان، طبعة مجدلاوي، عمان، 1982

❖ داود بن يوسف، سليمان بن الحاج ، **ثورة أبي يزيد، جهاده لإعلان كلمة الله**، دار البعث،قسنطينة،الجزائر، ط.1981

❖ روجي إدريس، الهادي، **الدولة الصنهاجية**، ج1، ترجمة، حمادى الساحلي، طبعة، دار الغرب الإسلامي 1992.

❖ الريس، محمد ضياء الدين، **النظريات السياسية الإسلامية**، ط6، مكتبة دار التراث، القاهرة، سنة 1976.

❖ سعدون، عباس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، طبعة، دار النهضة، بيروت، 1985.

❖ السيد عبد العزيز سالم، **المغرب الكبير**، العصر الإسلامي، طبعة، دار النهضة العربية،1981.

❖ سير توماس، أرنولد، **الدعوة إلى الاسلام**، ترجمة، حسن إبراهيم حسن، عابدين عبد المجيد، طبعة مكتبة النهضة المصرية، 1970.

❖ شاوش، محمد بن رمضان، **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي**، المطبعة العلوية، مستغانم،1966.

❖ الطالبي محمد، **الدولة الأغلبية**، التاريخ السياسي(184-296هـ/800-909م)، تعريب المنجي الصيادي، طبعة، دار الغرب الإسلامي،1995.

❖ الطالبي، محمد، **الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي(184-296هـ/800-909م)** تعريب، المنجي الصيّادي، طبعة، دار الغرب الإسلامي، سنة 1995.

❖ طالبي،عمّار،**آراء الخوارج الكلامية،ج1، الموجز لأبي عمّار عبد الكافي**، طبعة، الشركة الوطنية للنشر التوزيع، وتوزيع، الجزائر،1978.

❖ طعمية، صابر، **الاباضية عقيدة ومذهباً**، طبعة الجيل، بيروت،1986.

❖ طقوش، محمد سهيل، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، طبعة ، دار النفائس، بيروت 2005.

❖ طه، الولي، **القرامطة**، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت،1981.

❖ العابدين، بن حنيفة، **العجالة في شرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني**، ج1، طبعة، دار الإمام مالك2006.

❖ عارف، تامر، **تاريخ الإسماعيلية، الدعوة والعقيدة**، ط1، دار رياض الريس، قبرص، 1991.

❖ العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب،طبعة**، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007.

❖ العقل، ناصر بن عبد الكريم، **مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة**، طبعة، دار الوطن للنشر، الرياض، سنة1411هـ.

❖ علاوة عمارة، **دراسات في تاريخ المغرب الوسيط للجزائر** والغرب الإسلامي، طبعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008.

❖ عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط1 1993.

- ❖ عمر موسى، عز الدين، **الموحدون في الغرب الإسلامي** طبعة ،دار الغرب الإسلامي،1991.
- ❖ القصير، سيف الدين، **ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن**، ط، دار الينابيع، دمشق، 1993.
- ❖ قلهزون، يوليوس، **أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة**، ترجمة، عبد الرحمن، بدوي(1958) طبعة، مكتبة النهضة المصرية،1958.
- ❖ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية، أمين فارس، منير البعلبكي، مطبعة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1948.
- ❖ كودري، محمود حسين، **الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السودان الغربي(ق2-8هـ)**، طبعة دار الكتب، بنغازي، ليبيا، 2008.
- ❖ كوربان هنري، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، منشورات عويدات، بيروت، باريس، طبعة، سنة 1983.
- ❖ لطفي، عبد الوهاب يحيى، **العرب في العصور القديمة**، طبعة، دار النهضة العربية، بيروت،1979 .
- ❖ لقبال موسى، **المغرب الإسلامي**، طبعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة، 1984.
- ❖ لقبال موسى، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**، طبعة2007، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر2007.
- ❖ متز، آدم، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، الجزء الثاني، طبعة الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، 1986.
- ❖ المجدوب، عبد العزيز،**الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، طبعة الدار التونسية للنشر،1975، (د.ت)
- ❖ محمد عزّت، محمد زينهم، **الإمام سحنون**، طبعة، دار الفرجاني، القاهرة، 1992.
- ❖ مزهودي، مسعود، **الإباضية في المغرب الأوسط من سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب**، المطبعة العربية، القرارة، الجزائر،1996.

- معمر، علي يحى، الاباضية، **دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم**، المطبعة العربية، غرداية، 1985.
- معمر، علي يحيى، **الاباضية، في موكب التاريخ، ج1**، طبعة، مكتبة وهبة، القاهرة، دت.
- مغزاوي، مصطفى، البعد السياسي في انشار المذهب الأشعري في المشرق الاسلامي ومغربه، طبعة، كنوز الحكمة ن الجزائر، 2011.
- مغزاوي، مصطفى، **التحولات المذهبية في المغرب الاسلامي والأندلس خلال العصر الموحدي(6 -8 هـ / 11 - 13 م)** اطروحة دكتوراه ،مرقونة، بإشراف خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة ، الجزائر، 2011 - 2012.
- منّاع، القطان، **تاريخ التشريع الإسلامي**، طبعة، مكتبة، المعارف، الرّياض،1969.
- ناصر بن سليمان بن سعيد السابعي، **الخوارج الحقيقة الغائبة**، مطابع النهضة، عمان، سنة2003.
- ناصر، محمد صالح، **منهج الدعوة عند الإباضية**، طبعة، مكتبة الاستقامة، عمان، سنة2002.
- النجار، عبد المجيد، المهدي بن تومرت، **حيات هوآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب**، طبعة، دار الغرب الإسلامي، 1983.
- الهنتاني، نجم الدين، **المذهب المالكي بالغرب الإسلامي**، طبعة، تبر الزمان، تونس، سنة،2004.
- الهواري، هود بن محكم، الأوراسي، **تفسير كتاب الله العزيز**، تحقيق، شريفي، بالحاج بن سعيد، طبعة، دار البصائر، الجزائر،2005.
- الوهبي، مسلم بن سالم بن علي،**الفكر العقدي عند الاباضية حتى نهاية القرن الثاني الهجري**، طبعة المكتبة الضامري، عمان،2006.
- يوسف، بن أحمد حواله، **الحياة العلمية في إفريقية «المغرب الأدنى» منذ تمام الفتح حتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90-450هـ)** ، طبعة، جامعة أم القرى .2000

ثالثا : الـرسائل الـجامعية والدوريات.

1 _ الرسائل الجامعية.

❖ بن معمر، محمد، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط السادس الهجريين، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة، إشراف غازي جاسم الشمري، جامعة وهران، 2001–2002.

❖ بوخالفة نور الهدى، **أنساب القبائل العربية المهاجرة بمواليها إلى بلاد المغرب في القرون الأربعة الأولى**، رسالة مرقونة، إشراف، فخار إبراهيم، جامعة وهران، سنة 1995.

❖ سايح، دين، **حركة التعليم بالمغرب الأوسط خلال القرن الثالث الهجري/9م**، رسالة ماجستير مرقونة، إشراف، بلعربي خالد، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، 2009–2010.

❖ سبع، قادة، **المذهب المالكي بالمغرب الأوسط في منتصف ق5هـ/11م**، رسالة ماجستير ،(مرقونة)، جامعة وهران،2003/2004.

❖ مغزاوي، مصطفى، **التحولات المذهبية في المغرب الاسلامي والأندلس خلال العصر الموحدي(6 -8 هـ / 11 - 13 م)** اطروحة دكتوراه ،مرقونة، بإشراف خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة ، الجزائر، 2011 - 2012

❖ ملاح، الهواري، **انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد المغرب خلال ق2هـ**، رسالة ماجستير، (مرقونة)،إشراف، بن نعمية عبد المجيد، جامعة وهران .1999–2000م.

ملياني، زينب، **التصوف في المغرب الاسلامي في عصر المرابطين والموحدين**، رسالة ماجستير مرقونة، تحت إشراف، محمد الأمين، بالغيث، جامعة الجزائر، 2000.

2 _ الـــــدوريات.

❖ احسان، عباس، المجتمع التاهرتي، في عهد الرستميين، **محاضرات ومناقشات الملتقى 11 للفكر الإسلامي**، ورجلان، فبراير1977، المجلد الأول، منشورات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر.

- ❖ إحسان، عباس، مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، **مجلة الأصالة**، العدد41، السنة1977، الجزائر.
- ❖ بالهواري، فاطمة، "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي في بلاد المغرب"، **مجلة عصور**، العدد 2003/3.
- ❖ بحاز، ابراهيم، الميزابيون المعتزلة، قراءة جديدة لنصوص قديمة، **مجلة الحياة**، العدد1، المطبعة العربية، القرارة، الجزائر،السنة1998.
- ❖ بلغراد، محمد، الحركة الاباضية في تاهرت وسدراتة، **مجلة الأصالة**، الجزائر،1977 العدد،41.
- ❖ بن معمر، محمد، "زيري بن عطية المغراوي ومشروع الدولة الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى(368-391هـ)"، **مجلة عصور**، العدد 5/4 ديسمبر 2003 جوان2004.
- ❖ بونابي، الطاهر، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الاوسط ، **حوليات التراث**، العدد 2004/02.
- ❖ حاجيات عبد الحميد، ملاحظات حول الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين، **مجلة كلية الآداب**، العدد الأول، المجلد الثاني، نوفمبر، 2000.
- ❖ داود بن يوسف،سليمان،مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الإسلامية وتركيزها، **محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر**، للفكر الإسلامي،ورجلان و06-15فبراير1977 المجلد الأول، منشورات الشؤون الدينية،الجزائر .
- ❖ لقبال، موسى، الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/10م، **مجلة الأصالة**، العدد60-61، السنة 1978، الجزائر، ص57.
- ❖ النامي، عمرو خليفات، ملامح الحركة العلمية بورجلان ونواحيها من انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري، **محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي**، ورجلان 1977، المجلد الأول منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.

رابعا: المراجع و الدوريات الأجنبية.

- A.Beaumier, Histoire du souverains du Maghreb et annals de la ville de fez,edition ,L' imprimerie Imperial, Paris
- Dhina ,Amar ,cités Musulmanes d'Orient et d'Occident, Entreprise National du livre, d'Alger,1986
- Ernest Mercier, L'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Français 1830,Tome, second, Paris, Editeur Ernest Leroux,1868 et 1888.
- Eugène , Guernier, la Berbère l'Islam et la France ,Tome Premier , édition, de l'Union Française, Paris,1950.
- Gautier ,E ,F , le Passé de l'Afrique du Nord ,les siècles obscures , édition, Petite Bibliothèque, Payot ,Paris, 1964.
- Glaude Bavard : La civilisation urbaine du m'zab swed Alger
- Golven,Lucien, Le Maghreb Central à l'époque des Zirides,édition, Paris,1957.
- Lewiki ,T, Mélanges, Berbéres - Ibadites, Revue des études Islamiques, Anné1936, cahier3, Paris
- Marçais G et S, Gsell : Histoire d'Algerie , Ancienne Librairie Furne,Paris 1929.
- Marçais G : la berbérie Au IX siecle d'après El-Yaquoubi ,Extrait de la Revue Afrécaine (R-A) n 386-387,1 et 2 trimestre,T86, Alger,1941.
- Marçais, William, Articles et Conférences, Edition, librairie d'Amérique et d'Orient Maisonneuve, Année d'édition, 1961.
- Marguerite,van berchem : Deux compagnes de fouilles à sedrata, (1951_1952) travaux de L'institut de recherches Sahariennes T10_1953.
- Tadeusz ,Lewicki ,l'Etat nord- Africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8eme au 9e siècle, source :Cahier d'Etudes Africaines, vol 2,cahier 8 ,année 1962 ,P513-535.
- Tadeuz,Lewicki,De quelque textes Inédits en vieux Berbère,revue des Etudes Islamiques(R,I), T3,Librairie Orientaliste,Paris,1934.

قائمة الفهارس

الفهارس

1 _ فهرس الأعلام

أ

2 _ فهرس القبائل والطوائف والفرق

3 _ فهرس الأماكن والبلدان

ك

ل

م

الفهرس العام

الفصل الأول

الفصـــل الثـــاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع